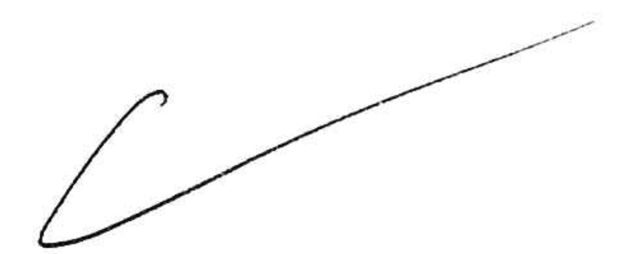
الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا

المملكة العربية السعودية
وزارة المعارف
المكتبة المدرسية



إلى نهاية القرن الثالث الهجري

مؤسسة الرسالة
دار النفائس



شعر الطّرَدِ

المملكة العربية السعودية
وزارة المعارف
المكتبات المدرسية

الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا



شعر الطرد

إلى نهاية القرن الثالث الهجري

بحث أعد للحصول على درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة ونال مرتبة الشرف الأولى .

مؤسسة الرسالة

دار النفائس

الطبعة الأولى

١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م

الطبعة الثانية

١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

توقفت كثيراً حين عُرِضَ عليّ العمل في شعر الطَّرَدِ ، ووجدتُ نفسي تتَرَدَّدُ بين إحجامٍ يَثنِيني وإقدامٍ يُغريني .

كان يثنيني عن الموضوع أنه وَحشِيٌّ بعيدٌ عن مواطن اهتمامي ، فما أنا بالصائد ، ولا أنا بالذي بينَه وبينَ حياةِ اللهوِ سببٌ أيُّ سبب .

وكان يغريني بالموضوع أنه بِكْرٌ لم تَمْسَسْه يَدٌ قبلَ يدي، مما يُتيحُ لي مِتْعةَ الرِّيادة ولذة الكشف وتذليل الصعاب .

وما زلت على حالي هذه حتى أُتيحَتْ لي رحلة صيد في أعالي نجد من الجزيرة العربية .

كان الربيع إذ ذاك يَنْشر رداءه الأخضر النديّ على الفلوات فيبعَثُ في كل حبة من حبات رمالها حياة ، ويبث في كلّ كثيب من كثبانها عطراً ، ويملأ كل غدير من غدرانها ماءً ونماءً .

كنّا إذا ما تنفس الفجر ننهض من خيامنا ونحن أشد ما نكون نشاطاً وتوثباً فنقضي المكتوبة ، ونصيب كوباً من لبن النوق ؛ ذلك لأن الصائد ـ كما قالوا ـ لا ينبغي له أن يملأ جوفه من الطعام ليبقى خفيف الحركة مشبوب النشاط .

وعند ذلك كانت تسرج لنا الخيول من كل طرف مطهم الجسم صافي الأديم أغر الجبهة تعرف في صهيله العتق والكرم .

وتعد لنا الصقور من كل جارح حديد البصر ، شديد المرة ، معود على الظفر ، وتهيأ لنا الكلاب من كل ضامر الخصرين ، أغضف الأذنين ، يمرح في إهابه ، وينتزع المقود من كلابه .

وكانت تواكبنا شاحنة فيها ما لذ وطاب من الطعام والشراب ، كنا نصيد ما نصيد حتى إذا متع النهار وارتفعت الشمس ملنا إلى خيامنا موقرين بحليل الصيد من كل طائر شهي اللحم أو وحش مكتنز الجسم ، وعند ذلك تعد الطرائد وتوقد النيران ، وتتصاعد روائح الشواء في عرض الفضاء ، ويقبل الصحب على الطعام ينهشون ، وينهسون وهم يذكرون آلاء جوارحهم ، ويثنون على ضواريهم .

وقضينا أياماً سبعة شعرت خلالها بعمق لذة الصيد ، وأدركت ما فيه من متع تشد أصحاب القنص إلى قنصهم ، وتجعلهم يقضون في رحلاته أجمل لحظات الحياة ، ويبذلون في سبيله منفس المال .

فهي عندهم رحلات فروسية ، فيها رياضة للجسم ، وراحة للنفس وشحذ للعقل ، ودواء من الهموم .

كانت تلك الأيام السبعة غنية بالمتع حافلة بالمسرات ، فقد كان للتغليس

صيده ؛ ذلك بأن الطرائد تكون في ساعاتِ البكور قد هدأت وربضت للنوم فتستثار وفي عيونها سنة الكَرَى ، فلا تَقْوَى على المجالدة .

وكان للأصيل صيده أيضاً ، فالطيور التي غَدَت مع الصباح خِماصاً عادت مع المساء بِطاناً ثقيلة الحركة بطيئة الطيران قليلة القدرة على المطاردة .

وكان الليل للراحة والسمر .

حَسَمَتْ هذه الرحلة الأمر ، وقطعتِ التردد ، وجعلتْني أقدم على الموضوع بأسم الله وعلى بركته ، وبدأت أعد له عدته وأرسم منهجه فجعلته في سبعة فصول ، وقد خصّصت الفصل الأول للحديث عن فن الصيد ومقوماته وفوائده ولذاته وطرقه وأدواته وحاجة الصائد إلى المعرفة بطبائع الحيوان الصائد والمَصِيد .

وقد دفعني إلى كتابة هذا الفصل اعتقادي بأن شعر الصيد بعامة وشعر الطرد بخاصة لا تُفهَمُ معانيه حقَّ الفهم ولا تتضح صوره تمام الوضوح ما لم يقف دارسه على الصيد ووسائله ويُلِمّ بجوارحه وضواريه .

فهذا الشعر في جملته وصفٌ للصيد في حالاته المختلفة ، وكيف يستطيع المرء أن يدرك الصفة وهو لا يعرف الموصوف، ومن أين له أن يتذوق النعتَ وهو خالي الذهن من المنعوت ؟!

وما إن شرعت في إعداد هذا الفصل حتى وجدت في عالم الحيوان الصائد والمصيد من عجائب صنع الله وبدائع خلقه ما أغراني به إغراءً لا طاقة لي بدفعه .

فعزمت على إعداد كتاب مستقل في الصيد لشعوري بأن المكتبة العربية خالية من سفر جامع لشتات هذا المبحث مكتوبٍ بلغة العصر يحقق لقارئه الفائدة والمتعة في وقت معاً ، وإني لأسأل الله العلي القدير أن يعين على إعداده وإخراجه في أقرب فرصة .

أمـــا الفصل الثاني فتحدثت فيه عن الصيد عند العرب في الجـــاهلية وأوضحت من خلاله مبلغ عنايتهم بالصيد ومدى اهتمامهم بالقَنَص .

وأمـــا الفصل الثالث فخصَّصته للحديث عن شعر الصيد قبـــل ظهور الطرديات ، وقد دفعني إلى كتابة هذا الفصل رغبتي وَقِفْفِ القـارىء على الفرق الكبير بين شعر الصيد الذي كان يرد في ثنايا القصيدة التقليدية القديمـة ويُعَدُّ فقرة على فقراتها اللازمة وبين شعر الطـَّرَدِ الذي غدا فناً تاماً بذاته، ولأمَكِّنَنَه من الموازنة بينهما ، ولأطلعه على خصائص كلّ منهما .

أما الفصل الرابع فجعلته لنشأة شعر الطرد زمن بني أمية ، وقد قدمت له بكلمة وافية عن العوامل التي أدت إلى ظهور ذلك الفن في هذا العصر .

ثم ترجمت لاثنين من كبار شعراء الطرد في عصر بني أمية هما :

أبو النجم العجليُّ ، والشمردل اليربوعيُّ ، ودرست ما عثرت عليه من طردياتهما ، وعَقَّبْتُ عليها بكلمات تبرز خصائص شعر الطرد عندهما وتبين أثر كلٍّ منهما في نشأة هذا الفن .

أما الفصل الخامس فجعلته للحديث عن ازدهـار شعر الطرد في القرن الثـاني الهجري ، والعوامل التي أدت إلى ذلك ، ثم ترجمت لأبي نواس رائد هذا الفن الشعري في هـــذا القرن ودرست طردياته جميعها دراسة وافية ثم تحدثت عن خصائصها من النواحي المعنوية واللفظية والتصويرية والموسيقية .

أما الفصل السادس فتحدثت فيه عن اتساع شعر الطرد في القرن الثالث الهجري ، وأبَنْتُ فيه كيف غـــدا الطرد باباً كبيراً من أبواب الشعر في

العصر العباسي ، وكشفت عن العوامل التي ساعدت على ذلك ، ثم ترجمت لأربعة من أعلام شعراء الطرد في هذه الحقبة هم : **عبد الصمد بن المعذّل ، وابن أبي كريمة ، والناشيء ، وابن المعتز** ، ودرست جميع ما وقعت عليه يدي من طردياتهم وقوّمتها ووضعتها في موضعها اللائق من ديوان الشعر العربي الكبير ، وذلك بعد أن وفيت القول في خصائص شعر الطرد عند كلٍّ منهم .

وأمّا الفصل السابع فقد رصدت فيه الخصائص العامّة لشعر الطرد من معنوية ولفظية وتصويرية وموسيقية .

وبعد فإن واجب عرفان الجميل يقتضيني أن أتوجه بأجزل الشكر وأوفاه للسيد الأستاذ الدكتور شوقي ضيف .

فقد حبَاني من سديد توجيهه ، وجليل عونه ، وجميل شمائله ما يَسّر لي كل صعب ، وذلل أمامي كل عسير .

وأني لأسأل الله أن يَفْسَحَ في أجله وأن يملأ بالصالحات أعماله وأن يقدرني على رَدّ جميله إليّ في شخص طلابي ، فما أنا بالقادر على ردّه إليه .

والله من وراء القصد ؛ فهو الذي يسدّد خطانا في دروب الخير ويهدي سبيلنا إلى الرشاد .

الفصل الأول

فن الصَّيد

١ – فوائد الصيد ولذاته :

الصيد قديم قدم البَشَرِ على سطح الأرض ، فالإنسان منذ وجد على ظهر المعمورة دَفَعَتْهُ غرائزه وحاجاته إلى البحث عن طعام يغتذيه ، ومسكن يؤويه ، ومورد يرتزق منه ، فاصطاد ليأكل ، وبنى ليستظل ويسكن ، ثم فكَّر بعد ذلك فيما يزرعه ويغرسه ، ولذا قال أرسطو : « إن الصيد أول الصناعات اللازمة لبقاء الإنسان ثم يليه البناء والفلاحة »[1].

بَيْدَ أن إقامة الأود وسدّ الرمق ليسا السببين الوحيدين في مزاولة الإنسان للصيد وإقباله عليه ، وإنما هناك أسباب أخرى هي ما يَجِدُهُ الصائد في القنص من متعة وما يحسه فيه من لذة قلما يلقى لها نظيراً في غيره من الهوايات .

---

(١) انظر الجمهرة في البيزرة : الورقة ٤٢ .

فقد أجمع أهل النظر على أن الصيد ألذُّ ما عرفه الإنسان من الصناعات وأجله وأطيبه وأقربه إلى طبيعة الإنسان ، ووجدوا أن قلوب سائر البشر تُسَرُّ به وتميل إليه [١] ، وإنْ كان سكان البادية والأطراف أشدَّ ولعاً به لمصاقبتهم للوحش ومنازلتهم إياها ، مما يحملهم على الدوام لها ذاكرين ، وبها متمثلين ، ومنها طاعمين [٢] . ولعلَّ السر في تعلق الإنسان بالصيدواستمتاعه به هو أن النفس البشرية فُطِرَتْ على تتبع مــا عَزَّ عليها ، وجُبِلَتْ على الولوع بما بَعُدَ عن منالها فإذا ظفرت به بعد الجهد الجاهد ونالته غِبَّ الحيلة المضنية كانت لذتها بالظفر به أكبر من لذتها بما انقاد لها بسماحةويُسْر ، وجاءها طوعاً يسعى إليها على قدميه .

ولو أن قائداً من المظفَّرين الفاتحين هَلَكَ عَدُوُّه قبل أن ينازله ، أو انخذل قبل أن يحاربه فجَاءَهُ ضارعاً إليه طالباً أمانَه ، مــا كان مقدارُ سروره بذلك كما لو نازله فقهره أو بارزه فــأسره ، ولو أن ملكاً أُهْدِيَ إليه في كل يوم عشرات الطرائد من جليل الطير وعظيم الوحش لم يبلــغ سرورُه بذلك جزءاً يسيراً من اغتباطه بقُبَّرة [٣] ضئيلة يدأب في صيدها أو عِكْرِشة هزيلة [٤] يظفر بها .

ولو أن الصيدَ وقع في يد طالبِه لأول وهلة لنقصَ ذلك من لذته بنيله ومتعته بالظفر به [٥] .

ولا فرق في الاستمتاع بالصيد بين العظماء والدهماء ، ذلك بــأنه يغدو

---

(١) انظر الجمهرة في البيزرة : الورقة ٤٠ .
(٢) انظر البيزرة : ٣١ .
(٣) القبرة : بضم القاف وتشديد الباء ضرب من صغار الطير قليل الغناء .
(٤) العكرشة : أنثى الأرنب .
(٥) البيزرة : ٢٤ .

للقنص رجلان متفاوتان : صُعْلوكٌ ممزق الأردان وملك عظيم السلطان ، فينكفيء الصعلوك غانماً ويرجع الملك غارماً ، غير أنهما يشتركان في متعة الصيد ولذة الظفر [1] . والفرق بين الملك المتصيد والقانص المتكسب هو أن الملك يطارد الوحش بخيله وجوارحه وضواريه ولا يطلب غفلاتها ولا يغتنم غرّاتها وإنما يكافحها مكافحةً وينازلها منازلةً ، أما القانص المتكسب فيغتالها بشراكه وحبائله ويخفي شخصه عنها في القترة [2] ، والناموس ، ويدفن صوته في صدره ، ويُسْكِتُ نأْمَتَه ، حتى ليصح فيه قولُ رؤبة [3] :

* فبات لو يَمْضَغُ شَرْياً [4] ما بصقْ * [5]

ثم إن الصيد إلى جانب ما يحفل به من مُتَعٍ ولذاذات تتحقق فيه للصائدين عظيم الفوائد وجليل المنافع ، وليس هو – كما يزعم بعض الزاعمين – ضرباً من ضروب الترف وباباً كبيراً من أبواب اللهو يَسْلُكُ الملوك وذوي السلطان مع أرباب البطالة فيفني أعمارهم فيما لا ينفع ، ويستنفد طاقاتهم بما لا يجدي ويَشْغَلهم عما ناطه الله بهم من شؤون البلاد والعباد .

ذلك بأن الصيد إذا مارسه صاحب السلطان في اعتدال ، ولم يعطه من وقته أكثر مما يستحق ، وأحلّه من حياته في المكان اللائق أفادَ منه أجلّ الفوائد وعاد عليه بأعظم المنافع .

فهو بالنسبة إلى الملوك والقوّادِ والولاة لونٌ من ألوان الحرب في زمن السلم يتمرسون به على ركوب الخيل صعوداً وانحداراً ، وكرّاً وانكفاءً

---

(1) أنظر البيزرة : ٢٠ .
(2) القترة والناموس : مختبأ الصائد ، وهما كالغرفة يكمن فيها ليصيد .
(3) انظر لسان العرب : (شرى) .
(4) الشري : الحنظل .
(5) انظر المصايد والمطارد : ١٥ .

وتعطفاً وانثناءً ، وهو يليّن معاطفهم ، ويشحذ هممهم ويعلي عزائمهم ، ويحلّيهم بالصبر والأناة ويعلمهم الاحتيال على الخصم ، ويمرّن خيلهم بالطراد. ثم إنه يذهب بهمومهم ويكفّهم عن المحرمات ، ويتيح لهم اللذة المباحة ، ويمكنهم من أن يروا أطراف مملكتهم وييسّر لهم أن يختلطوا برعيتهم وأن يروا من شأنها ما لا يقع لهم لو ظلوا قابعين بين جدران قصورهم .

وهو إلى ذلك يحلّل فضول أبدانهم ، ويزيل عنها بالحركات ما يصيبها من الأوجاع ، ولذا قيل : « قلما يعمش ناظر زهرة أو يزمن مبتغي طريدة »[1] .

ثم هو ، بالنسبة إلى غير الملوك ، سبيلٌ من سبل العيش الكريم ووسيلة إلى كفّ النفس عما في أيدي الناس ، وحقن ماء الوجه وصونه .

فما أكل ابن آدم طعاماً أهنأ ولا أمرأ من كدّ يمينه . ولعل أجمل ما قيل في كسب العيش من كدّ اليمين في الصيد ونحوه ما قاله أحدُ العلماء يستعفي من هدية جاءته من أحدِ الرؤساء :

قد جاءت الورِقُ التي وقّرتها والريمُ والسّرجُ المحلّى والفرسْ
والبغلة السّفواء[2] والخِلَعُ التي كانت كعِرضك ليس فيه من دنسْ
لكنْ أبت لي أن أروحَ وأغتدي كَلاً[3] على الإخوان أخلاقي الشّمسْ[4]
لا أستلِذُّ العيشَ لم أدأبْ له طلباً وسَعْياً في الهواجِر والغلَسْ

---

(١) انظر البيزرة : ١٨ ، ١٩ ، ٢٤ وأنس الملا : ١٨ و ١٩ .

(٢) السفواء : قليلة شعر الناصية ، والسريعة .

(٣) الكل : الثقيل لا خير فيه .

(٤) الشّمُس : الصّعبة الشديدة الإباء .

وأرى حراماً أن يواتيَني الغنَى حتى يُحاوَلَ بالعناء ويُلتَمَسْ
فاحبس نوالك عن أخيك مُوَفَّراً فالليثُ ليسَ يُسيغُ إلاّ ما افترَس[1]

ثم أن أشرَف الغذاء وأسرَعه هضماً اللحمُ، وأفضلُ اللحومِ مااستدعته الشهوة ، وليس هناك أدعَىٰ للشهوة وأسرع في الهضم من لحم الصيد المطرود المكدود ، لأن ذلك ينضجه ويُهْرِئه ويبعث في النفس من الشهوة إليه والتشوُّف له ما لا يكون لغيره من المطاعم ، فإذا وافى المعدَة بعد هذه المقدمات استمرأتْه في أسرع وقت ، وكان ذلك سبباً في تغيير طبعه – إذا كان غليظاً – وَنفْي ضرره – إن وُجِد فيه شيء من الضرر[2] .

٢ – حاجة الصائد إلى المعرفة بالحيوان وطبائعه :

سخَّر الله الحيوان للإنسان ، وجعله متاعاً له وزينة ، فبعضٌ يمتطيه ، وبعضٌ يقتنيه ، وبعضٌ يغتذيه .

وأحَلّ له صيد البر والبحر والجوّ ، فهو يقتنص الوحش من المكانِس ويحُطّ السباع من المعاقل ، ويستنزل الطير من الهواء ، ويستخرج الحوت من الماء .

ويَسّرَ له الصيد وسهَّل أمامه سبله ، فخلق له من الحيوانات أنواعاً أغراها بغيرها ومنحها من آلة الخِلْقَة وسلاح البُنْيَةِ وقبول التأديب وحُسن الآلة وكمال الاستجابة مالا يخطر ببال كالفهد والبازي ونحوهما من الضواري والجوارح .

وَحبَاه من العقل ما مكّنه من التغلّب على أقوى الحيوانات وتأنيس

---

(١) البيزرة : ٢٧ .
(٢) البيزرة : ٢٢ .

وحشيِّها وتضرية سباعها وتسليط بعضها على بعض وجني ثمرات ذلك لنفسه ولمن معه .

غير أنّ الصائد لا يستطيع الإفادة من هذه النعمة – نعمة تسخير الحيوان للإنسان – ما لم يقف على طبائع الحيوانات ويدركْ مواطن قوتها ، وأماكن ضعفها ، فقد أودع الله فيها من عظيم الصنعة وحبّاها من غريب المعرفة ما جعل صيدّها والانتفاع بها وقفاً على من يعرفها حق المعرفة ويدرك كنهها تمام الإدراك .

« فلكل صنف من أصناف الحيوان أحتياطٌ وَتَدبيرٌ وروَغان من الباغي عليه ، واحتيالٌ لأمره ، فهو يحتال لما هو دونَه ليصيده ، ويحتال لما هو فوقَه ليسلم منه ، ويختار الأماكن الحصينة ويعتصم بها ما منعته فاذا أنكرها استبدل بها غيرها »[2] .

ثم إن لكل صنفٍ من الجوارح ضرباً من الطرائد ترومه وتبتغيه وضرباً تخشاه وَتَتقيه[3] .

وطبيعة الحيوان بعامة تقوم على ثلاثة أمور : أولها طلب القوت لِسدّ الرمق وحفظ الجسد ، وذلك يدفعها إلى الاحتيال لكسب الرزق .

وثانيها : استشعار الحذر توقياً للمخاطر ، وثالثها الكَيْدُ حرصاً على السلامة والبقاء وحفظ النوع .

---

(١) انظر البيزرة : ٢٢ .

(٢) انظر الحيوان : ٧ / ٥٥ .

(٣) انظر الحيوان : ٧ / ٦١ .

بيد أن هذه الامور الثلاثة لا تتوافر دائماً لسائر الحيوانات ولكنها توجد دائماً في كل إنسان [١] .

والعداوة بين الحيوانات نوعان : حقيقية وعارضة ، أما الحقيقية فهي التي تكون بين الحيوانات الآكلة والحيوانات المأكولة ، والصنف الأول أكثر حيلة وأبلغ مكيدة وأحَدُّ شوكة . أما الصنف الثاني فهو أكثر خوفاً وأشد تحفظاً، ومن هنا كان الحذر آصَلَ في طبائع المأكولات ، لاستغناء الآكلات عنه وقلة حاجتها إليه [٢] .

أما العداوة العارضَة فهي التي تقوم بين ذكور النوع الواحد بسبب الصراع على الإناث .

هذا وإنّ لكل صنف من الحيوانات الآكلة صنفاً تُغْرَى به من الحيوانات المأكولة فهي إليه أسرع وعليه أقدر [٣] .

وعلى الصائد أن يكون واقفاً على ذلك كله واضعاً نصب عينيه الإفادة منه بحيث يرمي كل صنفٍ بحجره ويواجه كل مرغوب براغبه ولا يحمل جارحاً أو ضارياً على خلاف طبعه ولا يكلّفه فوق طاقته ، فلا يُطْلِقُ البازي على الكركي [٤] ولا يُرْسل الكلب على الأيل [٥] ولا يبتغي الثور الوحشيّ بالفهد ، وإنما يسلط جوارحه وضواريَه على الطرائد التي هي دونها قوة وأقل منها قدرةً ليحتفظ بشهوتها للصيد ويستبقيَ حرصها عليه ، فلا تزال مشبوبة

---

(١) انظر المصايد والمطارد : ٤١ .

(٢) انظر المرجع السابق .

(٣) انظر المرجع السابق : ٤٢ .

(٤) الكركي : طائر من أعظم الطير في حجم الاوزّة .

(٥) الأيّل : صنف من البقر الوحشي قريب من الظباء .

القدرة موفورة الضراوة عظيمة الثقة بنفسها ، وهذا مِلاك أمر الصيد وغاية المعرفة به ونهاية الحزم فيه [1] .

ثم إنه لا بدّ للصائد من أن يعلم أنّ لكل حيوان سلاحه الذي يدافع به عن نفسه ويصول به على عدوّه وأنه إذا ما استشعر الخطر فزع إلى سلاحه كما يفزع المقاتل إلى سيفه، فالحبارَى تعلم أن سِلاحها في سُلاحها[2] لذا فهي تحتفظ به في خزانة في جوفها وتعرف أنّ فيه من اللزوجة والتدبيق الشيء الكثير ، فإذا رامها الصقر يبتغي صيدهـا قذفت به عليه فيلتصق بعض ريشه ببعض ويتكتّفُ جناحاه حتى لا يستطيع حراكاً فتجتمع عليه الحباريات وينتفن ريشه ريشةً ريشةً حتى يَعْرَى ويموت [3] .

والصقر يعرف ذلك من الحبارى ، فهو لا يزال يلقاها عن جنبها ويدخل من تحتها [4] ويعلو فوقها حتى تقذف ذُرْقَها ، فإذا قذفته ولم تصبه انقضّ عليها وأخذها .

والكلب والذئب يعلمان أنّ سلاحهما في شدقيهما والثور والأيّل يعلمان أن سلاحهما في قرونهما لا سلاح لهما غيرها ، فإذا سقطت قرون الأيّل استتر عن الحيوانات وتحاشَى أماكن وجود القانصين إلى أن تنبت قرونه [5].

والأسد يعلم أن سلاحه في قوّةِ لبدته ، وبُعْدِ وثبته ، وحِدّة مخلبه ،

(١) انظر المصايد والمطارد : ٤٢ .

(٢) سلاحهـا : السلاح بالكسر اسم جامـع لآلات الحرب ، يذكر ويؤنث والسلاح بالضم : سلح الطائر وذرقه .

(٣) الحيوان : ٧/٦٠ .

(٤) المصايد والمطارد : ٨٥ .

(٥) المصايد والمطارد : ٤٣ .

وعَضة نابه ورهبة زئيره وتوقّد عينيه وما له في صدور الإنسان والحيوان من الرهبة ، وأنه يملك مع ذلك القدرة على اللصوق بالأرض وحبس عَدْوه بإحدَى يديه ودقّ عنقه وحَطْمَ صلبه باليد الأخرَى إلى ما يتحلّى به من سرعة العدو والصبر على الجوع واحتمال الظمأ (١) .

وليس في الحيوان ما هو أردأ حيلةً وأقلُّ قدرةً في الدفاع عن النفس من الغنم ، ذلك لأن الله جعلها لكفاية الناس ووصلها بحاجاتهم (٢) .

ولا بُدّ للصائد من أن يعلم أن في الحيوان من الذكاء والفطنة ما هو كفيل بدفع الشرّ عنه وجلب الخير له لذا كان عليه أن يفطن لفطنته وأن يحسب حساباً لذكائه .

فالذئب مثلاً إذا خَفِيَ عليه موضع الغنم عوى ليعلن عن مكانه فإذا سمعت الكلاب عواءه وخفّت إليه تروم افتراسَه راغ عنها إلى جهة الغنم التي ليس فيها كلب وافترس من الشياه القاصية .

وهو أكثر ما يعترض الغنم وقتَ الصباح عندما تكون الكلابُ قد استسلمت للنوم بعد سهر الليل الطويل .

وهو إذا تعرّض للانسان ثم خشي أن يعجز عنه عَوَى فيسمعه غيره من الذئاب وتبادر إلى مناصرته ومؤازرته .

والوعل إذا أحس بالقناص وهو في مكانه المرتفع استَلْقَى على ظهره ، وقذف بنفسه من شاهق الجبل فينحدر من الأعلى إلى الأسفل معتمداً على قرونه المتدة ما بين رأسه ، وعجزه فهي تقيه ألم الحجارة لصلابتها وتعجّل في هبوطه لملاستها (٣) .

---

(١) المصايد والمطارد : ٤٥ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) نهاية الأرب : ٩/٣٢٩ .

والثعلب كثيراً ما يتاوت وينفخ بطنه ويرفع قوائمه حتى يُظَنّ به أنّه قد مات فإذا قرب منه حيوان وثب عليه فصاده ، ومن طريف حيله التي تَنُمُّ على عظيم ذكائه أنه إذا كثرت في جسده البراغيثُ ونَغَّصَتْه تناول قطعة صوفٍ بفمه ثم دخل الغدير أو النهر برفق وتدرج في غمس جسده في الماء بأناة فتصعد البراغيث من الجزء المبتل من جسده إلى الجزء اليابس فإذا انغمس كله في الماء اجتمعت في قطعة الصوف ، وعند ذلك يلقيها في الماء ويخرج[1] ، ونحن لو رحنا نعدد طرائف الحيوان ونذكر نوادر ذكائه وبدائع حيله لطال بنا القول .

٣ - طرق الصيد وأدواته :

سلك الإنسان لصيد الحيوان كل سبيل هداه إليها عقله ودلته عليها تجاربه ، وأفاد في ذلك من معرفته بطبائع الحيوانات ، ووقوفه على مواطن قوتها وضعفها ، فهو لم يترك وسيلة تخطر بالبال إلا استعملها في صيدها ، ولم يَسْتَبْقِ حيلةً من الحيل إلاّ احتال بها عليها ، وإنما عدّد الطرق ونوع الوسائل تبعاً لاختلاف طبائع الحيوانات وتغاير خصائصها .

ونحن سنعرض فيما يلي لأهم أدوات الصيد وطرقه :

(١) الصيد بالقوس :

لعل أقدم وسائل الصيد وجوداً هي القوس ، ولإغراقها في القدم رَوَى الرواة أن جبريل عليه السلام جاء بها لآدم وعلمه كيف يرمي بها ثم توارثها أولاده من بعده[2] .

---

(١) نهاية الأرب : ٩/٢٨٠ .

(٢) نهاية الأرب : ٦/٢٩٩ والواضح في علم الرمي الورقة : ٤ .

والقوس مؤنثة وجمعها أقواس وقسي وأقْوُسٌ وقياس [1] .

وتتخذ القسي من أعواد شجر النبع ونحوه لصلابتها ، ثم يُحْنَى طرفا العود بقوة ويُشَدُّ فيهما وتر من الجلد أو العَصَبِ الذي يكون في عنق البعير المسن أو وظيف ساقه ، وهو يشبه قوس النداف شبهاً كبيراً .

والأقواس منها الحجازية نسبة إلى الحجـاز ، والفارسية نسبة إلى فارس والواسطية نسبة إلى واسط ، والشريجية ، وهي المُتَّخَذَةُ من قضيبين فأكثر ، لكنّ القسي التي تصنع من عود واحد أجود [2] ويُرْمَى عن القسي بالسهام ويطلق عليها اسم النبال والنُّشَّاب أيضاً .

والسهم عـــود في طول الذراع وغلظ الإصبع يُتَّخَذُ من شجر صلب فيقوَّمُ ويُسَوَّى ، ثم تفرض في مؤخرته فرض يُرَكَّب عليها الريش فيشد فوقه بجلد متين أو يلصق بالغراء ، ثم يركب في قِمَّتِه نصل من حديد مدبب تصنع له شوكات في نهايته تَجْعَلُ نَزْعَه صعباً إذا نَشِب .

أما الريش فمن شأنه أن يجعل السهم متوازناً ويحولَ دون اضطرابه عند انطلاقه ، وان يُسْرِعَ به إلى هدفه [3] .

(٢) الصيد بالرمح :

ومن أدوات الصيد الرمح ، وجمعه أرْماح ورماح ويقال له : القناة أيضاً ، ويُدْعَى الطاعن بالرمح : الرامح .

---

(١) الصحاح .

(٢) نهاية الأرب : ٢٢٨/٦ .

(٣) المخصص : ٢٠/٦ .

وهو سلاح عريق في القدم شاع استعماله عند الشعوب القديمة ، وبخاصة عند أولئك الذين يسكنون الصحراء .

والرمح عماد البدويّ في حياته يركزه في الأرض وينشر عليه ثوبه ليستظل به إذا لفحته الهاجرة ، ويصيد به الوحش إذا عَضّه الجوع، ويدفع به عن نفسه أذى السباع ، ويصول به على خصومه في ساحات القتال .

يَتّخِذ الفقير الرمح من فروع الشجر ويجعل سِنانه من قرن ثور، ويتخذه الغني من نادر الخشب ويجعل شَبَاتـه من فولاذ ثمين ، كُلٌّ حسب قدرته ومكانتِه [1] .

وأجود الرماح الردينيةُ نسبة إلى امرأة يقال لها ردينة كانت تباع عندها الرماح ، والسَّمْهَرِيّة نسبة إلى رجل يدعى سمهر ، والخطية نسبة إلى الخط ، والخط مرفأ للسفن في البحرين تحمل إليه القنا من الهِنْد ولا تُصْنَعُ فيه [2] .

(٣) الصيد بالجَلاهِق :

من أدوات الصيد (الجلاهق) بفتح الجيم وكسر الهاء ، والجلاهق في اللغة : البندق الذي يُرْمى به ، وهو طين مُدْمَلَقٌ مُدوّر ، ومفرده جلاهقة ومثناة جلاهقتان وهو فارسيٌّ معرب أصله (جله) وهي كُبّة الغزل [3] .

أما في اصطلاح الصائدين فالجلاهق: قوس تُتّخَذُ من القنا ويُلَفُّ عليها

---

(١) البيان والتبيين: ٣/٦٤ والفنّ الحربي في صدر الإسلام: ١٤٤ .
(٢) ذات المصدر .
(٣) تاج العروس (جوق) .

الحرير وتُفتَرَى ، وفي وسط وترها قطعة دائرة تُسَمَّى الجوزة توضع فيها البندقة ، فإذا شُدَّ الوتر عند الرمي قذف بالبندقة وأصاب الهدف[1] وتُسَمَّى هذه الآلة : قوس البندق .

وتُتَّخَذُ البنادق من طين لزج متماسك الأجزاء يُجْعَلُ على شكل كرات صغار مُلسٍ ثم تجفف ويُرْمَى بها عن الجلاهِق .

وللجلاهق رميٌ دقيق بالغ الدقة وإصابته عجيبة لا تكاد تُخْطِئُ ، فقد قال كشاجم : إنه رأى غير واحد ممن يقول لصاحبه – إذا مَرَّ الرف من الطير أيُّها تحب أن أرميه فأصيبه فيذكر واحداً من الطيور فيقول له : فأي موضع تحب أن أنال بالبندقة فيمين رأسه أو جناحه أو غير ذلك فيصيب الموضع الذي عيَّنَ له ، وأنه رأى آخر يُوقف غلاماً له ويجعل في طرفي سبابته وإبهامه حَلْقَةَ خاتمه ثم لا يزال يرمي البندقة في حلقة الخاتم فتخرج منها من غير أن تُمَسَّ يد الغلام .

ورَوَى عن بعض الثقات أنه أخبره عن رجلين من أهل البصرة كانا مولعين بالرمي بالجلاهق فخرجا يوماً إلى بعض الأنهار فإذا هما بأسد يساورهما فلما أيقنا بالموت قال أحدهما لصاحبه : اكفني عينَه اليمنى وأنا أكفيك اليسرى فرمياه عن يد واحدة فاعمياه وسلما[2] .

(٤) الصيد بالأوهاق :

ومن آلات الصيد الأوهاق ، وهو جمع مفرده وَهَقٌ بالفتح ، وقد يُسكَّن مثل نَهْرٍ ونَهَر وهو حبل مُغَارٌ من أذناب الخيل يُرْمَى في أنشوطةٍ

---

(١) نهاية الأرب : ٣٢٤/١٠ وصبح الأعشى : ١٤٥/٢ .
(٢) المصايد والمطارد : ٢٤٧ و ٢٤٨ .

فيعلق بعنق الطريدة ويؤخذ به [1] ، وأهل الجبل بنهاوند وما يليها يصيدون الأسد بالأوهاق حيث يرمونها عليه فلا تخطئه ، وطريقة صيده أن يقف على كل جانب من جانبي الطريق أو الوادي رجل بحيث يكونان متقابلين وفي يد كلٍّ منهما وَهَقٌ فإذا مرَّ الأسد رميا الوهقين رمية واحدة فيقعان في عنقه ثم يجذبه كلٌّ منهما إلى جهته فيسقط على الأرض ويؤخذ [2] .

(٥) **الصيد بالشبكة :**

ومن آلات الصيد الشبكة وهي شركة الصائد يصيد بها في البَرّ والماء ، وجمعها شَبَكٌ وشباك [3].

وهي تُتَّخَذُ من خيوط الكتّان أو القطن أو الحرير تعقد عقداً حتى تتشابك ثم تُناط بحلقاتها أوتادٌ تَشُدُّها إلى الأرض .

وتختلف طول خيوطها وعدد عيونها باختلاف الطرائد التي تُصاد بها ، والشباك تكون ظاهرة بخلاف الأشراك فإنها تكون مستورة .

وتنصب الشباك في المراعي الخصبة ، وفي الدروب التي تَؤمُّها الوحوش وعلى مشارع المياه ويُكْثَرُ حولَها من العلف الذي يغري الطرائد بالاقتراب منها ويؤدّي بها إلى السقوط فيها ، وأول من تصيد بالشبكة المتوكل ، وقيل المعتصم ، وكان للمستنجد بالله شبكة ، والشبكة من أدوات الصيد الخاصّة بالسلطان [4]، وهي تُدعى الحِبالة أيضاً .

---

(١) المصايد والمطارد : ١٧٩ .

(٣) لسان العرب : (شبك).

(٣) انظر أنس الملا : ١٣٧ والمصايد والمطارد : ٥٤٧ وصبح الأعشى ١٤٥/٢ .

(٤) البيزرة : ١٣٨ ، وتاج العروس (حبل) .

(٦) الصيد بالفخ :

ومن آلات الصيد الفخ وجمعُه فخوخ وهو آلة حديدية مُقَوَّسة لهـا دفّتان تُفتحان قَسْراً وتماقان عن الانغلاق بطرف شظاة أو نحوها فإذا مرّ بها الحيوانُ وأصابها انطبقت عليه [1] ، ويدعى الفخ « شركاً ».

(٧) الصيد بقصب الدّبق :

ومن أدوات الصيد قصب الدبق أو عيدان الدبق، والدبق في اللغة حَمْلُ شجرٍ في جوفه كالغراء وهو لازق يَلْتَزِقُ بجناح الطائر فَيُصادُ به ، ويقال دبّق فلان الطائر تدبيقاً ودَبَقه يَدبقه دبقاً أي صاده بالدبق [2].

وعيدان الدبق : قضبان من أغصان الشجر تُطلى بالدبق بعد تسويتهـا وتُنصَب عند مشارع المياه وغيرها ممّا يسقط عليه الطير، فإذا وقف الطائر فوقها عَلِق بها ، وكلما رام الخلاص ازداد بها علوقاً وعليها التصاقاً .

ويقال إن أول من دبّق رَجُلٌ من أهل البصرة يقال له إبراهيم البازيار كان في زمن الرشيد .

وكان يصيدُ بعيدان الدبق جميع الطير ، فذاع صيتُه حتى استدعاه الرشيد وضمّه إليه وبلغ عنده منزلة عالية لمعرفته بالدبق ، وعلمه بالضواري.

ومن إبراهيم البازيار تفرّع التدبيق ، وشاع بين الناس وجعل الصائدون يدبّقون بخمس قصبات أو أكثر زمن المأمون [3].

---

(١) انظر صبح الأعشى: ٢ / ١٤٥ ولسان العرب (فخخ) والمصايد والمطارد : ٤٧.
(٢) لسان العرب (دبق) .
(٣) أنس الملا : ٨٢ .

(٨) الصيد باللبّاد :

ومن أدوات الصيد « اللبّاد » ، وهو في اللغة قِباءٌ من اللِّبْدِ ، واللبد كلُّ شعر أو صوف تداخلت أجزاؤه ولزق بعضها ببعض فتلبّدَت [١].

ويَتّخِذُ الأشداءُ المَهَرةُ من الصائدين من اللباد أكْسِيةً مُضاعَفةً لهم تسترهم من الأسود وتقيهم أذاهـا ، فيخرجون لصيدها مرتدين هذه اللبابيد ومعهم أوهاق وأثواب وقيود ، فإذا مرّ بهم الأسد لم يفطن إليهم بسبب أكسية اللباد ، فيرمونه بالأوهاق فتعلق به ، أو يلقون عليه الأثواب فتغطي وجهه وجسده وتشل حركته ، ثم يأخذونه ويقيدونه .

وقد رَوى صاحب المصايد والمطارد أن بَعضَ الأعراب ألمّ ببيت فإذا فيه عجوزٌ فقال لها: هل من قِرىً ؟ فقالت: أنظِرْنا لك الخير ، فلم يلبث أن جاء ابنٌ لهـا وعليه لبابيد مضاعَفةٌ وهو يحمل نَمِراً عظيماً فطرحه على الأرض ، وقامت العجوز فأخرجت من النار سفوداً فأولجته في أسْتِ النمر فعجّ عَجّةً عظيمة ثم هدأ فكشطوه وشووه فأكلنـا منه حتى امتلأنا وبتنا في خصب [٢] .

وإنما فعلت العجوز ذلك ليسلم لها الجلد [٣].

(٩) الصيد بالتّطريب :

ومن وسائل الصد « التطريب » ، ذلك أنّ بعض الحيوانات كالأيِّـل مثلاً يرتاح إلى الغنـاء العذب ويستهويه الصفير الحسَنُ وهو لا ينام ما دام يسمع ذلك .

---

(١) انظر لسان العرب : « لبد » .

(٢) لعل ذلك وقع في الجاهلية ؛ فالإسلام حرّم أكل هذه السباع .

(٣) المصايد والمطارد : ١٧٩ و ١٨١ و ٢١٢ .

فإذا رام الصيادون صَيْدَه شغَله بعضُهم بالغناء والصفير وأتاه بعضهم من خلفه فإذا رأوه مسترخي الأذنين أدركوا أنه مشغول بما يَسمَع مأخوذٌ به فيثبون عليه ، أما إذا كان لا يزال منتصب الأذنين فذلك يعني أنه لم يزل يقظان [٢] .

(١٠) الصيد بالنار :

ومن أدوات الصيد النار ، ذلك بأن طائفة كبيرة من الحيوانات إذا أبصرت النار دَهِشتْ وذهلت وأُخِذت ، فالظبي مثلاً يصاد بإيقاد النار قريباً منه ، فهو لا يزال يتأملها ويدمن النظر إليها حتى يَعْشَى بصره ويذهل عقله ولا سيما إذا أُضيف إلى النار تحريكُ الأجراس فإنه يفتُرُ ويضعف ولا يبقَى به حراك البَتّة . والنّعامُ يصاد بالنار أيضاً ، فإنه إذا رآها دهش وتسمّر في مكانه فيتمكن منه الصائد ويأخذه .

وكانت العرب إذا خافت الأسود أوقدت حولها النيران وهَوّلتْ بها عليها ، فإذا عاينها الأسد حدّق إليها ، وجعل يتأملها ، فكثيراً ما كانت تشغله عن السّابلة وتكفّ عن الناس أذاه [٢].

(١١) الصيد بالحفائر :

ومن وسائل الصيد الحفائر وأهمها الزُّبى : جمع زُبية ، وهي حفرة تُتّخذ على مكان مرتفع من الأرض وتُغطّى بما يسترها ، ويوضع فوقها أو بالقرب منها حيوان مما تشتهيه الأسود فإذا رآه الأسد أتى إليه ليفترسه فيسقط في الزُبية ويُؤخَذُ ، ولا تكون الزبية إلّا في مكان عالٍ حتى لا

---

(٢) نهاية الأرب : ٩ / ٣٢٥ .

(٢) انظر الحيوان: ٤/٤٨٤ والمصايد والمطارد : ٢٩٧ ونهاية الأرب:٩/٣٣٢ و٣٤٠.

تمتلىء بماء السيل ؛ ولذلك قيل في المثل : بلغ السيل الزُّبى أي عمَّ وطمَّ ، ومن حفائر الصيد الكمحة وهي مما تصاد به الذئاب ، والحبالة وهي مما تصاد به الظباء [1] .

(١٢) الصيد بالحيلة :

ومن وسائل الصيد إعمال الحيلة لاقتناص الطيور والوحوش ، وقد أكثر الصائدون من الاحتيال لطرائدهم وافتنُّوا في ذلك ما وسعهم الافتنان .

ومن ذلك محاكاة أصوات بعض الحيوانات ، فالدُّرَّاج مثلاً يُصاد بصفير يشابه صفيره ، فإذا أتقنه الصائد وصفَّر به أصغى إليه وقصد الموضع الذي يسمعه منه فيسهل عليه صيده [2] .

وتصاد النعام بالخِرَقِ السود تُنشَرُ في مرابضها ومراتعها حتى إذا ألِفتها وأنِسَت بها لبِسها القانص واصطادها [3] .

ويُصاد البَبْرُ ، وهو سبع هندي شديد المِراس لا يقدر أحد على صيده بأن تُسرَق جراؤه ــ وهو شديدُ الولع بها عظيمُ الحرص عليها ــ ثم تُحمَل في أمثال القوارير من الزجاج ويُركض بها على الخيول السوابق ، فإذا أدركهم أبوها رُمِي إليه بقارورة منها فيَشتغِل بالنظر إليها ويُعمِل الفكر في إخراج جَروه منها فينطلق الصائدون ببقيَّتها ويأخذونها ويربونها فتألفُ وتأنس .

---

(١) المصايد والمطارد : ١٠٥ وعيون الأخبار : ٢ / ٧١ .

(٢) المصايد والمطارد : ٢٧٣ .

(٣) المصايد والمطارد : ٢٢٢ .

ويصاد العقعق بأن تُنصَب له شَبَكَة ويشد فيها سِنّوْر أبلق شديد الشبه به ، فإذا وقع في الشبكة تهافتت عليه سائر العقائق وترامت في الشبكة وصيدت جميعاً [1] .

ويصاد طير الماء بالقرعة ، وذلك بان تؤخذ قرعة يابسة صحيحة فيُرْمَى بها في الماء فهي لا تزال تَتَحرك فإذا أبصرها طير الماء خاف منها في أول أمره ثم لايلبث أن يألفها شيئاً فشيئاً فإذا أنس بها وجعل يسقط عليها أخذ الصائد قرعة وقطع رأسها وخرق فيها موضعاً لعينيه ثم يُدْخِلُ رأسه فيها وينزل إلى الماء ويغمس فيه جَسَده كله إلا رَأسَه ويمشي نحو طير الماء رويداً رويداً وكلما دنا من طائر قبض عليه من رجليه ثم غمسه في الماء ودقّ جناحيه وتركه فيبقَى طافياً فوق الماء يسبح برجليه ولا يطيق الطيران حتى إذا فرغ من صيد ما يروم صيده رمَى بالقرعة والتقط الطيور الطافية وذهب بها [2] . ومما يلحق بأدوات الصيد ، القترة ، والناموس ، والقرموص ، وكلها حفر أو بيوت صغيرة يتخذها الصائد لئلا تجد الحيوانات ريحه فتنفر منه ، ومن هذه الكمائن يصيد القانص الطيور ، ويَرْقُبُ الشباك والشراك ، ويرمِي السباع والوحش .

وبعد فإن ما أوردناه آنفاً من أدوات الصيد ووسائله لا يُعَدُّ شيئاً في جنب الجوارح والضواري ، وسيجد القارىء فيما يلي بحثا ضافياً عن جوارح الصيد وضواريه .

٤ ـ جوارح الصيد وضواريه :

أطلق العرب كلمة (الجَرْحِ) على التأثير بالسلاح ونحوه ، كما أطلقوها

---

(١) نهاية الأرب : ٢٤٢/٩ والدميري : ١١٣ .

(٢) المصايد والمطارد : ٧٥ .

على الكسب،فقالوا : جرح فلان الشيء واجترحه بمعنى: كسبه وقد جاء في التنزيل : «وَهُوَ الذي يَتَوفّاكم بالليل ويَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بالنّهار»(١).

وُدعيت حيواناتُ الصيد من الطير والسباع والكلاب بالجوارح لأنها تَجْرَحُ لأهلها أي تكسب لهم .

أما كلمة (الضراوة) فأطلقوها على الولع بالشيء والدربة عليه ، والتعوّد على مزاولته : فقالوا : ضَرِي فلانٌ بالشيء إذا اعتاده ، فلا يكاد يصبر عنه ، وضري الكلب بالصيد إذ اعتاده وتطعّم بلحمه ودمه ، وضَرّى الرجلُ الكلب وأضراه : عوّده على الصيد وأغراه به .

وقد أطلق القرآن الكريم كلمة « الجوارح » على حيوانات الصيد كلها دون تفريق بين طائر يطير، أو وحش يسير فقال تعالى : « وما عَلّمْتُمْ من الجوارح »(٢) .

لكنّ علماء البيزرة اصطلحوا على أن يطلقوا كلمة الجارح على ما يطير كالصقر والبازي، وكلمة الضاري على ما يسير كالكلب والفهد، ونحن سنأخذ بما اصطلح عليه علماء البيزرة .

أولاً ـ الجوارح :

اختلف علماء البيزرة في عدد الجوارح وأنواعها وأقسامها ، ولكنّ أمثل هذه التقسيمات ـ كما بدا لنا ـ هو ما أورده كشاجم في كتاب المصايد والمطارد ، حيث جعل الجوارح أربعة أنواع هي :

---

(١) سورة الأنعام الآية : ٦٠ .

(٢) سورة المائدة الآية : ٤

البُزاة ، والشواهين ، والصقور ، والعقاب ، وجعل تحت كلّ نوع منها عدة أصناف ، فالبزاة خمسة أصناف هي :

البازي ، والقِيمي والزُرّق والباشق والبَيْدقَ .

والشواهين ثلاثة أصناف هي : الشاهين ، والأنيقي، والقطامي .

والصقور ثلاثة أصناف هي : الصقر ، والكونج ، واليؤيؤ .

أما العقاب فهي صنف واحد .

ثم ألحق بهذه الأنواع الزمّج فصارت جملة الجوارح عنده ثلاثة عشر جارحاً ونحن سَنُعَرّفُ بكلٍّ من هذه الجوارح فيما يلي تعريفاً موجزاً .

(١) البازي :

البازي أفضل الجوارح صيداً وأعلاها كعباً وأغلاها ثمناً وبه يضرب المثل في نهاية الشرف .

وأجود البُزاة أجمَعُها خلْقاً ، وأثقلها وزناً ، وأكثرها طعاماً وأسرعها استمراءً ، وأوسعها حَدَقَةً وألينها ريشاً وأعظمها منسراً ، وأشدّها تشميراً ، وأوثقها سِلاحاً وأشدها انتفاضاً [١] .

وينفرد البازي عما سواه من الجوارح بخصائص منها سرعة انقضاضه حتى قيل إنه أسرع من السهم ، وكونُه لا يعيش إلا منفرداً غير متآلف مع الطيور الأخرَى ، وذلك بالإضافة إلى شدة وفائه لأهله ، وهو جارح ذكي إذا أدّبْتَه فأحسنت تأديبه عَرَفَ مهمته ولم يتجاوز حدوده [٢] .

---

(١) أنظر المصايد والمطارد: ٥٤ ونهاية الأرب : ١٠/١٨٧ ، والصيد والطرد : ٤٦ .
(٢) أنظر الاعتبار : ٢٠٤ .

والصيدُ طبيعةٌ في البازي لأنه يؤخذ من وكره فرخاً صغيراً من غير أن يكون قد صاد مع أبويه فيصيد ابتداءً بلا تعليم بخلاف الصقر ، فإنه إذا أخذ قبل أن يصيدَ مع أبويه لم يَنْجُبْ ولم يصد [1] .

وللبيازرة طرقٌ بديعة في تعليم البازي وتضريته على الصيد وجعلِه يظفر بالطريدة ويأتي بها لصاحبه ويكفّ عن أكلها مهما كان جائعاً .

والاسلام اشترط لحل أكل الطريدة التي يقتلها الجارح أو الضاري أن يكونا معلمين على الصيد ، وحدُّ تعليم البازي وغيرِه من الجوارح أن يَسْتَرْسِلَ إذا أرسلته ، وأن يعود إليك إذا دعوته ، ولا يشترط فيه أن يترك الأكل من طريدته وإنما يشترط ذلك في الضواري .

ولمعاملة البازي آداب ، رسمها علماء البيزرة وحدود ، تعارفوا عليها ، فاشترطوا في حامله أن يكون نظيف الثوب طيب الرائحة ، كريم الشمائل ، وحذّروا من أن يحمله الأبخر لأن الرائحةَ الكريهة تكسر شهوته إلى الصيد، وتجعله يعرض عن حامله ، كما حذروا مؤدبه من أن يصيح في وجهه أو ينهره ، فإن ذلك يسبب نفوره ، لما فيه من أنَفَةٍ وكبرياء [2] .

والبُزَاة – كما أسلفنا – خمسة أنواع هي : البازى ، والباشق، والبيدق، والزُّرّق ، والقيمي ، وقد تحدثنا آنفاً عن رأس هذه الفصيلة الذي هو البازي ، ونلم فيما يلي بالأصناف الأربعة الأخرى .

---

(١) صبح الأعشى : ٥٦/٢ .

(٢) الاعتبار : ٢٠٤ والبيزرة : ٧٨ والمصائد والمطارد : ٦١ وأنس الملا : ١٢٢ ثم انظر كتاب « الصيد عند العرب » للمؤلف ففيه بسط للموضوع .

(أ) الباشق :

اتفق جُلُّ علماء البيزرة على أن الباشق صنف من أصناف البزاة ، وجَعَلَه بعضُهم جارحاً مستقلاً بنفسه وقَدّمه على سائر الجوارح بما فيها البزاة ، ويمتاز الباشق من البازي بأنه أصغر حجماً وأقل وزناً ، وهو ألطف منه طبعاً وأقرب إلى الألفة ، وهو أخف الجوارح طيراناً وأسرعها نهوضاً ، بيد أنه طائر قلق يأنس أحياناً ويستوحش أحياناً أخرى .

وهو يشارك البازي في حِدّة المزاج وقوة النفس ، وهو من درجته في الصيد حيث يصيد أفخر ما يصيده البازي .

والباشق ذو ألوان متعددة، فمنه الأحمر والأخضر والأصفر والإسْبَهْرَجُ الذي يشبه لون البزاة [1] .

(ب) الزُّرَّق :

الزرق . صنف من البزاة ، وهو بين البازي والباشق ، أسودُ الظهر أبيض البطن أحمر العينين أصفر الرجلين إلا أن مزاجه أحرُّ من مزاج البازي، لذلك كان أشدَّ منه جناحاً وأسرع طيراناً وأقوى إقداماً .

وهو جارح خَتّالٌ ، فإذا أُرْسِل على طائر أبتعد عنه ، وحَلّق في غير مطاره ، ثم يعطف عليه من حيثُ لا يحتَسِب وينقضُّ عليه ، ويظهر له الشدّة بعد اللين ، وهو جارح يقبل التأديب ويُسَاس كما يُسَاس البازي ويصيد ما يصيده البازي إلا الكركي [2] .

---

(١) انظر : البيزرة : ٥٠ ، وعجائب المخلوقات ، ٣٤٥ والصيد والطرد ٤٨ ونهاية الأرب : ١٩٣/١٠ والمصايد والمطارد : ٧٧ وحيلة الحيوان : ١ : ١٠٩ والاعتبار : ٢٠٤ وصبح الأعشى : ٥٨/٢ .

(٢) انظر الحيوان : ١٨٢/٣ و٤٧/٤ و ٢٢٩ والمصايد والمطارد : ٥٥ ونهاية الأرب : ١٩١/١٠ ، والدميري ، ٥/٢ .

(ج) البيدق :

النبيدق : بالدال المعجمة أو المهملة – صنف من البزاة قليل الغناء لا يصيد إلا العصافير .

(د) العَفْصِيُّ :

العفصي أضعف الجوارح نفساً وأقلها حيلة ، وأشدها ذعراً وأيبسها مزاجاً يصيد العصفور في بعض الأحيان وربما عجز عنه فنجا منه ، وهو يشبه الباشق في الشكل إلا أنه أصغر منه [1] .

(ه) القِيمِيُّ :

لم يتعرض أَحَدٌ من أصحاب كتب البيزرة للقيميّ إلا كشاجم ، وكُلُّ ما قاله فيه : إنه « باز دقيق نحيف ذاهل النفس » [2] .

(٢) الشاهين :

الشاهين هو النوع الثاني من أنواع الجوارح وجمعه شواهين وشياهين وهو جارح أخضر الظهر أبيضُ البطن طويل الجناحين قصير العنق .

والشاهين أرَقُّ من الباشق مزاجاً وأقل من الصقر صبراً على عناء الصيد . ويدعى الشاهين بالحُرّ ، وأسمه بالفارسية «شوذانه» فَعُرِّبَ على ألفاظ شتى منها : شوذانق ، وشوذق وشوذنيق ، وقد وردت هذه الأسماء كلها في « المخصص » بالسين بدلاً من الشين [3] .

---

(١) انظر المصايد والمطارد : ٧٧ والدميري : ١/١١٠ ونهاية الأرب : ١١/١٩٤ والصيد والطرد عند العرب : ٤٨ .

(٢) المصايد والمطارد ٧٣ .

(٣) المخصص : ٨/١٥٠ والصيد والطرد : ٥٤ .

والشاهين كاسمه الذي يعني الميزان لأنه لا يحتمل أدنى حالٍ من الشبع أو الجوع ، وإذا احتاجت الشواهين إلى الطعام ولم تجده فربما قتلت نفسها لأنها كثيرة الغضب [٢] .

ويقول علماء البيزرة: إن الشواهين أسرع الجوارح كلها وأشجعها وأحسنها تقلّباً في الجو وراء الطريدة ، وربما يعتريها من شدة الحرص على الطريدة ما يجعلها تضرب بأنفها الغليظ على الأرض فتموت ، إلا أنهم عابوها بالإباق ، فإذا أبق الشاهين مرة وبات ليلة بعيداً عن صاحبه لم يُنْتَفَعْ به بعد ذلك ، لأنه متى اعتاد الهرب لم يُقْلِعْ عنه أبداً ، ولذلك دُعِي بالآبق [٢] .

وهو يصيد ما يصيده الصقر .

والشواهين أصناف ثلاثة هي : الشاهين والأنيقيُّ والقَطامِيُّ .

أما الشاهين - وهو رأس هذه الفصيلة فقد تكلمنا عليه آنفاً ، وأما (الأنيقي) فهو دون الشاهين في القوة إلا أنه أسرع منه .

وأما (القطامي) - بضم القاف وفتحها - فهو جارح عزيز الوجود[٣].

(٣) الصقر :

كانت العرب تطلق كلمة الصقر على جميع الجوارح عدا العقاب ، ثم أخذت تفرق بينها شيئاً فشيئاً على ما يبدو [٤] .

---

(١) انظر أنس الملا : ١١٧ والقانون في البيزرة الورقة ٦ ونهاية الأرب : ١٠/١٠٢ ومروج الذهب : ١/١٦٠ وصبح الأعشى : ٢/٥٩ .

(٢) البيزرة : ١٠٦

(٣) انظر الصيد والطرد : ٥٥ ونهاية الأرب : ١٠/٢٠٤ والمصايد والمطارد : ٨٣ .

(٤) المخصص ٨/١٤٨ ، والصيد والطرد : ٤٩ .

ويقال للصقر : الأجدل ، والأكدر ، والهيثم ، والمضرحي ، والقطامي ، والأسفع ، وكنيته أبو شجاع [1] .

وأول من صاد بالصقر الحارث بن كندة ثم أخذته العرب من بعده ، ومن هنا قال الجاحظ عنه : « إنه عربي » [2] .

وهو جارح صبور يمتاز بشدة صبره حتى قيل : إن الصقور من الجوارح بمنزلة البغال من الدواب .

والصقر يُضَرَّى على صيد الغزال تُعاوِنُه في ذلك الكلاب وربما صادها منفرداً [3] .

وقد حضّ البيازرة على استعمال البرقع للصقر ، وتغطية رأسه وعينيه ، أما البازي فلا يستعمل له البرقع [4] .

والصقور أصناف ثلاثة ، هي الصقر ، ثم الكونج ، ثم اليؤيؤ .

وقد تكلمنا على الصقر آنفاً ، ونتكلم الآن على الجارحين الآخرين :

(أ) الكونج :

وهو الصنف الثاني من أصناف الصقور ويسمى بمصر والشام (السقّاوية) وهو يصيد الأرنب ويعجز عن صيد الغزال ، ويصيد بالإضافة إلى ذلك بعض طيور الماء [5] .

---

(١) انظر الصيد والطرد عند العرب : ٥١ .

(٢) الحيوان : ٤٧٨/٦ .

(٣) المصايد والمطارد : ٨٤ والصيد والطرد : ٥٣ .

(٤) أنس الملا : ١١٤ .

(٥) نهاية الأرب : ١٩٨/١٠ .

(ب) اليؤيؤ :

وهو الصنف الثالث من أصناف الصقور ويسميه أهل مصر والشام : « الجَلَمُ » وهو جارح بارد المزاج ، يتعلق بفريسته ويصيد ما هو أكبر منه جسماً كالدراج [1] .

(٤) العقاب :

العقاب سيد الطير عِزَّةً وأكبره ـ بعد النسر ـ جسماً ، وأعظمُ الجوارح صيداً ، قوية المخالب مُسَرْوَلَةُ الساقين واسعةُ الأشداق ، ذات منسر قصير أعقف .

والعرب تسمي العقاب : الكاسر إشارة إلى قوتها وقدرتها على الانقضاض [2] .

ومن العقبان ما تكون ذات نقط بيض في رأسها وتدعى (الصَّقْعاء) ، ومنها ما يكون بعض قوادمها بيضاً وتدعى (العَشْراء) ، ومنها ما يكون فيها خطوط بيض وتدعى (المسيَّرة) [3] .

والمختار من العقبان للصيد ما أُخِذَ صغيراً ، أما إذا كبرت واستوحشت فإنها تغدو صَعْبَةَ الرياضة [4] .

والعقاب تأوى إلى قمم الجبال الشواهق ولذلك دُعِيَتْ بالصومعة ، وهي أشدُّ الجوارح حرارة وأسرعها طيراناً ولذا ضرب بها المثل فقيل : (أطير

---

(١) نهاية الأرب : ١٩٩/١٠ .
(٢) انظر المخصص : ١٤٦/٨ والمصايد والمطارد : ٩٣ والصيد والطرد : ٣٧ .
(٣) المخصص : ١٤٦/٨ والمصايد والمطارد : ٩٤ والبيزرة : ١١٠ .
(٤) البيزرة : ١١٠ .

من عقاب) . . والعقاب جارح عزيز المنـــال حادّ البصر قويُّ السمع شديد الحزم .

ومن خصائص العقاب أنها لا تمارس الصيد لنفسها إلا نادراً ، وإنما تسلب كل جارح صيده .

فإذا رأت جارحاً صاد شيئاً أنقضت عليه ، فإذا أبصرها ذُعِرَ منهـا ووَلـّى هارباً وخَلـّى لها ما صاده ، وهي لا يعزّ عليها شيء من ذوات الوبر حتى الذئب ، وربما صادت الحمار الوحشي .

(٥) الزمج :

الزمج ـ بضم الزّاي وفتح الميم المشدّدة ـ طائر دون العقاب يصاد به .

وقد عده كشاجم صنفاً من الجوارح قائماً بذاته .

أما الجاحظ وغيره فعدوه صنفاً من العقاب [١] .

وهو جارح دون العقاب ، في قمة رأسه حمرة [٢] ، والفرس أوّلُ من ضَرّاه على الصيد ، وهم ينتقصون من قَدْرِ الصائد الـذي لا يصيد به [٣] والزمج يصيد الكركي بلا عناء .

وهناك نوع آخر من الزمج يُدْعَى زُمّجَ المـاء ، وهو الذي يسميه المصريون « النورس » وهو أبيض اللون في حجم الحمام يعلو في الجَوّ ثم يزج نفسه في الماء ويختلس منه السمك ، واليابانيون يستخدمونه في صيد الأسماك.

---

(١) المصايد والمطارد : ١٠١ والحيوان : ١٨٢/٣ .
(٢) المخصص : ١٤٧/٨ ولسان العرب .
(٣) الصيد والطرد : ٤٤ (الحاشية) .

ثانيا – الضواري :

المعتبر من الضواري ثلاثة هي : الكلب والفهد ، وعناق الأرض ، فهي التي عُني بها الصائدون ، وعملوا على تأديبها وتَضْرِيتها على الصيد .

ونحن سنعرض فيما يلي لكلٍّ منها عرضاً موجزاً :

(١) الكلب :

أطلق العرب اسم الكلب على كل سبع عقور ثم غلب على الكلب النابح المعروف .

والكلب حيوان مُشْتَرَك الطباع فهو بين السبع والبهيمة ، لأنه لو تمّ له طباع السبع لما ألف الناس ، ولو تم له طباع البهيمة لما أكل اللحم [١] .

والكلاب أصناف كثيرة غير أنها في جملتها تقسم الى قسمين هما: الكلاب الأهلية ، وكلاب الصيد .

ويُراد بالكلاب الأهلية ما خُصِّصَ للحراسة والماشية والزرع وما إلى ذلك مِمّا لم يعدّ للصيد .

ويُراد بكلاب الصيد ما يُضَرّى على الصيد وهي نوعان :

سَلُوقية وزَغارية ، والسلوقيــة : منسوبة إلى (سلوق) باليمن أو إلى (سَلَقْيَةَ) في بلاد الروم والزّغارية منسوبة إلى (لَزْغور) وهو موضع ببلاد الروم ، والمشهور عند العرب من هذين النوعين الكلاب السلوقية [٢] .

---

(١) صبح الأعشى ٢ / ٣٩.

(٢) انظر الحيوان : ١ / ٣١٢ ، وألمس الملا : ٣٧ .

وتمتاز الكلاب السلوقية عن غيرها بأنها أجود شمّاً وأرهف حسّاً وأطول مناخِر، وقد يكون طول مناخرها سبباً في شمها العجيب وحِسّها اللطيف[1].

وقد كان للكلب عامة وللسلوقي خاصة شأن عند العرب، فكانوا ينسبون الكلاب كما ينسبون عتاق الخيل، وكانوا يسمون بها على التفاؤل لما اتّسمت به من كريم الصفات[2].

فالكلب أيقظ الحيوان عيناً في وقت حاجة أصحابه إلى النوم، وأنْوم الحيوان نهاراً عند استغنائهم عن حراسته ثم إذا نام فهو لا ينام إلا غِراراً.. وهو في أشد حالات نومـه يفتح عينيه بقدر مايكفيه للحراسة ويكون مع ذلك أسمع من فرس وأحذر من عَقْعَق[3]. وهو حيوان قليل السّآمة شديد الصبر على الجفوة واحتمال الجراحات الشداد، وجوائف[4] الطعـَنـات ونوافذ السهام، وإذا أصابه ذلك لم يزل ينظّفه بريقه لمعرفته بأن ذلك دواؤه حتى يبرأ فلا يحتاج إلى طبيب ولا إلى مرهم ولا إلى علاج.

والكلب أشد الحيوانات فكّاً وأرهفها ناباً وأطيبها فماً وأكثرها ريقاً يرى العظم الصلب فيعلم بالغريزة أنه إن عَضّه رضّه وإن بلعه استمرأه.

والكلب بعد هذا أسبح حيوان على وجه الأرض لذا قيل فيه إنه أسبح من حَيّة..

وقد وُصِفَ الكلب بالسرعة في الحُضْر، وبالصبر على طول العدو، وبسعة الإهاب وأنه إذا عدا أضْبَعَ وبَسَط يديه ورجليه حتى يَمَسّ قفصه

---

(١) انظر الحيوان: ٢ / ١٦٥.
(٢) انظر الحيوان: ٢ / ١٧.
(٣) الحيوان: ٢ / ١٧٤.
(٤) الطعنة الجائفة: هي التي تبلغ الجوف.

الأرض وحتى يشرط أذنيه بِشَبا أظافره ويكون ذلك إذا أسرع في عدوه وجعل يفترش ذراعيه حتى يصيب صدرُه الأرض فعندئذ كثيراً ما يَنْشِط أذنيه ويخرقهما حتى يدميهما [١].

وهو ألوف للناس ... بل إنه أشدُّ إلفاً للناس من الإنسان الألوف وهو يكون في كثير من حالاته آنَس بالناس منه بالكلاب - مهما كانت قريبة منه - فلا تراه يلاعب كلباً ما دام هناك إنسان يلاعبه [٢].

ومن مزايا الكلب ، إثباته وجه صاحبه ونظره في عينيه وفي وجهه وحبه له ودنوُّه منه حتى ربما لاعبه ولاعب صبيانه بالعض الذي لا يؤثر ولا يوجع ، وله الأضراس التي لو نشبها في الصخر لنشبت والأنياب التي لو أنحى بها على الحَصَى لرضَّها [٣].

وذكر بعض الرواة أنه كانت للعامر بن عنترة كلاب صيد وماشية وكان يحسن صحبتها فلما مات لزمت قبره حتى ماتت عنده [٤].

والكلب - بفطرته - ذو معرفة عجيبة بالصيد وخبرة واسعة بطبائع الحيوانات المصيدة؛ فهو « إذا عاين الظباء بعيدةً كانت أم قريبة عرف المعتل من غير المعتل، وميز العَنَزَ من التيس ، وإذا أبصر القطيع لا يقصد إلا نحو التيس مع علمه أنه أشدّ عَدْواً وأبعد وثبةً ويترك العنز وهو يعلم ما فيها من نقصان العدْو وقصر الخطوة ، وذلك لأن كل حيوان إذا ألم به الفزع عرض له سلس البول أو التقطير ، والكلب يعلم أن التيس إذا عدا شوطاً أو شوطين

---

(١) انظر الحيوان : ١ / ٢٧٢ .

(٢) انظر الحيوان : ٢ / ١٧٧ - ١٧٨ .

(٣) الحيوان : ٢ / ١٩٤ .

(٤) فضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب : ١٠ .

تعسّر عليه البول ولم يستطعه مع شدة العدو ووضع القوائم ورفعهـا معاً فيثقل لذلك عَدْوُه ويقصر مَدى خطاه ويعتريه البَهْرُ حتى يلحقه الكلب.

أما العنز فهي إذا اعتراها البول جمعته وقذفت به لسعة مسيلها، والكلب يعرف ذلك كله ويفيد منه ، وهو يعرفه بالفطرة ولا يحتاج في إدراكه إلى معاناة أو تعليم أو تدريب [١].

ومن خصائص الكلب ، أن الصائد يخرج به إلى الصيد في يوم الجليد والثلج وهما متراكمان على الأرض حتى لا يثبت عليهما قدم ولا خفّ ولا حافر ولا ظلف فيمضي الكلّاب وهو إنسان عاقل وصياد مجرّب ومع هذا فهو لا يعلم أين موقع جحر الأرنب ولا موضع كناس الظبي ولا مَكْو [٢] الثعلب ولا غير ذلك من مَوالِج [٣] وحوش الأرض فيتلفت الكلب بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ويتشمّمُ ويتنسّم ويتبصّر حتى يقف على أفواه تلك الجحور ليثير ما فيها ، وذلك أن أنفاس الوحوش القابعة فيهـا وبخار أجوافها وأبدانها وما يخرج من الحرارة المستكنة فيها تذيب الثلج الذي يستر فمَ الجحر حتى ترققه وتمكن الكلب من الاهتداء إلى ما فيه من الوحوش [٤].

وفي طباع أرحام الكلاب أعجوبة لأنها تلقَح من حيوانات غير الكلاب كالذئب ونحوه ، وتلقح من كلاب مختلفة الألوان فتؤدي شَبَه مـا لقحت منه [٥] . وقد كانت للزهري كلبة صيد ، فكان يطلب لها الفحول يلتمس

---

(١) انظر المصايد والمطارد : ١٣٣ وما بعدها .

(٢) المكو : جحر الثعلب والأرنب .

(٣) الموالج : المَحالُّ التي تلج فيها الحيوانات وتستتر .

(٤) الحيوان : ٢ / ١٢٠ .

(٥) انظر الحيوان : ٢/١٨٠ .

نسلها [١] ، وللكلاب الفارهة أمارات تدل على نجابتها ، من ذلك أن يكون الكلب طويل ما بين اليدين والرجلين قصير الظهر عريضه صغير الرأس طويل العنق ناتىء الحدقة طويل الخطم ، واسع الشدقين ، بارز الجبهة عريضها ، قصير اليدين طويل الرجلين [٢].

ومن علامات فراهته أيضاً أن يكون طويل الصدر عريضه مما يلي الأرض غليظ العضدين ، مستقيم اليدين ، مضموم الأصابع بعضها إلى بعض حتى إذا عدا لم يدخل بين أصابعه شيء من التراب أو الطين أو غيرها مما يعيق عَدْوَه ، وأن يكون عريض ما بين مفاصل أعطافه وما بين عظمَي أصل فخذيه اللذين يلتقيان مع أصل الذنب .

وأن يكون شديد لحم الفخذين رزين المحزم [٣] رقيق الوسط ، مستقيم الرجلين ، مُنحَنِي الركبتين قصير الساقين دقيقهما فكأنهما خشبة من صلابتهما .

وأن يكون ذنبه قصيراً [٤] يابساً منجرداً من اللحم ليس له منه قليل ولا كثير مع لين شعره .

وأن يكون أهرَت الشدق ، طويلَ اللسان ، كثير الريق ، منحدر القصة [٥] سابغ الضلوع رحب الجلد ، لاحق البطن ، وأن يكون الشعر الذي

---

(١) فضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب : ٢٧

(٢) فهو إذا كان كذلك كان أسرع في الصعود وراء الأرنب ، إذ لا يكاد يلحق الأرنب في الصعود إلا كلب قصير اليدين طويل الرجلين .

(٣) المحزم : موضع الحزام من الدابة . والرزين الثقيل ، وعنترة جعل هذه الصفة من أمارات فراهة الجواد أيضاً فقال في معلقته :

وحَشيتي سرج على عَبْل الشوى نهدٍ مراكله نبيل المِحْزم

(٤) هذا اذا كان الكلب ذكراً ، أما الأنثى فلا يكره لها طول الذنب .

(٥) القصة : رأس الصدر .

تحت حنكه كأنه طاقة [1] وأن يكون هو وشعر خديه غليظاً .

ومن علامات الفراهة التي ما بعدها علامة أن يكون على ساقيه أو على إحداهما أو على رأس ذنبه مخلب ، وإذا كان على الساقين وجب قطعه لئلا يمنعه من العدو [2] .

٢ — الفهد :

الفهد ضرب من السباع يُتَصَيَّد به ، وجمعه فهود وأفْهُد [3] والأنثى فهدة ، وجرو الفهد يقال له الهَوْبَر والجروة هبيرة [4] ومؤدبه يدعى الفهّاد [5] وقد اختلف علماء البيزرة في تولده ، فقال أرسطو : إنه متولد من لبؤة ونمر [6] ، وقال صاحب نهاية الأرب : إنه متولد من أسد ونمرة أو لبؤة ونمر كما قال أرسطو [7] . ومن هنا كان فيه شبه من النمر لأنه أحد والديه على جميع الأقوال .

والفرق بينه وبين النمر أن وجه النمر طويل مثل وجه الكلب وعينيه زرقاوان ، أما الفهد فوجهه مدور وعيناه سوداوان [8] .

وهو مشابه للكلب في بعض طباعه حيث يأنس لمن يحسن إليه [9]

---

(١) الطاقة ، الحزمة من الوبر .
(٢) انظر الحيوان : ٢٨٧/١ و ٤٨/٢ .
(٣) الحيوان : ٢٥٧/١ .
(٤) الحيوان : ٢٠/٢ ، ١١٧ .
(٥) المخصص : ٧٣/٨ .
(٦) نهاية الأرب : ٢٤٦/٩ .
(٧) المخصص : ٧٢/٨ .
(٨) الصيد والطرد عند العرب : ٧٠ .
(٩) نهاية الأرب : ٢٦٤/٩ .

مُشَاكِلٌ له في أدوائه ودوائه، والنوم الذي يعتريه يشبه نعاس الكلب [١] .

ومن خُلُقِه الغضب فإذا أخطأ صيدَه رجع حَنِقاً مغيظاً حتى لربما قتل سائسه [٢] ، وهو أكرم الحيوانات الصائدة وأجلها نفعاً وأحسنها صيداً وأحلاها في العين منظراً وأغلاها ثمناً وأعزها جانباً لذا عُدّ من جوارح الملوك وضُرِب به المثل فقيل : « فلان أكسب من فهد » .

وهو ذو جثة ثقيلة ، فما من شيء في مثل حجم الفهد إلا والفهد أثقل منه [٣] ، والسباع تشتهي رائحة الفهد وتحبها ، وتستدل بها على مكانه وتعجب بلحمه أشد العجب [٤] .

وللفهود موسم تسمن فيه ، فإذا سمن الفهد عرف أن حركته قد ثقلت وأنه غدا عرضة للسباع التي تطلبه ، لذا فهو يُخْفِي نفسه ويجتهد لذلك حتى يعود إلى حاله الأولى وينقضي الزمان الذي تسمن فيه الفهود [٥] .

وإناث الفهود أوْعَرُ خلقاً وأكثر جرأة وأشدّ إقداماً وأجل صيداً من الذكور .

ومن شأن الفهد إذا وثب على طريدته ألا يَتَنَفّس حتى ينالها فتحمر لذلك رئته وتمتلىء من الهواء الذي حَبَسَه ، وسبيله أن يُراح بعد ذلك حتى يخرج ذلك النفس وتبرد تلك الغلة ، وأن يُشَق له عن قلب الطريدة بعد تذكيتها وأن يُطْعَم منها حاجته وأن يُسْقَى رِيّهُ ماءً إن كان الزمان

---

(١) الصيد والطرد عند العرب : ٧٠ .
(٢) المصايد والمطارد: ١٨٥ .
(٣) المصايد والمطارد : ١٨٣ نهاية الارب : ٩/٢٤٧ .
(٤) انظر الحيوان : ٧/٤٢ ، ٣٤ .
(٥) انظر نهاية الارب : ٩/٢٤٧ والمصايد والمطارد : ١٩٥ .

قيظاً ودون الريّ إن لم يكن الحر شديداً ، ثم تُبْتَغَى له طريدة أخرى ، ولا يكلف في اليوم أكثر من عشر مرات ، وقد يصاد به في اليوم نحو عشرين مرة على إعنات ، وهو إذا لم يُرَحْ لم يفلح بعد ذلك .

ومن طباع الفهد النومُ الكثير حق إنه ضُرب به المثل فقيل : أنوم من فهد ، ويقال : أفهد الرجل إذا أشبه الفهد في كثرة نومه ، ومن طباع الفهد الحياء ، فلا يُعْلَم أنه عاظل أنثاه وهو في يد الإنسان .

وقد حاول بعضهم ذلك واجتهدوا فيه فلم يفعل .

والفهد من السباع الحداد الأسنان ، وهو يدخل بعضها في بعض وكذلك الأسد والكلب [1] .

ومن طريف ما أودع الله في هذا الحيوان أن الفهود الهرمة التي تعجز عن الصيد لأنفسها تجتمع على فهد فتيّ فيصيد لها في كل يوم ما يشبعها .

ويقال : إن الفهدة إذا ثقلت بالحمل حَنّ عليها كل فهدٍ ذكر يراها وواساها من صيده ، ومن شأن الفهد إذا ذُهِبَ به إلى الصيد أن يُحْمَل على دابّة أو أن يُرْدَفَ خلفَ صاحبه [2] .

والمواضع التي توجد فيها الفهود وتصطاد منها هي : ما يلي بلاد الحجاز إلى اليمن ، وما يلي الحجاز إلى العراق ، وما يلي بلاد الهند إلى تبت ، كما توجد في (عيذاب) من أعمال قوص من الديار المصرية [3] .

---

(١) المصايد والمطارد : ١٨٤ ، والصيد والطرد : ٧١ والبيزرة : ١٢٨ .
(٢) انظر الصيد والطرد : ٧٠ - ٧٢ .
(٣) المصدر السابق .

أما صيد الفهد وتأنيسه فهو أمر في غاية الطرافة والعجب ، ذلك بأن الفهد سَبُعٌ ضار يغتال الإنسان ويفترس الحيوان، فكيف يتم تأنيسه وتأديبه حتى تأمره فيطيعك ، وتدعوه فيجيبك ؟! إن لصائدي الفهود في ذلك طرقاً رائعة وأساليب بارعة يضيق المقام عن ذكرها [١] .

وللصيد بالفهد ضروب ثلاثة هي: صيد المكابرة [٢] ، وصيد الدسيس [٣] وصيد المذانبة أو الإذناب .

أما صيد المكابرة فهو أن يَلتَقي الصائد الظبي بفهده مواجهة ومكافحة فحيث أمَّ الظبيوجَّه الصائد فهده نحوه وقابله به وأطلقه عليه فيلقاه وجهاً لوجه كما يلقى الفارس قِرنه ويجول عليه كما يجول على خصمه .

وفي هذا الضرب من الصيد تعسُّف شديد وإعنات بالغ للفهد وهو صيد الملوك ، ولعلهم آثروه على غيره لأنــه أمتع من الضربين الآخرين وأبعث على الإثارة .

أما صيد الدسيس ــ والدسيس في اللغة الختل وإخفاء المكر ــ فسبيلُه أن يتحرَّى الصائد الظباء فإذا وجدها ترعى غافلة غير آبهة مَكَّنَ فَهْدَه من رؤيتها ثم أرسله عليها من بعد معارضاً إياها لا مواجهاً لهـا كما هو الشأن في صيد المكابرة .

ويتلطف الصائد ما وسعه التلطف في إرسال الفهد من غير إزعاج له أو إقلاق وعند ذلك تجد الفهد في أروع صوره وأبرع حالاته ، فهو يطأ الأرض برفق ويمضي نحو الظباء الراتعة في خفة ورضانة رافعاً يداً وواضعاً يداً على

---

(١) انظر في هذا المبحث وغيره مما يتعلق بالحيوانات الصائدة والمصيدة كتاب « الصيد عند العرب » للمؤلف .

(٢) المكابرة : اصطلاح يستعمله الفهادون ويريدون به المواجهة .

(٣) الدسيس في اللغة إخفاء المكر .

وزن متساوق وقدر متناسب ، ويستمر على ذلك مـا دامت الظباء ناكسة رؤوسها في المرعى فإذا رفعتها وخاف منهـــا أن تنتبه له أمسك نفسه على الصورة التي انتهى إليها ، فلا يتقدم ولا يتأخر ولا يرفع اليد الموضوعة ولا يضع المرفوعة ، فإذا طأطأت رؤوسهـا ثانية سلك سبيله الأولى وهو أشدُّ حذراً وأكثر أناة حتى ليصح فيه وهو على هذه الحال الوصف الذي وَصَف به رؤبة الصائد حيث قال :

« فبات لو يَمْضَغ شَرْياً ما بصق »[1].

حتى إذا اقترب من طريدته الراتعة الغافلة حبس أنفاسه وامتلأت رئتاه من الهواء وحمي جسده ووثب على فريسته وأمسكها بكلتا يديه ولبث واقفاً حتى يأتي فَهّاده ويأخذها منه .

وعلى الفهاد عند ذلك أن يريحه ريثما يُخْرِج نفسه من رئتيه وتبرد غلته ثم يذبح الطريدة أمامه ويشق له قلبها ويطعمه منها ويسقيه ما يرويه من الماء إن كان الزمـان حاراً ودون الري إن لم يكن الحر شديداً ، ثم يبتغي به طريدة أخرى .

أما صيد المُذانبة فسبيله أن تكون الظباء سائرةً في سرب فتأتي من خلفها وتطلق الفهد في إثرها ومن وراء أذنابها ، وهو أكثر ضروب الصيد استعمالاً وأقلهـا إعناتاً للفهد وكدّاً ، وهو صيد الدهاقين والفهادين الذين يصيدون لأنفسهم[2].

---

(١) الشري : الحنظل .

(٢) انظر المصائد والمطارد : ١٨٣ ، ١٨٤ .

٣ ـ عناق الأرض :

عناق الأرض وجمعه عُنُق وعُنُوق ويسمى التفة والفنجل وهو دابة أصغر من الكلب وأكبر من السنور ، حسن الصورة ، طويل الظهر ، ذو أذنين سوداوين وجسد يشبه في لونه لون البعير الأحمر ، وهو يحكي بصورة عامة شكل الفهد .

وعناق الأرض معدود في جملة السباع لأنه لا يطعم غيرَ اللحوم .

وهو من الجوارح التي تُضَرَّى على الصيد فتَضْرَى وتصيد صيداً غاية في الجودة والملاحة يفوق في جودته وملاحته صيد الكلب .

وهو يصيد كلَّ شيء إذا عُلّم، شأنه في ذلك كشأن الفهد وهو مع ذلك يصيد الطير أيضاً ، فربما صاد الكركي وما قاربه ، فإذا طار الكركي وثب عليه وثبة شديدة في الهواء وأخذه برجله .

وهو كالفهد من حيث الاستخفاء عن الطريدة وختلها حتى يظفر بها .

وهو حيوان وحشيٌّ ربما واثب الإنسان فعقره ، وقد ضُرِبَ به المثل فقيل : لقي فلان عناق الأرض أي داهية .

ولم تكثر كتب البيزرة من الحديث عنه ، بل إن بعضها أغفله إغفالاً تاماً وذلك لأن أكثر استخدامه في بلاد العجم والموصل وبلاد الروم [1].

---

(١) انظر الحيوان : ١ / ٣٥٢ وأنس الملا : ٧٤ والمصايد والمطارد : ٢٢٥ والصيد والطرد عند العرب : ٨٣ .

الفصل الثاني

الصّيد عند العرب في الجاهليّة

عُنِيَ العرب في جاهليتهم بالصيد عناية ملحوظة ، ولا غروَ فهم أمة متبدّية تسكن الصحراء ، ومن شأن أهل الوبر أن يعتمدوا على الصيد في حياتهم ، وأن يتخذوا له أسبابه ، وأن يبذلوا ما في وسعهم للتمرُّس به وإتقانه ، فالصيد بالنسبة لأمة كالعرب وسيلةٌ من وسائل الرزق ، ومتعة من متع النفس ، وضرب من ضروب الحرب في أيام السلم ، وهم أشدُّ ما يكونون حاجة للرزق والمتعة والتدرُّب الدائم على القتال .

لذلك أقبلوا على الصيد إقبالاً كبيراً ، فطَعِموا من جوع حين أكلوا لحوم الطرائد ، واكتسَوْا من عري حين ارتدوا جلودها وأوبارها ، وأمنوا من خوف حين قتلوا الحيوانات التي تهدّد حياتهم وتروّع ماشيتهم .

ومن يتتبع الشعر الجاهليّ يجده طافحاً بذكر الصيد وأخباره ، حتى غدت المعارك التي تدور بين القانصين والنعائم ، والطّراد الذي يقع بين كلاب الصائدين وثيران الوحش وحميره تقليداً من تقاليد الشعر الجاهلي وركناً من أركان القصيدة العربية القديمة .

وكانت العرب تُغلي من شأن القنص، وتمدح الرجل بأكله من صيد يده، وتعتبر ذلك آية على أنَفَته، وعلامة على زهادته بما في أيدي الناس، فها هو ذا امرؤ القيس يصف قانصاً هرماً من بني ثُعَلٍ لا يزال - على الرغم من شيخوخته وطعنه في السّن - يعتمد الصيدَ وسيلة وحيدةً لكسب العيش فيقول :

رُبَّ رامٍ من بني ثُعَلٍ مُتلِجٌ كفيه في قُتَرِه[1]
فهو لا تنمي رَمِيَّتُه ما لَهُ لا عُدَّ من نفرِه[2]
مُطعَمٌ للصيد ليس له غيرها كسبٌ على كِبَرِه[3]

وكان الصائد منهم يعود على أهل حيّه بلحم صيده، ويجد في ذلك مجالاً من مجالات الفخر، يشير إلى هذا قول امرىء القيس :

إذا ما ركبنا قال ولدان حينا : تعالَوْا إلى أن يأتي الصيد نحطب[4]

وقد كانوا يرون أنّ طعام الصيد أكرم طعامٍ، فقد رَوَى كشاجم قول أحدهم :

ولقد أبيتُ على الطّوى وأظَلّه حتى أنالَ به كريمَ المأكلِ

ثم أردف يقول : « وفسّره بعض الرواة بأنه الصيد »[5].

---

(١) متلج كفيه في قتره : مدخل كفيه في القترة وهي البيت الذي يكن فيه الصائد للطرائد .

(٢) لا تنمي رميته : أي لا تنهض بالسهم وتغيب عنه وإنما تسقط في مكانها لإصابته مقتلها . وقوله : لا عد من نفره : دعاء عليه على وجه التعجب منه .

(٣) ديوان امرىء القيس : ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٦ .

(٤) المصايد والمطارد : ١٠ والبيزرة ٢٣ .

(٥) المصايد والطرائد : ١٠ .

وكان أبناء الملوك من العرب يفخرون بالصيد وأكل لحمه ، من ذلك قول امرىء القيس على الرغم من عراقته في الملك وأصالته في المجد :

وظَلّ طهاةُ اللحم من بين منضج صفيفَ شِواءٍ أو قدير مُعجَّلِ [1]

وكان العرب يطلقون على الصيد اسم « اللذة » ويعرفونه بذلك ، فقد سمّى الشاعر العربيُّ الصيدَ لذة واستغنَى عن أن يدعوه باسمه لعلمهم به واشتهاره فيهم وقَدْرِه عندَهم فقال :

كأنيَ لم أركب جواداً لِلَذّةٍ ولم أتبطن كاعباً ذات خلخالِ [2]

ولم يقتصر الصيد عندالعرب علىذوي الفاقة وإنما مارسه الأغنياء والفقراء، وأولع به السادة والسوقة ، فعَدِيٌّ بن حاتم الطائي أحد ملوك العرب في الجاهلية كان صياداً مولعاً بالصيد صاحب كلاب وجوارح وهو الذي جاء يسأل الرسول صلوات الله عليه عن أمرِ الصيد فيقول : سألت رسول الله ﷺ فقلت : إنا قومٌ نتصيد بهذه الكلاب فقال : إذا أرسلتَ كلابك المُعَلَّمةَ وذكرت اسم الله فكُلْ مما أمْسَكْنَ عليك إلا أن يأكل الكلب فلا تأكل ، فإنّي أخاف أن يكون إنما أمسك على نفسه ، فإن خالطها كلبٌ من غيرها فلا تأكل [3].

وحمزة بنُ عبد المطلب عَمُّ الرسول الكريم صلوات الله عليه كان صاحب صقور يصيد بها وكان « إسلامه عند مُنْصَرَفه من صيد ، وعلى يده صقر » فقد جاء في السِّيَرِ أنّ حمزة كان صاحب قنص يرميه ويخرج له وكان أعز فتىً في قريش ، فرجع يوماً من صيده فقالت له امرأة ـ كانت رأت ما نال

(١) البيزرة : ٢٤ وديوان امرىء القيس : ٣٥ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) متفق عليه .

رسولَ الله ﷺ من أذى أبي جهل ـ : يا أبا عمارة ، لو رأيت مـــا صنع أبو الحكم بابن أخيك ، فمضى على حاله ، وهو متمَلِّقٌ قوسه في عنقه حتى دخل المسجد ألفى أبا جهل ، فعلا رأسه بقوسه فشجَّه ثم قال : « ديني على دين محمد : أشهد أنَّه رسول الله »[1].

وكما كان الفرس أول من ضرَّى البُزَاة ، وكان الروم أول من اصطـاد بالشاهين والعقاب ، فقد كان العرب أول من ضرَّى الصقور وصاد بها ، حيث أجمع الباحثون في البيزرة على أنَّ أول من صاد بالصقر وضَرَّاه الحارثُ بن معاوية بن ثور بن كِنْدَةَ ، وسبب ذلك أنه وقف في بعض الأيام على صياد نصب شبكةً للعصافير فانقضَّ صقر على عصفور علق في الشبكة وجعـل يأكله فما لبث أنْ علق جناحاه بها ، والحارث ينظر إليه ويعجب من فعله فأمر به فحُمِل إليه ، ووكل به من يسوسه فصار يحمله على يده ، وفي ذات يوم رأى الصقرُ حمامة فطار عن يده إليها وأخذها وأكلها فأمر الحارث عند ذلك بتدريبه وتضريته والتصيُّد به ، فبينا هو يسير يوماً ومعه الصقر لاحت له أرنب فطار إليها وأخذها ، فلـــا رآه يصيد الطير والأرنب ازداد به إعجاباً واغتباطاً ، واتخذته العرب من بعده ، واستفاضت الصقور بين الناس[2].

وقد شُهِر العرب في الجاهلية عنـــد الأمم المجاورة بتضريتهم للصقور وعُرفوا بذلك وجعل الملوك يستهدونهم بعضاً منهـا ، فقد جاء في كتاب الطيور « أن العرب لما ضَرَّوا الصقور وقنصوا بها الوحش والطير بلغ خبرها كسرَى بهرام الأكبر بن سابور [3] ، فأرسل إلى ملوك الحيرة من بني مضر بن

---

(١) السيرة لابن هشام : ٣١٢ ، والبيزرة : ٤٠ .

(٢) مروج الذهب : ١/ ١٦٠ وما بعدها، ونهاية الأرب: ١٩٦/١٠ . وكتاب الطيور : الورقة : ١٥ وما بعدها ، وأنس الملا : ١١٧ .

(٣) وَلي بهرام الأول الملك سنة ١٧٢ م وذلك بعد سابور الأول، وفي الأسرة الساسانية أربعـــة ملوك عرفوا باسم بهرام ، وَليَ آخرهم الملك سنة ٣٨٨ – ٢٩٩ انظر تاريخ إيران : ١ / ٥٤٢ .

خذيمة جد المناذرة فبعثوا إليه بصقر فوجده يتعاقب على صيد الطير والأرنب فأعجبه واتخذه ليُظهِرَ للروم فضيلة الصقور وعملها[1].

ومن هنا قال الجاحظ « إن الباز أعجميٌّ والصقر عربيٌّ »[2].

ولم يكن العرب الجاهليون أول من صاد بالصقور فحسب وإنما كانوا أول من ضَرّى الفهودَ أيضاً، فقد رُوِيَ أنّ أول من صاد بالفهد كليبُ بنُ وائل، وقيل هَمّام بن مرة وكان صاحب لهو وطرب، وأول من حَمَله على الخيل يزيد ابن معاوية بن أبي سفيان .

أما الكلاب فقد عُنِيَ العربُ بها في جاهليتهم عناية ملحوظة واعتمدوا عليها في الصيد اعتماداً كبيراً ، فقد كانت لعامر بن عنترة كلابُ صيد وكان يحسن صحبتها فلما مات لزمت قبرَه حتى ماتت عنده[3].

وقد بلغ من اهتمام العرب بكلاب الصيد وبخاصة السلوقية منها أنّهم كانوا ينسبونها كما ينسبون الخيل[4].

أما الصيد بالرماح والقِسِيّ فقد كان أكثر وأشهر وأشيع من الصيد بالجوارح والضواري ،ومن يرجع إلى «المخصص» وغيره من كتب اللغة يدهش لكثرة ما أطلقه العرب من أسماء وأوصاف على كل جزءٍ من أجزاء القِسِيّ والسهام والرماح حتى ليخيل للمرء أنهم يصفون آلة من آلات الحرب الحديثة المعقّدة.

وقد انصبّت عنايةُ العرب بالصيد على صيد البَرّ والجَوّ ، أما صيدُ البحر فليس له عندهم شأنٌ يُذكَر ذلك لأنّهم في كثرتهم أمّةٌ بدوية تسكن الصحراء وتتنقل فيها ، وليسوا بأمة بحرية تغشى البحار وتفيد من صيدها .

---

(١) كتاب الطيور الورقة: ١٥ وما بعدها .

(٢) كتاب الحيوان : ٦ / ٤٧٨ .

(٣) فضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب : ١٠ .

(٤) المصايد والمطارد : ١٣١ .

الفصل الثالث

شعر الصيد قبل ظهور الطرديات

أكثر الشعراء الجاهليون ومن تَرَسَّمَ خطاهم من ذكر الصيد في شعرهم ، وجعلوا وصفَ الحيوانات المصيدة من ثور وعَيْر ومَهاة ونعام وما تتعرض له من سهام القانصين وكلاب الصائدين فقرة من فقرات قصيدتهم قلما أغفلوها أو تجاوزوا عنها .

ولقائل أن يقول : ما الفرق بين شعر الصيد هذا وبين الطرديات ؟ وما مدى صلة السابق باللاحق ؟ وما مبلغ أثره فيه ؟

وهي أسئلةٌ جديرةٌ بالاهتمام ، حريّةٌ بالإجابة ، لذا رأيت أنه لا بد لي من أن أعقد فصلاً ألِمُّ فيه بشعر الصيد قبل ظهور الطرديات لأمكن القارىء من الوقوف على طبيعة هذين الفنين من القولِ ولأتيح له فرصة الموازنة الواعية بينهما ولأجعله يضع يده على خصائص كلٍّ منهما .

وللوفاء بهذا الغرض سأستعرض لامية امرىء القيس المعروفة بالمعلقة ، ودالية زهير ، وعينية أبي ذؤيب ؛ ففي هذه القصائد الثلاث ألوان من شعر

الصيد تحقق الغاية التي عقدنا من أجلها هذا الفصل ، ثم أتبع ذلك بكلمة عامة عن خصائص شعر الصيد قبل ظهور الطرديات .

أما معلقة امرىء القيس ، فعِدَّة أبياتها سبعة وسبعون بيتاً، وقد ابتدأها الشاعر بذكر الديار والأطلال ، ثم استرسل يتغزل بمحبوباته، ويذكر أخباره معهن ، فقال في ذلك ثلاثة وأربعين بيتاً ، ثم انتقل إلى وصف ما يكابده من همومه القاسية وما يعانيه من ليله الطويل فقال في ذلك خمسة أبيات .

ثم ترك ذلك إلى وصف جواده فقال :

وقد أغْتَدِي والطيرُ في وُكُنَاتِها
بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الأوابِدِ هَيْكَلِ [(١)]

ثم تحدث عن كرِّه وَفرِّه ، ولَوْنِه ، وجَرْيِه ، وما إلى هذا من كريم صفاته ، فقال في ذلك عشرة أبيات أنهاها ببيت قال فيه : إنه ترك هذا الجواد يبيت على عَيْنٍ منه ، وعليه سرجُه ولجامه انتظاراً للصباح ليبادر به الصيد :

وباتَ عليه سَرْجُه ولِجَامُه وبات بِعَيْني قائماً غيرَ مُرْسَلِ [(٢)]

ثم أخذ يصف الصيد بهذا الجواد فقال :

فعَنَّ لنا سِرْبٌ كأن نِعَاجَه عَذَارَى دَوَارٍ في المُلاءِ المُذَيَّلِ [(٣)]
فأدْبَرْنَ كالجَزْعِ المُفَصَّلِ بينه بِجيدِ مُعِمٍّ في العَشيرة مُخْوِلِ [(٤)]

---

(١) الديوان : ١٩ .

(٢) الديوان : ٢١ .

(٣) دُوَار : بضم الدال وفتحها : صنم كانوا يدورون حوله ، يقول : عَرَض لنا قطيع من قطعان بقر الوحش كأنّ إناثه عذارى يطفن حول دوار وقد ارتدين الملاء الطويل المهدب .

(٤) الجزْع المفصل : الخرز الذي فصل بينه وبين اللؤلؤ ، يقول : فلما رأتنا نعاج السرب أدبرت فكان بياضها المختلط بسوادها كالخرز الذي فصل بينه وبين اللؤلؤ ، وقد عُلّق بجيد صبيٍ كريم العم والخال .

فألحقنا بالهاديات ودونه جواحرها في صرّة لم تزيّل [1]

فعادى عداءً بين ثور ونعجة دراكاً ولم يُنضح بماء فيُغسل [2]

وظلّ طهاة اللحم من بين منضج صفيف شواء أو قدير معجّل [3]

ثم عاد الشاعر إلى وصف جواده كرّة أخرى فقال :

ورُحنا وراح الطِّرف يَنفُضُ رأسه
متى ما تَرَقّ العينُ فيه تَسهّلِ [4]

كأنّ دماء الهاديات بنحره
عُصارة حناء بشيب مرجّل [5]

وأنتَ إذا استدبرته سدّ فرجه
بضافٍ فُويقَ الأرض ليس بأعزل [6]

ثم ترك الشاعر جواده إلى وصف البرق والسحاب والمطر ، وما أحدثه السيل من آثار ، وقد استغرق ذلك من القصيدة أحد عشر بيتاً [7] .

---

(١) الجواحر : المتخلفات ، والصّرة : الجماعة ، ولم تزيّل : لم تتفرق ، يقول : فألحقنا هذا الجواد بالمتقدمات من البقر ، وجمع أواخرها وأوائلها دون أن تتفرق فلم يفته شيء منها .

(٢) العداء : الموالاة ، لم يُنضح بماء : لم يعرق ، يقول : إنه قد والى في عدوه بين الثور والنعجة ، وصاد قبل أن يجهد ويعرق .

(٣) الصفيف : المرقّق من اللحم ، والقدير : ما يطبخ في القدر ، يقول : وغدا طهاة اللحم فريقين ، فمن شاوٍ له بعد تقطيعه وترقيقه ، ومن طابخ إياه في القدر مُعجّل له .

(٤) الطِّرف الفرس السريع . متى ما ترقّ العين فيه تسهّل ، أي إنه حسن الأعلى والأسفل ، فالناظر إليه يصعد فيه النظر ويصوبه إعجاباً بحسنه .

(٥) يقول : إن دماء الوحش بصدر هذا الفرس كعصارة الحِناء على الشيب .

(٦) الفرج : الفُرْجة التي بين رجلي الجواد . الضافي : الطويل ، وهو نعت للذنب . يقول : وأنت إذا ما نظرت الى هذا الجواد من خلفه وجدته قد سدّ ما بين رجليه بذنب ضاف لا هو بالطويل فيطأ عليه ، ولا هو بالقصير فيبعد عن الأرض .

(٧) الديوان : من ٢٤ — ٢٦ .

من هذا العرض السريع للقصيدة تبدو لنا طائفةٌ من الملاحظات أهمها :

– أن القصيدة كانت مسرحاً لعدد من الأغراض وأن الصيد كان غرضاً صغيراً من أغراضها ، فنال خمسة أبياتٍ من سبعةٍ وسبعين بيتاً .

– بل إن الصيد لم يكن غرضاً أصيلاً مقصوداً لذاته كما هو الشأن بالنسبة إلى الغزل ، ووصف الجواد ، ووصف البرق والسحاب والسيل ، وإنما جاء تبعاً لأحد هذه الأغراض ألا وهو وصف الجواد ، فالشاعر حين أراد أن يصف جواده بالسرعة والقدرة والظفر وَجَدَ أن ذلك يتحقق بلحاقه بِسِرْب الوحش وظفَرِه به قبل أن ينال منه الجهد أو يتصبّب منه العرق:

فعَادَى عِداءً بين ثور ونعجة   دِراكاً ولم يُنْضَحْ بماء فيغسل

– ومما يجعلنا نوقن بأن وصف الصيد جاء تبعاً لوصف الجواد ، هو أن الشاعر أتى بـــه في ثنايا وصف حصانه ، ولو كان الصيد مقصوداً لذاته لاستوفى الشاعر وصف فرسه، ثم انتقل إلى وصف الصيد ثم تركه إلى غرض آخر جديد .

– والشاعر حين اتخـــذ الصيدَ وسيلةً لوصف الجواد أهمل من الصيد الجوانب التي لا تحقق غرضه فلم يشر إلى طريقة الصيد ولا إلى أداته ولا إلى الصائد لأنها لا تتصل بغرضه .

بل هو أوْهَمَ القارىء بأن الجواد هو الذي صاد مع أن الجواد لا يعدو أن يكون أداةً من أدوات الصيد ، وليس هو بالجـــارح أو الضاري الذي يُصاد به .

– وأخيراً فإنّ نتيجة الطراد بين الجواد والفريسة في مثل هذه الحالة مُقَدَّرَةٌ معروفة ، فلا بد من أن يكون الجواد غالباً ولا بد من أن تكون الطريدة مغلوبة حتى يتحقق غرض الشاعر .

* * *

أما دالية زهير التي مطلعها :

غَشِيتُ الديـار بالبقيـعِ فَثَهْمَدِ
دوارِسَ قد أقْوَيْنَ من أم مَعْبَدِ [1]

فموضوعها المديح ، وقد افتتحها الشاعر بالتغزُّل بمحبوبته أم معبـد ، ووقف على أطلالها وسألها وألحّ في سؤالها ، فلما ألفاهـا لا تجيبه لاذ بظهر ناقته فقال :

وَقَفْتُ بهـا رَأْدَ الضّحَاءِ مَطِيَّتي
أُسائِل أعلامـاً بِبَيْداءَ قَرْدَدِ [2]

فلمـا رأيـت أنهـا لا تُجيبُني
نَهَضْتُ إلى وَجْنَاءَ كالفحل جَلْعَدِ [3]

ثم خلع على ناقته هذه ما شاء أن يخلع من صفات النّجَاء ، والقدرة على قطع الفيافي والقفار ، ونعتها بأنها مَرُوحٌ جَنُوحٌ ناجيةٌ .

ثم انتقل إلى مشهد الصيد ، وذلك حين شبّه ناقته ببقرةٍ وحشيةٍ خنساء الأنف ، سَفْعَاء الخدين ، كريمة الشمائل ، دائمة الذعر على ولدها :

كَخَنْساءَ سَفْعَاءِ المَلاطِمِ حُرّةٍ مُسافِرةٍ مزءودةٍ أمّ فَرْقَدِ [4]

---

(١) الديوان : ٢١٩ .

(٢) رأد الضّحاء : وقت ارتفاع الشمس وانبساط ضوئهـا . القردد : ما ارتفع من الأرض وغلظ .

(٣) الوجناء : الناقة الغليظة الضخمة الوجنات . الجَلْعَد : الشديدة .

(٤) الخنساء هي التي فيها خنس، والخنس تأخر الأنف في الرأس. السفع:سواد في حمرة. الملاطم : الخدود . المزءودة : المذعورة . الفرقد : ولد البقرة .

لقد غدت هذه البقرة إلى المرعى مُزَوَّدة بسلاح تُتَّقَى بمثله المخاطر ويأمن به قلب الخائف المذعور.

وبأذنين تلمح فيهما مخايل العتق قد نبَتَتا في أصل قرن أملس الفقرات مدبّب الرأس .

وبعينين ترميان قذاهما بعيداً كأنهما من سوادهما وحسنهما مكحولتان بإثمد :

غَدَتْ بِسِلاحٍ مثلُه يُتَّقى بِه ويُؤمِنُ جأشَ الخائف المُتَوَقِّدِ[1]

وسامِعَتين تعرِف العَتْقَ فيهما إلى جِذْرِ مدْلوكِ الكُعوب مُحدَّدِ[2]

وناظِرتين تطْحَرانِ قَذاهُما كأنَّهما مكحولتَان بإثْمِدِ[3]

لقد استهواها المرعى الخصيبُ وقتَ الضحى وحَلَتْ لها الخلوة في الخمائل النضرة فغفلت عن ولدها ، عند ذلك خَفَّتْ إليه السباع وافترسته وهو راقد في كناسه .

لقد ارتكبت بفَعْلَتِها هذه خطيئةً لا تُغتفر فهَبَّتْ وَلْهَى تبحث عن ولدها ، فوجدت علامات تدل عليه عند آخر موضع فارقته فيه :

وجدت دماً مُتَناثِراً ، وأشلاءً مبعثرةً ، وبضع قطع لحم في جلدٍ ممزقٍ تحجل الطيور نحوها لتطعم منها :

طَباها ضَحاءٌ أو خَلاءٌ فخالَفَتْ إليه السباع في كِناسٍ ومَرْقَدِ[4]

---

(١) بسلاح : يعني قرنيها . الجأش : الصدر . المتوقد : الذي توقد جوفه من الفزع .

(٢) العتق : الكرم . جذر : أصل. مدلوك الكعوب : يعني أن قرونه مدلوكة مُلس . الكعب : ما بين العقدتين في القرن والقناة .

(٣) تطحران : ترميان . الاثمد : الكحل .

(٤) طباها : دعاها بطيبه . الضحاء للإبل مثل الغداء للناس ، وهو الرعي عندالضحى. الكناس : بيت الظبي في الشجر يستتر فيه من الحر والبرد . إليه : أي إلى الولد .

أضاعت فلم تَغْفِرْ لها غَفَلاتُها فلاقتْ بياناً عندَ آخر مَعْهَدِ [1]
دَماً عندَ شِلْوٍ تَحْجِلُ الطيرُ حولَه
وَبَضْعَ لِحَامٍ في إهابٍ مُقَدَّدِ [2]

لقد راعها فقدُ ولدها فطفقت تتردد بين الخمائل ذاهبة آيبة وكأنها مُسَرْبَلة بثوب كتّانٍ أبيض اللون مخطط النسيج، وأخذت تتحرى مكامن هذه الخمائل لترى إذا كان فيها من يترصدها من رُماة طيّءٍ الذين تخشاهم أشدّ الخشية ، فلما بَصُرَت بهم وقد قعدوا لها في مخارج الطرق ليختلوها ويرموها تذكرت مصيبتها بولدها :

فجالَت على وَحْشِيِّها وكأنها مُسَرْبَلَةٌ في رَازِقِيٍّ مُعَضَّد [3]
وتنفض عنها غيبَ كلّ خميلةٍ
وتَخْشَى رُماةَ الغوثِ من كُلّ مرصد [4]
ولم تَدْرِ وَشْكَ البين حَتّى رأتهمُ
وقد قعدوا أنفاقَها كُلَّ مَقْعَد [5]

عند ذلك ثار بها القَنّاصُ من جانبيها كليهما وأطلقوا عليها كلابهم فدارت حين رأت ذلك وأسلمت قدميها للريح وهي حين تُحْمَل على الجري تجهد نفسها حتى لا يضارعها في جريها أحد .

---

(١) أضاعت : أي تركت ولدها وغفلت عنه . فلاقت بياناً : أي استبانت . آخر معهد : آخر موضع عهدته فيه وتركته عنده .

(٢) الشلو : بقية الجسد . بضع : جمع بَضْعة . إهاب : جلد . مُقَدَّد : ممزّق .

(٣) جالت : جاءت وذهبت ووحشيها : الجانب الذي لا يُركَب منه وهو الايمن وأنسيها الجانب الذي يركب منه وهو الأيسر ، الرازقي : الكتان ، المُعضّد : المُخطّط .

(٤) تنفض : تنظر لترى ما إذا كان فيه ما تكرهه ، رماة الغوث : رماة من طيء ، والمرصد : المكان الذي يرصد فيه .

(٥) وشك للبين : سرعته ويريد به مفارقتها لولدها ، أنفاقها : مخارجها وطرقها .

فَبَذَّت الكلابَ اللواتي أتينها من خلفها ، وَطعَنت اللواتي أتَيْنَ من أمامها :

وثاروا بهـا من جانبيهـا كليهما
وجالَتْ وإن يُجَشّمْنَها الشدَّ تَجْهَدِ [١]

تَبُذُّ الأُلى يأتينهـا من ورائهـا
وإن تَتَقَدَّمْها السوابِقُ تَصْطَدِ [٢]

فأنقذها من غمرة الموت اعتقادها بأنهـا إذا حاولت الأخْذَ بثأر ولدها فسوف تُقتَل ، لذلك ولّت مسرعة ، فأنجاها من الرَّدى عَدْوٌ جادٌّ لا ريث فيه ولا وناء ، وقرنٌ أسود أُعِدّ لذود الأعداء والدفاع عن النفس.

وجدَّت في الجري فألقت بينهـا وبين الكلاب ستاراً كثيفاً من الغبار كأنه دخان شجر الغرقد ، إذ كانت تعدو بقوائم متلائمة يشبه بعضها بعضاً سريعةٍ كخذاريف الصبيان ، مُعتَمِدَةٍ على صدر مكتنز اللحم مدعم بظهر قوي :

فأنقَذَها من غَمْرَةِ الموت أنهـا
رأت أنها إن تَنْظُرِ التَّبْلَ تُقصَدِ [٣]

نجاءٌ مُجِدٌّ ليس فيـه وَتِيرَةٌ
وتَذْبيبُها عنها بأسْحَمَ مِذْوَدِ [٤]

وجَدَّتْ فألقت بينَهن وبينَهـا
غباراً كما فارت دَوَاخِنُ غَرْقَدِ [٥]

---

(١) يجشمنها : يكلفنها إياه ويحملنها عليه ، وتجهد : تسرع .

(٢) تَبُذُّ : تسبق ، والمعنى أنهـا تسبق الكلاب التي تجري خلفهـا وتطعن التي تغدو أمامها .

(٣) إن تنظر التبل : إن تنتظر حتى تأخذ بثأر ولدها . تقصد : تقتل .

(٤) نجاء مجد : سير ليس فيـه تلبُّث وفترة . التذبيب : الدفاع . المذود الاسحم : القرن الاسود المُعَدّ للدفاع .

(٥) بينهن : بين الكلاب وبينها . دواخن : إما جمع داخنه وإما جمع دخـان . الغرقد : شجر له شوك .

بِمُلْتَشِياتٍ كالخذاريف قُوبِلَتْ   إلى جَوْشَنٍ خاظِي الطريقة مُسْنَدِ[1]

ثم أنهى المشهد بأن جعل هذه البقرة تخرج من الطّراد منتصرة وعلى نحرها خطوط من دماء الكلاب كأنها سيور حمر على أديم أبيض .

كأن دماء المُؤسَداتِ بِنَحْرِها   أطِبَّةُ صِرْفٍ في قَضيمٍ مُسَرَّدِ[2]

* * *

أمّا عينية أبي ذؤيب[3] ، فقد اخترناها لأنها تمثل لوناً آخر من شعر الصيد ، فقد جاءت فقرة الصيد في القصيدة في معرض الرثاء واتخذ منها الشاعر وسيلة للتأسّي والعزاء ، ذلك لأنه قالها لما أصاب الطاعون أولاده الخمسة ، فهلكوا جميعاً في عام واحد[4].

ومطلع هذه القصيدة :

أمِنَ المنون وريبها تَتَوجَّعُ   والدهرُ ليس بِمُعْتِبٍ من يَجزَعُ[5]

وعدة أبياتها ستة وستون بيتاً ، وقد جعلها الشاعر أقساماً أربعة :

فبكى في القسم الأول أولاده ، ثم عزّى نفسَه في القسم الثاني عن هلاكهم بهلاك حمار وحشي معتصم مع أتُنِه في الفلوات على يد صائد .

---

(١) الملتشيات : القوائم التي يشبه بعضها بعضاً. الخذاريف : جمع خذروف ، وهو شيء يدوّره الصبيان بخيط فيكر بسرعة . الجوشن : الصدر . الخاظي : المكتنز . الطريقة : اللحمة التي على أعلى الصدر . وكل لحمة مستطيلة فهي طريقة . مسند : أي أسند إلى ظهرها.

(٢) المؤسدات : المُغريات بالصيد . أطِبَّة : سيور . الصرف : صبغ أحمر تُصبغ به شُرُك النعال . القضيم : الجلد الأبيض . المسرد : المخروز بالمخرز .

(٣) انظر ترجمته في الطبقات لابن سلام : ١١٠ والأغاني : ٦ / ٢٦٤ ، وخزانة الأدب ١ / ٢٠٣ ، وأسد الغابة : ٥ / ١٨٨ ، ومعجم الأدباء : ١١ / ٣٨ .

(٤) انظر شرح أشعار الهذليين : ١ / ٣ .

(٥) المصدر السابق : ١ / ٤ .

ثم عزّى نفسَه في القسم الثالث بهلاك ثور وحشي ذي مِرّةٍ على يد صائدٍ آخر .

ثم عزّى نفسه في القسم لرابع بهلاك كَمِيٍّ شجاعٍ على يد قِرْنِه في ساحات الرّوْع .

وقد استغرق مشهدا الصيد من القصيدة أربعة وثلاثين بيتاً .

وفيما يأتي عرْض للقصيدة :

بدأ الشاعر قصيدته بذكر مصيبته الفادحة وما خلّفته في نفسه من حسرةٍ ، وما سفحته على خديه من عبرة ، وما أقضّت من مضاجعه ، وما أرّقت من جفنيه .

ثم أعلن عجزه عن مدافعة الموت ، ذلك لأن المنية إذا أقبلت لا تُدفع وأن الأجل إذا جاء لا يستقدم ولا يستأخر .

ثم تحدّث عن تجلّده حتى لا يُشْمِتَ به الشامتين ولا يُقِر بمصيبته عيونَ الشانئين [1] .

ثم انتقل من ذلك إلى التأسّي بهلاك الحمار الوحشي مع أتنه على يد الصائد فقال :

والدهر لا يبقى على حدثانه   جَوْنُ السَّراةِ له جَدائِد أربع [2]

ثم طفق يصف هذا الحمار الوحشي فذكر نُهاقه العالي ، ومراعيَه الخصبة ، وأُتنَه المطاوعة ، ونشاطَه الجَمّ وريّه الوافر ، وحياته الرافهة الآمنة المطمئنة .

---

(١) انظر شرح أشعار الهذليين : ٤/١ — ١١ .

(٢) جون السراة : يعني حماراً وحشياً والجون : الأسود والسراة : الظهر ، والجدائد جمع جدود : وهي الأسنان .

فلما حان حَيْنُه جفّتْ مياه غدرانه وانقطعَ كلأ مراعيه فغلبه شقاؤه وأحوجه إلى ورود العيون التي يكمن عندها الصائدون فسمى إلى حَتْفِه بِظِلْفِه :

حتى إذا جَزَرَتْ مياه رُزونِه وبأيِّ حينِ مَلاوة تتقطّع !! (١)

ذَكَرَ الورود بها وشاقى أمرَه شُؤْماً وأقبلَ حَيْنَه يتتبّعُ (٢)

فما كان منه إلا أن قاد أتُنَه إلى المورد الذي كمن فيه الموت ، وفيما كُنَّ يَشْرَبْنَ سمعن ما يريبهن من قرع القوس، وشد الوتر وهمهمة الصائد :

فشَرَعْنَ في حَجَرات عَذْبٍ باردٍ
حَصِبِ البطاح تغيب فيه الأكْرُع (٣)

فشَرِبن ثم سَمِعْن حِساً دونَه
شَرَفُ الحِجاب وريْبُ قرعٍ يَقرَع (٤)

ونَميمَةٍ من قانص مُتلَبِّبٍ في كفّه جَشْءٌ أجشُّ وأقْطَع (٥)

---

(١) جَزَرَت : غارت . الرُّزون مفرده رَزْن : الموضع الغليظ الذي يمسك الماء وفيه طمأنينة . وبأي حين ملاوة تتقطع : يَتَعجَّبُ من انقطاع الماء عنه حين لا يُصبَر على انقطاعه . والملاوة : أي مَلِيّاً من الدهر .

(٢) شاقى أمره : من الشقاء : يقول : لما أتى للماء وارداً أقبل الحَيْن يظهر له . يتتبّع : أي جعل يتتبع حين نفسه .

(٣) شرعن : أي قدّمت الأتن رؤوسها للشرب . الحَجرات : النواحي . حصب البطاح : فيه حصباء ،

(٤) دونه شرف الحجاب : أي دون ذلك الحس شرف الحجاب يريد حجاب الصائد لأنه يحتجب عن الطرائد بشيء . والشرف : ما ارتفع من الأرض . والحجاب مرتفع يكون في الحَرّة عند منقطعها . وريب قرع يقرع : أي سمعن ما يريبهن من قرع قوس وصوت وتر ونحو ذلك .

(٥) نميمة : همهمة نمّتْ عليه . الجشء : قضيب خفيف . أجش : في صوته جُشّة . أقطع : نصال عراض قصار .

فأنكرت الحمر ما سمعت وانطلقت تروم النجاة ، فمرت قريباً من الصائد وأمكنته من نفسها وهي لا تدري ، فرماها فأردى منها أتاناً نَحُوصاً فخرت صريعة على الثرى مضرجة بدمائها .

ثم بدا للصائد الفحلُ فأجال يده في كنانته وأخرج منها سهماً دقيق القُذَذِ بعيدَ المدى ، فرماه به فاستقر السهم في جوف الفحل .

ثم ما زال بالأتن يرميهن الواحدة تِلْوَ الأخرى حتى جعلن يَعْثُرْنَ في عَلَقِ نجيعهن ويتسايل الدَّمُ على قوائمهن فبَدَوْن وكأنهن ارتدين بروداً ذوات خطوط :

فتَنَكِرْنَهُ فنَفَرْنَ وامترسَتْ به ... عَوْجاءُ هاديةٌ وهادٍ جُرْشُعُ[1]

فرمى فأنْفَذَ من نَحُوصٍ عائطٍ ... سَهْماً فخَرَّ وريشُهُ مُتَصَمِّعُ[2]

فبدا له أقْرابُ هـذا رائغاً ... عَجِلاً، فعَيَّثَ بالكِنانةِ يُرْجِعُ[3]

فرمى فألحق صاعِديًّا مِطْحَراً ... بالكَشْحِ فاشتَمَلَتْ عليه الأضْلُعُ[4]

فأبَدَّهُنَّ حُتوفَهُنَّ فهاربٍ ... بِذَمائِهِ أوْ بارِكٍ مُتَجَعْجِعُ[5]

يَعْثُرْنَ في عَلَقِ النجيعِ كأنما ... كُسِيَتْ بُرودَ بني يَزيدَ الأذْرُعُ[6]

---

(١) نَكِرْنه : أي نَكِرت الحمر الصائد . امترست به : مرت ناحيتـه . الهادية : المتقدمة والهادي كذلك . جُرْشع : منتفخ الجنبين ، ويريد بالهادي الفحل وبالهادية الأتان.

(٢) النَّحوص : الحائل . العائِط : التي لم تحمل سنتين أو ثلاثاً . فخر : أي السهم . متصمع : دقيق الريش لطيفه ، وقيل أن معنى متصمع : منضم من الدم .

(٣) فبدا له : أي للصائد . أقراب هذا : أي أقراب الفحل . والقربان : الخاصرتان. عيَّثَ : مدّ يده إلى الكنانة ليختار منها سهماً .

(٤) الصاعدي : السهم المنسوب الى صَعْدَة وهي قرية أو نسبة إلى رجل يقال له صاعد. المطحر : البعيد المدى السريع الذهـاب . والمطحر من السهام : الذي ألزقت قُذذُه أي أُدقتْ جداً .

(٥) أبدَّهُنَّ : قتلهن بَدداً كل واحدة بسهم . الذَّماء : بقيَّة النفس . المتجعجع : الساقط المصروع اللاصق بالأرض .

(٦) العلق : قطع الدم . والنجيع : الطري من الدم . بنو يزيد : كانوا تجاراً بمكة .

ثم انتقل الشاعر من التأسي بهذا العَيْر وأتُنِه إلى التعزي بثورٍ وحشيٍ قارح تمَّت أسنانه ، واشتدَّت مِرَّتُه فقال :

والدهر لا يبقى على حدثانه شَبَبٌ أفزَّته الكِلابُ مُرَوَّعُ[1]

ثم طفق يصف يقظة هذا الثور ، وخوفه من أن تظفر به الكلاب على غفلة منه مما جعله يتوجس من كل نأمَةٍ ، ويُحِدّ بصرَه ليرمي به الغيوب، ويرهف سمعه ليسمع به كل جَرْسٍ .

شَغَفَ الكلابُ الضارباتُ فؤادَه فإذا يَرَى الصبحَ المُصَدَّق يَفزَعُ[2]

يَرْمي بعينيه الغيوبَ وَطَرْفه مُغضٍ يُصَدِّق طرفُه ما يسمع[3]

غير أن شدة الحذر لم تمنع من وقوع القدر ، ذلك بأنه كان ذات غداة ليلةٍ ماطرة يُعرِّض ظهره للشمس ليجفف شعره فبرزت له كلاب الصيد تروم صيده فكرَّ عليها بقرنين أملسين نافذين ، ودارت بينه وبينها معركة ضارية، فكانت تارة تنهشه وكان تارة يذودها بقوائمه الضخمة الغليظة :

فَغَدَا يُشَرِّق متنَه فبدا له أُولى سوابقِها قريباً تُوزَعُ[4]

فنحا لها بِمُذَلَّقَيْن كأنَّما بهما من النَّضحِ المُجَدَّحِ أَيْدَعُ[5]

---

(١) الشَّبب : الثور المسن الذي تمت أسنانه وهو مثل القارح ، أفزَّته الكلاب : استخفته وأذهبت قلبه .

(٢) شغف الكلاب فؤاده : ذهبن بقلبه . فإذا يرى الصبح المصدق يفزع : إذا نظر إلى الصبح ترقَّب الكلاب أن تأتيه .

(٣) الغيوب : جمع غيب وهو الموضع الذي لا يُرى ما وراءه . وطرفه مُغض : يقول ينظر ثم يطرق . يصدق طرفه ما يسمع : أي إذا سمع شيئاً رمى ببصره فكان ذلك تصديقاً لما يسمع .

(٤) يُشرِّق متنه : يظهره للشمس ليجف . توزع : تلف وتحبس على ما تخلف منها ليجتمع بعضها إلى بعض لكيلا يخلو بواحد منها فيقتله .

(٥) نحا : تحرَّف للكلاب ليطعنها . بمذلَّقين : بقرنين أملسين محددين مسنونين . النضح المجدح : الدم المحرك . الأيدع : شجر تصبغ به الثياب .

يَنْهَسْنَــه ويذودُهن ويَحْتَمِي عَبْلُ الشَّوَى بالطُّرَّتَيْنِ مُوَلَّعُ[1]

فما لبث أن صرع بعضَها وجعل بعضها الآخر يعوي من الفَرَق ويَسْتَخذي ويتضاءل ، ذلك بأنه رماها بقرنين نافذين كسفودين حادين لم يُسْتَعْمَلا في شِواءٍ ينال من مضائهما ، عند ذلك بادر الصائد إلى إنقاذ مـا بقي حيّاً من من كلابه فعمد إلى سهم رقيق الشفرات مرهف الحد ورماه به :

حتى إذا ارتَدَّت وأَقْصَدَ عُصْبَةً منها وقام شريدُهـا يَتَضَوَّعُ[2]

فكأن سَفُّودَيْنِ لَمَّـــا يُقْتَرا عَجِلالَه بشواء شَرْبٍ يُنْزَعُ[3]

فدنا لـــه رب الكلاب بكفه بيضٌ رِهافٌ رِيشُهُنَّ مُقَزَّعُ[4]

فكبا الثور كما يكبو فحل إبل صلب إلّا أنه كان أعظمَ منه وأقوى:

فكبـا كما يكبو فنيق تارِزٌ بالخَبْتِ إلّا أنَّـــه هو أَبْرَعُ[5]

ثم انتقل الشاعر من التأسي بهذا الثور الوحشي الذي لقي مصرعَه على يد القانص إلى التعزّي ببطل كَميٍّ شُجاعٍ مُدَرَّعٍ مقنعٍ فقال :

والدهر لا يُبْقِي على حدثانـــه مُسْتَشْعِرٌ حَلَقَ الحديد مُقَنَّعُ[6]

---

(١) النهس : تناول اللحم أو غيره من غير تمكن . عبل الشوى :ضخم غليظ القوائم. الطرتان : خطتان في جنبي الثور تفصلان بين الجنب والبطن. مولع ، من التوليع: والتوليع لونان مختلفان بياض وسواد .

(٢) أقصد عصبة منها : أي قتل الثور طائفة منها . شريدها : ما بقي منها . يتضوع: يعوي من الفرق .

(٣) لما يقترا : لما يستعملا من قبل ذلك . عجلاله : أي للثور بالطعن . بشواء شرب ينزع : شبه قرني الثور وهما يكفان الدم بسفودي شرب نزعـا قبل أن يدرك الشواء فهما يكفان بالدم .

(٤) الرهاف : الرقاق الشفرات المرهفة . المقزع : المنتوف .

(٥) الفنيق : الفحل من الإبل . التارز : الميت الذي قـد يبس . الخبت : المكان المستوي . أبرع : أضخم وأعظم .

(٦) انظر شرح أشعار الهذليين : ١ / ٣٣ وما بعدها .

خصائص شعر الصيد قبل ظهور الطرديات :

بعد أن استعرضنا معلقة امرىء القيس ودالية زهير وعينية أبي ذؤيب ووقفنا على شعر الصيد فيها ، أصبح في وسعنا أن نتبين خصائص هذا الشعر ومميزاته ، وأن نصدر الأحكام عليه مُدْعَمَةً بالشواهد معززة بالأدلة .

وأول ما يلفت نظر الدارس شِدَّةُ عنـــاية الشاعر العربي بمشاهد الصيد وإكثارُه منها حتى أوشكت أن تكون عنصراً من عناصر القصيدة القديمة وفقرة من فقراتها ، فأكثر قصائد امرىء القيس وزهير والنابغة ولبيد وكعب وأضرابهم من شعراء الجاهلية وصدر الإسلام قد اشتملت على مشهدٍ للصيد بصورةٍ أو بأخرى ، ذلك بأن القصيدة العربية القديمة إذا وضعت في صورتها الكاملة ، فلا بد من أن يستهلهـــا الشاعر بذكر الأطلال والديار ، وذلك يُفْضِي به إلى الحنين للمحبوبة والتغزل بهـــا ، ثم هو يتخلّص من ذلك إلى وصف سَيْرِه في القفار وقَطْعِه للمفـــاوز ، وهذا يقوده غالباً إلى وصف مطيته ، فإذا كانت المطية الناقه فهو كثيراً ما يشبهها بحيوان من حيوانات الصحراء المعروفة بقوتها وشدة مِراسها وسرعة عَدْوِها كالعَيْر وأتنه ، والثور الوحشي ومهاتِه ، والنعام كما رأينا في دالية زهير .

وإذا كانت المطية الجواد فهو كثيراً ما يجري بينه وبين تلك الحيوانات طراداً عنيفاً قاسياً ، كما رأينا في معلقة امرىء القيس .

ثم يجعل غَرَضَه الأساسي من مَدْحٍ أو فخرٍ أو هجاءٍ في آخر القصيدة.

ومشهد الصيد على هذا يأتي في إحدى حالتين اثنتين :

أولاهما عند نعت الحيوان الوحشي الذي شُبِّهَت به الناقة ، ذلك بأن من مظاهر قوتها ونجائها أن يكون الحيوان الذي شُبِّهَت به تام الخلق ، حادّ النشاط ، شديد المِرّة ، صعب المراس ، سريع العدو ، ومن آيات ذلك كله

أن يتعرض هذا الحيوان لكلاب الصائدين الضارية أو سهام القانصين النافذة فيفتك بالكلاب وينجو منها بنفسه ، ويحيد عن السهام ويفوز بحياته .

وثانيتهما عندمـــا تكون المطيةُ الجوادَ حيث يجري الشاعر بينه وبين حيوان من تلك الحيوانات طراداً يبدو فيه عتق الجواد وكرمـــه وحِدّتُه وشِدّتُه وسرعته ، وينتهي هذا الطراد حتماً بتفوق الجواد على الحيوان المطرود وإدراكه وإصمائه بطعنة نافذة من سنان الفارس الذي يمتطي صهوته أو ضربةٍ قاضيةٍ من سيفه .

وعلى هذا ، فإن مشهد الصيد في هــذه القصائد ليس غرضاً من أغراضها المتعددة التي أشرنا إليها ولا غايةً من الغايات التي يقصد إليها الشاعر ، كما هو الشأن بالنسبة لوصف الأطلال والتغزل بالمحبوبة والتفاخر بقطع المفـاوز في الهاجرة ، وإنما هو وسيلة إلى تحقيق غرضٍ ألا وهو الإشادة بالمطية ناقـةً كانت أم جواداً .

وقد تكون الغـــاية من إيراد مشهد الصيد في القصيدة القديمة التعزي والتأسي ويحدث ذلك في مقام الرثاء حيث يذكر الشاعر فداحة الخطب الذي ألمّ به وعظم المصيبة التي نزلت بساحته ويعلن ضعفه أمامها وعجزه عن ردها، ثم ينتقل من ذلك إلى تعزية نفسه وتسليتها بسردما أصاب غيرها من مصائب، وإشعارها بأنها ليست وَحِيدةً في التعرُّض لنوائب الدهر الذي لا يصمد أمام حدثانه أحد ، حتى ولو كان عَـيْراً من حمر الوحش معتصماً بالفلوات أو ثوراً من ثيران الوحش مستعصياً بالقفار، وذلك بأن يجعل هذين الحيوانين يتعرضان لكلاب الصائدين وسهام القانصين، ويبرزهما في مشهد من مشاهد الصيد العنيفة التي تنتهي بهما إلى الهلاك حتماً ، وذلك كما مرّ بنا في عينيّة أبي ذؤيب.

وكان لهذا الذي ذكرناه نتائجه الواضحة في شعر الصيد : منهـــا أنّ الحيوان المصيد في القصيدة القديمة كاد ينحصر في الحمار الوحشي وأُتُنِه والثور

الوحشي ومَهَاتِه والنعام أحياناً قليلة ، ذلك لأن هذه الحيوانات هي التي تتحلّى بالصفات التي تحقق الغاية التي يَبْتغيها الشاعر من إيراد مشهد الصيد.

ومنها أن وسيلة الصيد قد حُدّدت أيضاً ، فهي إما كلابٌ ضاريةٌ تطرد الحيوانات المصيدة أو قسيٌّ وسهامٌ تُرمَى بها أو سِنانُ رمحٍ تُطعَنُ به من على ظهر جوادٍ.

ومنها أن نهايات مشاهد الصيد في هذا الشعر محتومةٌ معلومة منذ البيت الأول الذي يبتدىء فيه المشهد ، فالحيوان المطرود ناجٍ لا محالة إذا شبه الشاعر راحلته به لأنه ليس من المنطق أن يشبّهها بحيوان مُغَلَّبٍ ما دام يشيد بها ويفخر بقوتها كما هو الشأن في قصيدة زهير .

وهو مقتولٌ مصروعٌ لا محالة إذا كان يطرده بجواده ، لأنه ليس من المعقول أن يطرد بحصانه حيواناً ، ثم تكون نتيجة الطراد أن يعجز عنه وهو يُنوّه به ، ويباهي بعتقه وكرمه ، وكذلك مصير الحيوان المطرود الهلاك أيضاً إذا كان المقام مقام رثاءٍ وتَعزٍّ ، إذ ليس من المنطق أن يتعزّى الإنسان بحيوان استعصى على المنون .

وقد لاحظ القدماء شيئاً من ذلك ، فقال الجاحظ في الحيوان وابن قتيبة في المعاني الكبير :

ومن عادة الشعراء إذا كان الشعر مرثيةً أو موعظةً أن تكون الكلاب هي التي تَقتلُ بَقَرَ الوحش ، وإذا كان الشعر مديحاً ، وقال الشاعر : « كأن ناقتي بقرةٌ من صفتها كذا وكذا أن تكون الكلاب هي المقتولة »[1].

وهي ملاحظةٌ على صحتها تعوزها الدقة والشمول لأن الأمر لا يتعلق بمديح أو غير مديح ، وإنما هو منوطٌ بالغرض الذي سيق من أجله مشهد

(١) الحيوان : ٢ / ٢٠ والمعاني الكبير : ٢٢٤ .

الطرد ، وإلا فماذا يكون الحال إذا كان الشعر هجاءً أو فخراً، وشبّه الشاعر ناقته بثور وحشي أو نحوه من الحيوانات المطرودة؟! ، كما فعل زهير في كافيّتِه التي هجا بها بني الصيداء[1] ، أو كان الغرض من القصيدة وصف الناقة من غير أن يكون هناك مديحٌ أو غيره كما فعل كعب في ميمته التي مطلعها :

وهاجرةٍ لا تستريد ظباؤها ... لِأعلامها من السّراب عمائم[2]

ومنها أن مشاهد الصيد هذه لم تكن في جملتها تعبر عن تجْربَةٍ عاناها الشاعر أو تصور حادثةً رآها ، فجاءت هذه المشاهد خالية من روعة الصدق وتأثيره في النفس ، وإذا كان بعضهم قد أتقن تلك المشاهد فذلك يرجع إلى أنه كان صياداً بطبعه يمارس القنص في حياته ويعدّه لذةً من لذاذاته كما هو الحال بالنسبة إلى امرىء القيس مثلاً .

بل إن بعضهم كان يخطىء في تصوير بعض المواقف لأنه لم يكن قد عانى الصيد إلا في شعره ولا وقف عليه إلا من خلال أشعار من تقدموه ، من أولئك أبو ذؤيب الهذلي، فهو قد نعت في عينيته حمار الوحش بكثرة الشرب، فقال الأصمعي تعقيباً على ذلك : « هذا يعاب من نعت الحمار ولكن أبا ذؤيب لم يَرَ حماراً قط لأنه كان بين الجبال ، وإنما أراد أن يصرعه بقوله :

والدهر لا يُبْقِي على حَدَثَانِه ... جَوْنَ السَّراة له جَدائِد أربع[3]

وقد لاحظ الجاحظ وابن قتيبة مسألة الصدق التي أشرنا إليها فقالا : بعد أن ذكرا عادة الشعراء في جعل بقر الوحش غالبةً أو مغلوبةً حسب اختلاف الموضوع : « وليس ذلك على أنه حكاية قصة بعينها فربما جرحت

---

(١) الديوان : ١٦٤ .

(٢) ديوان كعب : ١٣٦ .

(٣) شرح أشعار الهزليين : ٢١/١ .

الكلاب الثيران وربما قتلتها ، وأما في الكثير الغالب فينبغي أن تكون الثيران هي المصابة والكلاب هي السالمة وصاحبها هو الغانم »[1] .

وبسبب من ذلك تكررت الصور في شعر الصيد تكراراً يلفت النظر حتى أنك كثيراً ما تقرأ مشهداً من مشاهد الصيد لشاعر من الشعراء فيقع من نفسك أنك قرأته من قبل ، وليس الأمر كذلك وإنما السبب في تكرار الصور وأحياناً تكرار العبارات والألفاظ .

ولا أدل على ذلك من قول امرىء القيس في لاميته[2] .

فَعَادَى عِداءً بين ثورٍ ونعجةٍ دِرَاكاً ولم يُنْضَح بماء فيُغْسَل

وقوله في لاميته الأخرى[3] :

فعادَى عِدَاءً بين ثَورٍ ونَعْجَةٍ وكان عِداء الوحْش مِنيّ على بَال

وقوله في بائيته[4] :

فَعَادَى عِداءً بين ثورٍ ونعجةٍ وبين شَبُوبٍ كالقَضِيمَة قَرْهَب

ومن ذلك أيضاً قوله في لاميته[5] :

كأن دمـــاء الهاديات بنحره عُصارة حِنَّاءٍ بشيب مُرَجَّل

وقوله في بائيته[6] :

كأن دمـــاء الهاديات بنحره عُصَارة حِنَّاءٍ بِشَيْبٍ مَخَضَّب

بل إن تكرار الصور يقع عند شاعرين اثنين حتى لا تكاد تُمَيِّز أحدهما

---

(١) الحيوان : ٢/٢٠ ، والمعاني الكبير : ٢٢٤ .
(٢) الديوان : ٢٢ .
(٣) الديوان : ٣٨ .
(٤) الديوان : ٢٨ .
(٥) الديوان : ٢٣ .
(٦) الديوان : ٥٥ .

من الآخر، وخيرُ شاهد على ذلك وصف الثور الوحشي عند كُلٍّ من امرىء القيس وزهير :

فهذا ثور امرىء القيس الذي نعته في قصيدته السينية [1] إذا مـا أظلم عليه الليل طَفِقَ يحتَفِر لنفسه بأظلافه مَكْنِساً يأوي إليه وجعل يهيل تراب الحفرة جانباً وقد اتخذ مَكْنِسه بالقرب من شجرةٍ من أشجار الغضا وبات فيه فلما أشرقت عليه الشمس صَبَّحتْه كلابُ الصيد فنجا منها .

وهذا ثور زهير الذي وصفه في قافيته [2]، أخذ هو الآخر يحتفر بأظلافه لنفسه مَكْنِساً فتداعى التراب عليه ، ولما فرغ من احتفاره اعتصم بـه من عصف الريح وشدة المطر ، وقضى فيه ليلته ، فلما انحسرت النجوم عن السماء صبَّحَته كلابٌ شديدةُ السرعة ، وقانصٌ محكم الصيد فنجـا منها أيضاً .
لكن شعر الصيد – على الرغم مما قلناه – برزت فيه طائفةٌ من المزايا كان لها أكبر الأثر في شعر الطرد بعد ذلك .

وأول هذه المزايا العناية الكبيرة بوصف الحيوان المصيد ونعته نعتاً وافياً ألمّ بلونه وشكله وأعضائه ومَكْنِسه ونمط حياته ومراعيه وموارده وحِلّه وارتحاله وعَدْوِه وحَذَرِه وخُيلائه وحسن قيام الذكر منه على الإناث ، وشعوره بالمسؤولية عنها ، وطاعة الإناث للذكر وانقيادها له على وجهٍ أغنى باب الوصف في الشعر العربي غنىً كبيراً ، وأعطى علماء الحيوان في كل عصر ثروةً لغويةً ما زالوا يفيدون منهـا في كتب الطب والبيطرة ويجدون فيها بغيتهم التي ينشدونها .

وثاني هذه المزايا عناية شعر الصيد بوصف الطراد الرائع المثير الذي كان يجري بين الحيوانات الصائدة والمصيدة ، وهي مشاهد أفاد منهـا شعر الطرد

---

(١) الديوان : ١٠١ .
(٢) الديوان : ٣٣ .

بعد ذلك فائدةٌ كبرى فنسج شعراؤه على منوالها واقتفَوْا آثارها . من هذه المشاهد البديعة ذلك المنظر الرائع لمطاردة الصقر للقطـاة عند زهير ، فبينما كانت القطاة تطير في الجو انقضّ عليهـــا صقرٌ أجدلُ عتيقٌ فتلقت ذلك بنفس طيبة لأنها كانت مطمئنة إلى نجاتها منه على الرغم من أنها عزمت على ألا تستعمل جميع ما تملكه من قدرة على الطيران ، وطارت القطاة وطار الصقر في إثرها وكانا متقاربين أشد التقارب ، فلا القطاة تفوت الصقر ولا الصقر يدرك القطاة ، وكان تارةً يبلغ ذيلها ويكاد يظفر بهـــا وكانت تارة أخرى تسبقه وتفلت منه وكان صوته وصوتها لشدة تدانيهما يختلطان ويمتزجان ، وكان ذلك يزيد من قـَرَمِـه إليها ويضاعف لهفة مخالبه ومنقاره على نيلها ، فلما أوشك أن يظفر بها حماها منه وادٍ باسق الأشجار ملتف الأغصان :

أهوى لها أسْفَعُ الخدين مُطـّرِقٌ   ريشَ القوادم لم يُنْصَب له الشَّرَكُ
لا شيء أجود منهـا وهي طيبةٌ   نَـفْساً بما سوف ينجيها وتَـتَّرِكُ
دون السماء وفوق الأرض قدرُهما   عند الذُّنَـابى فلا فَـوْتٌ ولا دَرَكُ
ثم استمرت إلى الوادي وألجأها   منه ، وقد طَمِـعَ الأظفارُ والحَـنَكُ
فَـزَلَّ عنها ووافى رأس مَرْقَـبَةٍ   كمَنْصِبِ العِتْر دَمَّى رأسَهُ النُّسُكُ

وثالث هذه المزايا العناية بوصف الإنسان الصائد والدخول إلى قرارة نفسه وتصوير ما يعتمل فيها من انفعالات يبعث عليها الرجاء أو يثيرها الإخفاقُ وهو جانبٌ من جوانب الصيد جديرٌ بعناية الشعراء حَـرِيٌ بأن ينال قسطاً وافراً من اهتمامهم ، فتأمل تلك الصورة التي يصف فيها كعبٌ الصائد الذي كَـمَنَ في قترته للعَيْر وأتـُنِه ولصق بأرضها لصوق القُراد في الجسم وكانت تعتمل في صدره شتى الانفعالات فيناجي نفسَه قائلاً : لعَلـَّهـا تَـرِدُ ومن يدري فقد لا ترد ؟ وإذا وردت فقد أخطىء ، بل لعلي أصيب :

فصادَفْـنَ ذا قَـتْـرَةٍ لاصقاً   لـُصوقَ البُرام يَظُنُّ الظنونا

قصيرَ البنان دقيقَ الشَّوَى يقول : أيأتِينَ أم لا يَجِيئنا ؟
يَؤُمُّ الغَيَابَةَ مُسْتَبْشِراً يصيب المقاتل حَتْفاً رصينا[1]

وهذه صورةٌ أخرى من صور كعب للصائد وقد أخطأ هَدَفَه فكادت تذهبُ نَفْسُه حسراتٍ على ما فَرَّط وجعل يَعَضُّ بنانه ندماً ويهتف في سره قائلاً : يا لَهَفَ نفسِي على ما أضعتُ ويدعو على أصبعه بأن يَجْتَذَّها سيفٌ قاطع :

يَعَضُّ بإبهــام اليدين تَنَدُّماً ولَـهَّفَ سِرًّا أمَّه وهو نَادِمِ
وقال : ألا في خيبةٍ أنتِ من يدٍ وجَذٌّ بذي إثرٍ بَنَانَكِ جَاذِمِ[2]

ورابع هذه المزايا إغناء مشاهد الصيد بطائفةٍ من المواقف المُكَمِّلَة مما وَسَّعَ آفاقها ، وأغنى صورها ، وجَدَّدَ فيها ونفى عنها الإملال فقد رأينا كيف أغنى زهيرٌ مشهد الصيد حين قدم بين يديه صورة البقرة الوحشية التي راق لها المرعى الخصيب في رَأدِ الضحى وحَلَتْ لها الخلوة بين الخمائل النضرة فغفلت عن ولدها فاغتنمت السباعُ غفلتَها وخَفَّت إليـــه وافترسته في كِناسه فلما تذكرته أمه هَبَّتْ تبحثُ عنه جَزِعَةً وهي تتفقده في آخر مكان خلَّفته فيه فراعها أن وَجَدَتْ بقايا أشلائه تَحْجِل نحوها الطيرُ لتأكل منها فلم تغفر لنفسها بعد ذلك تفريطها ولم تنس لها تهاونها :

طَباها ضَحاءٌ أو خَلاءٌ فخالفت إليه السباع في كِناس ومَرْقَدِ
أضاعت فلم تُغفَر لهــا غَفَلاتُها فلاقت بَياناً عندَ آخِرِ مَعْهَد
دَماً عندَ شِلْوٍ تحجِل الطير حوله وبضْعَ لِحَامٍ في إهــابٍ مُقَدَّد

والذي يستعرض مشاهد الصيد في شعر الجاهليين يجد فيها كثيراً من هذه

---

(١) ديوان كعب : ١٠٧ .
(٢) ديوان كعب : ١٥٠ .

الصور الجانبية المساعدة ، من أمثال وصف امرىء القيس للخيمة الطريفة التي نصبها هو وأصحابه ليفيئوا إليها بعد الصيد ويشووا عندها طرائدهم ويريحوا تحت خبائها أجسادهم [1] ، ووصف زهير للـّيلة القاسية التي عانى فيها الثور الوحشي ما عاناه من شِدّة البرد وعصف الرياح ولسع المطر [2].

وبعد فإن فقرة الصيد في القصيدة التقليدية كانت غنية بالصور ، حافلة بالأخيلة ، مفعَمَة بالحركة ، مما كفل لها البقاء والنمو وجعلها هي والنسيب أولَ مولودين ينفصلان عن أمهما ويُكوّنان لنفسيهما ــ منذ أوائل العصر الأموي ــ شخصية شعرية مستقلة تمثلت في بابي الغزل والطرد، فإلى عصر بني أمية لنستقبل فيه المولود الجديد ونلم بنشأته ونقف على العوامل التي ساعدت على ميلاده واستقلاله .

(١) الديوان : ٤١ وما بعدها .
(٢) الديوان : ٣٣ وما بعدها .

الفصل الرابع

نشأة شعر الطرد

في زمن بني أمية

كانت العرب في جاهليتها أمة متبدية تعيش في الصحراء عيش الإملاق ، ومن طبيعة أهل الوبر إذا أملقوا أن يعتمدوا في عيشهم على الصيد ، وأن يتخذوا من الحيوان مادة حياتهم الأولى ، فيقتاتوا بلحمه إذا عضهم الجوع ، ويصطلوا بعظمه إذا مسهم البرد ، ويستنيروا بشحمه إذا أظلم عليهم الليل ، ويتخذوا من أوباره غِطاءً وكِساءً ، ويجعلوا من جلوده بساطاً وسِقاءً .

وقد هدتهم الفطرة إلى أن يؤنّسوا وَحْشِيّه ، وَيُرَوِّضوا نافره ، وأن يسخروه لمنفعتهم إلى أبعد حدود التسخير ، فيسلطوا بعضَه على بعضٍ ويضربوا ضعيفه بقويّه ، ويقنصوا غَبِيّه بذكيّه ، ويجنوا ثمرات ذلك متاعاً لهم ولمن يعولون .

وإذا كان جُلُّ الصيد عندهم للحاجة فقد كان بعضُه لِلّهْو والمتعة يشغلون به فراغ حياتهم العريض ، ويمتعون بلذاته نفوسهم الظامئة إلى اللذات . وقد كانت وسائله وأدواته ضيقة ضيقَ حياةِ البدوي محدودةً بحدود

إمكاناته ، فهي لا تعدو أن تكون قوساً وسهاماً وصقراً وكلاباً . وكانت الحيوانات المَصيدَةُ محدودة أيضاً فهي لا تعدو تلك الطرائد التي تعيش في الصحراء والطيور التي تغشاها ، وهي قليلة إذا قيست بحيوانات البلاد التي حباها الله بالواحات الوارفة والأنهار الجارية والغابات المكتظة والأشجار الملتفة .

ثم أكرم الله العرب بالإسلام فما لَبِث قليلا حتى جعل من سكان الوبر سكانَ مَدر ، ومن رعاة الشاه والغنم قادة ممالك وساسة أمم فَطَعِموا من جوع ، واكتَسَوْا من عري وامتلأ فراغ حياتهم بأروع المعاني وأنبل المُثُل ، وأصبحوا أصحاب قَضِيَّةٍ وَحَمَلَة رسالة وهداة إنسانية .

وإذا بالذي كان يصيد لسد الرمق يجد فيما أفاء الله عليه من غنائم الجهاد وأعطيات بيت المال ما يغنيه عن الصيد ألف مرة .

وإذا بالذي كان يصيد للمتعة وملء الفراغ يجد أن كلّ لحظة من لحظات حياته قد امتلأ بالجليلِ الجليلِ من الأعمال والنبيلِ النبيلِ من الغايات والأهداف ، وأن العمر أكرم وأجل من أن يضيع في صيد حيوان أو اقتناص طائر ، وذلك على الرغم من أنّ الله سبحانه أباح الصيد وجعل له في شرعة الإسلام قواعدَ وأحكاماً .

ومضى المسلمون على ذلك زمن الرسول الكريم وخلفائه الأربعة الراشدين .

ثم آل الأمر إلى بني أمية ، وغدا المسلمون في بسطة من العيش وسَعةٍ في الأرض ، وسطوة في الملك ، فنظر الأمويون إلى الأمور نظرة جديدة وصيّروا الخلافة الإسلامية ملكاً عضوداً ، وأغرتهم الحياة بما حفلت به من غنى وثراء ، وما امتلأت به من متع وطيبات بأن يسلكوا مسلكاً يختلف قليلا أو كثيراً عن مسلك السابقين من المسلمين ، فقد رُوي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى الشام يتفقدها فتلقاه أميرها معاوية بن أبي سفيان في موكب لم يره من قبل ، وراح إليه في موكب مثله فأنكر عمر رضوان الله عليه ما رآه

وقال له : يا معاوية ، تروح في موكب وتغدو في مثله !!! . فقال : يا أمير المؤمنين : إن العدو منا قريب ، وله علينا عيون ، فأردت أن يروا للاسلام عزاً » [1].

ثم تصير الخلافة إلى معاوية رضوان الله عليه ، وينتقل ذات يوم إلى بعض كور الشام لشيء من عمله وينزل هناك منزلاً حيث بُسِط له على مكان مشرف من أنزه الأماكن ثم مرت أمامه قطع الإبل وقد ضُمّ بعضُها إلى بعض على نسق واحد وتلتها الرواحل والخيول والجواري ، فقال : رحم الله أبا بكر لم يرد الدنيا ولم ترده ، وأما عمر .. فأرادته الدنيا ولم يردها ، وأما عثمان فأصاب من الدنيا وأصابت منه ، وأما نحن فتمرغنا فيها » [2].

ويشاء الله أن تؤول الخلافة من بعد معاوية الى ابنه يزيد ، ولم يكن يزيد كأبيه يصطنع مظاهر النعمة ليرهب بها عدو الله وعدوه ، ويرى أمارات الترف فيَدّكر ويتعظ ويوازن بين حاله وحال أسلافه الراشدين ، فيجد في هذا الادّكار وهذه الموازنة ما يمنعه من أن ينغمس في الترف وما يصونه عن مجاوزة ما يحل وما يباح إلى ما لا يحل ولا يباح ، وإنما كان إنساناً آخر فيه شيء من البعد عن هذه المعاني مع شدة قرب إلى الحياة وما حفلت به من متاع وزينة .

ومتاعُ الحياةِ لا حدَّ له ، وزينَتُها لا نهاية لها ، والمرء كلما ورد منذ لك مورداً ظميء إلى مورد آخر ، وكلما نال منها مأرباً تطلع إلى مأرب جديد .

ومن زينة الحياة ومتاعها تلك الجوارح والضواري يلهو بها المرء ما شاء أن يلهو ويعبث بها ما شاء أن يعبث ويُحَوِّل ما خوّله الله منها لمصلحته ومعاشه إلى ما لا يتفق مع مصلحته ولا يُفضِي إلى معاشه .

ولم يكن معاوية جاهلاً بابنه ، ولم يكن عقلاء المسلمين غافلين عما يعمل ، وإنما كانوا مُقدّرين لما يمكن أن يكون منه . فقد كان « يزيد صاحب طرب

(١) الطبري : ٤ / ٢٤٤ .
(٢) الطبري : ٤ / ٢٤٧ .

وجوارح وكلاب [1] وكان مولعاً بالصيد مُبتدِعاً فيه ، فهو « أول من حمل الفهود على ظهور الخيل » [2].

فلما أراد معاوية أن يبايع لابنه يزيد كتب إلى زياد بن أبيه يستشيره ، فبعث زياد إلى عبدالله بن كعب النمري... يقول : إن أمير المؤمنين كتب إليّ يزعم أنه قد عزم على بيعة يزيدوهو يتخوّف نُفْرَةَ الناس ويرجو موافقتهم ، وسلامةُ شأن الإسلام وضمانُه أمر عظيمُ الخطر ، ويزيد صاحب كسل وتهاون مع ما أولع به من الصيد... فقال له : أنا ألقى يزيد سراً من معاوية وأخبره عنك أن أمير المؤمنين كتب إليك يستشيرك في بيعته وأنك تتخوف خلاف الناس عليه وامتناعهم عن بيعته لهَنَاتٍ ينقمونها عليه ... ثم قدم على يزيد وذاكره في ذلك .. وكفّ يزيد عن كثير مما كان يصنع » [3].

فالمجتمع الإسلامي أول عهد بني أمية لم يكن مرتاحاً للصيد يتخذه الخلفاء والولاة وسيلةً للهو وسبيلاً إلى العبث والمتعة ، وكان يجد في ذلك سبباً وجيهاً يمنعه من مبايعـــة الخليفة الذي يُشهَرُ بذلك ، فهو لا يزال ينظر إلى عهد الراشدين نظرة الإكبار والإجلال يَشدُّه إليه هَدْيُ دينه الذي لم يفتر بعد ، وسِيَر أبطاله الذين لم يجف ثراهم .

وهو ما برح يرى أن الصيد المباح هو الذي تبعث عليه حاجة أو تدعو إليه مصلحة ، أما الصيد للطرب والزينة واللهو والتفاخر فهو أمر جديد يفد على المسلمين مع الخليفة الثاني من خلفاء بني أمية .

ونحن نستطيع أن نستشفّ مدى المرارة والغيـظ والأسى الذي خالج نفوس بعض المسلمين مما قاله عبدالله بن هشام السلولى غِبّ بيعة يزيد :

---

(١) مروج الذهب : ٣ / ١٥ .
(٢) أنس الملا : ٧٢ .
(٣) انظر الطبري : ٤ / ٢٢٤ .

فإن تأتوا بِرَمْلَةَ أو بهنــد ... نبايِعْها أميرةَ مؤمنينــا
إذا ما مات كسرَى قام كسرى ... نعد ثلاثةً متنــاسِقينا
خشينا الغيظَ حتى لو شربنـا ... دماء بني أمية مــا رَوينـا

ثم ينهي هذه الأبيــات بخطاب ساخر لاذع يتوجه به إلى الخليفة الجديد فيقول :

لقد ضاعت رعيتكم وأنتم ... تصيدون الأرانِبَ غافلينا[1]

كانت خلافة يزيد إذن مع العوامل الأخرى من سياسية واجتماعية واقتصادية سبباً في أن يفشو الصيد زمن بني أميّة ، وأن يَغدُو وسيلة من وسائل اللهو ، ومظهراً من مظاهر الغنى والترف ، ولا غرو فالناس زمن بني أمية مــا زالوا قريبي عهد بالبادية ، والصيدُ والطردُ من أجمل ما في حياة البادية .

والناس في زمن بني أمية أخذوا ينعمون بثراءٍ ما مثله من ثراء ، فقد كان يأتيهم رزقهم رغداً من كل مكان .

وكثير من الناس أُقصُوا في زمن بني أمية ـ بسبب من السياسة والتّخوُّف على الحكم ـ عن الحياة الجادّة وحُمِلوا حملاً على الحياة اللاهية .

والصيد باب من الترف كبير ، ومجالٌ للإنفاق لا حدّ له ، فصاحب البيزرة يقول : « إنه لا مؤونة أغلظُ من تكلُّف آلات الصيد لأنهـا خيلٌ وفهود وكلاب وآلات تحتــاج في كل قليل إلى تجديد ، ومن هنا فإنه لا يُشْغَفُ بالصيد إلا سخيّ »[2] ، فكلب الصيد يحتاج إلى دابة ترافقه وتؤازره ، وهما يحتاجان إلى غلام يسوس الدابة ويَرْعى الكلب ويذكّي الطريدة ، والطريدة

---

(١) مروج الذهب : ٢ / ٣٢٩ .
(٢) انظر البيزرة : ٢٠ .

تحتاج إلى جارية تصلحها وتطهيها ، وهؤلاء – كما قال أبو دلامة للسفاح – عيال لا بُدّ لهم من دار تؤويهم وضيعة يُنفَقُ من ريعها عليهم [١] .

وقد كان في وسع كثير من الناس زمن بني أمية أن يجدوا ذلك كله وأن يجدوا معه الفراغ العريض الذي يمكنهم من اللهو به .

على أنّ الصائدين زمن بني أمية لم يكونوا جميعهم ممن يتخذون الصيد وسيلة للهو وطريقاً إلى المتعة ، وإنما كان هناك صائدون يصطنعون الصيد زَهادة بما عند الناس ، وكفاً لأنفسهم عما في أيدي الآخرين ، « ذلك بأن الصيد يؤثره رجلان متباينان في الحال.. ملكٌ ذو ثروة ، أو زاهد ذو قناعة ، فالملك يؤثره لحب الغلبة والظفر ، أو للطرب واللذة والابتهاج بمظاهر العَتاد والعدة .

والزاهد يؤثره لكفّ نفسه عن دنِيّ المكاسب والنأي بها عن مصرع المطالب وصوْن ماء وجهه عن غضاضة الامتهان... ومن هؤلاء من ينال من صيده ما يكفيه ويتصدّق بما فضل عنه توقياً عن المبايعة والمعاملة وما تجره من شبهات ، ومنهم من يبيع ما فضل عن قُوتِه وينفق ثمنه في مصالحه الأخرى ، وكانت هذه حال الخليل بن أحمد الفرهودي مع فضله وأدبه وكمال علمه ، فقد كان له باز يقتنص به ويؤسِّدُ خَدَّه لَبِنَةً ، وكان جِلَّةُ الناس في عصره يتجاذبونه ، ويسألونه أن يشاركهم في أموالهم فلا يثنيه ذلك عن طريقه ولا يحيد به عن مذهبه ، وكان ممن كاتبه وعرض عليه ماله سليمانُ بنُ علي الهاشمي فكتب إليه الخليل :

أبلغ سليمانَ أنّي عنه في سَعَةٍ وفي غِنىً ، غيرَ أنّي لستُ ذا مالِ
شُحّاً بنفسِيَ أنّي لا أرى أحداً يموت هُزْلاً ولا يبقى على حال [٢]

---

(١) انظر خبر أبي دلامة مع السفاح في الأغاني : ١٠ / ٢٣٦ .

(٢) انظر البيزرة : ٢٠ .

ومهما تكن الأسباب والدواعي فقد شاع الصيد في زمن بني أميـة وفشا بين الناس، وأصبحت تمارسه أصنافٌ كثيرة منهم، وغدَتْ تُمَدُّ له الرحلات وتقام الحفلات التي يجتمع فيها أشتاتٌ من الناس ويختلط في حومتها الحابل بالنابل، ويتخلّى فيها ذوو الوقار عن وقارهم، وصاحب الجمهرة في علوم البيزرة يروي لنا خبر رحلة من رحلات الصيد هذه، ويصوّر فيها شغف الناس بهذا الضرب من اللهو وإقبالهم عليه تصويراً بارعاً يذكرنا بصور بعض حفلات الأعياد التي تقام في أوروبا في أيامنا هذه.

فاستمع إليه وهو يصف لك حفل صيد اشترك فيه هشام بن عبـد الملك حيث يقول: «وذكروا أنّ هشام بن عبد الملك خرج ذات يوم للقنص، فلما توسّط مكان الصيد اختلط الناسُ بعضُهم ببعض وأنكر في حومـة الصيد الأخ أخـــاه والوالد ولده، والخادم سيده، وجعل الناس يصيدون من كل جانب، كلٌّ بما معه من آلة الصيد، فمنهم من يرمي بالنبل، ومنهم من يتصيد بالجوارح، ومنهم من يصيد بالفهود؛ ومنهم من يتبع المتصيّدين لطلب الفرجة قال: وهشام قائم على نَشَزٍ من الأرض ينظر إلى من يتصيّد، فبينا هو قائم ينظر ومعه ثلاثة نفر، وإذا فارس يركض على سرب ظباء ويطرده فلم يزل به إلى أن وصل إلى هشام، فنزل من كان معه إلى السرب، وتبع كل واحد منهم ظبياً وتبع هشام ظبياً كذلك»[1].

بل إن هشاماً عرّض نفسه ذات يوم للضرب والإهانة في رحلة من رحلات الصيد هذه، فقد جاء في (أنسِ الملا) أن بعض الخلفاء – وهو هشام بن عبد الملك، وكان مولعاً بالصيد – قد انفرد عن صحبه فساقته قدماه إلى بيت شعر فيه أعرابيٌّ وعنده فرس ارتبطه، وكان من هشام مـــا أحفظ الأعرابيَّ فتشاجرا فأغلظ هشام القول للأعرابي، فوثب الأعرابي على فرسه وطعن هشاماً برمحه فشجه وأدماه»[2].

---

(١) انظر الجمهرة في علوم البيزرة: الورقة ٤١.
(٢) أنظر أنس الملا: ١٧.

فهشام إذن كان صياداً ، وكان يشهد حفلات الصيد الصاخبة التي تذهب بوقار الخلافة وأبّهة الملك ، وكان يشارك عامّة الصائدين في لهوهم وطربهم ونشوتهم ، يحبس أنفاسه في المواقف المثيرة ويستخفه الطرب فيجري وراء الطريدة كما يجري الغِلمان ، إنه أشبه ما يكون بهاوٍ من هُواة كرة القدم في أيامنا هذه ، يشهد حفلاتها ويهتاج في مواقفها الحاسمة ويشجّع الفريق الذي يؤثره ويأسَى عليه إذا أخفق .

بل إن هشاماً ذهب إلى أبعد من ذلك فرسم في قصره للصيد رسماً خاصاً به وجعل له في أعماله وعمّاله نصيباً ، واختـــار للمنصب الجديد حاذقاً من حُذّاق هذا الفَنّ وإماماً من أئمته وأسلم إليه ضواريه ليؤدّبها إذا جهِلت ، ويطبّبها إذا مرضت ويروّضها على الصيد كلما آنس بها حاجة إلى الرياضة ، ذلكم هو الغِطريفُ بن قُدامة الغسانيّ ، وكان يُسمّى صاحب صيد هشام بن عبد الملك .

فكما كان للشرطة صاحبٌ ، وللحسبة صاحبٌ أصبح لدَى الدولة الأموية للضواري صاحب أيضاً .

والغِطريف بنُ قدامة هذا عالم كبير من علمـــاء البيزرة ومرجع موثوق يُرْجَع إليه في شؤونها .

فقد قال صاحب كتاب الطيور في مقدمة كتابه: استخرجنا هذا الكتاب من خزانة الرشيد وعرضناه على الغطريف بن قُدامة الغساني صاحب ضواري هشام بن عبد الملك والوليد فعرفه ، وذكر أنّ مُعاذَ بن أَسْلمَ زادهم فيـه كلمات لملوك الأكاسرة [1].

وصاحب كتاب الطيور لا يفتأ يقول : قـال الغطريف كذا ... وقال

---

(١) كتاب الطيور : ١ وما بعدها .

الغطريف وأدهم بن مُحْرِز كذا .. وقالا (يغني الغطريف وأدهم) كذا ... مما يجعل جلّ الكتاب رواية عنهما [١].

وصاحب كتاب القانون في علم البيزرة ينقل عن الغطريف أيضاً كما ينقل عن أدهم فيقول : قال الغطريف بن قدامة وكان أستاذاً حاذقـــاً في معرفة الضواري َقيّماً بأمرها » [٢].

والغطريف بن قدامة هذا كانمطـّلِعاً -كما يبدو- على آثار الأمم الأخرى في البيزرة واقفاً على ما جاء فيها ، فقد نقل عنه صاحب كتاب القانون في علم البيزرة قوله : « وجدنا في كتاب خاقان صاحب الترك كذا .. [٣].

وورث الوليد بن يزيد عن هشام بن عبد الملك وَلعَه بالضواري فاصطنع الغطريفَ بنَ قدامة من بعده وجعله صاحباً لضواريه حين آلت إليه الخلافة.

بل إن ولع الوليد جاوز الحدّ مما جعل هشاماً نفسَه يعمل على الكفّ من غلوائه في ممارسة اللهو بالضواري وغيرها [٤] .

فقد رَوى الطبريّ أن الوليد اتخذ ندماء فأراد هشام أن يقطعه عنهم ، فولاه الحجّ سنة تسع عشرة ومائة ، فحمل معه كلاباً في صناديق فسقط منها صندوق عن البعير وفيه كلب فأجالوا على المكاري السياط وأوجعوه ضرباً [١].

فلما ولي الوليد الخلافة لم يُغيّر من سلوكه هذا شيئاً وإنما تمادى فيما كان فيه من لهو « وخلاعة ومجانة وركوب للصيد وشرب للنبيذ ومنادمة للفُسّاق

---

(١) انظر كتاب الطيور تجد مصداق ذلك في أية صفحة من صفحاته .

(٢) أنظر كتاب القانون في البيزرة : الورقة ٦ وما بعدها .

(٣) انظر الطبري : ٥ / ٥٢٠ وما بعدها .

(٤) انظر المصدر السابق .

(١) انظر الطبري : ٥ / ٥٢٠ .

فثَقُلَ ذلك على جنده ورعيته فكرهوا أمره، وكان ذلك من أكبر ما جناه على نفسه حتى قاده إلى هلاكه »[1]، « فقد جعل يكره المواضع التي يَلقى فيها الناس ، ولم يزل يتنقل من مكان إلى آخر ويتصيد حتى ثَقُل على الناس وعلى جنده .. فأجمع على قتله جماعة من قضاعة واليمامة »[2].

وكان من الطبيعي ألا يقف أمر اقتناء الضواري والصيد بها على الخلفاء وحدهم وأن يسري ذلك إلى الأمراء والأثرياء ، فها هو ذا عبد الملك بن بشر ابن مروان يقتني الفهود ويولع بها ولعاً يحمله على أن يستدعيَ شاعراً فحلاً من شعراء الطرد ليصفها له وينشده فيها .

فقد رُوِيَ عن الأصمعي أنه قال : « أخبرني بعض الرواة وحدّثني ابن أخت أبي النجم أن عبد الملك بن بشر بن مروان قال لأبي النجم صف لي فهودي هذه فقال :

إنّا نزلنا خيرَ مَنْزِلات ... بين الحُمَيْرات المباركات[3]

مما سبق نستطيع أن نقرر أموراً أربعة :

أولها : أن طائفة من خلفاء بني أمية أولعت بالصيد وجوارحه وضواريه ولعاً شديداً أورد أحدَهم مورد الهلكة ، وأن بعض الأمراء وأصحاب الثراء غَدَوْا على دين ملوكهم في ذلك .

وثانيها : أنه أصبح للصيد وضواريه في عهد هشام بن عبد الملك والوليد ابن يزيد شأن في أعمال الدولة ، وسُمّي له صاحب يقوم عليه ويرعى شؤونه كما كان للشرطة والحسبة وغيرهما صاحب أيضاً .

---

(١) انظر الطبري : ٥ / ٥٣٨ .
(٢) انظر الطبري : ٥ / ٥٣٨ وما بعدها .
(٣) الأغاني : ١٠ / ١٦٠ .

وثالثها : هو أن وجود هذه الوظيفة في أعمـال الدولة بعث على البحث والدرس والتـتبـّع لأحوال الجوارح والضواري والوقوف على شيء مما لدى الأمم الأخرى في هذا الشأن ، وبذلك يكون الصيد قد دخـل على يد بني أمية في طور جديد لا عهد للعرب به من قبل .

ورابعها : هو أن جمهور المسلمين لم يكن راضياً عن استهتـار خلفائه بالصيد وانشغالهم به وامتهان أنفسهم فيه، فهو ما زال يَرَى في سيرة الخلفاء الراشدين مثالاً يُقتَدى به ومنهاجاً يُنسَج على منواله ، ولكنّ نظرة جمهور المسلمين هذه لم تُغيِّر من الأمر الواقع شيئاً كثيراً .

ومن هنا أصبح في وسع الدارس أن يقرر وهو مطمئن أن الصيد وجوارحه وضواريه أصبحت تحتل مكاناً مرموقاً عند القادة السادة، وأن هذه الظاهرة الجديدة من ظواهر الحيـاة في القصور لا بُدّ لها من أن تجد صداها لدى الشعراء الذين كانوا يلوذون بهذه القصور ، وَيحْيَوْنَ في أكناف أربابهـا وينالون كريم حِبائهم وينعمون بسخِيّ عطائهم ، ويتقربون إليهم بما يحبون وما يرتضون .

وأن شعر الطرد نشأ في ظلال هذه الحياة الجديدة .

ونحن سنترجم فيما يلي لثلاثة من شعراء الطرد في عصر بني أمية ، هم : أبو النجم العجلي ، والشمَرْدَل اليربوعي ، وأبو نُخَيلة السعديّ وسندرس ما وقفنا عليه من طردياتهم ، ونذكر أهم خصائصها :

أبو النجم العجلي :

هو الفضل أو المفَضَّل بن قُدامة بن عُبيد الله ، وينتهي نسبه إلى عِجْل من ربيعة بن نزار ، وكنيته أبو النجم [1] ، ولد في أوائل خلافة معاوية ونشأ

---

(١) انظر الأغاني : ١٠ / ١٥٠ ، والشعر والشعراء : ٢ / ٥٨٤ ، ومعجم الشعراء ١٨٠ ، ومعاهد التنصيص : ١ / ٩ ، ولسان العرب : ٧ / ١٧٠ .

في سواد الكوفة في واد يقال له: «ذو الجنبين» حيث كانت منازل عجل [١]، ولما صلب عوده انتقل إلى البصرة فاتخذ منها سكناً ومن مربدها سوقاً يعرض فيها شعره وينافح في ميادينها عن قبيلته [٢]، ويبدو أنه كان يعرف القراءة والكتابة، فقد وصف نفسه غِبَّ مجلس شرابٍ عند صديقٍ له يدعى زياداً فقال:

أقبلتُ مِنْ عِنْدِ زيادٍ كالخَرِفْ   تخطُّ رجلايَ بِخَطٍّ مُخْتَلِف
تُكَتِّبانِ في الطريقِ لامَ ألف [٣]

واتصل أبو النجم بطائفة من كبار شعراء عصره منهم رؤبة والعجاج والفرزدق، وغالبهم فغلبهم [٤].

وعاصر عشرةً من خلفاء بني أمية أولهم معاوية وآخرهم هشام بن عبدالملك، غير أنه على ما يبدو لم يتصل إلا بعبد الملك بن مروان حيث مدحه بأرجوزةٍ لاميةٍ [٥] وبسليمان بن عبد الملك حيث مدحه بأرجوزةٍ حائية [٦]، أما هشامٌ فقد اتصل به اتصالاً وثيقاً فحظي عنده ونال جوائزه ورفع الحُجُب دونه، فقد كان يرتاح لِدُعابته ويعجب بشعره ويصفّق له استحساناً إذا أنشد [٧]، ولأبي النجم في هشام طائفةٌ من الأراجيز، منها أرجوزةٌ ضاديةٌ في مدحه [٨]، وأخرى رائيةٌ قالها في وصف «المني»

---

(١) انظر الأغاني: ١٠ / ١٦٠، وخزانة الأدب: ١ / ١٠٢، ومعجم القبائل العربية.
(٢) انظر الأغاني: ١٠ / ١٥٠.
(٣) لسان العرب: ١٩٢/٢، ١٥٨/٩ وخزانة الأدب: ١٠٢/١.
(٤) انظر الأغاني: ١٥١/١٠، ١٥٣ وطبقات فحول الشعراء: ٥٧٨.
(٥) انظر أساس البلاغة: ٨٥/١، ٢٦٤/٢، ٥٥٦.
(٦) انظر لسان العرب ٤٢١/١ والأرجوزة مفرقة بين اللسان، والأساس، والمعاني الكبير، والشعر والشعراء، والجمهرة.
(٧) الأغاني: ١٥٠/١٠ وما بعدها، والموشح ٣٣٦، والشعر والشعراء: ٥٨٧/٢.
(٨) انظر لسان العرب: ٨٨/٩، ١٠١ و ٤٠/١٨ و ٣٨٢/٨.

و«المريء» وهما نهران احتفرهما هشام[١]، وثالثة رائية قالها في وصف فرسه الغراء حين سبقت[٢]، وما زالت حاله طيبة مع هشام حتى أنشده لاميته التي مطلعها :

* الحمد لله الوهوب المجزلِ *

وهي أجود أرجوزة للعرب، وهشام يصفق استحساناً، إلى أن بلغ قوله :

حتى إذا الشمسُ اجتلاها المُجتَلي بين سِماطَيْ شفقٍ مُهَوَّلِ
صَغْواء قد كادت ولـمّا تَفْعَلِ فَهْيَ على الأُفْقِ كعينِ ....

وأراد أن يقول : «الأحوَل» ثم ذَكَر «حَولَةَ» هشام فلم يُتِمّ البيت وأُرتِج عليه، فقال هشام أجِز البيت، فقال : «كعين الأحول»، فاستشاط هشام غضباً، وأمر بِوَجْءِ عنقه وأن يُخْرَجَ من الرصافة[٣]، ثم ما لبث أن رضي عنه بعد زمن غير قليل وقرّبه وأثابه[٤].

واتصل أبو النجم بطائفة من الولاة منهم الحجاج بن يوسف الثقفي وخالد ابن عبدالله القسري، والقاسم بن صبيح العجلي ومدحهم ونال جوائزهم[٥].

وأبو النجم «أحد رُجّاز الإسلام الفحول وفي الطبقة الأولى منهم[٦]»،

---

(١) الأرجوزة موزعة بين المعاني الكبير : ٩٣٠ والجمهرة : ٣/٣٣٤ ولسان العرب : ٦/٤٢٥ و ١٦/١٣٣ و ١/١٤٢ وانظر فهارس الكامل .

(٢) الشعر والشعراء : ٥٨٧ .

(٣) انظر الأغاني : ١٠ / ١٥٥ والشعر والشعراء : ٢ / ٥٤ - ٥٦ وخزانة الأدب: ١ / ١٠٣ والطرائف الأدبية : ٦٩ .

(٤) انظر الأغاني : ١٠ / ١٥٥ وما بعدها .

(٥) انظر الأغاني : ١٠ / ١٦٠ والأوراق للصولي : ١٤٤ .

(٦) الأغاني : ١٠ / ١٥٥ .

وهو من أسرع الناس بديهة»[1] . فقد روى الأصمعي أنـــه قال أرجوزته اللامية في قدْر ما يمشي المرء من مسجد الأشياخ إلى (حاتم الجزار) ومقدار ما بينهما غلوة وهي قدر ثلاثمائة ذراع[2] ، وحسبك أن تعلم أن عدة شطورهذه الأرجوزة واحد وتسعون ومائة،وأنها أم الرجز وأتمه وأكمله[3].

وكانت وفاة أبي النجم في أواخر دولة بني أمية[4].

شعر أبي النجم :

لم تبق عوادي الأيام ديواناً لأبي النجم يرجع إليه شداة شعره ، وقد عثر الأستاذ محمد بهجة الأثري على لامية أبي النجم المدعوة بأم الرجز أو أتم الرجز على ظهر نسخة من كتاب أدب الكاتب بخط السيد عمر رمضان الهيتي من شعراء بغداد في القرن الثالث عشر الهجري فنشرها في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق[5].

ثم وقع الأستاذ عبد العزيز الميمني الراجكوتي على نسخة مشروحة منها بالكتبخانة العمومية باستانبول فنشرها في كتابه القيم «الطرائف الأدبية»[6].

أما الباقي من شعر أبي النجم فهو مبدد شذر مذر مفرق في بطون المعجمات وكتب اللغة والأدب والشواهد ، حيث يجد الباحث صدر بيت هنا وعجزه هناك ، ويقع في كتاب على بيت كامل وفي آخر على ثلاثة شطور ثم يكون عليه بعد ذلك أن يجمع الأشتات إلى الأشتاب وأن يوحد الصدور

---

(١) انظر معجم الشعراء للمرزباني : ١٨٠ .
(٢) انظر المصدر السابق .
(٣) انظر الطرائف الأدبية : ٦٩ .
(٤) معاهد التنصيص : ١ / ١٢ .
(٥) انظر مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق : المجلد الثامن : ٤٧٢ .
(٦) انظر الطرائف الأدبية : ٦٩ .

مع الأعجاز مستعيناً بحسه وذوقه ، معتمداً على طبيعة الموضوع ووحـــدة الروي . وقلما يجد المرء لأبي النجم أرجوزةً أو قصيدةً كاملةً أو قريبةً من الكمال في أيٍّ من المصادر .

على أنَّ أحفَلَ المراجع بشعر أبي النجم هو : طبقات فحول الشعراء لابن سلام ، والحيوان ، والبيان والتبيين للجاحظ، والشعر والشعراء، والمعاني الكبير ، وأدب الكاتب ، وعيون الأخبار لابن قتيبة ، والكامل للمبرد ، والفصيح لثعلب، والجمهرة لابن دريد، والعقد الفريد لابن عبد ربه، والأوراق وأدب الكتّاب للصولي ، والأمالي للزجاجي ، والأغاني للأصفهاني، والمختلِف والمؤتلِف للآمـــدي ، والصناعتين للعسكري ، والموشح ومعجم الشعراء للمرزباني ، والأمالي لليزيدي ، والعمدة لابن رشيق وسِمط اللآلىء للبكري والاقتضاب للبطليوسي ، وأساس البلاغة ، والمفصل ، والفائق للزمخشري والأضداد للأنباري، ولسان العرب لابن منظور ، وفرائد القلائد للعيني،وشرح شواهد المغني للسيوطي ومعاهد التنصيص للعباسي، وخزانة الأدب للبغدادي، وبلوغ الأرب للألوسي ، والطرائف الأدبية للميمني الراجكوتي .

غير أن لسان العرب وأساس البلاغة والمعاني الكبير انتثر في بطونهـــا جُلُّ ما بقي من شعره .

وأنت إذا استقرأت ما تظفر به من شعره المبدد هنا وهناك وجدت أن جُلّه رجز، والقليل القليل منه يجري على غير الرجز، وهو حين يترك الرجز يؤثر من البحور الكامل ، والكاملُ كثيراً ما يُسكَّن الثاني من تفعيلاته فتغدو (مُتْفَاعِلُنْ) بدلاً من (مُتَفَاعِلُنْ) ، ومُتْفَاعِلنْ هـــذه بوزانِ « مُسْتَفْعِلن » ومن هنا كان أبو النجم رجّازاً في المقام الأول وإن كان الجاحظ يعده هو والعُماني وعمر بن لَجَأ في جملة من جَمَعَ الرجز والقصيد[1].

---

(١) الحيوان : ٤ / ٢٣ .

ومعاصروه من الشعراء يعرفون اختصاصه بالرجز، فهم حين طلبَ إليهم سليمان بن عبد الملك أن يفخروا وألا يقولوا إلا حقاً وجعل لمن يَبزُّ أقرانه جاريةً مولدةً ، قالوا: إنَّ أبا النجم يغلبنا بمقطّعاته وهم يعنون بذلك الرجز فقال : لا أقول إلا قصيداً ، فلما جاء من غده قال قصيدة فاق بها الشعراء ونال الجائزة ، ولكن قصيدته هذه كانت من البحر الكامل ذي التفعيلات الثلاث المشابه للرجز [1].

وقد أعلى أبو النجم من شأن الرجز والرُّجّاز ، فقد رُوي عن أبي عبيدة أنه قال : ما زالت الشعراء تغلِب حتى قال أبو النجم :

* الحمدُ لله الوَهوبِ المُجْزِلِ *

وقال العجاج :

* قد جَبرَ الدينَ الإلهُ فجَبَرْ *

وقال رؤبة :

* وقاتِم الأعماقِ خاوِي المُختَرَقْ *

فانتصفوا منهم [2].

وقد أكثر النقاد القول في شعر أبي النجم فمن مادح بلغ بـــه الذروة ، ومن قادح تتبع شعره وأحصى عليه هَناته ونزل به عن المقام الذي وضعه فيه الأولون .

فابن سلام يجعله هو والأغلب العجلي والعجاج ورؤبة في الطبقة التاسعة من

---

(١) انظر طبقات فحول الشعراء : ٥٧٨ .

(٢) الأغاني : ١٠ / ١٥٠ .

الفحول الإسلاميين [١] ، وينقل عن عمرو بن العلاء قوله : إن أبا النجم « كان أبْلغَ في النعت من العجاج [٢]».

وصاحب الأغاني يقول فيه : إنه « من رُجّاز الإسلام الفحول المقدّمين ، وفي الطبقة الأولى منهم » [٣].

والمرزباني يقول في موشحه « إن أبا النجم كان مُقَدّماً عند جماعة من أهل العلم على العَجّاج ، ولم يَكُنْ كغيره من الرُّجّاز الذين لم يُحْسِنُوا أن يُقَصّدوا ، لأنه يُقْصّد فيُجيد » [٤].

وابن قتيبة يشيد بأرجوزَة أبي النجم التي أولها :

* الحمدُ لله الوَهُوب المُجْزِلِ *

ويروى ما قيل فيها من أنها « أجود أرجوزة للعرب » [٥].

غير أن الأصمعي كان ينال من أبي النجم ويقول « لا يعجبني شاعر اسمه الفضل بن قدامة » يعني أبا النجم العجلي [٦] ويرى «أن له رديئاً كثيراً» [٧] ويستجيد بعض رجزه ويضعّفُ بعضَه الآخر [٨].

غير أن عدم إعجابه به لم يمنعه من أن يقول : « قيل لبعض رواة العرب

---

(١) طبقات فحول الشعراء: ٥٧٧ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) الأغاني : ١٠ / ١٥٠ .

(٤) معجم الشعراء : ١٨٠ .

(٥) الشعر والشعراء : ٢/٥٨٤ .

(٦) الموشح : ٣٣٥ .

(٧) المصدر السابق .

(٨) المصدر السابق .

من أرجز الناس؟ قال : بنو عجل ثم بنو سعد ثم بنو عجل ثم بنو سعد يريد الأغْلَبَ العجلي ثم العجاج ثم أبا النجم ثم رُؤبة »[1] .

وقد سُئل مرة : أيُّ الرجز أحسنُ وأجودُ فقال رجز أبي النجم[2] .

ونحن إذا تتبعنا مآخذ النقاد على أبي النجم ألْفَيْناها ضربين أحدهما فنيٌّ والآخر لغويٌّ .

أما المآخذ الفنية فتبدو فيما أخذه عليه الأصمعيُّ في وصف فرسه حين قال :

* تَسْبَحُ أُخْراه ويَطْفُو أوَّلُهْ *

فقال الأصمعي : إذا سبحت أخراه كان حِمارُ الكُسَاحِ أسرعَ منه ، لأن الجواد يوصف بأنه يسبح أولاه وتلحق رجلاه[3] .

وقد خطّأه في وصفه الإبل حين قال :

وَهْيَ على عَذْبٍ رَوِيٍّ المَنْهَلِ
دَحْلِ أبي المِرْقَالِ خَيْرِ الأدْحُلِ[4]
من نَحْتِ عادٍ في الزمانِ الأوَّلِ

فقال : الدَّحْلُ لا تُورَدُه الإبل ، إنما تُورَدُ الرَّكَايا ، وقد عِيب بهذا ، وعيب بقوله في البيت الذي يليه : إن هذا الدَّحْلَ من نحتِ عاد مع أن الدَّحْلان لا تُحْفَرُ ولا تُنْحَتُ وإنما هي خروق وشعابٌ في الأرض

(١) الأغاني : ١٠/١٥٢ .
(٢) الأغاني : ١٠/١٥٨ .
(٣) الشعر والشعراء : ٢/٥٨٦ والأغاني : ١٠/١٦١ .
(٤) الروي : الكثير الماء ، وأبو المرقال رجل من بني عمرو بن تميم ، يقول وردت هذه النوق منهلاً كثير الماء هو الماء هو دَحْلُ أبي المرقال خير الدُّحلان .

والجبال لا تصيبها الشمس فتبقى فيها المياه ، وهي هُوَّة في الأرض يَضِيقُ فَمُها ثم يتسع فيدخلها ماء السماء [1] .

ومما أخذ عليه قوله في البعير :

* أَخْنَسُ في مثل الكِظام مَخْطِمُهْ [2] *

والأخنس القصير المشافر ، وهذا عيب ، وإنما توصف المشافر بالسبوطة .

قالوا : ولم يحسن في وصف ورود الإبل :

جاءت تَسَامَى في الرعيل الأَوَّلِ والظِّلُّ عن أخفافِها لم يَفْضُلِ

ذكر أنها وردت في الهاجرة، والعادة في هذا أن توصف بالورود غَلَساً والماء باردٌ كقول الآخر :

* فوردت قبل الصباح الفاتق [3] *

وكقول الآخر :

فَوَرَدْنَ قبلَ تَبَيُّنِ الألوانِ

وقد أخَذ عليه الأصمعيُّ أيضاً قولَه في وصف راعِي الإبل :

صُلْبُ العصا جافٍ عن التَّغَزُّلِ

فقال : لا يوصف راعي الإبل بصلابة العصا ، والجيد قول الراعي :

ضعيف العصا بادي العروق ترى له عليها إذا ما أَمْحَلَ الناسُ إِصْبَعا

---

(١) الأغاني : ١٦١/١٠ .

(٢) الكظام : القنى التي يجري فيها الماء .

(٣) الفاتق من الفتق بسكون التاء وهو انفلاق الصبح والفتق بفتح الفاء : الصبح، وصبح فتيق أي مشرق .

ومن غلط أبي النجم قوله في فرس :

* كأنها مِيجَنَةُ القَصّار *

والمِيجَنَةُ لصاحب الأدم لا للقَصّار [1].

وقد أُخذ عليه أيضاً حشوه بعض الألفاظ لإقامة الإعراب ، فقد رُوى عن الأصمعي أنه قال : أخطأ أبو النجم في قوله :

كالشمس لم تَعْدُ سِوَى ذُرورِهَا

أيْ لم تتجاوز ذرورَها فأدخل سوى لأجل الإعراب [2].

كما أُخذ عليه أنه قلب في الكلام فجعل المضاف إليه مضافاً في قوله:

قيل دُنُوَّ الأفقِ مِنْ جَوْزائِه [3]

أما ما أُخِذ عليه من الناحية اللغوية فيبدو فيما رواه صاحب معاهد التنصيص وغيره عند الكلام على قول أبي النجم :

الحمدُ لله العليّ الأجْلَلِ

من أن الشاهد فيه مخالفة القياس اللغوي في قوله الأجْلَلِ ، إذ القياسُ الأجَلّ [4] .

ونحن إذا استقرأنا أراجيز أبي النجم وقصائده وجدنا أن موضوعاتها تدور أكثر ما تدور حول الفخر والمدح والغزل والهجاء ، غير أن الطرد ووصف مشاهد الصحراء ، وما فيها من إبلٍ وخيلٍ ونَعامٍ وأسودٍ وأفاع تحتل المقام الأول في شعره .

---

(١) الشعر والشعراء : ٢ / ٥٩٠ وما بعدها .

(٢) الموشح : ٣٧٦

(٣) أمالي المرتضى : ١ / ٢١٧

(٤) معاهد التنصيص : ٩

ونحن سنعرض فيما يلي لطائفة مما عثرنا عليه من طرديات أبي النجم ؛ ونبدؤها بطردية همزية عدة أشطارها اثنان وخمسون شطراً جعل الشاعر عشرةً منها لذكر الديار والأطلال ، والباقي وهو اثنان وأربعون شطراً لوصف الظليم وصيده [١].

افتتح الشاعر طرديته بذكرمنزل لأحبابه عفّى عليه الدّهرُ فطمَسَت معالمه ودَرَسَتْ رباعه ، ولم يبقَ من آياته السابقة وعلاماته السالفة سوى أسافيه السُّفع وشيء من رماده :

لم يُبْقِ هذا الدهرُ منْ آيائِه [٢]
سوى أثافيه وأرْمِدائِه [٣]

غير أن يد الطبيعة الحانية لم تترك هذا المنزل قاعاً صَفْصَفاً كأن لم يَغْنَ بالأمس ، وإنما مسّتْ أطلاله البالية بأناملها الصّناع ، فإذا بأرضه تهتَزُّ وتَرْبو ، وإذا بالروض يُنَوِّرُ في مروجه الخُضْرُ نُوْراً مُختَلِفَ الألوان متعدد الأسماء ، فمن زَهَرٍ أحمرَ تخالُ الشمسَ متألقة في أكامِه الحمر ، ومن وردٍ أصفرَ كلّلَ به الروضُ جبينَه :

فالروض قد نَوَّرَ في حَوّائِه [٤]
مُختَلِف الألوان في أسمائِه
نوراً تخالُ الشّمسَ في حَمْرائِه
مُكلّلا بالوَرْدِ مِنْ صَفْرائِه

---

(١) مصادر هذه الطردية : النوادر ، والحيوان ، وعيون الأخبار ، والمعاني الكبير ، والجمهرة ، والاقتضاب ، وأكمل صورها في المعاني الكبير لابن قتيبة .

(٢) آياي : جمع آي والآي جمع آية وهي العلامة والأثر .

(٣) الأرمداء : لغة في الرماد وقيل : جمع رماد .

(٤) الحُوّة : سواد مع خضرة ، أو حمرة مع سواد .

وكان الذباب الغَرِدُ الذي تجيدُ في حسن تغريده روعةَ صفير القنابر ينتقّلُ على عشبِ هذا الروض الأخضر ويقف على دَرْمائِه النّدِيّ ويتجاوب مع المُكّاء في روعة الصفير وعذُوبةِ الجرْس .

إنه يغرد تغريداً متتابعاً مطّرداً أشبه ما يكون بصوت مُغنٍ مديد الصوت حلوِ اللحن عذب الغناء .

يجاوب المُكّاءَ من مُكّائِه[1]
صوتُ ذبابِ العُشْبِ في دَرْمائِه[2]
يَدْعُو كأنّ العَقْبَ من دعائِه[3]
صوت مُغَنٍّ مدّ في غِنائِه

وهناك في الفلاة التي كانت تسهل تارة وتحزن أخرى كان يحيا ظليمٌ كأنه مَظلّةٌ من قصب ، وكان يسْمَعُ لريشه – وهو يعدو – حفيفٌ كحفيف الريح إذا حَنّت في قصباءِ هذه المظلة .

لقد كان هذا الظليم أبيضَ الخاصرتينِ أسودَ باقي الجسم مما جعله يبدو وكأنه جَمَلٌ طلِيَ جسدُه كله بالقطران عدا حقْويه اللذين بقيا محتفظين بلونهما الأبيض .

كأنه بالسّهب أو حزْبائِه[4]
عَرْشٌ تحنّ الريحُ في قَصْبائِه[5]

---

(١) المكاء : بالضم والتشديد ضرب من القنابر له صفير حسن .
(٢) الدّرماء : نبت ليس بشجر ولا عشب ينبت على هيئة الكبد .
(٣) العَقْب : بفتح وسكون معناه التوالي والملاحقة .
(٤) السّهْب : من الأرض البعيد المستوي وجمعه سهوب ، والحِزْباء : المكان الغليظ.
(٥) العرش : المظلة والخيمة .

كالآدَمِ المَطْلِيِّ في طِلائِـــه[1]
صُعْداً ومـا حَقْـوَاه في هِنائِه[2]

لقد كان هذا الظليم يغتذي بالحجارة ، فإذا جاع ألقى في فمه المرْو فيلسربه إلى جوفه من خــلال بلعومه ويموج فوق عصَبِ عُنُقِه الطويل وَيَتَلَوّى عليه كما تَتَلَوّى الحية الرَّقْطاء حين تضطرب في جلْدِهــا قبل أن يَتِمّ انسلاخه :

والمَرْوُ يُلْقِيه إلى أمعائِه[3]
في سَرْطَمٍ هادٍ على التِوائِه[4]
يمور في الحَلْق على عِلْبائِه[5]
تَمَعُّجَ الحَيَّـةِ في غِشَائِه[6]

لقد خَشِيَ هذا الظليم على بيض أنثاه أن يجرفه السيل فاحتفر له حظيرة كالنُّؤْيِ تحميه من عوادي المياه الجارفة ، أما أنثاه النعامة فقد وضعت بيضاتها الثلاثين في هذا النُّؤْيِ سطراً مُسْتَطيلا بحيث لو مُدَّ عليه خيط لم تخرج واحدةٌ منه عن الأخرى وجَعَلَتْ لكل بيضةٍ نصيباً من الحَضْنِ لأنها لا تستطيع ضَمَّ جميع البيض تحتَها دفعةً واحـــدةً لِكَثْرَتِه واستطالته[7] .

---

(١) الآدم من الإبل : الأبيض .
(٢) الحَقْو : الخصر . الهِناء : القَطِرانُ .
(٣) المَرْوُ : حجارةٌ بيض .
(٤) السَّرْطَمُ : البلعوم . هادٍ : مُوصِل إلى حَوْصلةِ الظّليم .
(٥) العِلْباء : عصب العنق .
(٦) التمعج : التلوي .
(٧) تضع النعامة ثلاثين بيضة وتجعلها في خط مستقيم وتحضن بعضها إثر بعض ولا تزال تنتقل عليها حتى تدرك . انظر الحيوان : ٣٢١/٤ والمعاني الكبير : ٣٧٥ ، وصبح الأعشى : ٧٠/٢

وكانت تنتقل من بيضة إلى أخرى دونَ أن يَعْرُوَها الكَلالُ أو تصيبها السآمة إلى أن أدرك البيضُ وخرجَتْ منه الفراخ !

وقد حَرَصَ الظليم أشد الحِرْص على أن تنشأ الفراخ على عَيْنِه وأن تحيا قريبةً منه قربَ الوَدّ من الخَيْمَةِ .

والبيضُ في نوْيٍ من انتِثائِه (١)
والأمُّ لا تَسأمُ من ثُوائِـــه (٢)
حتى يدبَّ الرَّألُ من خَرْشائِه (٣)
وبات مأوى الوَدِّ من بَنائِه (٤)

إن هذا الظليم شديد القوة عظيم السرعة ، فهو إذا ما عدا زَعْزَعَ صدرَه حتى ليكاد يزيله عن قوائمه ، وحفر بفرق مَنسِمِه نَدِيَّ التراب ويابسَه وكشف بمنقاره ما على التَّلعات من نبات الذُّبَح والعُنْصُلاء :

يُزَعْزِعُ الجُؤْجؤَ مِنْ أنقائِه (٥)
يَحْفِرُ بالمَنسِمِ عَنْ فَرقائِه (٦)
عن يابِسِ التُّرْب وعن ثَرْيائِه (٧)

---

(١) الانتثاء : اتخاذ النُّؤي .

(٢) لا تسأم من ثُوائه : لا تمل من الثواء عليه وحَضنه .

(٣) الرأل : طفل النعام . الخرشاء : قشر البيض الرقيق .

(٤) بات مأوى الوَد : أي بات الرأل قريباً من الظليم قرب الود من الخيمة . والود : بالفتح الوتد في لغة .

(٥) الجؤجؤ : الصدر . الأنقاء : جمع نقاً ونَقْو : كل عظم ذي مخ : أراد أنه إذا عدا حرك جؤجؤه من موضع الأنقاء ، وموضع الأنقاء كناية عن القوائم .

(٦) المنسِم : طرف خف البعير والنعامة ، الفرقاء : للفرْق الذي في المنسم .

(٧) الثرياء : التراب الندي .

ومرة بالحَـدُ من مِجْذائِـــه[1]

عن ذُبَحِ التَّلْعِ وعُنْصُلائِه[2]

وهذا الظليم إذا لوى أخدعَه من ناحية أذنه ، وأمــال عنقه نحو كاهله وانطلق يعدو خُيِّل إليك أن عشرين جنِّيًّا من رُعاته قد صاحوا به وزجروه .

إذا لَوى الأخْدَعَ مِنْ صَمْعائِه[3]

صاحَ به عِشرون من رُعــائِه[4]

كان هذا الظليم يرتع في المراعي مُطَأطِئاً عُنُقَه في عشبها النديّ كما يطامِن الحَيِيُّ من هامته ، فما إن أحسّ بنا حتى مَدّ عنقه الطويل وأطلَّ من فوقه برأسه الصغير فأشرَف عليـــه كما يُشرِفُ المِجْدافُ على المَلّاح ، فلما أثْبَتَنا ضَمّ جناحيه إلى جسده كما يضم البخيل يديه على عطائه ، وسما ببصره إلى العلاء ، وطَلَّق ما كان لديه من حَياءٍ ، وانطلق يعدو عَدْواً سريعاً ، ويهوي في الفيافي هوياً شديداً حتى أصبح لفرط سرعتــه يتراوح بين السماء والأرض ، وحتى غدت الريحُ تَضِلُّ في الخَـواء الواقع بين قوائمه .

وكلما ازداد استقبالاً للريح ازدادت سُرعته ، وقويت مِرَّتُه حتى فَرَى من شدّة جَرْيِـه جلدَ رجليه وكشَفَ عن عروقه وأنسائه :

ورَفَـعَ الظليم من لِوائِـــه[5]

إشْرافَ مَرْدِيٍّ على صُرائِه[6]

---

(١) المجذاء : النقار .

(٢) الذّبح والعنصلاء : ضربان من النبات .

(٣) الأخدع : العنق . الصمعاء : موضع أذن الظليم .

(٤) كان العرب يزعمون أن النعام نَعم الجن .

(٥) رفع من لوائه : يريد باللواء عنقه ورأسه .

(٦) المَردي : خشبة تُدفع بها السفينة . والصُّراء : جمع صار وهو الملاح .

وَضَمَّ صُعُداً جانِبَيْ خِبائِه[1]

ضَمَّ فتى السوءِ على عَطائِـه[2]

وَصَمَحَتْ عيناهُ في قَرْعائِه[3]

ونَشْيَ ما يُذْكَرُ من حَيائِه[4]

هاوٍ تَضِلُّ الريحُ في خَوائِه[5]

وَجَدٌّ يَفْري الجِلدَ عن أنْسائِه[6]

عند ذلك قلت لولدي « شيبانَ » : بادِرْ إلى لقاء هذا الظليم حتى نطعم القوم من شوائه :

قلتُ لشيبان أدْنُ من لِقائِـه[7]

كِيْما نُغَدِّي القومَ من شِوائِه[8]

فامتَطى «شيبان» صهوة جواد سَلِس القياد ، سهل الانعِطاف، مُعتَمَدٍ في العَدْوِ يمرق من غُبـــاره مروقَ السهم ويَتجَرَّدُ منه بأسرع مما يَتجرَّد المجنون من كِسائه ويتخلَّص منه بأسرعَ مما يَنفلِتُ الأصلعُ ممَّن أراد أن يأخذ بناصيته :

---

(١) صُعداً : ارتفاعـاً إلى الأعلى ، وخباؤه جناحاه ومن شأن الظليم إذا عدا أن يستقبل الريح وأن يضم جناحيه إلى جسده وأن يلوي عنقه نحو ظهره .

(٢) فتى السوء : البخيل . على عطائه : على ماله .

(٣) صمحت عيناه: سما بصره، قرعاء الظليم : هامته وإنما كانت قرعاء لأنه لا ريش عليها.

(٤) هذا الشطر مثلٌ لأن الرجل إذا استحيا طأطأ رأسه .

(٥) الخواء : ما بين يديه ورجليه .

(٦) الأنساء : جمع نسأ وهو عرق في الرِّجل .

(٧) شيبان : ابن الشاعر (انظر الأغاني ؛ ١٠ / ١٥٧).

(٨) كيما مثل كما (انظر شواهد سيبويه : ١ / ٤٦٠ الطبعة البولاقية).

مُقْتَدِرَ النفس على اعتِوائِه [1]
مُبْتَرِكٌ يخرج من هَبائِــه [2]
تجَرُّدَ المجنونِ من كِسائِــه [3]
مُنْفَلَتَ الأصْلَعِ من نِصائِه [4]

وقد كان ابني شيبـــان ثابتاً على صهوة جواده ، مُلتصقاً بظهره التصاق الريش بالغراء ، وكان الجواد يسمو مُرتَقِياً وراء هذا الظليم ، وشيبان يزجره تارةً ويقرعه بسيور اللجام أخرى ، حتى إذا حاذى الظليمَ ، طعنه برمحه طعنة كَبَّتْه على وجهه وَضرَّجَتْه بدمائه وألقته على الأرض كما تُلقى قطعة من المتاع وراء خباء البيت :

وقد تم له ذلك قبل أن تدنو الجوزاء من الأفق :

ألصَقُ مِنْ ريشٍ على غِرائِــه
والطِّمُّ كالسّامي إلى ارتِقائِــه [5]
يَقْرَعُــه بالزَّجْرِ أو أشْلائِه [6]
فَكَبَّه بالرمــح في دِمـــائِه

---

(1) نصب مقتدر على أنها حال من شيبان . ورويت مرفوعة فتكون خبراً لمبتدأ محذوف تقديره هو أي شيبان . اعتواء الشيء : عطفه .

(2) مبترك : معتمد في العدو . الهباء : الغبار .

(3) شبه سرعة تخلص الجواد من الغبار بسرعة تجرد المجنون من كسائه .

(4) شبه سرعة انفلات الجواد من الغبار بانفلات رجل أصلع من مُشاجر أراد أن يأخذ بناصيته ، وقد أخذ أبو نواس هذا المعنى فقال :

... كطلعة الأشمط من كسائه

(انظر المعاني الكبير : ٨٧) .

(5) الطِّمُّ : الجواد العتيق ، قال صاحب اللسان : يجوز أن يكون سماه طماً لطميم عدْوِه ، ويجوز أن يكون شبهه بالبحر كما يقال للفرس بحر وغرب (انظر اللسان : ١٥/٢٦٤) .

(6) أشلاء اللجام سيوره .

كالحَفَضِ للصروع في كِفَائِه [١]
قبل دُنُوّ الأُفْقِ مِنْ جَوْزَائِه [٢]

* * *

وهذه طردية أخرى لأبي النجم عدة أشطارها أربعة وأربعون شطراً جعل ثمانية منها للغزل ، وأثنى عشر لوصف الطبيعة القاسية التي مارس فيها الصائد صيده ، أما الباقي وهو أربعـــة وعشرون شطراً فخص به الصائد والصيد [٣] .

وفيما يلي عرض لهذه الطردية :

افتتح الشاعر طرديته بالنسيب فقال : لقد باعَدَ بين أم عمرو وأسيرِها أولئك الحراسُ الذين يذودون المُحِبّ عن أبواب قصورها :

باعَدَ أمّ العمرو عن أسيرِها
حراسُ أبوابٍ على قُصُورِها

إنها ثقيلة الردف ، دقيقة الخصر ، بعيدة مهوى القرط :

خِدَبّةُ الخَلْقِ على تَخْصيرها [٤]
بائنة المَنكب من حادُورِهـــا [٥]

وهي إذا أسفرت زانها وجهٌ أزهرُ اللون ، بهيُّ الطلعة ، أحسنت يدُ الخالق صنعَه ، وأبدعت تصويرَه وفضّلته على ما عداه :

---

(١) الحَفَضُ : متاع البيتِ والبعير المذبوح . كِفاء البيت : سترة من أعلاه الحبلة إلى أسفله مُجْمَل في مؤخره وجمعه أكفئة .
(٢) الجوزاء : برج في السماء .
(٣) مصادر هذه الطردية : الحيوان، والمعاني الكبير، ولسان العرب ، وأساس البلاغة ، ونوادر أبي زيد ، والمفصل .
(٤) الخدبة : العظيمة العجز على دقة في خصرها .
(٥) الحادور : القرط في الأذن .

يزينها أزهُر في سفورهـــا

فضّلَـها الخالِق في تَصويرها

إنها تنام نومَ العروس البكر ، وقد تضمّخَت بطيوب « دار ِين »، ففاح منها عبيرها وعبق شذاها :

نومَ العروس البكْر في عطورهـا

من مسك « دارين » ومن عَبيرهـــا

ثم ينتقل الشاعر من هذا النسيب الرقيق إلى وصف الطبيعة القاسية التي عانى فيها الصائد صيدَه، ويستطرد في خلال ذلك إلى هجاء «تميم» استطراداً خفيفاً ، فيقول :

حتى إذا ما أقبل الصيف بحَرّه اللاهب وقَيْظِه المستَعر ، وجعل وبرُ حمر الوحش يتطاير عن الخطوط الصفر التي تزين أجسادها ويبرز كل مـا في جلودها من تكسر وتثن .

وطفقت جماعات النمل تسير نحو ُقراها على نسق كما تسير العير ، وهي تحمل مؤونتها من حَسَك التلع وخافوره [١].

وأخذت الظباء تلوذ بكنسها لتتّقي لفح الهاجرة

وجعلت تميم تلاقي الموت عطشاً بسبب ُشحّ المياه في نهر السدير الذي كانت تنزل عند أصله بين « الصفا » و « العيس » :

حتى إذا ما طار من خَبيرهـا [٢]

---

(١) الحسك : نبات ذو شوك . الخافور : نبت تجمعه النمل في بيوتها . التلع : جمع تلعة ، والتلعة مجرى الماء من أعلى الوادي .

(٢) الخبير : الوبر .

عن جُدَدٍ صُفْرٍ وعنْ غُرُورِها [١]
وأتت النملُ القرى بِعيرِهـا [٢]
من حَسَكِ التَّلْعِ ومن خافُورِها [٣]
إذْ رَازت الكُنُسُ إلى قُعُورِها [٤]
واتَّقَتِ اللافحَ من حَرُورِها [٥]
لاقت تميمُ الموتَ في ساهُورِها [٦]
بين الصَّفَا والعيسِ من سَدِيرِها [٧]

ثم ينتقل الشاعر إلى الحديث عن الصائد والصيد فيقول :

في هذا القيظ اللاهب الذي يُلْجِىءُ الوحوشَ إلى أوكارها ، وفي هـذا الموسم الكادِح الذي تدأبُ فيه أسرابُ النمل على ادّخار مؤونتها كان يخرج ذلك الصائد إلى الفلوات لاقتناص طرائده ، وهو لا يبتغي من وراء ذلك تجفيفَ اللحم والاحتفاظ به ، وإنما كان يريدُ أن يعود بـه على العافين وأن يقري منه الضيوف فيظفر بحمد الناس وثنائهم ويمتع نفسه بلذاذات الصيد ومسراته :

فَظَلَّ محموداً عـلى قُدُورِها [٨]

---

(١) الجدة بالضم : الطريقة والعلامة والخطة في ظهر الحمار تخالف لونه . الغرور : جمع واحده غرّ وهو كل كسر متثنٍّ في ثوب أو جلد .

(٢) قرى النمل : بيوتها . العير : بكسر العين القافلة أو الإبل تحمل الميرة أو كل ما امتيرَ عليه إبلا كانت أم حميراً أم بغالاً .

(٣) الحَسَكُ نباتٌ ذو شوك والخافُور نباتٌ تجمعُه النمل في بيوتها ، والتّلْع جمع تَلْعة وهي مجرى الماء من أعلى الوادي .

(٤) رَازَ : طلبَ . الكنس : بيوت الظباء .

(٥) اللافح : يقال : نار لافح ولفوح أي محرقة .

(٦) الساهور : أصل العين ، وتميم قوم رؤبة والعجاج .

(٧) السّدير : نهر بناحية الحيرة . والصفا والعيس : مكانان .

(٨) يذكر الصائدَ بأنه يُطْعِم صيدَه ولا يدخره .

ليس بذي الرَّغبَةِ في تَشَرِيرِهــا (١)

إلا بِحَمْـــدِ النفس أو سرورها (٢)

لقد كاد هذا الصائد يبذل نفسَه في سبيل صيده ، فالأُسْدُ دانِيَةٌ منه حتى إنه ليسمع زئيرَها الذي تنخلع منه القلوب .

وكانت بالقرب منه حَيَّةٌ رقطاءُ خرجت من جحرها ، وأخذت تتلوى فوق ثراه وتحكُّ بعض جلدها ببعض فَيُسْمَعُ لاحتكاكه صوتٌ كصوت الرحى وهي تجشُّ الشعير ، وجَعلت ترتعد فيُسمَع لارتعادها ما يشبه هرير الجراء ، وكأنما كانت تَتوعَّدُه بذلك وتنذره .

وكان فحيحها يزداد شدة حتى غــدا شبيهاً بصوت ضَرَم القَصْباء إذا سُجِرَت في تنُّور :

والأُسْدُ قد تَسْمَعُ من زَئيرِها

وباتتِ الأفعى على مَحْفُورها(٣)

تأسِيرُها يَحْتَكُّ في تأسِيرهــا(٤)

مَرَّ الرَّحَى تجْري على شَعِيرها

كَـرِعْدَةِ الجِراءِ أو هَديرِها(٥)

---

(١) شَمرَّ اللحمَ شمرًّا جفَّفه .

(٢) يذكر الصائد بأنه كان يبتغي من صيده حمد الناس وسرور النفس .

(٣) المحفور : الحفرة .

(٤) تأسير الأفعى ، هنا جلدها وأصل معناه : السير يُؤسَر به السرج .

(٥) الجراء : جمع جرو : ولد الكلب . ورعدة الجراء وهريرها : صوتها .

تُوعِدُه بالأخذِ أو هَريرِها
تضرُّمَ القَصْباءِ في تنُّورِها[1]

لكن الصائد مع هذا بقي هادىء النفس مطمئن القلب يُوقِّر نفسَه على الرغم مما فيها من وقار ويُثبِّتُها على الرغم مما فُطِرَتْ عليه من ثبات، ذلك بأنه مُوقِنٌ بأن توعُّد الأفعى إياه وغضبها عليها لا يُقدِّمان من أجله ولا يؤخران فيه ما دام يؤمن بالقدر ويوقن بالبعث والنشور :

يُوقِّر النفسَ على تَوْقيرِها
يعلم ألَّا شيء في تَتْفيرِها[2]
في عاجِلِ النَّفْسِ وفي تأخيرِها[3]
متَى يَمُتْ يَحْيَى إلى نُشُورِها[4]

ثم انتقل الشاعر إلى وصف قوس الصائد وسهامه ، فقال :

لقد كانت على يُسْراه قوسٌ كَبْداء: ضخمة المقبض ، قعساء : بارزة الصدر داخِلة الظهر ، مؤطَّرةٌ تأطيراً عطَفَ أحدَ طرفيها على الآخر، قاسيةٌ صلبةٌ ، نَبْعِيَّة العود ، مُسدَّدةٌ إلى الجنب الأيسر من الأتان حيث يكمن القلب وتكون المقاتل ، مشدودة الأوتار محكمة الصنع ذات هتافٍ خفيضٍ عند الرمي حتَّى لا تثير الطرائد .

أما يمناهُ فقد اصْطَفَتْ من كنانته سهماً أشهبَ اللون ، نافذَ الطعنة يروي ريشه من دماء طرائده :

---

(1) القصباء : جماعة القصب وبه يضرب المثل في شدة الصوت عند التضرُّم .

(2) تتفير الحبة : غضبها .

(3) و (4) أي أنه مؤمن بالقدر موقن بأن الأجل إذا جاء لا يستقدم ولا يستأخر وأنه إذا مات اليوم فسيُبعث غداً يوم النشور .

في كفه اليُسْرَى على مَيْسُورها[1]
كَبْدَاءُ قَعْساء على تَأطِيرِها[2]
نَبْعِيَّةٌ قد شُدَّ من تَوْتِيرها[3]
هَتَّافَةٌ تَخْفِضُ من نَذيرها[4]
وفي اليد اليمنى لِمُسْتَعيرِهَا[5]
شهباءُ تروي الريشَ من بَصِيرها[6]

فلما أحكم التصويب رمَى عن قوسه فأصاب من طريدته مَقتلاً وأخمد نفَسَيها الصاعدين من منخريها في صدرها ودفنهما في جوفها :

رمَى فردَّت نفَسَيْ نثيرها[7]

* * *

وهذه طردية ثالثة لأبي النجم عدة أشطارها ثمانيةٌ وعشرون شطراً ، جعل الشاعر سبعةً منها للغزل والباقي وهو واحدٌ وعشرون شطراً للصيد[8]، وفيما يلي عرضٌ لها :

---

(١) ميسور الأتان : جنبها الأيسر الذي فيه القلب .

(٢) القوس الكبداء : الضَّخْمة الكبد وهو المقبض . القعساء من القعس وهو أن يخرُج الصدر ويدخل الظهر . التأثير عطف طرَفي العود حتى تراه مستديراً .

(٣) نبعية : مُتَّخذة من شجر النبع وهو الذي تصنع منه القِسِيُّ .

(٤) يقال قوس هتَّافة أي ذات صوت .

(٥) لمستعيرها : أي لمستعير يده ، يريد نفسه .

(٦) شهباء : جاء في التاج : ومن المجاز نَصلٌ أشهب بُرِدَ بَرْداً خفيفاً فلم يذهب سواده كله ... وأنشد :

وفي اليد اليمنى لمستعيرها   شهباء تروي الريش من بصيرها

يعني أنها تُغلّ في الرمية حتى يشرب ريش السهم الدم .

(انظر تاج العروس)

(٧) ردَّت نفسي نثيرها: أي قتل الأتان فردت نفسيها الخارجين من منخريها إلى صدرها. يقال نثرت الدابة : أيْ عطستْ وطرحت ما في أنفها من الأذى .

(٨) مصادر هذه الطردية : الحيوان ، والمعاني الكبير ، والجمهرة ، وسمط اللآلىء ، ومعجم البلدان ، ولسان العرب، وأساس البلاغة، وأكثر أبياتها في الحيوان والمعاني الكبير.

افتتح أبو النجم طرديته بالنسيب أيضاً فقال : لقد فَتَنَتْني المحبوبة باختيالها في مِشْيتها ، وأسرتني بحديثها العابث اللاّهي ، وتيّمتني بعينيها النجلاوين الكحيلتين :

قَتَلْنَنَا في المَشْي باختيالها
وبالحديث اللهْوِ من بَطَالِها (١)
وبالعيون النُّجل في أكْحَالِها (٢)

إنها طيبة الفم ، عذبة الريق ، تسقي عود الأراك الناضرَ من ريقها ماءً زلالاً أبرد من ماء الفرات المُعَلَّل في جراره الممزوج بسلسل الخمر :

تَسْقِي الأراكَ النَّضْرَ من زُلالِها (٣)
بَرْدَ الفُراتِيَّة في قِلالِها (٤)
بالقَهْوَةِ المَلْساء من جِرْيَالِها (٥)

ثم ينتقل الشاعر إلى الحديث عن الصياد وزوجه فيقول : كان الصياد زوجاً لأسماء ، وكانت أسماء مزهوةً به فخورةً بِنُجْحِهِ في الصيد ، فقد كانت – على الرغم من ضعف بنيتها وهزال جسمها – دائمة العمل في إعداد طرائده دائبةَ القيام على طهوها بالقدور تارة وإنضاجها بالمَلَّة تارةً أخرى ، وكانت تبدو دائماً مُسْوَدَّةَ الذراعين من إيقاد النيران ومعاجلة الدخان .

وكانت عظيمة الثقة بقدرة زوجها على الظفر بطرائده متى شاء ، لذا فهي تعتقد بأن قطعان حمر الوحش السارحة في القفار المُتَحَصِّنَة في الفيافي

---

(١) من بطالها : يقال بطل الرجل في حديثه بطالة وأبطل : أي هزل والاسم البطل بفتح الباء .
(٢) العيون النجل : العيون الواسعة .
(٣) الأراك : شجر يُتَّخذُ منه السواك .
(٤) القلال : الجرار .
(٥) القهوة الملساء : السلسة الجرع – الجِريْال : الخمر أو لون الخمر .

ملكُ يمينها تأتي بها حين تشاء وتتصرف فيها كما تريد :

زَوْجٌ لأسماء على هزالها
مُسَوَّدَّة الذراع م اعتمالها (١)
من أخذها بالقدر وامتلالها (٢)
تعد عانات اللوى من مالها (٣)

ثم ينتقل الشاعر إلى وصف حُمُرِ الوحش الهائمة على وجوهها في الفيافي فيقول : لقد كانت حمر الوحش تعدو في أرض صلبة عدواً سريعاً ، وكانت تناضل القفار نضالاً قاسياً مريراً ، وكان الحصى يتطاير من حوافرها من شدة العدو وكثرة المراوغة كما تتطاير أسراب الجراد ، وكان الغبار المتصاعد من التراب ألذي تخلته بأقدامها يقيم فوقها خوذة بيضاء :

كأنما المعزاء من نضالها (٤)
رجلُ جرادٍ طار عن جدالها (٥)
تكسوه بالبيضة من قسطالها (٦)
مُنتخل التُّرب ومن نخالها (٧)

ثم يترك الشاعر وصف الوحش إلى الحديث عن الأفعى التي برزت للصياد وهو في قترته فيقول :

---

(١) الاعتمال : العمل .
(٢) الامتلال : من الملال وهو الرماد .
(٣) العانة : القطيع من حمر الوحش .
(٤) المعزاء : الأرض الصلبة .
(٥) الرجل : جمع أرجال ، وهي أسراب الجراد ، جدال الحمر مراوغتها .
(٦) القسطال : الغبار .
(٧) منتخل الترب : منخول التراب ودقيقه .

بينما كان الصياد مستقراً في قترته مُستَخفِياً من حمر الوحش برزت له أفعى قرناء ، وأطلّت عليه من جحرها ، وجعلت تحتك بالأرض كما تحتك الناقة الجرباء بِعقالها ، وآخذت تتلوّى على الترب، وتستدير فوقه كما تستدير الرحى فوق ثفالِها :

تَحكِي لنا القَرْناءُ في عِرْزالِها (١)
تَحَكُّكَ الجَرباء في عِقالِها (٢)
جَرْيَ الرحى تجري على ثِفالِها (٣)

فامتلأ قلب الصياد رهبةً منها وخشيةً من بطشها ، وغدا شديد الرغبة في مزايلتها والابتعاد عنها ، ولكنه لم يفعل ، لأنه لو فارق قترته لتصدت له السباع فافترسته ، أو نَذِرَت به الوحش فولت هاربة ، لذلك آثر البقاء في مكانه ، وصبر على مقاساة الأفعى :

وهو كذي الشَّوْق إلى زِيَالِها (٤)
إن لم ير الصِّحَّةَ في اعتزالها (٥)

وما إن استوثق الصائد من طريدته وأثبتها حتى اتجه إلى جنبها ونحا نحو طِحَالها، وهو يحمل في يده العوجاء المُمَالَةِ للرمي قوساً عوجاء مُحكَمة الصنع بعد أن راش سهامه وركب نصالها ، وأعدها للرمي :

نحا حِيَال الدَّفّ أو طِحَالها (٦)

---

(١) القرناء : الحية التي لها لحمتان في رأسها كأنهما قرنان . عرزال الحية: جحرها ومكانها.
(٢) الجرباء : الإبل المجروبة .
(٣) ثفال الرحى : الجلد الذي يبسط تحتها ليقي الطحين من التراب . وجري : مفعول تحكي وكذلك تحكك في الشطر الذي قبله .
(٤) إلى زيالها : إلى مزايلتها وتركها .
(٥) اعتزالها : تركها والابتعاد عنها .
(٦) الدّفّ : الجنب يقال : رماه الله بذات الدف أي بذات الجنب .

عوجاء في عوجاءَ من أرْصالِهـــا[1]
رَكّبَها القانص في مِزْجَالِهـــا[2]

فلما رمى رنّت القوس فكأنما هي تحنُّ إلى السهم الذي فارقها، وأصاب السهم من الطريدة مقتلا واصطبغ بياضُه بدمها الأحمر القاني :

تَرِنُّ في الكف إلى نصالِها[3]
مُحمَّرةَ الريش على ارتمالهـــا[4]
من عَلَقٍ أقبَل في شِكالِهـــا[5]

* * *

وهذه طرديةٌ رابعةٌ من طرديات أبي النجم يصف فيها ضواري أمير من أمراء بني أمية ، فقد روى صاحب الأغاني عن الأصمعي أنه قال : حدثني ابن أخت أبي النجم أن عبد الملك بن بشر بن مروان قال لأبي النجم : صف لي فهودي هذه فقال :

إنّا نَزَلْنا خيرَ مَنْزِلاتِ[6]

وعدة أشطار الطردية خمسة وعشرون شطراً وهي مُمَحَّضَةٌ كلها لموضوعٍ واحدٍ هو الطرد ، ونحن سنعرضها فيما يلي :

افتتح أبو النجم طرديته بذكر المنزل الذي أنزله فيه الأمير الأمويُّ مع فهوده فقال : لقد نزلنا منزلاً مُمْرِعِ الجنبات ، جَمّ الخيرات وأقمنا فيه بين

---

(١) عوجاء : أي قوسٌ شديدةٌ ، وفي عوجاء : يعني ويده لأنه قد أمالها للرمي ،
(٢) المزجال القدح قبل أن تركب عليه الحديدة والريش .
(٣) ترن في الكف إلى نصالها : إذا رمى بالنصل حنت القوس فكأنها تحن إلى السهم الذي فارقها .
(٤) ارتمالها : يقال : أرمل السهم إرمالاً إذا أصابة الدم فبقي أثره .
(٥) الأشكل : الذي في حمرته بياض . العلق : الدم .
(٦) الأغاني : ١٦٠/١٠ والشعر والشعراء : ٥٨٧/٢ .

فهود ميمونة النقيبة، مباركة الجَنَى ننعم بما تصيده من لحوم الوحش والطير، ونتذوق ما نشتهيه من طيباتها :

إنا نزلنا خيرَ مَنْزِلاتِ
بين الحُمَيْرات المُبَارَكاتِ
في لحم وَحْشٍ وحُبَارِياتِ (١)

وكنا كلما رُمْنا الصيد ونشدنا لذاذاته ألفينا ذلك عند هذه الفهود السلسة الانقياد والتي لا تعصي لِمُريغ الصيد أمراً ولا تُخَيِّب لطالب الطرائد رجاءً :

وإن أرَدْنا الصيدَ ذا اللّذاتِ
جاء مُطيعاً بِمُطاوِعاتِ (٢)

إنها فهودٌ من كل نوع فمنها ما أنِسَ وَحْشِياً ، ومنها ما ضُرِّي داجناً ومنها العالم بالفطرة ومنها المعلّم بالترويض ، وأياً كان نوعُها فهي نجيبةٌ قد انحدرت من أصلاب نجيبة :

عُلِّمْنَ أو قد كُنَّ عالماتِ (٣)
فهي ضَوَارٍ من مُضَرَّياتِ

ثم ينتقل الشاعر إلى وصف جمال هذه الضواري فيقول :

متع ناظريك بجمال هذه الفهود ، وعلّق بصرك بمحاسنها ، فإنها

---

(١) الحُبَاريات : مفردة حبارى وهو طائر طويل العنق أكبر من الدجاج ينشده الصائدون .

(٢) الضمير في جاء عائدٌ على الصيد . والمطارعات كنايةٌ عن الفهود التي تطاوع على الصيد .

(٣) من الفهود ما يضرى وحشياً ومنها ما يضرى داجناً والأول عالم بالصيد والثاني يُعَلَّمُه .

ستطرفك وَتستَصبيك بعيونٍ كحيلةٍ سال الكحل من آماقها خطوطاً سوداً حتى بلغ أشداقها :

فسَكَنَّ الطرف بمُطْرِفات

تريك آماقاً مُخَطَّطات [١]

سوداً على الأشْداق سائلاتِ

ثم يترك الشاعر ذلك إلى وصف صيدها فيقول :

وأنت إذا ما رمت الصيد بهذه الفهود ووضعتها في دروب الطرائد تَرَيَّثَت وتَرَوَّت حتى يُخيِّل إليك أنَّ بها خوفاً من الوحش ، وأنها لو نازلته لكان هو الغالب ولكانت هي المغلوبة .

عند ذلك تقول لها ـ والدهشة تملأ نفسك ـ ما بالكِ أيتها الفهود ! ما لي أراك ساهمةً لا تتزحزحين ، واجمةً لا تتحركين ؟! هل بلغ بك الخوف مبلغاً جعلك تنكلين عن النزول إلى حلبة الطراد ؟!

فلا تلبث أن تجيبك ـ بأفعالها لا بأقوالها ـ حين تَسُدُّ على الطرائد السبل وتأخذ عليها أفواه الطرق ، حتى إذا ما غدت قبالتها شمرت عن ساعد الجد ووثبت عليها وثبةً شديدةً وأخذتها أخذةً واحدةً ، فإذا بالتيوس ملقاةً على الأرض معفرةً بالتراب مُضَجَّعةً هنا وهناك ، عند ذلك تعلم بأن الطرائد ليست بسالمةٍ :

حتى إذا كُنَّ على المَجْرَاتِ [٢]

حيثُ تظنُّ الوحشَ آخِذاتِ

---

(١) الموق : مجرى الدمع من العين .

(٢) المجرات : مجاري المياه ، أو بمعنى الطريق والدرب .

قال : ألَسْتُنَّ بِنَازِلاتِ
فَسَكَّرَ الطُّرْقَ بِمُطْرِقاتِ [1]
ثم حَدَوْنَ الوحشَ مُقْبلاتِ
فواثَبْتَهُنَّ مُشَمِّراتِ
فلو ترى التيوسَ مُضْجَعَاتِ
علمتَ أنْ لسْنَ بِسَالِماتِ

ومـا هو إلا قليل حتى جيء بالتيوس محمولةً على ظهور الدواب ، عند ذلك قلت : ألم تكن هذه الطرائد قبل لحظات تَرْتَعُ وتلهو وتلعب وهي لا تحسب لطائف الموت حساباً ؟! فما أقرب الأجل وما أدنى الموت من الحياة ؟!

أقول إذ جِئْنَ مُذَبَّحاتِ
على الإكافَيْنِ مُعَدَّلاتِ : [2]
ألم تَكُنْ مِنْ قَبْلِ راتعات ؟
ما أقرب الموت من الحياة !

خصائص شعر الطرد عند أبي النجم :

بعد أن استعرضنا أراجيز أبي النجم الأربع السابقة نود أن نلقي عليها نظرةً شاملةً لنتبيَّن خصائصها ولنجيب عن سؤالٍ جديرٍ بأن يَرِدَ على الذهن حَرِيٍّ بأن يُجاب عنه ، وهو ما الفرق بين هذه الأراجيز وبين شعر الصيد الذي ألممنا به في الفصل السابق ؟

---

(١) سكر الطرق : سدها . بمطرقـات : من شأن الفهود أن تسكن قبل التصدي لطرائدها وأن تطرق .

(٢) الإكافان : مثنى إكاف وهو شبه الرحال .

والإجابـــة عن هذا السؤال رأيت أن أتناول الأراجيز الثلاث الأولى بحديث يَعُمُّها وأن أفرد الرابعة بكلام يخصها .

وأول ما يلفتنا في الأراجيز الثلاث هو طريقة بنـائهـا ، فالشاعر افتتح أولاها ـ وهي الهمزية ـ بوصف الأطلال ، فقال :

لم يُبْقِ هذا الدهرُ من آيائِه
سوى أثافيـه وأرمِدَائـه

ثم انتقل إلى وصف الحيوان المصيد الذي هو النعام فنعته نعتاً وافياً هو وأنثاه وصغاره ، ثم ختم الأرجوزة بالحديث عن مطاردته وصيده بالرمح .

أما الأرجوزة الثانية – وهي الرائية – فقد افتتحها الشاعر بالنسيب فقـال :

باعَدَ أمُّ العَمْرو عن أسيرهـا
حراسُ أبوابٍ على قصورهـــا

ثم انتقل منه إلى وصف الجَوّ اللاهب الذي مارس فيه الصائد صيده ، والأهوال الجسام التي تعرض لها وهو يكمن لطرائده ؛ ونعت قوسه القَعْساء التي اعتدها للقنص ، ونبالَه الشُّهُبَ التي راشهـا لصيد الوحش ، ثم ختم الأرجوزة بالحديث عن رمي الطريدة ومصرعها .

وأما الأرجوزة الثالثة ـ وهي اللامية ـ فقد افتتحهـــا بالنسيب أيضاً فقال :

قتَلْنَنا في المشي باختيالهـــا
وبالحديث اللَّهْو من بَطَالهـــا

ثم انتقل إلى الحديث عن زوجة الصائد التي وقفت حياتهـــا على إعداد الطرائد حتى غدت مسودة الذراعين من كثرة إضرام النيران ، ثم ترك ذلك إلى وصف حمار الوحش وصيده بالنبال .

فهذه الأراجيز الثلاث بُنيَت على نسقٍ واحدٍ متقاربٍ حيث افتتحها الشاعر بمقدمةٍ هي وصف الأطلال أو النسيب ، ثم انتقل إلى صلب الموضوع أو ما يتصل بصلبه ، فوصف الحيوان المصيد أو أداة الصيد أو الجو الذي أحاط به ، ثم أنهاها بخاتمةٍ هي وصف الصيد وثمرته .

من ذلك تتبين لنا الخطوة التي خطاها أبو النجم في طريق إنشاء الطردية العربية وفصلها عن أمها – التي هي القصيدة الجاهلية – حيث استخلص منها فقرة الصيد وجعلها موضوعاً مستقلاً قائماً بنفسه من جهةٍ ، وصيَّر مشهد الصيد غايةً تقصد لذاتها بعد أن كان وسيلةً للإشادة بالمطية ، أو التأسّي عند النازلة ؛ وبذلك يكون قد أضاف إلى أغراض الشعر العربي غرضاً جديداً هو الطرد وآلاته .

غير أن أبا النجم لم يستطع التخلص من سلطان القصيدة الجاهلية على غرضه الجديد فافتتحه بذكر الأطلال والتغزل بالأحباب، فظل وفياً للقصيدة الأم ، محافظاً على عمود الشعر العربي .

وفيما عدا ذلك فإن الشاعر لم يحدث في فقرة الصيد القديمة شيئاً يذكر ؛ فالحيوان المصيد عنده إنما هو النعام وحمار الوحش وأتانه .

ووسيلةُ الصيد إنما هي الطراد والطعن بالرمح أو الرمي بالنبال .

والمشاهد التي أحاطت بالصيد هي الأخرى صحراويةٌ بدويةٌ مغرقةٌ في البداوة لا فرق بينها وبين تلك التي كنّا نراها عند امرىء القيس وزهير بل لعلها أشد منها بداوةً .

والحيوان المصيد وأداة الصيد يلقيان من الشاعر أعظم العناية ويفوزان من الأرجوزة بحصة الأسد ، وهذا يجعلنا نقول : إن التجديد الذي تم على يد أبي النجم في أراجيزه الثلاث إنما تناول الشكل أكثر من تناوله للمضمون ، فالشكل قد تغير حيث أصبح مشهد الصيد غرضاً مستقلاً لا يشركه معه

غيره إلا إذا كان ذا صلة به ، أما مضمون فقرة الصيد القديمة فبقي في هذه الأراجيز الثلاث ، كما كان في القصيدة الجاهلية سواءً بسواء .

ويغلب على الظن أن أبا النجم نظم أراجيزه هذه في الشطر الأول من حياته الشعرية يوم كان أشد قرباً إلى البداوة وصورها وأكثر تعلقاً بالصحراء ومشاهدها ، فلما انتقل إلى دمشق ورياضها وألم بقصور بني أمية وحضارتها ودعاه أميرٌ من أمراء البيت المالك هو « عبد الملك بن بشر بن مروان » ليصف له فهوده أنشأ أرجوزةً تختلف عن أراجيزه الثلاث السابقة اختلافاً كبيراً وتخطو خطوةً بعيدةً في طريق بناء الطردية العربية وتكوينها .

ومن أول نظرة يلقيها الدارس على الأرجوزة الجديدة تبدو له طائفة من الملاحظات الهامة :

أولاها أن الشاعر خلّص الطردية من الوقوف على الأطلال والتغزل بالأحباب فأصبحت غرضاً مستقلاً تمام الاستقلال .

وثانيتها هو أن الأرجوزة اتسمت بوحدة الموضوع التي كانت تفتقدها القصيدة الجاهلية .

وثالثتها أن أداة الصيد فيها هي الفهد لا الرمح والقوس ، واتخاذُ الفهود وتدجينها والتصيد بها إنما هو شيءٌ جديدٌ في الحياة العربية استحدثه خلفاء بني أمية كما رأينا من قبل ، ووصفُ الصيد بالفهد هو الآخر أمرٌ جديدٌ على الشعر العربي تمّ على يدي أبي النجم .

ورابعتها أن الحيوان المصيد في الأرجوزة هو الظبي لا النعام وحمار الوحش ويقر الوحش التي تناولها شعر الصيد القديم .

وخامستها هو أن الحيوان الصائد الذي هو الفهد غدا موضع الاهتمام في الأرجوزة الجديدة ، حيث انصرف الشاعر عن الحيوان المصيد الذي كان

موضع عناية الشعراء الجاهليين إلى الحيوان الصائد الذي غدت تـــدور حوله الطردية الجديدة .

وسادستها هو خلو الطردية الجديدة من تلك المشاهد الصحراوية الجـــافة الخشنة وميلها إلى طلاوة الحضارة ولينها .

وسابعتها قلة الغريب في هذه الأرجوزة .

ومن هنا يمكن القول : إن أبا النجم العجلي هو الذي خطـــا بالطردية خطوةً واسعةً في طريق استقلالهـــا ، وهو الذي وضع اللبنة الأولى في صرح بنائها .

الشمردل بن شُـرَيك اليربوعي

ترجمته :

هو الشمردل بن شُـرَيك بن عبد الملك وينتهي نسبه إلى يربوع من تميم [1] والشمردل في اللغة : القويُّ الفتيُّ الحَسَنُ الخَلْق من الإبل وغيرها ، ثم جُعِلَ علماً على الرجال ودخلت فيه اللام مثلَ دخولها في الحَسَن والعباس ونحوهما [2] ، أما اسم أبيه شريك فضبطه الفيروزبادي بفتح الشين وكسر الراء ، بينما نصّ المرصفيُّ في رغبة الآمل على ضبطه بضم الشين وفتح الراء على أنه مصغر [3] وذهب إلى ذلك محقق كتاب الشعر والشعراء [4] ، أما الراجكوني فقد تردد في ضبطه حين أشار إليه في سمط اللآلىء [5] .

والمعروفون باسم الشمردل خمسةٌ [6] غير أن شاعرنا أوسعهم شهرةً ، ويكنى الشمردل بابن الخريطة ، ذلك لأن أمه جعلته في خريطة حين كان

---

(١) انظر الأغاني : ١١٢/٢ والمؤتلف والمختلف : ٢٠٥ وهو يجعل جده (عبدالله) بدلاً من عبد الملك .

(٢) لسان العرب « شمل » .

(٣) رغبة الآمل : ١٩٠/١

(٤) الشعر والشعراء : ٢/ ٦٨٥

(٥) سمط اللآلىء : ٥٤٤/١

(٦) انظر تاج العروس : « شمل » وحماسة البحتري : ٣١٥

صبياً [1] .

وهو شاعرٌ إسلاميٌّ من شعراء الدولة الأموية عاصر جريراً والفرزدق[2]، ونحن لا نعرف سنة ولادته ، لكن وفاته كانت بعد سنة تسعٍ ومائةٍ ؛ ذلك بأنه رثى عمر بن يزيد الأسيدي ، حين قتل على يدي ابن الجارود عامل البصرة من قِبَلِ خالد بن عبد الله القسري سنة تسعٍ ومائةٍ [3] .

وقد نشأ الشمردل نشأةً بدويةً خالصةً وتقلّب في أرض العراق إلى اليمامة في أعالي نجد حيث كانت تتنقّل قبيلته يربوع[4] ولما شبَّ جعل يتردد على مدن العراق ويتصل برجالاتها من أمثال عمر بن يزيد الأسيدي [5] ثم انتقل بعد ذلك إلى خراسان هو واخوته الثلاثة: حَكَم ووائِل وقُدامة مع أميرها وكيع بن سود ، فبعث وكيعٌ أخاه وائلا في بَعْثٍ لحرب الترك وبعث أخاه قدامة إلى فارس في بعث آخر ، وبعث أخاه حكماً إلى سجستان فقال له الشمردل : إنْ رأيتَ أيها الأمير أن تُنفِذنا معاً في وجْهٍ واحد ، فإنا إذا اجتمعنا تعاونا وتناصرنا وتناسينا فلم يفعل ما سأله ، وأنفذهم إلى الوجوه التي أرادها فهجاه الشمردل ، وما هو إلا قليل حتى جاءه نعي أخيه قدامة ، ثم تلاه نعي أخيه وائل بعد ذلك بثلاثة أيام ، ثم نُعِيَ إليه أخوه الحكم أيضاً [6] ، ووقعت النكبات الثلاث على نفس الشاعر وقوع الصاعقة ، فقد غدا في ديار الغربة ـ كما قال ـ رمحاً بغير سِنان وكفاً بلا بنان ، فطفق يرثي الأخوة الثلاثة رثاءً مُلْتاعاً حزيناً يذكّر برثاء الخنساء [7] ، وجعل

---

(١) الشعر والشعراء : ٢ / ٦٨٥ ، والمؤتلف والمختلف : ٢٠٥

(٢) الأغاني : ١٢ / ١١٢

(٣) انظر الطبري : ٥ / ٣٩١ ، ورغبة الأمل : ٢ / ٧٧

(٤) انظر معجم قبائل العرب : ١ / ١٢٧ و ٣٧٠

(٥) انظر الأغاني : ١٢ / ١١٦ ، والطبري : ٨ / ١٩١

(٦) الأغاني : ١٣ / ٣٥١

(٧) انظر الأشباه والنظائر : ٢ / ٢٢١ ، والاغاني : ١٣ / ٣٥٢ ، وشرح التبريزي على حماسة أبي تمام : ٢ / ٣٣٧

يغشى حانات خراسان مع طائفةٍ من الندمان فيسكرون سكراً يطيح بالألباب ويذهب بالرشد [1].

والشمردل ــ على ما يبدو ــ لم يتصل بأحدٍ من الخلفاء ، وإنما اتصل بطائفةٍ من الولاة منهم وكيع بن سود أمير خراسان ، وهلال بن أحْوز المازني وهو سيدٌ من تميم وقائدٌ من قواد بني أمية [2] وعمر بن يزيد الأسيدي وهو أحد شجعان تميم وكان يدعى برجل البصرة [3] ، وقد مدح الأخيرين ونال جوائزهما [4].

شاعريته وشعره :

الشمردل شاعرٌ جزل الأسلوب مشرق الديباجة حلو اللفظة دقيق الصورة حسن المعنى يجيد القصيد ويحسن الرجز .

نعت الأصمعيُّ بعضَ شعره بأنه من ظريف الكلام [5] ، وأثنى الآمديُّ على رجزه وقصيده [6] ، ونوّه أبو عبيدة بطردياته [7] ، وأشاد الخالديان بمرثياته [8] ، واستحسن ابن أبي عون طائفةً من تشبيهاته ورصّع بها كتابه ، من ذلك قوله في وضوح الصباح :

ولاح ضوء الصبح فاستَبِينا كما أرَتْنا المَفْرِق الدَّهِينا [9]

(١) انظر الأغاني : ١٣ / ٣٥٧
(٢) انظر الأعلام : ٩ / ٩١
(٣) انظر الطبري : ٥ / ٣٩١
(٤) انظر الأغاني : ١٣ / ٣٥٨ و ٣٦٠
(٥) انظر الأغاني : ١٢ / ١١٧
(٦) المؤتلف والمختلف : ٢٠٥
(٧) الأغاني : ١٢ / ٢١٦
(٨) الأشباه والنظائر : ٢ / ١٣٣
(٩) التشبيهات : ١٧

وقوله في الصقر :

كأن عينيه إذا جلاهما   ياقوتتان رابحٌ شراهُما [1]

وقوله في الصقر أيضاً :

قد أغتدي والليل في جلبابه   بتُوَّجِيٍّ [2] صاد في شبابه
فانقَضّ كالجلمود إذ علا به   كأنما بالحَلْقِ من خِضابه
عُصْفُرَةٌ [3] الصباغ أو قِضّابِه [4]   أو عترة المسك الذي يُطلَى به [5]

واختار له أبو تمام بعض شعره وأورده في حماسته [6] ، واصطفى البحتري قطعةً جميلة من إخوانياته وأثبتها في حماسته [7] ، واختار الخالديان طائفة من مراثيه وقالا : إنها من مختار مراثي العرب ، فقد صَدَرت هي ومثيلاتها عن قلوبٍ قَرِحَةٍ فجادت لذلك ألفاظها وحسنت معانيها [8].

وانتقى صاحب مُنتَهى الطلب قدراً وافياً من شعره شغل ثلاث عشرة ورقة من كتابه [9].

وعرف الشعراء جودة معانيه وأغروا بها فاغتصب الفرزدق بيتاً من شعره وادعاه لنفسه ، وهو قوله :

---

(١) التشبيهات : ٤٨ .
(٢) التُّوَّجي : الصقر المنسوب الى توج قرية من قرى فارس .
(٣) العصفر : نبات يصبغ به ، ينبت بأرض العرب .
(٤) القضّاب : نبات .
(٥) التشبيهات : ٤٩ .
(٦) حماسة أبي تمام شرح المرزوقي : ٢ / ٦٦٦ و ٨٦٩ و ٤ / ١٦١١ .
(٧) حماسة البحتري : ٤٨ .
(٨) انظر الأشباه والنظائر للخالديين (الفهارس) .
(٩) منتهى الطلب من أشعار العرب : ٢٧٩ وما بعدها .

وما بين من لم يعطِ سمعاً وطاعةً ... وبين تميم غــيرُ حَزّ الحلاقم

وأخذ أبو نواس معنىً من معانيه المستجادة حيث قال الشمردل :

ما قصَّر المجد عنكم يا بني حَكَمٍ ... ولا تجاوزكم يــا آل مسعود
يحل حيث حللتم لا يريمكم ... ما عاقب الدهر بين البيض والسود
إنْ يشهدوا يوجد المعروف عندهم ... خِدْناً وليس إذا غابوا بموجود

فأخذه منه أبو نواس وقال :

فما جازه جودٌ ولا حلّ دونَه ... ولكن يسيرُ الجود حيث يسير

وأخذ البحتري معنى من معانيه أيضاً حيث قال الشمردل :

ألا لا أبالي من أتاه حِمامُـــه ... إذا ما المنايا عن بُجَيْر تجلَّت
يكون أمامَ الخيل أول راكب ... ويضرب في أعْجازها إن تولَّت

فأخذ البحتري معنى البيت الثاني وقال :

طليعتهم إن وَجَّه الجيشُ غازياً ... وساقتُهم إنْ وَجَّه الجيشُ قافلا

ويبدو أنه كان للشمردل ديوانٌ مجموع ، ثم ضاع في جملة ما ضاع من آثارنا الكثيرة ، وأن هذا الديوان بقي موجوداً إلى زمن محمــد بن المبارك ابن ميمون صاحب كتاب منتهى الطلب من أشعار العرب حيث اختار من ديوانه طائفةً وافِرَةً من الشعر شغلت ثلاث عشرة ورقة من كتابه ثم ضاع الديوان بعد ذلك .

أما طردياته الكثيرة التي أشار إليها أبو عبيدة فلم يبق منها إلاّ طرديةٌ واحدةٌ كاملةٌ حفظها لنا كتاب الأغاني ونتف من طرديات انتثرت في كتاب التشبيهات، والمعاني الكبير،وديوان المعاني، ولعل أحفل الكتب بشعر الشاعر وأخباره هو منتهى الطلب من أشعار العرب لابن ميمون ، والأغــاني لأبي

الفرج ، والتشبيهات لابن أبي عون ، والحماسة لأبي تمام ، والحماسة للبحتري ، والحماسة لابن الشجري والنوادر لليزيدي، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، والحيوان للجاحظ ، والأشباه والنظائر للخالديين ، وسمط اللآلىء للبكري ، ومعجم الشعراء للمرزباني، ومعجم البلدان لياقوت ، ورغبة الآمل للمرصفي، ولسان العرب لابن منظور، وأساس البلاغة للزمخشري، وتاج العروس للزبيدي.

وقد طرق الشمردل جُلَّ فنون الشعر المعروفة في عصره فمدح وهجا ، وافتخر وتغزل وقال في الإخوانيات ومجالس الشراب ، غير أن أجود شعره وأسيره ذكراً هو ما قاله في الرثاء الذي بعثه عليه مصرع إخوته الثلاثة ، والطرد الذي حَبَّبَه إليه ولعُهُ بالصيد والقنص فقد رَوَى أبو عبيدة أن الشمردل كان صاحب قنصٍ وصيدٍ بالجوارح وأن له في الصقر والكلب أراجيزَ كثيرةً[1] .

شعر الصيد والطرد عند الشمردل :

المتتبع لشعر الشمردل يجد فيه ضربين من شعر الصيد أحدهما ذلك اللون الذي رأيناه في الجاهلية وصدر الإسلام عند امرىء القيس وزهير وأبي ذؤيب ، وثانيهما ذلك الذي يمكن أن يُطْلَق عليه بحق اسم شعر الطرد حتى ليصح أن يقال في الشمردل : إنه أبو هذا الفن من القول في العربية .

ونحن سنعرض فيما يلي لكلا النوعين وسندرس ما وقع تحت أيدينا منهما وسنبدأ بشعر الصيد لنَرَى فيه الصورة التقليدية القديمة التي رأيناها من قبل ثم ننتهي إلى شعر الطرد لنرى فيه صورة هذا الفن الجديد كما بدت عند أبي نواس وابن المعتز وغيرهما من شعراء الطرد في العصر العباسي .

وقد عثرنا في كتاب منتهى الطلب على قصيدتين اثنتين جَرَى فيهما الشاعر

---

(١) الأغاني : ١٢/١١٦ .

على سنن القدماء في جعل الصيد نقرة من فقرات القصيدة واتخاذه وسيلة لوصف الناقة ، كما وجدنا في الأغاني طردية كاملة للشاعر ، غير أنها وردت محرفة مشوشة مما حمل المحقق على أن يعلق على بعض ألفاظها بقوله « هكذا وردت » ، إشعاراً بعدم اقتناعه بصحة ما أثبته وعدم فهمه له ، وقد اجتهدنا ما وسعنا الاجتهاد في تصحيح الطردية ، واستعنا على ذلك بكتب اللغة والأدب والحيوان ، وأجرينا تعديلا يسيراً في أشطارها حتى استقامت لفظاً ومعنىً وساغت للدارسين قراءةً وفهماً .

أما القصيدة الأولى من قصيدَتي منتهى الطلب اللتين سلك الشاعر فيهما مسلك القدماء فإحداهما بائية من المتقارب عدة أبياتها خمسة وخمسون بيتاً جعل الشاعر سبعة وعشرين منها للغزل ، وسبعة لوصف الصحراء في الهاجرة ، واثني عشر لوصف حمار الوحش وصيده ، وباقي القصيدة وهي تسعة أبيات للفخر بشجاعته وجوده .

وقد افتتح الشاعر قصيدته بنسيبٍ رقيق الديباجة رشيق اللفظ قال :

طَربتَ وذو الحلم قد يَطرب وليس لعهد الصبا مطلب

ثم تابع غزله في سبعة وعشرين بيتاً ، ثم انتقل من بعد ذلك إلى وصف الصحراء والهاجرة ، فالتفت إلى محبوبته وخاطبها قائلا : رُبَّ ليلةٍ حالكة السواد ، ضريرة النجم كلَّفتِنِها سُراها وحمَّلتِنا على قطعها سعياً إليك :

وظلماء جَشَّمتِنا سَيرها ولم يَبْدُ فيها لنا كوكب

ورب هاجرةٍ لافحةِ الأوار، شديدة القيظ تكاد تلتهب الثياب من حرها ، وتبدو الحرابى وكأنها تُشوى بالنار أو تتقد من الحمَّى بسبب فَيْح شمسها وشدة حرها :

وهاجرةٍ صادق حرُّهـــا تكاد الثيابُ بها تلهبُ[1]
كأن الحرابيَّ من شمسها تلوَّحُ بالنار أو تُصلَبُ[2]

ورب مفـــازةٍ رقص آلها فوق الآكام، ولعب سرابها على النجود والمرتفعات:

وَرَقّاصة الآلِ فوق الحِداب يَظَلّ السرابُ بها يَلعَبُ[3]

ثم ترك وصف الصحراء إلى الحديث عن ناقته الأمون التي اجتاز عليها هذه الفيافي فقال:

لقد كانت تحت رحلي ناقةٌ جُماليّةُ الخلق، وثيقة البنية، محبوكة الجسم على مثلها تُقطَع المفاوز وتُجتاز السباسب.

وهي وخودٌ سريعةُ الخطو ترمي بقوائمها إلى الأمام وتمشي مشيَ النعام، فإذا جدَّ الجـــد وقال القوم: أسرعوا استجابت إلى الداعي وأسرعت في سيرها وجالت أمام النوق من غير أن تُزجَر أو تُضرَب بينما لا تسير النوق الأخرى إلا إذا زُجِرت وضُرِبت:

ونحت قتـــوديَ زَيّـــافةٌ خنوفٌ إذا صَخِبَ الجُندُب[4]

---

(١) الهاجرة: نصف النهار عند شدة الحر.

(٢) الصالب من الحمى: الحارة وقد صابت عليه الحمى، أي دامت واشتدت.

(٣) الحداب: جمع حَدَب وهو الغليظ المرتفع من الأرض، الآل: هو الذي يكون ضحىً كالماء بين السماء والأرض يرفع الشخوص ويزهاهـــا، أما السراب فهو الذي يكون لاطئاً بالأرض كأنه ماء، والآل من الضحى إلى الزوال. والسراب بعد الزوال إلى العصر.

(٤) القتود: جمع قتد وهو الرحل. الزيافة: المختالة، يقال زاف البعير يزيف إذا اختال في مشيته. الخنوف: الناقة السريعة النشيطة التي إذا سارت قلبت خف يدها إلى وحشيه أو هي التي تميل بيديها في أحد شقيها من النشاط. إذا صخب الجنـــدب: أي من شدة الحر.

جُمَالِيَّــةُ الخلـق مضبورة على مثلها يُقْطَعُ السَّبْسَبُ[1]
وَخُودٌ إذا القوم قالوا ارفعوا ضُمِرِبْنَ وجالَتْ فما تَضْرِبُ[2]

وما إن انتهى الشاعر من رسم هذه الصورة الرائعة لناقته وبيان مَزِيَّتِها على أترابها من النوق حتى انتقل إلى مشهد الصيد ، وذلك حين شَبَّه الناقة بحمارٍ وحشيٍّ فقال : كأنني شددت رحلي على متن حمــارٍ وحشيٍّ وثيق الخلق ، شديد المِرَّة ، سريع الخطو ، أبيض الحقيبة ، ذي صوتٍ مِرْنان يحمل أُتُنَه الضامرةَ البطون الطوال الظهور المشاكلة للرماح يجعلهــا تحاذر رَوْعاته وتخشى غضباته :

كأنَّ قُتُودي وأنساعَهـا تَضَمَّنَهُنَّ وأىً أحْقَبُ[3]
مُرِنٌّ يُحاذِرُ رَوْعاتِـه سَماحيجُ مثل القَنا شُزَّبُ[4]

إنها أتنٌ شديدة المراس لا تغفر للعَيْر الذي يهمل شأنهــا تقصيرَه ، فإذا استهان بأمرهــا شَمَسَتْ عليه فلا هي تعطيه الطاعة ولا هو يقسرها على الولاء له :

إذا امتنعت بعــد إظهارهــا فلا الطوع تُعْطي ولا تُغْصَبُ[5]

---

(١) يقال ناقةٌ جُمالية : أي وثيقة الخلق كالجمل . المضبورة : من الضبارة وهي تجمع الخلق وشدته . السبسب : الأرض البعيدة المستوية والمفازة .

(٢) الوخد : ضرب من سير الإبل . ووخد البعير : أسرع ووسّع الخطوة ورمى بقوائمه كمشي النعام . السير المرفوع دون الحضر وفوق الموضوع .

(٣) الأنساع : جمع نِسْع وهو السَّير تُشدُّ به الرحال، الوأى الأحقب : الحمار الوحشي الأبيض الحقيبة .

(٤) السماحيج : جمع سَمحج : الأتان الطويلة الظهر ، يشبهها بالقنا .

(٥) رواية البيت في منتهى الطلب :

إذا امتنعت بعد إطهارهــا فلا الطوع تعطى ولا تغضب

ولقد ترجح لدي أن أصل إطهارها (بالطاء المهملة) هو إظهارها (بالظاء المعجمة) ، وأن أصل تغضب (بالضاد المعجمة والبناء للمعلوم) هو تغصب (بالصاد المهملة والبنــاء للمجهول) ، والاظهار في اللغة أن تجعل حاجة غيرك وراء ظهرك تهاوناً بهــا ، يقال ظهر فلان بفلان ، واستظهره وظهر بحاجته وظهَّرها ، وأظهرهــا : جعلها بظهر ولم يخفَّ إليها ، « انظر لسان العرب » .

لقد رعى هذا العير هو وأتنه حدائق الرياض يوم كانت طرية ندية حافلة بالعشب والكلأ ، فلما تصرّمَ الربيع ، وصَوَّح النبتُ وجفت مياه الغدران وهَبّتْ رياح الصيف الحارة تذكر المناهل العذبة التي كان يَرِدُ عليها ، والمياه الصافية التي كان ينهل منها ، فيمّمَ وجهه نحوها وقاد أتنه إلى منابعها ، فسرْنَ وراءه سحابة النهار ، فلما أقبل الأصيل ودنت الشمس للغروب حَدَّقْنَ في قرصها وقد غَضَضْنَ من أبصارهن شيئاً وضَيَّقْنَ عيونهن قليلاً وجعلن يُسْرِرْنَ النجوى قائلات : أتراه يرفق بنا بعد هذا العناء الطويل فيسير سيراً هيناً ليناً أم إنه عزم على أن يصل كلالَ الليل بكلال النهار ليَرِدَ بنا الماء في الغداة ؟

رَعَى وَرَعَيْنَ حديقَ الرياض إلى أن تَجَرَّمَتِ العَقْرَبُ [1]
وهاجَتْ بَوارِحُ ذَكَّرْنَه مناهِلَ كان بها يَشْرَبُ [2]
فَظَلَّتْ إلى الشمس خُوصَ العيونِ تَناجَى أيَخْفِضُ أم يُقْرِبُ [3]

لقد حزمت هذه العانة أمرها وبيّتته في ليل وعزمت على أن ترد عيناً من عيون (الجمجمان) التي كانت تتنازعها طرق وعرة المسالك دقيقة الدروب خافية على السالكين تعرف بآثارها .

فبيتن عَيْناً من الجمجمان تَنازَعُها طُرُقٌ نَيْسَبُ [4]

(١) تجرمت : انقضت وتصرمت. العقرب: برجٌ من بروج السماء يكون في أواخر الشتاء.

(٢) البَوارح : شدة الرياح من الشمال في الصيف دون الشتاء ، والبارح الريح الحارة ، وكل ريح تكون في نجوم القيظ فهي عند العرب بوارح .

(٣) الخَوَصُ : ضيق العيون ، وتخاوص غَضَّ من بصره شيئاً وهو في كل ذلك يحدِّق النظر . الخَفْضُ : السير اللين وهو ضد الرفع ، يقرب : القرب : سير الليل لورد الغد .

(٤) بيَّت الأمر : فكر فيه ليلا ، وبيت القوم والعدوَّ أوقع بهم ليلا . تنازعها : من المنازعة بمعنى المجاذبة . النيسب : الطريق المُستدق كطريق حمر الوحش إلى موردها ، والنيسب أيضاً ما وجد من آثار الطريق وليست بجادة بينة (انظر المخصص : ١٢ / ٤٦ ولسان العرب (طرق) - وقد نعت الجمع بالمفرد حملا على اللفظ .

لقد كمن عند العين الموروودة صائد أضناه سهر الليل وتَرقّبُ الطرائد ، فغدا مهزول الجسم من كثرة الكدح ، عاري العظـــام من شدة الدأب ، لا يملك من المال سوى قوس ذات وتر شديد الفتل قوي الجذب ، وغير شيء من النبال اعتدها لطرائده :

بها سَاهِرُ الليل عاري العظام عَرَى لحمُه أنـّه يَدأبُ [١]
قليلُ السَّوامِ سوى نَبلِـــه وقوسٍ لهـا وَترٌ مجذب [٢]

فما إن وردت العانةُ على الماء وأشرعت قوائمها فيه حتى سدّد القانص نحو العَيْر سهماً من سهامه القاتلة فاعترض سبيله نبات كالقصب وثناه عن العير ، عند ذلك جالت العانة وحاصت وانطلقت تعدو وراء العير الأصهب الذي أثار الترب من شدة عدوه ووقع حوافره على الأرض :

فلما شَرَعْنَ رَمى واتـّقَى بسهمٍ ثَنَى حَدّهُ الأثـْأبُ [٣]
فَحِصْنَ فَثـارَ على رأسه من القاع مُعتَبِطٌ أصْهَب [٤]

فلما وجد القانِصُ أن العانة أفلتت منه سُقِطَ في يده وكاد يُجَنُّ من شدة أساه على ما فاته وأوشكَ يَكـْلَبُ من حسرته على ما فَرّطَ وأضاع:

فكادَ بِحَسْرَةِ مـا فاتَه يُجَنُّ من الوَجْدِ أوْ يَكـْلُبُ

وأما القصيدة الثانية فهي رائية مطلعها :

إن الخليط أجدّ منك بكورا وترى المُحاذِرَ بالفِراق جَديرا

---

(١) ساهر الليل : كناية عن الصائد .
(٢) السوام : كل ما يُرعى من المال . الوتر المجذب : الشديد الجذب والمنازعة .
(٣) الأثأب : نبات كالقصب له رؤوس كرؤوسه وشكير كشكيره .
(٤) حاص حيصة : جال جولة يريد الفرار . عبط الحمـــار التراب بحوافره : أثاره . الأصهب : هو الذي تعلو شعره حمرة وأصوله سود ، وقيل: إن الأصهب هو الذي يخالط بياضه حمرة .

وعدة أبياتها سبعةٌ وعشرون ، جعل الشاعر تسعةً منها للنسيب ، وثلاثةً لوصف الناقة ، وتسعةً لوصف الثور الوحشي وصراعه مع كلاب الصائدين وستةً للفخر [1] وهي مشاكلة للأولى تمام المشاكلة .

وأما الطردية فهي أرجوزةٌ بائية الرويّ أوردها أبو الفرج في أغانيه [2] واصطفى ابن أبي عون منها بعض تشبيهاته [3] .

وعدة أشطارها ثلاثة وثلاثون شطراً تدور كلها حول موضوعٍ واحدٍ هو : وصف الصقر وصيده .

ونحن سنعرض هذه الطردية فيما يلي عرضاً وافياً ثم نتبعه بدراسة تُمَيّزُ شعر الصيد من شعر الطرد وتلم بخصائص الفن الجديد عند الشمردل .

ابتدأ الشاعر طرديته بقوله :

لقد غدوت إلى الصيد قبل انبلاج الفجر حيث كان الصبح لا يزال يشف من وراء حجابه ، والليل وشيكُ العودة إلى مآبه ، فبدا الأفق أبلقَ الضياء قد خالط بياضَه سوادٌ وشاب سناه ظلمةٌ .

وكان معي صقرٌ فارهٌ من صقور (تَوّج) مارس الصيد في شبابه ومرن عليه في مقتبل عمره فغدا عادةً من عاداته وسجيةً من سجاياه :

قد أغتدي والصبحُ في حِجابه [4]
والليلُ لم يأوِ إلى مآبه [5]

---

(١) انظر منتهى الطلب : الورقة : ٢٨٦ و ٢٨٧

(٢) الأغاني : ١٣/٣٦١ - ٣٦٢ (الدار) .

(٣) التشبيهات : ٤٩ ووردت بعض أشطارها في معجم البلدان (توج) .

(٤) في التشبيهات : (جلبابه) بدلاً من (حجابه) .

(٥) المآب : اسم مكان من آب يؤوب .

وقد بَدا أبلَقَ من مُنجابِه [1]

بتَوّجيٍّ صاد في شَبابه [2]

إنه صقر مرَوَّض مُذلّل يصرّفه صقّاره كيف يشاء، قد اعتاد الصيد وداوم عليه فهو لا يفتأ يطلبه أشدّ الطلب حتى إنه مزّق وثاقه الذي أوثق به لشدة مجاذبته إياه تحفّزاً للصيد وشوقاً للانطلاق وراء الطرائد.

وهو صقرٌ ذكي الفؤاد يعرف الصوت الذي يُدعى به، ويدرك الإشارة التي يُشار بها إليه، ويميز الثوب الذي يُلوّح له به فيلبي نداء صقّاره ويستجيب لإلماعَةِ بازَياره.

مُعاوِدٌ قد ذلّ في إصْعابه [3]

قد خرّق الضِّفار من جِذابه [4]

وعَرَف الصوت الذي يُدعَى به

ولَمْعَةِ المُلمِعِ في أثوابه [5]

وهو إلى ذلك رائع الصورة مخضّبُ العنق حتى لكأن في حلقه عصفرة الصبّاغ التي تُعَصْفَرُ بها الأثواب وعترة المسك التي تُطلى بها الأجساد:

---

(1) الأبلق: الذي خالط سواده بياض. المنجاب: اسم مكان من انجاب ينجاب بمعنى انكشف.

(2) التوّجيُّ: الصقر المنسوب إلى توّج قرية بفارس.

(3) المعاود: المواظب، والبطل الشجاع لأنه لا يملّ معاودة الحرب وممارستها وتعوّد الشيء وعاده وعاوده معاودة: صار له عادة. الصعب: ضد الذلول والمنقاد.

(4) الضّفار، والضّفر: ما شددت به البعير من الشعر المضفور. والضّفر: نسج الشعر وغيره عريضاً.

(5) الإلماع: الاشارة بالثوب ونحوه.

كأنمـــا بالحلق من خضابه [1]

عُصْفُرَةَ الصَبّاغ أو قَضّابـه [2]

أوعِتْرَةَ المِسْكِ الذي يُطْلَىبه[3]

لقد أتاني القانص بهذا الصقر ضُحىً قبل طلوع الآل الذي يرفع الشخوص ويَزْهاهـــا فرأيته يرمي ببصره بعيداً لِيُجَلّيَ السهوب والأودية فقلت للصقار : ويحك ! ما الذي أبصره هذا الجـــارح حتى مَدَّ طرفه في تلك الفلوات الممتدة بين جبل لُبَابِ وماء ملحوب :

فقلتُ للقانص إذ أتى بـــه

قَبْلَ طلوعِ الآلِ أو سرابِـه : [4]

ويحَكَ مـا أبصر إذ رأى به

من بَطْنِ مَلْحُوبِ إلى لُبابِـه [5]

لقد رأى طائراً من طيور البر يرعى النبت في ناحية الوادي فانقض عليه انقضاض الصخرة الصلدة حين أطلقه صقاره من علٍ :

قَصْماء ترعى النَبْتَ من جنابِـه [6]

---

(١) الخضاب : ما يختضب به من حناء ونحوه ، وخضبه : غير لونه بحمرة أو صفرة أو غيرها .

(٢) ورد هذا الشطر في الأغاني على الوجه التالي « عصفرة الفؤاد أو قضابه » فلم أجد له معنى مقبولاً والتصحيح من التشبيهات لابن أبي عون ص ٤٩ ، والعصفر : نبات يصبغ به ينبت في أرض العرب ، والقضّاب نبات أيضاً .

(٣) العِتْرة : القطعة من المسك .

(٤) الآل : هو الذي يكون ضُحىً كالماء بين السماء والأرض يرفع الشخوص ويزهاها وأما السراب فهو الذي يكون نصف النهار لاطئاً بالأرض كأنه ماء جار .

(٥) ملحوب : ماء لبني أسد بن خزيمة . لُباب : جبل لبني خالد .

(٦) ورد هذا الشطر في الأغاني على الوجه التالي : « قشما ترى النبت من جنابه » وقد استعصى فهمه على المحقق فذيله بقوله : « كذا ورد » ، ولم أجد له معنى على كثرة ما قلبت وجوه الرأي فيه ، ثم أدى بي الاجتهاد لأن أجعل كلمـــة « قصماء » بدلاً من « قشماء » والقصماء : طير من طيور البر ، وأن أجعل كلمة « ترعى النبْت » بدلاً من (ترى النبت) فاستقام الشطر وزناً ومعنىً .

فانقضّ كالجلمود اذْ عَلا بـِه [1]

وكان الصقر يتميّزُ غيظاً ويتلظّى غضباً حين رمى به قَيْنُه بعد طول احتباس فلقيت الطرائد من اغتصابه لهـــا أشد العنَتَ لا فرق في ذلك بين اللواتي برزن على وجه الأرض أو اللائي اختبأن في الحفر من كل طائرشحّاجٍ مُسِنّ ، وكل أرنب ضَغّابٍ شديد التّضَوُّر عندمـــا يقع عليه الجارح ليفرسه ويصيده .

غضبان يومَ قَيْنُه رَمى بـــه [2]

فهُــنّ يَلـْقَيْنَ من اغـْتـِصابه [3]

تحت جديدِ الأرض أو تُرابــه [4]

من كلّ شَحّاج الضُّحى ضَغّابــه [5]

إنه صقر ذو مِرّة يشقى به عدوّه أشدّ الشقاء ، وهو حين يجود لخصمه بطعنةٍ من طعناته النافذة ينشب في إهابـه مخالب تحكي مُدى الجزار مضاءً وتشاكل حرابـــه حِدّةً ، فتعلق عند الإنشاب في جسده وتنتزع فؤاده من وراء حجابه .

إذ لا يزال حَرْبُه يَشْقى بـه [6]

جـاد وقد أنشب في إهابه [7]

---

(١) الجلمود : الصخر .

(٢) وردت في الاغاني كلمة « قنية » بدلاً من « قينه » ، والقين : العبد والصانع عامة.

(٣) الضمير في (هنّ) يعود على الطرائد .

(٤) الجديد : المقطوع مشتق من الجد بمعنى القطع . تربة الأرض : ظاهرها .

(٥) الشحّاج : يقـــال غراب شحاج أي كثير الشحيج ، والشحيج صوت الغراب إذا أسن . والضغاب الكثير الضُغاب ، والضغاب صوت الأرنب وتضوّرها عند الأخذ .

(٦) الحرب : العدوّ .

(٧) نشِب الشيء في الشيء نشوباً : علق فيه ويقال : أنشب البازي مخالبه في الأخيذة. الإهاب : الجلد .

مخالباً يَنْشَبْنَ في إنْشابِـه [١]
مثل مُدَى الجزار أو حِرابه [٢]
تَنْتَزِعُ الفؤادَ من حِجابِه [٣]

لقد صاد هذا الصقر صيداً عظيماً ، وأوقع بالطرائد إيقاعاً ذريعاً فحاز ثمانين طريدةً من ذكور الحَبارَى والأرانب التي يُباهَى بأخذها ويُفْتَخَر بصيدها ، وقدمها لفتيةٍ كرامٍ يُشادُ بصيدهم ويُدْعَى به :

حَوَى ثمانين على حِسابِه
من خَرَبٍ وخُزَزٍ يُعلَى بِـه [٤]
لِفِتْيةٍ صَيْدُهُمُ يُدْعَى بِـه [٥]

وكان هؤلاء الفتية على موعد مع صقرهم لا يخلفه أبداً ، وكانوا ينتظرون أن يأتيَ صيدُه إلى منزلهم الذي تُطْـهَى به الطرائد وتشوى :

وَاعَدَهُمْ لمنزل بِتْنـا بِـه
تُطْـهَى به الخِرْبَان أو تُشْوَى به [٦]

فما إن وافى الصيد الثمين حتى هب إلى الاحتطاب والطبخ فتىً كريمُ

---

(١) ينشبن في إنشابه : أي ينشبن عند إنشابه .

(٢) المُدى : جمع مدية وهي الشفرة . الحراب : جمع مفرده حربة : الآلة وهي دون الرمح .

(٣) حجاب الجوف : ما يحجب بين الفؤاد وسائر البطن .

(٤) الخَرَب : ذكر الحبارى وجمعه خِربان . والخزز : ذكر الأرنب وجمعه خِزّان واخزّة .

(٥) يدعى به : من معاني الدعاء : الرغبة ويكون المعنى : أنه يُرْغب في صيدهم . ويدعى به : يُنتسب إليه ويكتني به ويكون المعنى : إن صيدهم مشهورٌ معروفٌ يُنسب إليه ويكتنى به . والدعوة : ما يدعى إليه من طعام .

(٦) الخربان : جمع خرب : وهو ذكر الحبارى .

المحتد عظيم السؤدد مشرق الوجه رائع الطلعة إذا دُعِيَ أجاب ، وإذا أُهيج لبّى ووثب :

فقــام للطبــخ ولاحتطــابه [1]
أروعُ يهتــاج إذا هجنا بــِه [2]

خصائص شعر الصيد والطرد عند الشمردل :

المتتبع لشعر الشمردل يجد فيــه ـ كما قلنا من قبل ـ ضربين من شعر الصيد ، أولهما ذلك اللون الذى كنا رأيناه في الجاهلية وصدر الإسلام عند امرىء القيس وزهير وأبي ذؤيب وأضرابهم ، وثانيهما ذلك الذي يطلق عليه ـ بحق ـ اسم شعر الطرد .

فهو في اللون الأول اتخذ مشهد الصيد وسيلة لوصف ناقتــه وذلك حين شبهها تارة بحمارٍ وحشيٍّ فقال :

كأن ُقتُودي وأنْساعَها ـ تَضَمَّنهُنْ وأىٌ أحقَبُ

وتارة أخرى حين شبهها بثور وحشيٍّ فقال :

ترمي النِّجَاد بِمُقْلَتَي مُتَوَجِّسٍ ـ لهقٍ تَرَوَّحَ ناشِطاً مَذْعُورا

وما دام قد شبه ناقته بهذين الحيوانين المطرودين فلا بد له من أن ينجيَها حتى يستقيم له غرضه ، وقد فعل .

فالحمار في القصيدة الأولى نجا من سهم القانص ؛ ذلك لأن نباتاً كالقصب اعترض السهم فثناه عن طريقه وجعله يخطىء هدفه :

---

(١) الاحتطاب : جمع الحطب .

(٢) يهتاج : يثور ويثب والهيج : الحركة . الأروع : الكريم ، والحسن الوجــه وذو الجهارة والفضل والسؤدد .

فلما شَرَعْنَ رَمَى واتقى بسهم ثَنَى حَدَّه الأثأبُ

والثور في القصيدة الثانية نجا أيضاً من كلاب الصياد ، وذلك حين بعثته حميته على أن يستبدل بالدفاع الهجوم فكرٌ على الكلاب يطعنها بِرَوْقِه حتى أصاب منها مقتلا :

حتى ارْعَوَى لِحَمِيَّةٍ لحقت به والكِبْرِياء تُشَيِّع المكثُورا
يَنْهَسْنَ كاذَتَه ويمنع لحمَه طعنٌ يصيب فرائِصاً وظهورا

والصائد في هاتين القصيدتين وأمثالهما لا بد من أن يكون قانصاً ماهراً وخبيراً بالصيد ، متمرّساً به ، يقظاً للطرائد ، حتى تكون نجاة الحيوان المطرود منه أدعى إلى العجب من الصائد والإعجاب بالحيوان المصيد ، فهو في القصيدة الأولى ساهرُ الليلِ ، مهزولُ الجسم ، عاري العظام من شدة الدأب وكثرة الكدح ، حريصٌ على الصيد لشدة فقره وحاجته إليه :

بها ساهرُ الليلِ عاري العظام عَرَى جِسْمُه أنه يَدْأَبُ
قليل السَّوام سوى نَبْلِه وقوسٍ لها وَتَرٌ مُجْذَبُ

وهو في القصيدة الثانية عاري الأشاجع بادي العروق مهزول الجسم أيضاً:

حتى غدا حَبِقاً وحَقَّقَ ذُعْرَه عاري الأشاجِع لا يَزالُ ضريرا

وأداةُ الصيد في القصيدتين هي الأداة الجاهلية التي تتمثل في السهام والكلاب ، والحيوانُ المطرود في كلتيهما هو الذي كان يطرده الجاهليون ويعنون في وصفه وينفقون جُلّ أبيات مشهد الصيد عليه ، فهو في القصيدة الأولى العَيْرُ وفي الثانية الثور .

والبحر في القصيدتين غير الرجزفهو في الأولى المتقارب وفي الثانية الكامل.
فإذا تركنا مشهد الصيد في هاتين القصيدتين وانتقلنا إلى الأرجوزة وجدنا

أنفسنا أمام َفنْ ٍ من القول جديدٍ كل الجدة ، وضع َلبِـناتِه الأولى أبو النجم وأ تمّ بناءه الشمردل .

ولبيان ذلك يحسن بنا أن نقف على الأسس التي َبنى عليهـــا الشمردل طرديته :

اتخذ الشمردل بحر الرجز وزناً لطرديتـــه وجعل رويها مزدوجاً . ثم أقام بناءها على أربعة أركان متمايزة واضحة المعالم : أولها مقدمة َتحدّث فيها الشاعر عن التبكير للصيد قبل أن ينحسر الظلام عن الكون وتشرق الأرضُ بنور ربِّها .

وثانيها وصفٌ للجارح الصائد الذي هو الصقر على وجه ألمَّ به من جوانبه المادية والمعنوية كلها .

وثالثها وصفٌ وافٍ للطراد مع إلمامَةٍ بالحيوان المصيد الذي هو الأرنب وبعض الطير ، وإشارةٍ خفيفةٍ إلى الإنسان الذي يشرف على القنص، وذِكرٌ للمكان الذي وقع فيه الصيد .

ورابعها خاتمةٌ ذكر فيها ثمرات الصيد واجتماع الصحاب على طهيه وأكله.

وهو بناء تام لم تصل الطردية في أحسن أحوالها إلى نموذج أكمل منه وأتم.

ومن استعراض مشهدي الصيد السابقين عند الشاعر ودراسة هذه الأرجوزة نعلم أن الشمردل كان مدركاً للفرق بين هذين الفنّين من القول ، واقفـــاً بوضوح وجلاء على طبيعة كلٍّ منهما وغايته ، متصوراً للشكل والمضمون الذي يميز الطردية من مشهد الصيد .

فالشكل في الطردية اقتضى خفّة البحر وازدواج الروي وإقامة البنـــاء على أسس تختلف عما ُبنيت عليه القصيدة القديمة التي أتقن الشمردل صنعها كما أتقنَ صنع الطردية .

والمضمون في الطردية اقتضى جارحاً صائداً كالصقر حلّ محلّ الرماح والسهام ، وحيواناً مصيداً كالأرنب والطير ناب مناب العير والثور والنعام .

يُضاف إلى ذلك وَحْدَةُ الموضوع وتسلسل الأجزاء ومنطقيّةُ الحركة والنقلة ، لذا ساغ لنا أن نقول ـ ونحن مطمئنون ـ إذا كان أبو النجم هو الرائد الأول لشعر الطرد ، حيث عمل على استقلاله ووضع اللبنات الأولى في أسس بنائه ، فإن الشمردل هو الذي أتمّ البناء وأحكم الصنعة ، وهو عندنا أبو هذا الفن في الشعر العربي غير منازع .

ونستطيع أخيراً أن نقرر ـ مع الدكتور شوقي ضيف[1]، ونحن مطمئنون ـ أن شعرَ الطرد وُجد زمن بني أمية ولم يتأخر ظهوره إلى عصر بني العباس ، وأن نحسم التردد الذي خامر « بروكلمان » في هذا الشأن حيث بدا له أن « أبا نواس هو الذي سَبق إلى وضع أسلوبٍ ثابت لهذا المذهب الشعري ، وأنه ربما يكون بعض شعراء بني أمية قد وصف ملاذّ الصيد والطرد ، ثم تبعه أبو نواس في ذلك »[2] .

---

(١) انظر تاريخ الأدب العربي « العصر الإسلامي » : ٣٩٦

(٢) انظر بروكلمان : ٢ / ٢٧

الفصل الخامس

ازدهار شعر الطرد

في القرن الثاني الهجري

العوامل التي أدت إلى ازدهار الطرد في هذا القرن :

لما دالت دولة بني أمية وآل الأمر إلى بني العباس كانت الراية الإسلامية ترفرف على أكثر أصقاع المعمورة ثروة وأوفرها غِنىً ، وكان خراج هذه الأرض العريضة يُجْبَى من هنا وهناك ثم لا يلبث حتى ينصب كله أو جله في خزائن بني العباس ، وكانت الدنيا تقبل على الناس ضاحكة مستبشرة تحمل إليهم الحضارة وزخرفها ، وتسوق لهم الغِنَى ومتاعه ، يُضافُ إلى ذلك أنّ ربح الفتح والغزو قد ركدت وأصبح هم الخلفاء الجدد مقصوراً على حماية حدود دولتهم على أن تُنال أو تُنْتقص ، وحفظ سلطانهم من أن يَخْرُج عليه خارج أو يثور به ثائر .

ثم أقبل الحكام والمحكومون على الترف يَكْرَعون منه ثم لا يرتوون وأوغلوا في المتع يلتهمونها التهاماً ثم لا يشبعون .

وكانت متع الصيد ولذاذاته في طليعة ما أقبلوا عليه ، فجعلوا يقضون في حفلاته ورحلاته أجمل أيام العمر ، وينفقون على جوارحه وضواريه منفس المال .

ومما زاد في هذا الإقبال عِظَم مكانة العنصر الفارسي في الدولة الجديدة والفرس - كما رأينا من قبل - ذوو شأن في الصيد عظيم ؛ ضَرّوا جوارحه وراضوا ضواريه ، وأتقنوا فنونه ، وأحكموا آلاته ، فلما صار لهم في المجتمع الجديد مقامُ الرِّيادة والتوجيه نقلوا إليه كل ما كان لديهم في هذا المجال .

وكانت ولاية السفاح شأنَ المسلمين سبباً آخَرَ من أسباب ولع الناس بالصيد وإقبالهم عليه ، فأبو العباس كان قبل أن يَلِيَ الخلافة يحيا حياة فيها كثير من الفراغ ، وفيها رغبة في الابتعاد عن متناول أيدي ولاة بني أمية ، وكان ذلك يغريه بالصيد ويدفعه إليه .

ومن هنا نشأ السفاح صائداً ، فقد صاد وهو غُلَيِّمٌ صغير [1] وصاد وهو شاب يافع ، ثم صاد بعد ذلك وهو خليفة مكتمل [2] .

وكان كثير الولع بالضواري [3] شديد اللَّهَجِ بالصيد [4] وكان إذا تخلفت ضواريه ولم تصد الصيد الذي يليق بها وبه شكا من ذلك مُرَّ الشكوى وخجل أشدَّ الخجل ، وجعل يخرج إلى الصيد منفرداً عن عسكره ليس معه إلا خاصته من أمثال خالد بن صفوان ومن يساويه في المرتبة .

وكان ينـذر النذور لله إذا نجح في صيده ، ويثيب أجزل الثواب الذي يظن أنه كان سبباً في نجاحه [5] . فقد رُوي عن خالد بن صفوان أنه قال :

---

(١) انظر البيزرة : ٤٢

(٢) انظر البيزرة : ٤١

(٣) انس الملا : ١٤٢

(٤) البيزرة : ٤١

(٥) أنس الملا : ١٤٢

« خرجتُ مع السفاح يوماً إلى الصيد ، وكان كثير الولع بالضواري ، وكان قد شكا لي في تلك الليلة ما يجده من قلة نجح ضواريه في الصيد ، وطلب أن يتصيد منفرداً وقال : مُر – يا خالد – أن يُنادَى في الناس ألا يبتغي الصيد أحد غيري فإنني أخجل من قلة عمل ضواريّ ، فنودي في العسكر أن ارجعوا فرجعوا إلا من اختاره السفاح ، فسرنا غير بعيد ، فقال : إن سررنا في صيدنا هذا اليوم تصدّقت لله بكذا وكذا ، وكان قد اختار من ضواريه القليل وترك الكثير في المخيّم ، وإذا أعرابيٌ ينادي جاريةً له مع إبله : يا سعادة، يا سعادة، فقال السفاح: ويلك يا خالد قلت: لبيك يا أمير المؤمنين: قال : إني قد سررتُ بهذا الاسم ، وإني لأظن بأن الضواري كلها ستصيد في هذا اليوم ثم أمر بعض غلمانه بأن يمضي إلى المخيم وأن يحضر ما تبقى من الضواري وألا يترك منها شيئاً ، فقلت : يا أمير المؤمنين إني لأعجب من أنك كنت تشكو من الضواري ثم ها أنت تأمر بإحضارها جميعاً فكأنك قد استبشرت بهذا الاسم وغلب على ظنك بأن النجاح سيكون في هذا اليوم ، فقال : نعم وستجد مصداق ذلك قريباً ، ولما وصلنا إلى المتَصيَّد اصطدنا بجميع ما جيء به من الضواري ثم أقسم أنه اصطاد ببعض الضواري التي لم تكن قد صادت من قبل [1].

وقد كان السفاح كثير التفاؤل في الصيد شديد التشاؤم أيضاً ، فقد رُوي أنه خرج يوماً إلى الصيد فرأى غلاماً بدوياً صبيح الوجه فقال له. ما اسمك؟ فقال : مسعود ، فقال : دلّنا على مكان الصيد فدلهم فصادوا ما شاء الله أن يصيدوا ، ثم عادوا إلى مخيمهم وأنعم على الأعرابي بما كان فيه غناه [2] . كما رُوِيَ أنّه خرج إلى الصيد يوماً وإذا منادياً ينادي : يا سعيد مرتين أو

(١) انس الملا : ١٤٢

(٢) انس الملا : ١٤٣

ثلاثاً فلما لم يجبه نادى يا شقيُّ فقال السفاح: أول يومنا طيّب وآخره رديء فكان كذلك * (١) .

وقد أكثر السفاح من رحلات الصيد الصاخبة التي كانت تجمع جِلّة أهل بيته وفيهم أعمامه وأخوه المنصور ، وكبارَ رجال دولته وفيهم وزراؤه ، وكان يُمضي في ذلك أياماً حافلة بالمتع والمسرات ، فقد روى صاحب البيزرة أن السفاح كان شديد اللهج بالصيد ناشئاً ومُكتهلا وأنه خرج يوماً متنزّهاً نحو الخورنق في يوم من أيام الربيع ومعه جمع غفير من أهل بيتـه وجماعة من خاصته ومواليه ، فَبُسِط له هناك ودعا بغدائه ، وحضر مائدتَه أعمامُه وأخوه المنصور ، وفيما هم كذلك – يتضاحكون ويأكلون – إذ طلع عليهم أعرابيٌّ ، فأشار إليه أبو العباس فدنا منهم فقال له : أصِبْ من طعامنا فجثا الأعرابيُّ على ركبتيه بعد أن سلّم ثم أكل أكل جائع منهوم مقرور ، فلما فرغ من طعامه أقبل على أبي العباس وقال : بأبي أنت وأمي يا حسنَ الوجه انتسب إليّ أعرفك ، فتبسّم السفّاح ، ثم قال : رجـل من اليمن من عبد المَدان فقال : أنت والله شريف ولكني أشرفُ منك ، قال أبو العباس : فانتسب إليّ أعرفك فقال : من بيت قيس من بني عامر ، فقال أبو العباس : شريف ولكنّي أشرفُ منك فقال : كلا ، ما بنو الحارث بأشرفَ من بني عامر إلا أن تكون عارضْتني في نسبك ، فقال : ما عارضتك وإنّهُمْ لأحد طَرَفَيّ ، قال : فممّن أنت ؟ قال : من بني هاشم ، قال : رهط رسول الله ﷺ؟ قال : نعم ، قال : شريف والله الذي لا إله إلا هو ، فما قرابةُ ما بينَكَ وبينَ هذا الملك – يعني أبا العباس – قال : قريبه ، قال : بأبي أنت وأمي أهو الحميميُّ ؟ قال : هو هو ، قال : فاكتم عليّ حديثاً أحدث به عنه ، قال : أكتم عليك ، قال : رأيتُه وهو غُلَيِّمٌ ، يقعد يرمي بالحميمة فيجمع بين نَبْلِه في مثل راحتي هذه ،

---

* لا يخفى على القارىء أن العقل والشرع لا يُقرّان ذلك .

(١) أنس الملا : ٢٤٣

وكان يمرُّ بالطائر فيصرعه بسهمه فما يملك حتى يذبحه بسيفه ويقطّعه ويضرم له ناراً أو يستعير نار مَلـّة قد أضرمها أهلها لغدائهم فيلقي صيده فيها ، ويرمي بطرفه إليها لئلا يغلبه أحد عليها ، ثم يأكل الطائر نتفاً بريشه مع شَظِيّة من لحمه حتى يأتي على ما فيه لا يشركه فيه عشير ولا خليل .

فصاح به داود بنُ عليٍّ عمُّ السفاح : اسكت فضَّ الله ناجذك ، إنما تخاطب أمير المؤمنين ، فقال أبو العباس لداود : يا عمّ ، ما هذه المعاشرة!؟ رجل يتكلم على الأنس والانبساط وقد تحرَّمَ بنا ولَزِمَنا ذِمامه فأرعبته وأوهنت مَتْنَه وقطعت حديثه ، تكلم يا فتى ، فلما سمع الأعرابي ما قال داود أردف يقول : وكنت أرَى في هذا الفَتَى أمارات خير تدل على أنه سيملك ما بين لابتيها قال : وما هي ؟ قال : لين الجانب والصفح عن الجاهل ، والبذل للنائل مع مَحْتِدِه الكريم وموضعه من النبوة ، فضحك أبو العباس حتى فحص الأرض برجليه وضحك أهل بيته ، وأمر له بألف دينار وكساه وحمله .

من هذه الأخبار يبدو لنا تعلّق السفاح بالصيد وولعه به على وجه ما كان يُتَوقع من الخليفة الأول في الدولة الجديدة التي ما زالت تحتاج إلى من يُرْسي دعائمها ويثبّت أركانها .

فلما آلت الخلافة إلى المنصور لم يسر في الصيد ونحوه من أساليب اللهو سيرة أخيه السفاح ، ولعل اختلاف شخصيتي الرجلين ، وما تعرّض له حكم بني العباس زمن المنصور من انتفاضات وثورات كانا السبب في أن يسلك المنصور في حياته كلّها مسلك الجد وأن يبتعد ما وسعه الابتعاد عن اللهو بأشكاله كلّها ومنها الصيد .

فقد رَوَى الطبريُّ وابن الأثير أنه «لم يُرَ في دار المنصور لهوٌ قَطُّ ولا شيء يشبه اللهو واللعب والعبث ... وقد ذكر حماد التركي قال: كنت واقفاً على رأس المنصور فسمع جَلَبَةً في الدار فقال : ما هذا يا حماد ؟ انظر ،

فذهبتُ فإذا خادم له قد جلس بين الجواري وهو يضرب لهن الطنبور وهن يضحكن فجئت فأخبرته ، فقال : وأيُّ شيء هو الطنبور ؟ فوصفتـــه له فقال لي : أصبتَ صفته فما يدريك أنت ما الطنبور؟ قلت رأيته بخراسان ، قال : نعم ، هناك ثم قال : هات نَعْلي ، فأتيته بها ، فقـــام يمشي رويداً رويداً حتى أشرف عليهم فلما بَصُروا به تفرقوا ، فقال : خذوا الطنبور ، فأخِذَ ، فقال : اضرب به رأسه فلم أزل أضرب به رأسه حتى كسرته ، ثم قال : أخرجه من قصري واذهب به إلى حمـــدان بالكرخ وقل له : يبيعه [1] .

وكما كان المنصور ينزّه نفسَه عن اللعب بالجوارح والضواري ولا يجد في وقته مُتّسعاً لذلك كان يأخذ عماله بهذا ويحملهم عليه حملاً ولا يتأخر عن تَنْحِيَة من يتشاغل بالصيد عن شؤون الرعية ، فقد روى الطبريُّ « أن المنصور ولّى رجلاً من العرب حضرموت فكتب إليه صاحبُ البريد أن الوالي يكثر من الخروج في طلب الصيد ببزاة وكلاب قد أعدّها لذلك، فعزله وكتب إليه : ثكلتك أمك ، وعدمتك عشيرتك ، ما هـــذه العُدّة التي أعددتها للنكاية بالوحوش . ونحن إنما استكفيناك أمور المسلمين ولم نستكفك أمور الوحوش ، سَلِّمْ ما كنتَ تلي من عملنـــا إلى فلان بن فلان والحق بأهلك ملوماً مدحوراً [2] .

لكنّ المنصور على الرغم من ذلـك كله لم يستطع القضاء على ولع الناس بالصيد ولم يتمكن من كفهم عنه ، فهم قد ورثوا هذا الولع عن بني أمية وعن أخيه السفاح ، وتعلقوا بالصيد ومتعه ولذاذاته ، وأخذوا بمـا فيه من روعة الترف البـــاذخ ومظاهر النعمة والخيلاء ، وأرسَوا قواعده وأخذوا أنفسهم بآدابه ، فها هو ذا واحدٌ من ندمائه وشاعر من شعرائه يتعلّق بالصيدتعلّق

---

(١) انظر الطبري : ٣٥٩/٦ وما بعدها ، والكامل : ٤٥/٥

(٢) الطبري : ٢١٣/٦ وما بعدها .

المحبّ بمحبوبه ، ويبوح بذلك أمام الخليفة دون أن يتحرّج ، فقد روى صاحبُ الجمهرة في علوم البيزرة، أن أبا جعفر المنصور قال لأبي دُلامة: كيف حُبُّك للصيد ؟ قال كحب المسجون للخلاص من القيد ، فقال وأي الأشياء أحبُّ إليك من الضواري ؟ فقال : أحِبُّ الصقر الطويل النَّفَس الأسود الجنس إذا صاد أشبع، وإذا أمات أوجع، يصيد الكبير ويُعفّي على الصغير، وثمنُه يا أمير المؤمنين حقير ، فقال : ولم لا تحب البازي وهو خير منه وألذّ وأحسنُ إصابة وأسرع ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، البازي ملك ولا أقدر أن أتشبه بالملوك ، وإنما يحمل الملوكَ الملوكُ ، فقال : فالشاهين ، قال : إنه ـ يا أمير المؤمنين ـ كبير القدر كثير الغدر ، قال : فالباشق ؟ قال: مَلْعوب الصبيان ، وقد فاتني ذلك الزمان ، قال : فاليآئي [1]، قال : ملعوب الخدم وأولاد الحشم ، ولا أُحب يا أمير المؤمنين أن أُشتَم . فقال : ما تصنع بلحم الصيد وعندك ما هو أطيب منه ؟ فقال : صدقت يا أمير المؤمنين ، غير أني أجِدُ فيه لذة الطرب ، وهو الذي أتعبتُ فيه جوادي وأجهدتُ فيه مرادي [2].

بل إن أبا جعفر كان يعتقد أن الصيد سيفشو في أولاده وحَفَدَته وأنهم سيُغرمون به غراماً يأخذه الناس عليهم ، فأراد أن يجد لهم معذرة يعتذر عنهم بها ، لذا فقد ركب ذات يوم فرساً مُشَهَّرَةً مُشَمَّراً عن ذيله وعلى يده بازٌ حتى عبر الجسر بادياً وانكفأ فعبر الآخر راجعاً وتبيّنه الناس ، فلما عاد إلى مجلسه قال للربيع : ما قال الناس في ركوب أمير المؤمنين على هذه الحال ؟ قال عجبوا منها، قال : إنه كان لأمير المؤمنين في ذلك مذهبٌ وهو أنه سيأتي من أبنائنا من يحب الصيد ويتبذّل فيه ، فأحببتُ أن يكون

(١) اليآئي : جمع يؤيؤ وهو من صغار الجوارح .

(٢) الجمهرة في علوم البيزرة ، الورقة : ٣٩ - ٤٠

مني ما رأيت ، فمتى فعل مثلَه مِنَّا فاعلٌ بعدي ، قال الناس : قد ركب المنصور على مثل هذه الصورة [١] .

ولم يكذّب أبناء المنصور وحَفَدَتُه وخلفاء بني العباس ظنَّ أبي جعفر، ولم يتمهّلوا في هذا الأمر الذي توقعه لهم كثيراً ولا قليلاً ، فها هو ذا ابنه المهديُّ ينشأ محبّاً للصيد ، مشغوفاً به حتى إنه لا يكاد يُغِبُّه [٢] أو يصبر عنه [٣] ، وقد أكثر من رحلات الصيد، ورُوِيَتْ له فيها طرائفُ وحوادث منها ما نقله المسعوديُّ وغيرُه عن الفضل بن الربيع أنه قال : خرج المهديُّ متنزّهاً ومعه مولاه عمرو بن ربيع وكان شاعراً فانقطع عن المعسكر، والناسُ في الصيد ، فانتاب المهديَّ جوعٌ شديد ، فقال لعمرو : ويحك ، إلا إنساناً عنده ما نأكل ، فما زال عمرو يطوف إلى أن وجد صاحب مبقلة وإلى جانبها كوخ له فقصد إليه ، فقال له : هل عندك شيء يؤكل ؟ قال : نعم ، رقاق من خبز شعير وزبيب وهذا البقل والكرّاثَ ، فقال له المهديُّ : إن كان عندك زيتٌ فقد أكملت ، قال : نعم عندي فضلةٌ منه ، فقدّم إليهما ذلك، فأكلا أكلا كثيراً .. ووافى المعسكر ولحقتــه الخزائن والخدم والموكب ، فأمر لصاحب المبقلة بثلاث بدر دراهم [٤] .

ومن أخبار رحلات صيد المهديّ ما رواه كشاجم من أن المهديَّ كان في رحلة صيد ومعه عليُّ بنُ سليمان وأبو دلامة ، فأثير أمامهم ظبيٌ فرماه المهديُّ فأنفذه، ورَمى عليُّ بنُ سليمانَ فأصاب كلباً من كلاب الصيد فقتله ، فقال أبو دلامة :

قد رَمى المهديُّ ظبياً شكَّ بالسهم فؤادَه

---

(١) البيزرة : ٤٣

(٢) يغبه : من أغب القوم : أي أتاهم يوماً وتركهم يوماً .

(٣) البيزرة : ٤٣

(٤) مروج الذهب : ٣ / ٢٣٤ وما بعدها ، والكامل : ٥ / ٧٢

وعلـيٌّ بـنُ سلـيما ن رَمى كلباً فصادَهْ
فهنيئـا لهـما ، كل امرىء يأكل زادَهْ[1]

بل إن هناك من يَروي أن المهديَّ قُتِلَ في رحلة صيد ، فقد جاء في الطبريّ وابن الأثير أنه اختُلِفَ في سبب وفاة المهدي « فذُكِرَ عن واضح قهرمان المهديّ أنه قال : خرج المهديُّ يتصيد بقرية يقال لها « الرد » «بماسبذان» فلم أزل معه إلى بعد العصر ، ثم انصرفتُ إلى مَضرَبي وكان بعيداً عن مضربه ، فلما كان السحَر الأكبر ركبتُ لإقامة الوظائف فإني لأسير في برية وقد انفردتُ عمّن كان معي من غلماني وأصحابي ، إذ لقيني أسود عريان على قتود رحل فدنا مني ، ثم قال : يا أبا سهل عَظّم الله أجرك في مولاك أمير المؤمنين ، فهممت أن أعلوَه بالسوط ، فغاب من بين يدي ، فلما انتهيت إلى الرواق لقيني مسرور ، فقال لي : أبا سهل عظّم الله أجرك في مولاك أمير المؤمنين ، فدخلتُ فإذا أنا به مسجّىً في قبة ، فقلت : فارقتكم بعد العصر ، وهو أسرُّ ما كان حالاً وأصحه بدناً ، فما كان الخبر ؟! فقالوا : طردتِ الكلابُ ظبياً فلم يزل يتبعها فاقتحم الظبيُ باب خربة فاقتحمت الكلابُ خلفه واقتحم الفرس الذي كان عليه المهديُّ خلف الكلاب فدُقّ ظهره في باب الخِرْبة فمات من ساعته[2] .

وقد عرف ملوك البلاد المجاورة ولع المهدي بالضواري وشدة شَغفه بالصيد حتى إن « ميخائيلَ بن ليون » عظيمَ الروم لما وقف على ذلك أهدَى إليه كتاباً في البيزرة كان لأوائل الروم[3] كما أشرنا إلى ذلك من قبل .

ثم كان الرشيد على ما عرف به من تُقىً وحزم صاحب ولع بالصيد وتعلـّق به فقد رَوَى صاحب البيزرة « أنّ الرشيد كان ذا حَظّ في الصيد،

(١) المصايد والمطارد : ١٦٦
(٢) انظر الطبري : ٦ / ٢٩٣ ، والكامل ٥ / ٨٤
(٣) انظر مقدمة كتاب الطيور .

وأنه كان يرتاح له ارتياحاً شديداً حتى تحمله الأريحية على ركض فرسه والشد في إثر الطريدة [١] وكان إذا نُمِي إليه خبر متفنن في الصيد استقدمه إليه واتخذه لنفسه ؛ فقد رَوَى صاحب « أنس الملا » أنه كان في زمن الرشيد رجلٌ من أهل البصرة اسمه إبراهيم البازيار يصيد جميع الطير ، وكان له كتابٌ في البيزرة وكان من أدوات صيده التي استحدثها قصب الدبق ، فاستدعاه الرشيد إليه وأحلّه عنده منزلةً عاليةً لمعرفته بالضواري وبالدبق ، وتفرّع التدبيق من إبراهيم البازيار ودَبّقَ الناس بعده بخمس قصبات أو أكثر زَمَنَ المأمون [٢] .

وكانت للرشيد رحلات صيد صاخِبَةٌ يقوم بها ومعه رجالُ دولته وبعض شعرائه من أمثال أبي نواس ، وكان الخليفةُ يَتَخَلّى في هذه الرحلات عن وقاره ويجد في نفسه على من يتزمّت منهم أو يتحرّج ، فقد أخبر بعضُ ولد عبد الملك بن صالح الهاشمي عن أبيهم أنه قال : كنت أحضر مع الرشيد الطرد كثيراً فشهدته معه يوماً ومعنا حسين الخادم ، وكانت الحال بيني وبينه متباعدةً وكان لا يزال يتتبع هفواتي ويغري بي الرشيد فأرْسِلتِ الكلابُ على طريدة وأعْطَى الرشيد لفرسه عنانه واندفع يشتَدُّ في طلبها فلم أتبعه ولا زِدْتُ في عنان فرسي فاغتنم حسين ذلك وأسرع إلى الرشيد وقال له : لو زاد عبد الملك بن صالح في عنان فرسه حتى يلحق بأمير المؤمنين ما كان في ذلك من بأس فقال الرشيد : أستجهلنا أبو عبد الرحمن ، ولم ير مساعدتنا على ما نحن فيه !؟ فقال : قد فعل ذلك ، ثم أمسك الرشيد فضل عنانه وتوقف حتى دنوتُ منه فعاتبني على ما أنكره ، فقلت يا أمير المؤمنين العذر واضح، قال : وما هو ؟ قلت : أنا على فرس لا أثق به قال : عذر ، وأمر لي بدابّة فركبتها وتسايرنا غير بعيد إلى أن أثيرَت طريدة أُخرَى ففعل

---

(١) انظر البيزرة : ٤٣

(٢) الجمهرة في علوم البيزرة ، الورقة : ٥٦ وأنس الملا : ٨٢

مثل فِعْله الأول ولزمت حالي الأول فاشتد إنكاره وجعل يلومني فلحقته فقال: أقَلْنا العِلَّة فما استقبلتَ الزَّلَّة، فقلت: يا أمير المؤمنين إذا كنت لا أثق بفرسي وقد بلوته، فأنا بما لم أبلُه أقلُّ ثقة فقال: لا، ولكنَّ السكينةَ والوقار أفرطا على أبي عبد الرحمن، وكان هذا بعضَ ما أحفظه عليَّ (١).

وكان الرشيد يخرج إلى الرَّقَّة أو غيرها ليصطاد، ثم يُمضي في ذلك الأيامَ الطوال ذوات العدد (٢).

ولم يقف هذا الولع بالصيد عند الخليفة وحدَه وإنما تجاوزه إلى عُمّاله فلما رُفِعَ إليه أمر بعضهم لم يفعل به كما فعل المنصور بصاحبه من قبل، وإنما اكتَفَى بكتاب يوجّه إليه، فقد روى المسعودي أنه «وَرَدَ على الرشيد يوماً كتاب صاحب البريد بخراسان، وقد جاء فيه: أنَّ الفضل بن يحيى تشاغل بالصيد واللذات عن النظر في أمور الرعية فلما قرأه الرشيد رَمَى به ليحيى بن خالد — وكان بين يديه — وقال له: يا أبتِ اقرأ هذا الكتاب، واكتب إليه بما يَرْدَعُه عن فعل هذا، فمد يده إلى دواة الرشيد وكتب إلى الفضل على ظهر كتاب الرشيد «حفظك الله وأمتع بك، قد انتهى إلى أمير المؤمنين ما أنت عليه من التشاغل بالصيد ومداومة اللذات عن النظر في أمور الرعية ما أنكره فعاود ما هو أزين بك فإنه من عاد إلى ما يزينه لم يعرفه أهل دهره إلا به والسلام» (٣).

وكما عُرِفَ عن المهديّ في الآفاق ولعه بالصيد وأدواته فقد عُرِفَ مثلُ ذلك عن الرشيد فاغتنم نقفور ملك الروم إحدَى المناسبات الطيبة

(١) انظر البيزرة: ٤٣ وما بعدها المصايد والمطارد: ٣ وما بعدها.

(٢) انظر الطبري: ٥٣٩/٦ و ٤٢٥

(٣) مروج الذهب: ٤٨٤/٣

وأهْدَى الرشيد اثنى عشر بازياً وأربعة أكْلُب من كلاب الصيد ليتقرب إليه بها [١] .

ثم آل الأمر من بعد الرشيد إلى ابنه محمد الأمين ، فكان – كما يقول صاحب البيزرة – أشدّ انهماكاً بالصيد وأحرص عليه من كل من تقدّمه [٢] ، فهو ما كاد يلي الخلافة حتى « بعث في الأمصار يطلب المُلْهِين وجعل يضمهم إليه وَيُجْرى عليهم الأرزاق ، وتافسَ في ابتياع فُرْهِ الدواب وأَخْذِ الوحوش والسباع وغير ذلك [٣] ، وشاع ذلك عنه وعُرِفَ بين الصائدين ، فطفقوا يأتونه بصيدهم ، فقد رَوى المسعوديُّ أن الأمينَ اصطبح يوماً ، وكان أصحاب اللبابيد والحراب قد خرجوا على البغال إلى سبع كان بلغهم خبره بناحية « كوثى » و « القصر » فاحتالوا عليه إلى أن أتوا به في قفص من خشب على جمل بختي فحُطّ بباب قصر الأمين وأُدْخِلَ عليه فلما مثل في صحن القصر ، والأمين مصطبح قال لهم : خَلُّوا عنه وافتحوا باب القفص ، فقيل له : يا أمير المؤمنين ، إنه سبعٌ هائل أسود وحشي » [٤] .

بل إنه بالغ في تعلقه بالصيد مبالغةً جاوزت كل حدّ ، ففي سنة خمس وتسعين ومائة حيث كان الصراع بينه وبين أخيه المأمون في ذروته وكان مصيره معلقاً على وقفةٍ حازمةٍ يقفها ، فوجّه قائده عليّ بن عيسى لحرب المأمون فقُتِل ، فلما جاء نعيه « كان في وقته ذلك على الشطّ يصيدُ السمك فقال للذي نَعَى إليه قائده : ويلك دعني فإن كوثراً [٥] اصطاد سمكتين وأنا ما صدتُ شيئاً » [٦] .

---

(١) انظر الطبري : ٥١٠/٦ وما بعدها .

(٢) البيزرة : ٤٦

(٣) انظر الطبري : ٧ / ١٠٢

(٤) انظر مروج الذهب : ٣ / ٣٠٧

(٥) كوثر : اسم خادم الأمين .

(٦) الطبري : ٧ / ٦ وما بعدها .

والخبر التالي الذي رواه المسعودي أبلغ من سابقه في استهتار الأمين بالصيد ، فقد قال « إبراهيم بن المهدى : استأذنت على الأمين يوماً وقد اشتد عليه الحصار من كل وجه فإذا هو قد تطلّع إلى دجلة بالشباك ، وكان في وسط قصره بركة عظيمة وفي المخترق شباك حديد ، فسلمت عليه وهو مقبلٌ على الماء ، والخدم والغلمان قد انتشروا يفتشون الماء وهو كالواله ، فقال لي : - وقد ثنّيتُ بالسلام وكررت - لا تؤذوني فمُقَرْطَقَتِي ذهبت في البركة مني إلى دجلة ، ومقرطقته هذه سمكةٌ كانت صيدت له وهي صغيرة فقرّطها حلقتين من ذهب فيهما حبتا دُرٍّ ، قال: فخرجتُ وأنا يائسٌ من فلاحه ، وقلت : لو ارتدع من وقت لكان هذا الوقت »[1].

وقد كان لولع الخلفاء بالصيد وإقبالهم عليه آثارٌ واضحةٌ في حياة المجتمع العباسيّ ونظرته إلى الصيد واقتناء جوارحه وضواريه ؛ فالناس منذ خلقوا يدينون بدين ملوكهم ، يقلدونهم فيما يفعلون ويتقرّبون إليهم بفعل ما يُحبّون ويبتغون عندهم الزُّلفى في تزيين ما يأتونه .

ثم إن الطامحين رأوا في إتقان الصيد واصطناعه وسيلةً إلى التقرب من الخلفاء ؛ فأقبلوا على هذه الهواية إقبالاً منقطع النظير ، وعارضوا نظرة من يزدرون الصيد بنظرة مقابِلة ، فقرروا أن الصيد من جملة الأدب وأنه آيةٌ على مروءة الرجل وعلامة على ظَرْفِه ، فقد قال صاحب الجمهرة في علوم البيزرة : « اعلم أن اللعب بالضواري من جملة الأدب ، وهو مِمّا يُقرّب إلى الملوك ، ومن لم يكن ذا أدب فليس له أن يولع بالضواري لأنّ اللعب بها يفضح ناقص المروءة والأدب »[2] .

ثم إن المجتمع جعل ينظر إلى اللعب بالضواري على أنه من خصائص الملوك

---

(١) مروج الذهب : ٣ / ٣٠٦ وما بعدها .

(٢) الجمهرة في علوم البيزرة : الورقة : ٤٧

وأصحاب الوجاهة، فقد قال صاحب أنس الملا : « لقد أجمع العقلاء على أنه لا يجوز أن يلعب بالضواري إلا الملوكُ ومن دون الملوك من كل شجاع القلب سخيٍّ النفس ثابت العقل يعلم ما ينفع ضواريه وما يضرها فيدبرها بعقله وأن يكون إلى ذلك مكتملاً في آلات صيده»[1]؛ ذلك لأنه ما من مؤونة أغلظُ على ذوي المروءة من تَكلُّف آلات الصيد لأنها خيلٌ وفهودٌ وكلاب وآلات تحتاج في كل قليل إلى تجديد، ومن هنا قيل : إنــه لا يُشغَفُ بالصيد إلا سَخِي »[2].

وكما أثَّرَ الخلفــاء في مجتمعهم فقد أثر مجتمعهم فيهم، فهم حين رأوا ارتياح الناس للصيد جعلوا يمتهنون نفوسهم في سبيله دون تَحَرُّجٍ أو توقُّر، فكان الملك منهم« لا يكبر - إذا أثيرت الطريدة - عن أن يستخفَّ نفسَه في إراغتها ويستحضر[3] فرسه في إثرها ويترجل عنهـا في المواضع التي لا تَقْتَحِمُ الفرسُ مثلَها[4]. بل إنــه حُكي عن أحد الملوك أنه شُوهد وهو يركض خلف كلب وقد دنا من ظبي وهو يقول له من الفرح : إيــه، فدتك نفسي، وفي ذلك يقول أبو نواس :

* مُفَدَّياتٌ ومحمياتهــا *[5]

وهم في هذا يَتأسَّوْن بعظماء الأكاسرة، فقد حُكِيَ عنهم من ذلك ما هو مشهور في سِيَرهم[6].

---

(١) أنس الملا : ٢١

(٢) البيزرة : ٢٠

(٣) استحضر الفرس : أعداه وركضه .

(٤) البيزرة : ٢٤

(٥) فضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب : ١٣

(٦) البيزرة : ٢٤

وقد غدت معارف الصيد شائعةً متداولة بين الناس، وأصبح العربي الذي كان خدينَ الخيل وأليف الجياد تُعَرِّفُ له الخيل بكلاب الصيد ؛ فقد رُوي أن المأمون قال لبعض أصحابه : امْضِ إلى بادية كذا وكذا فابتع منها خيلاً تستجيدُها ، فقال : يا أمير المؤمنين لستُ بصيراً بالخيل، قال أفلستَ بصيراً بالكلاب ، قال : نعم، قال : فأبصر كل ما تتوخاه في الكلب الفارهِ المُستَحسَن فالتمس مثله في الفرس[1].

ثم إن الثقافة الصيدية غدت مما يتنافس به المتنافسون وتُختَبر به ثقافة ذوي المعرفة . فقد نقل كشاجم عن بعض الجعفريين أنه لما أراد المأمون أن يزوج ابنته أمّ الفضل من أبي جعفر محمد بن علي بن موسى بن جعفر الصادق ، اجتمع عليه من أهله من أراد دفعه عن ذلك فقال لهم : كفّوا عن ذلك فإني لست أقبل فيه قولاً، قالوا : أتزوّج قرّة عينك صبياً لم يَتَفَقَّه في دين الله عزّ وجل .. فقال : إنه لأفقهُ منكم وأعلم بالله ورسوله وسنته وفرائضه وحلاله وحرامه .. فاسألوه فإن كان الأمر كما قلت علمتم مقداره ، فخرجوا من عنده وبعثوا إلى ابن أكثم وهو قاضي القضاة . . وأطمعوه ليحتال على أبي جعفر فيفحمه، فلما اجتمعوا قالوا: يا أمير المؤمنين،هذا القاضي فإذا أذنت له سأله ، فأذن له فقال لأبي جعفر : ما تقول في محرم قتل صيداً ؟ فقال : قتله في حِلّ أو حرم عالماً أو جاهلاً عامداً أو خطأ ، عبداً أو حراً، صغيراً أو كبيراً ، مبدئاً أو معيداً ، أمن ذوات الطير أم من غيرها ومن صغار الطير أو كبارها مُصِرّاً على ذلك أو نادماً ، بالليل في وكرها أو بالنهار عَياناً ، مُحْرِماً للعمرة أو للحج ، فانقطع يحيى[2] .

ولعل مما يلفت النظر في هذا العصر أن الصيد غدا عند بعضهم غرضاً يقصد لذاته لا لثمراته ونتائجه ، وإلا فما بال الرجل المسلم حفيدِ العباس عم

---

(١) البيزرة : ١٤٥

(٢) المصايد والمطارد : ٣٨

رسول الله وابن الرشيد أحدِ أوائل الخلفاء ، ما بالُهُ يقتطَعُ عمره في صيد الخنازير المحرّمة على طاعمها ثم يُصْرَعُ في سبيل ذلك ، فقد رَوَى الصولي عن عبد الله بن المعتز أنه قال : كان سبب موت أبي عيسى بن الرشيد أنه كان مولعاً بصيد الخنازير فوقع عن دابته فلم يسلم دماغه فكان يتخبط في اليوم مرات إلى أن مات [1] .

على أن من الإنصاف للقول بأن المجتمع الإسلامي لم يكن كله يرتاح لهذا اللعب بالضواري والتهالك عليها ، وأن أصحاب التقى كانوا ينكرون ذلك على من يفعله ، فقد رَوَى صاحب البيزرة أنه لما شهد أبو علقمة المري عند سِوار أو غيره من القضاة وقف في قبول شهادته ، فقال له أبو علقمة : لِمَ وقفت في إجازة شهادتي ؟ قال بلغني أنك تلعب بالكلاب والصقور ، قال: من خبَّرَك أني ألعب بها فقد أبطل ، وإن كان بَلَّغك أني أصطاد بها فقد صَدَق ، وإني أخبرك أني جادٌّ في الاصطياد بها غير هازل ولا لاعب ، فهل وقف مُبَلِّغُك على الفرق بين الجد واللعب ؟ قال : ما وقف ولا أوقفته ، وأجاز شهادته [2] .

كما أن الناس كانوا يلومون أبناء الملوك على شدة تهالكهم على الصيد فيُضْطَرّ هؤلاء للدفاع عن أنفسهم واصطناع المعاذير لما يفعلون ، فقد روى صاحب البيزرة أيضاً أن بعض أبناء الملوك عُذِل في الاستهتار بالصيد والشغَفِ به ، وقيل له : إنه هَزل وكان أديباً فقال :

ربما أغدو إلى الصيد معي	فتيةٌ هَزْلُهُم في الصيد جِدْ
أَلِفوا الحربُ فلما ظفروا	فتَحامَوا أن يعاديهم أحدْ
واستقام الناسُ طرّاً لهم	فغَدَوْا لَيْسَ يُرَى فيهم أوَدْ
وجدوا في الصيد منها شبهاً	فابتغَوْها في معاناة الطَّرَدْ

---

(١) أشعار أولاد الخلفاء : ٩٣

(٢) البيزرة : ٢٨

لِتُرَى عـــادتـُهم جارِيَـةً   لهم باقيـةٌ لا تـُفـْتَقـَد[1]

لكن هذه المواقفَ مواقفَ عذل الصائدين والتوقف في قبول شهادتهم وما شاكلها لم تـُغَيِّر من الأمر الواقع شيئاً ، فبقي الخلفاء وأولادهم ، والولاة وأصحاب الثراء على ولعهم بالصيد وشغفهم به ، وكان لا بُدَّ من أن يَجِد هذا الجانب من الحياة صداه عند الشعراء وبخاصة أولئك الذين يؤثرون اللهوَ ويَحيَوْن به وله ، وفي طليعة هؤلاء أبو نواس إمام شعراء الطرد في هذا العصر .

فإلى أبي نواس نترجم لحياته ، وندرس طردياته .

---

(١) البيزرة : ٢٨

أبو نُوَاس

ترجمته :

اختلف مؤرخو الأدب في نسب أبي نواس ونشأته اختلافاً كبيراً والذي استخلصناه من أخباره : أنه الحسن بن هانىء بن عبد الأول بن الصباح ، كان جده مولى للجراح بن عبدالله الحكمي والي خراسان فنُسِب إليه بالولاء ، أما أبوه فمن أهل دمشق ، وكان جندياً في جيش مروان بن محمد فانتقل إلى الأهواز للمرابطة ، وهناك تزوج من امرأة فارسية تدعى « جلبان » فولدت له أبا نواس ، ثم مات أبوه وهو صغير فكفلته أمه ، وانتقلت به إلى البصرة وله يومئذ من العمر سنتان [1] ، ولما أيفع أسلمته إلى عطّار يَبري أعواد البخور ، غير أنه كان يطمَحُ إلى مخالطة أهل العلم واللغة والأدب ، ثم لقيه والبةُ بن الحباب فشاقته صورته ، وأعجبه ذكاؤه ، فاستصحبه معه إلى الكوفة ، وعمل على تخريجه في الشعر ، فتَخَلَّق الفتى بأخلاق أستاذه ، وكان خليعاً ماجناً [2].

وأبو نواس — على سوء سلوكه — كان شديد الولع بالعلم ، فقرأ القرآن

---

(١) انظر وفيات الأعيان : ١ / ٣٧٣ ، وشذرات الذهب : ١ / ٣٥٤

(٢) انظر وفيات الأعيان : ١ / ٣٧٣ ، وعقد الجمان : ١٣ / ٣٥٣ ، ومختار الأغاني : ٣ / ١١

على يعقوب الحضرمي ، وروى الحديث عن أزهر بن سعد وحمّاد بن سلمة ، وأخـــذ النحو عن يونس بن حبيب الجرمي ، وحفظ أيام العرب عن أبي عبيدة، وأخذ الشعر عن خلف الأحمر، وكتب الغريب عن أبي زيد النحوي، والتمسه في المربد عند فصحاء الأعراب ، وأقام في بادية بني أسد ليأخذ اللغة بطريق المشافهة [1] . وحفظ سبعمائة أرجوزة من النوادر سوى المُشْهّرات، وروى دواوين ستين امرأة من شاعرات العرب، منهن الخنساء وليلى ، واستظهر كثيراً من أشعار الجاهليين والمخضرمين وأوائل الإسلاميين والمحدثين، وأتقن علوم الدين .

ثم إنه لما فرغ من إحكام هذه الفنون كلهـــا التفتَ إلى النوادر والمجون والمُلَح فحفظ منهـا شيئاً كثيراً حتى صار أغترر الناس ، ثم أخذ في قول الشعر ، فبرّز على أقرانه وبرع على أهل زمانه [2].

ولما بلغ الشاعر الثلاثين من عمره انتقل إلى بغداد ، وهناك التأم شملُه مع الحسين بن الضحاك، والفضل الرقاشي، والعباس بن الأحنف، ومسلم بن الوليد، وغيرهم ، فجعل يجتمع إليهم ، فيتناشدون الأشعار ويعاقرون الخمر ويوغلون في اجتراح المآثم [3].

وعلى الرغم من أن أبا نواس كان يكره مجالسة الملوك وأصحاب السلطان؛ فقد اتصل بطائفة من الأمراء منهم : عيسى بن أبي جعفر المنصور ، وأولاد المهدي، والقاسم بن الرشيد وأخيراً بالمأمون، فقد أمره الرشيد بأن يحضر مع الكسائي مجالسَ تأديب ولده لينشدَه الأشعار ويحدثه بالغريب [4] .

---

(١) انظر عقد الجمان : ١٣ / ٣٥٣، والحيوان : ٦ / ٣٣٩ ، ومختار الأغاني: ٣/١٧٠.

(٢) طبقات الشعراء : ١٩٤ ، ٢٠١

(٣) مختار الأغاني : ٣ / ٨٦ ، ٩٧ ، ١٥٦ ، ٣٠٧ ، ٢٢٢ ، ٢٢٧ ، وطبقات الشعراء : ٢٠١

(٤) انظر مختار الأغاني : ٣ / ١١ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٩

واتصل بالرشيد فأعْجِب به وأجزل ثوابه غير أنه ما لبث أن استبعده، ثم سجنه أكثر من مرة لفرط مجونه وما رُمي به من الزندقة ، ولما آلت الخلافة إلى الأمين اصطنعه لنفسه ، وضمّه إلى بطانته ، فجعل ينادمه على مجالس شرابه ويصف له جوارحَه وضواريَه ، غير أن صحبته للأمين لم تسلم من المنغصات فقد اضطر الخليفة إلى حبس شاعره وتهديده بالقتل على أعين من الناس، ثم جعل يضيق به ذرعاً حين استَعَرَتِ الخصومة بينه وبين أخيه المأمون وأصبحت صلته به مما يؤخذ عليه [1] .

واتصل من الولاة بالخصيب والي مصر فنادمه على مجالس شرابه ومدَحه بثلاث من قصائده أعطاه على كل واحدةٍ منها ألف دينار ثم رغب إليه في مغادرة مصر ، وكان ذلك في زمن الرشيد [2] .

وقد وصفه ابن منظور فقال : « كان أبو نواس حسنَ الوجه رقيق اللون أبيضَ البشرة حسن الجسم حلو الشمائل وكان في رأسه سمَاجة فكان دائم العِمّة والقلنسوَة بسبب ذلك ، وكان ألثغ الراء يجعلها غيناً وكان نحيفاً ، في حلقه بحة لا تفارقه » [3] وكان يعاني من عقدة النسب ؛ لذا كان يتقلب في الأنساب فهو تارة تيمي وأخرى نزاري وثالثة حميري ورابعة أعجمي ينال من العرب ويثلبهم ويمدح العجم ويشتهي أن يذكر مناقبهم وأن يتزيا بزيهم ويُظهِر للناس أنه منهم [4] .

وقد كانت ولادة أبي نواس سنة ست وثلاثين ومائة وقيل خمس وأربعين وقيل ثمان وأربعين ، أما وفاته فقيل إنها كانت سنة خمسٍ وتسعين ومائة

(١) انظر مختار الأغاني : ٣ / ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٩٦ والبيزرة : ٤٦

(٢) انظر مختار الأغاني : ٣ / ١٦٣ ، ٢٣٢ ، ٢٧٩ ، ٢٨٢

(٣) السابق : ٣ / ١٠

(٤) انظر مختار الأغاني : ٣ / ٢١ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٨ ، ٢٢٠

وقيل ست وتسعين وقيل سبع وتسعين وقيل ثمان وتسعين وقيل تسع وتسعين [١] .

شاعريته وشعره :

اختلف مؤرخو الأدب في ولادة أبي نواس ووفاته وفي أبيه وأمه وفي نسبه وفي تدينه وزندقته ولكنهم أجمعوا أو كادوا على أنه شاعرٌ قويُّ البديهة رقيق الحاشية لَسِنٌ بالشعر يقوله في كل حال [٢] وأنه فصيح اللهجة مع حلاوة ومجانَبَة للاستكراه [٣] ، وأنه جُمِعَ له الكلام فاختار أحسنه ، وأن المعاني حُبِسَت عليه فأخذ منها حاجته وفَضْ باقيها على الناس [٤] وأنها بقيت مدفونة حتى جاء فأثارها [٥] ، وأنه غلب على شعراء عصره فكانت تُنْسَبُ إليه كل إجادة يأتي بها شاعر ، حتى لكأن الجيّدَ من القول غدا وقفاً عليه لا يتخطاه إلى سواه ولا يقع لغيره [٦] وبسبب شهرته هذه لم يكن شاعر في عصره إلا وهو يحسده لميل الناس إليه وشوقهم لمعاشرته ولبعد صوته وظَرْف لسانه .

ولكن ذلك لم يمنعهم أبداً من الإقرار بفضله والإشادة بشعره وشاعريته .

فأبو العتاهية يقول : سبقني أبو نواس إلى ثلاثة أبيات وددت أني سبقت إليها بكل ما قلته ثم قال : قلت في الزهد ستة عشر ألف بيت وودت أن أبا نواس له ثلثها بهذه الأبيات [٧] وابن الرومي يقول : كنت عند أبي جعفر

---

(١) مختار الأغاني : ٣ / ٩
(٢) معاهد التنصيص : ٩٣
(٣) تاريخ بغداد : ٧ / ٤٣٧
(٤) مختار الاغاني : ٣ / ٣٩
(٥) مختار الأغاني : ٣ / ٤١
(٦) مختار الأغاني : ٣ / ٤١ ، ٤٩
(٧) مختار الأغاني : ٣ / ٤٠

محمد بن حبيب فجرى ذكر الشعراء ، فذكر الناس شعراء الجاهلية والإسلام ، وأنا ساكت فقال لي : يا أبا الحسن ، لم لا تتكلم ؟ فقلت : أذكر لكم رجلاً أشعرَ من هؤلاء هو أبو نواس [١] .

وأبو تمام يُقال له : أيّما أشعرُ ، أنت أم أبو نواس ؟ فقال : سبحان الله إني لأستحي من ذكر هذا [٢] .

والعَتّابي يدخل عليه مالك بن طَوْق وفي يده دفتر فيرفع رأسه إليه ويقول : قاتله الله ما أشعره ، فقال من يا أبا عمرو قال الذي يقول :

إذا نحن أثنينا عليك بصالح فأنت كما نثني وفوق الذي نثني

فقلت من هو ... قال أومـا تعرفه ؟ قلت لا ، قال : لا عَرَفْتَ ، هو أبو نواس .

والرقاشي يقول لأبي نواس حين فضّله على نفسه لبعض ما قاله : لقد سبقتني ببيتين وددت أنهما لي بكل شعري [٣].

ولم يكن النقاد والمتذوقون أقل إشادة بشعر أبي نواس أو اعترافاً بسبقه وتجويده من الشعراء ، فأبو عمرو الشيباني يقول في قصيدته التي مطلعها:

وخيْمَة ناطور برأس مُنيفَةٍ تهمُّ يدا من رامها بزليل

لا يبالي أبو نواس ألّا يقولَ بعدها شيئاً [٤].

وأبو حاتم يقول : كانت المعاني مدفونة حتى أثارها أبو نواس ، والمكيّ يقول : ما زالت المعاني مكنوزة في الأرض حتى جاء أبو نواس فاستخرجها [٥].

---

(١) مختار الأغاني : ٣ / ٢١١
(٢) مختار الأغاني : ٣ / ٢٦٦
(٣) معاهد التنصيص : ٤٤
(٤) مختار الأغاني : ٣ / ٢١٨
(٥) مختار الاغاني : ٣ / ٤١

ومحمد بن موسى المنجم يقول : ما أعجب أبا نواس ، إذا قال كأنك فكأنك ترى ما يقول [1].

والمأمون كان يقول : لو سُئِلَت الدنيا عن نفسها ونطقت ما وصفت نفسَها كما وصفها أبو نواس في قوله :

إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشَّفَت ... له عن عدُوٍّ في ثياب صديق [2]

وكلثوم بن عمر العتّابي يقول : لو أدرك الخبيثُ « يعني أبا نواس » الجاهلية ما فضل عليه أحد [3].

وسفيان بن عيينة يقول لابن مناذر : يا أبا عبدالله ، ظريفكم هذا أشعر الناس قال كأنك عنيت أبا نواس ؟ قال : نعم . والجاحظ يقول : ما رأيت أحداً أعلم باللغة من أبي نواس ولا أفصح لهجة مع حلاوة ومجانبة الاستكراه .

ويعقوب بن السكيت يقول لميمون حين سأله عمّا يختار له أن يرويه من أشعار الشعراء : « إذا رويت من الجاهليين لامرىء القيس والأعشى ، ومن الاسلاميين لجرير والفرزدق ، ومن المحدثين لأبي نواس فحسبك » [4].

وابن الأعرابي ــ على الرغم من تعصبه للقدماء ــ قال عنه : إنه لمن أشعر الناس وما يمنعنا من رواية شعره إلا تبذّله وسخفه . والثوري يقول لمن يضع من شأن أبي نواس : والله لقد لحق من قبله وفات من بعده [5].

ولو رحنا نستقصي ما قيل فيه لأوردنا في هذا المجال أضعاف ما قلناه ،

---

(١) مختار الاغاني : ٣ / ٢٩٧
(٢) وفيات الأعيان : ٣٧٢
(٣) تاريخ بغداد : ٧ / ٤٣٧
(٤) تاريخ بغداد : ٧ / ٣٤٧
(٥) الموشح : ٤٠٩

لكن ذلك كله لم يمنع إبراهيم الموصلي من أن يقول عنه إنه لا ُيعَدُّ شيئاً وإنه كثير الخطأ وليس على طريق الشعراء [١].

ولم يمنع أبا علي البصير – وكان لا يرضَى أبا نواس ولا مسلم بن الوليد ولا من كان في طريقهما – من أن يقول في تبرير عدم رضاه عن أبي نواس : « الشعر بين المدح والهجاء ، وأبو نواس لا يحسنهما وأجوَدُ شعره في الخمر والطرد ، وأحسن ما فيهما مأخوذ مسروق وحسبك من رجل يريد المعنى ليأخذه، فلا يحسن أن يعفي عليه ولا ينقله حتى يجيء به نسخاً » [٢] وفي هذا الكلام كثير من النظر .

وقد وصف أبو نواس شعره وذلك حين قال له سليمان بن أبي سهل : ما الذي استجيد من أجناس شعرك فقال : « أشعاري في الخمر لم ُيقَل مثلها ، وأشعاري في الغزل فوق أشعار الناس وهما أجود شعري إن لم يزاحم غزلي ما قلته في الطرد » [٣] .

وقد ترك أبو نواس ديواناً ضخماً ُطبع في مصر طبعة حجرية سنة سبع وسبعين ومائتين وألف ثم طبع سنة ثمان وتسعين وثمانمائة وألف بالمطبعة العمومية حيث حققه الاستاذ محمد آصف ، وقد طبع قسم الخمريات من شعره في ألمانيا سنة إحدى وستين وثمانمائة وألف ، ثم طبع الديوان كله في مصر سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة وألف ، ثم طبع في بيروت سنة خمس وستين وتسعمائة وألف ، وقد اعتمدنا نحن على الطبعة المصرية الأخيرة .

وديوان الشاعر يشمل على أغراض الشعر المعروفة في عصره كلها ففيه المدح والهجاء والفخر والرثاء ، والغزل ، والمجون ، والخمريات والزهد ، وفيه الطرديات .

ونحن سنتناول الباب الأخير من شعره بالدراسة والتقويم .

---

(١) مختار الاغاني : ٣ / ٣٧

(٢) الموشح : ٤٣٤ وما بعدها .

(٣) مختار الأغاني : ٣ / ٣٤

طرديات أبي نواس

يُقبِل الإنسان على الصيد طلباً للرزق أو تمرساً بالفروسية أو التماساً للمتعة واللذة وقد كان أبو نواس أخا مِتَع لا يرتوي منها ولا يشبع ، فأقبل على الصيد لما فيه من لذات وأولع به ولَعَه بالخمر والجمال فنعته كما نعتهما وقال فيه وفيهما أجمل شعره وغناه وغنَّاهما أروع قوافيه فقد روينا آنفاً أن سليمان بن سهل قال له : ما الذي استجيد من أجناس شعرك ؟ فقال : أشعاري في الخمر لم يُقَلْ مثلها ، وأشعاري في الغزل فوقَ أشعار الناس ، وهما أجود شعري إن لم يزاحم غزلي ما قلته في الطرد [1] .

وقد ساعده على إدمان الصيد وإتقانه والقولِ فيه ثلاثة أمور : أولها ذلك الفراغ العريض الذي كان يحيا فيه ، فلم تَكُنْ لأبي نواس مَشْغَلَةٌ من أهل أو ولد أو كد على عيال ، والصيد يحتاج إلى إنسان ذي فراغ واسع. وثانيهما معرفةٌ تامة بالحيوان الصائد والمصيد ، شهد له بها الجاحظ عند روايته لطائفة من طردياته حيث قال : « وأنا كتبت لكَ رَجَزَه في هذا الباب (أي باب الطرد) لأنه كان عالماً راوية ، وكان قد لعب بالكلاب زماناً وعَرَفَ منها ما لا تعرفه الأعراب وذلك موجود في شعره ، وصفات الكلاب مستقصاة في أراجيزه » [2] . وثالثها اتصاله بالأمين مدة أربت على

---

(١) مختار الأغاني : ٣ / ٣٤

(٢) الحيوان : ٢ / ٢٧

خمس سنوات ، ونحن وقفنا من قبل على مبلغ ولع الأمين بالصيد ولهوه بـه وانصرافه له مما كان سبباً في ضياع ملكه ، وكان أبو نواس خدينَه ونديمَه وصاحبه في رحلات صيده ، ولولا الأمين ما َتيَسّر للشاعر هذا الذي اتفق له من جوارح الصيد وضواريه ، وكلها ذات مؤونة باهظة لا ينهض بهـا إلا الأغنياء الموسرون .

وصاحب البيزرة يشير إلى هذه الناحية فيقول : « وكان محمد الأمين أشد انهماكاً في الصيدوأحرص عليه من كل من تقدمه، وأكثرطرد أبي نواس مَعْمُولٌ في جوارح الأمين وضواريه »[1] ، لهذه الأسباب أقبل أبو نواس على الصيد إقبالاً يمثله لك في خاتمة إحدى طردياته حيث يقول عن الصيد :

تلك َلذّاتي وكنت فتىً   لم أقل من لذة : َحسْبِي[2]

ولهذه الأسباب أيضاً كثر شعر الطرد في ديوان أبي نواس كثرة تلفت النظر ، حقاً إن بعض الرواة قال: « إن أبا نواس نظم في الطرد تسعاًوعشرين أرجوزة وأربع قصائد ، وما زاد على ذلك فمنحولٌ إليه لشهرته الواسعة في هذا الباب ، وقدرته البارعة على وصف الكلاب ».

غير أن الذي عثرت عليه من طردياته المثبتة في ديوانه والواردة في كتب الحيوان والأدب تربو على خمس وخمسين طردية َتبَيّنْتُ النحل الواضح في واحدة منها ، لفرق مـــا بين أسلوبها وأسلوب أبي نواس[3] ، ووجدت أخرى منسوبة في كتاب الحيوان إلى شاعر غيره[4] ، أمـا الباقيات فليس هناك من دليل ينهض على أنها ليست له ، أضف إلى ذلك أن جلها ُموَثّق في أكثر من مصدر قديم معتمد .

---

(١) البيزرة : ٤٦

(٢) الديوان : ٦٣٢ ، والحيوان : ٢ / ٢٣

(٣) انظر الديوان : ٦٤٢

(٤) انظر الديوان : ٦٦٢ ، والحيوان : ٦ / ٤٧٢

وقد خصّ الشاعر الكلاب بالنصيب الأوفر من طردياته حيث بلغ ما قاله فيها سبعاً وعشرين طردية ، وخصّ البزاة بسبع منها ، أما الباقي فوزعه بين الصقر واليؤيؤ والزرق والديك الهندي والشاهين والفهد والفرس والحمام والعنكبوت والفخ ، وقوس البندق ، بحيث أصاب جلها طردية واحدة ، وأصاب بعضها طرديتان أو ثلاث كما سنوضح ذلك في موضعه من البحث .

ونحن سنعرض هذه الطرديات كلها حسبَ موضوعاتها عرضاً وافياً بالغرض ليقف القارىء على شعر الطرد عند شاعر يعتبر بحق رائداً من رواد هذا الفن من القول وأول مَن وسّعَه ورَحّب آفاقه .

١ - الكلاب

احتلت كلاب الصيد في طرديات الشاعر مكاناً مرموقاً من حيث الكم والكيف ، فقد أربى ما قاله فيها على جميع ما قاله في سائر جوارح الصيد وضواريه وآلاته ، وجوّد فيها تجويداً جعل الجاحظ يختار منها اثنتي عشرة طردية ويثبتها في كتابه الحيوان ويشيد بها وبقائلها ويعزو تجويده فيها إلى معرفته بالكلاب معرفة لم تتوافر للأعراب [١] .

وبدت معرفته هذه في استقصاء أوصافها [٢] حيث نعتها نعتاً استوفى كل شيء فيها ، فعرض لها من الناحية الجسدية عرضاً لم يُغَادِر فيها صغيرة إلاّ أبرزها وَوَفّاها ، فتناول غَرَرَ جباهها وتحجيلَ زنودها وحسن قدها ، وسعة أشداقها ، وطول خدودها فقال [٣] :

---

(١) انظر الحيوان : ٢ / ٢٧ وما بعدها .

(٢) انظر الحيوان : ٢ / ٢٧

(٣) انظر الديوان : ٦٢٤ والحيوان : ٢ / ٣٥ ومختارات البارودي ، والبيزرة ١٤٩ ومختار الأغاني : ٣ / ٢٤٣

أنعتُ كلباً أهلُه من كَدِّه
قــد سَعِدَت جُدودُهم بجَدِّه [1]
ذا غُرَّةٍ مُحَجَّــلاً بِزَنْدِه
تَلَذُّ منــه العــينُ حسنَ قَدِّه
تأخير شِدْقيــه وطول خَدِّه
تلقى الظبــاءُ عَنَتــاً من شَدِّه

وألم بعراقيبها الشُّمّ ، وأيديها المبسوطة ، وأكتافها المُشْرِفة ، وَلبّاتِها المشرقة وألوانها المختلفة ، وأفخاذها الموسومة ، وخراطيمهــا المخرطمة ، ومآخيرها المُلْسِ فقال [2] :

قد أغتدي والطــيرُ في مَثْواتِهــا [3]
بِأكْلُبٍ تَمْرَحُ في قِدّاتِهــا [4]
شُمِّ العَراقيب مُؤَنَّفــاتِهــا [5]
مفروشةِ الأيدي شَرَنْبَثَاتِهــا [6]
سوداً وصفراً وخَلَنْجيّاتِها [7]
مُشْرِفَةَ الأكتاف مُوفِياتِها [8]

---

(١) يقول إن أهله يعيشون من كده وقد سعدت حظوظهم في الحياة تبعاً لسعادة حظه في الصيد .

(٢) انظر الديوان : ٦٢٨ والحيوان ٢ / ٣٦ ومختارات البارودي : والتشبيهات الورقة ٣١ والبيزرة : ٢٥٢

(٣) مثواتها : مكان ثوائها أي أعشاشها .

(٤) القِدّات : جمع قِدّة : سير يقد من جلد غير مدبوغ .

(٥) شم : مرتفعات . فالعرقوب من الدابة في رجلها بمنزلة الركبة من يدها .

(٦) الشَرَنْبَثُ : الغليظُ الكفين .

(٧) الخلنجي : أصفر خفيف تعلوه غبرة .

(٨) مشرفة الأكتاف : عاليتها ، الوفيات : المشرفات .

غُرُّ الوجوه ومُحَجَّلاتها
كأن أقماراً على لَبّاتها [1]
ترى على أفخاذها سِماتها
قودَ الخراطيم مُخَرْطَماتها [2]
زُلٌّ المآخير عَمَلَّساتها [3]

ووصف اضطرام أعضائها وضمور أجسادها ، وحِدَّة أسنانها وتلهب عيونها فقال [4] :

لما غدا الثعلبُ من وِجارِه [5]
يلتمس الكسبَ على صِغاره
عارَضْتُه في سَنَنِ امتيارِه [6]
بِضَرِمٍ يَمْرَح في شِوارِه [7]
مُضْطَرِمِ القُصْرَى من اضطرارِه [8]
قد نَحَتَ التَّلويحُ من أقطارِه [9]
من بعد ما كان إلى أصبارِه [10]
كأن لَحْيَيْهِ لدى افترارِه

(١) اللبات : جمع لَبَّة وهي موضع القلادة من العنق .
(٢) قود : جمع أقود : وهو الطويل . خرطوم مُخَرْطَم : مثل ليل ألْيَل .
(٣) زَلٌّ : جمع أزل وهو الخفيف اللحم ، المآخير : جمع مؤخر .
(٤) انظر الديوان : ٦٢٩ ، ومختارات البارودي : وديوان المعاني : ٢ / ١٣٢ ، والتشبيهات : ٤٠ ، والمصايد والمطارد : ١٥١
(٥) الوجار : الجحر .
(٦) السنن : الطريق ، الامتيار : طلب الميرة وهي الطعام .
(٧) الضرم : الملتهب الجائع ، الشِّوار : الزينة والمراد بها القلائد .
(٨) مضطرم : ملتهب ، القُصرى : أسفل الأضلاع ،
(٩) التلويح : الضمور ، أقطاره : جوانبه .
(١٠) من بعد ما كان إلى أصباره : من بعد ما كان ممتلئاً بديناً .

شَكُّ مسامــيرَ على طوَارِهِ [1]

كأن خلف مُلْتَقَى أشفَــاره

جمرُ غضىً يُدْمِنُ في استِعارِه

ونعت متونها الطويلة التي تنساب انسياب الأفاعي وبراثنها الحـادّة التي تحاكي أمواس مهرة الصناع فقال [2] :

لمــا تبدّى الصبحُ من حِجابه

كطلعـة الأشمَطِ من جِلبَابِـه [3]

وانعـدلَ الليلُ إلى مـآبــه

هِجْنـا بكلب طالمـا هِجْنا بِـه

كأن متنَيْه لدى انسِلابِـه [4]

متنـا شُجاعٍ لجّ في انسيابـه [5]

كأنمــا الأظفُور في قِنَابِــه [6]

مُوسى صَنَــاع رُدَّ في نِصَابه [7]

ونعت آذانها المسترخية الطويلة الرقيقة ، وألوانها المتعددة فقال :

لمـا تجلّى الليلُ وابيضّ الأفُقْ

وانجاب سِتْر الليلعن وَجْهِ الطُرُق

باكرني سهلُ المُحَيّا والخُلُقْ

---

(١) الطـوار : الحدّ .

(٢) الديوان : ٦٣١ والحيوان : ٢ / ٤٠

(٣) الأشمط : هو الأبيض الرأس وقد خالط بياضه سوادٌ .

(٤) متنا الظهر : مكتنفا الصلب ، لدى انسلابه : عند اندفاعه في العدو .

(٥) الشجاع : الحية أو الذكر من الحيات .

(٦) القِناب : غطاء الظفر .

(٧) انظر الديوان : ٦٣٣ والتشبيهات: ٤٤ والحيوان : ٢ / ٣٠ ، والبيزرة : ١٥٣

مُذَبٌ إذا استنَّدبته شَهْمٌ لبِقْ

بأكلُبٍ غُضْفٍ صحيحات الحَدَقْ

من أصفر اللون ومُبْيَضٍّ يَقَقْ

لو يَلْصَقُ الخدَّ بأذن لالتصَقْ

وهو لا يزال بعيد الحديث عن وصف أسنانها الحادة ويبدىء ولا غرو فهي سلاحها الذي تصول به ، وهو لا يفتأ يكرر الكلام على طول أذنيها وتأخير شدقيها ، ولا عجب فذلك أمارة فراهتها .

إذا الشياطينُ رأت « زُنْبُورا »[1]

قد قُلِّدَ الحَلْقَةَ والسُّيُورا

دعت لِخِزَّانِ الفَلا ثُبُورا[2]

أدْفَى تَرَى في شِدْقِهِ تأخيرا[3]

ترى إذا عارضته مَفْرُورا[4]

خناجراً قد نَبَتَتْ سُطُورا[5]

مُشْتَبِكاتٍ تَنْظِمُ السُّحُورا[6]

---

(١) زنبور : اسم كلب سليمان بن داود الهاشمي.

(٢) الخِزَّان : جمع خُزَر بضم ففتح : ذكر الأرانب ، الثبور : الهلاك . وإنما تدعو الشياطين على الأرانب بالهلاك لأن الأرانب فيما تزعم الأعراب ليست من مطايا الجن وأن الجن تهرب منها . الحيوان : ٦ / ١٤ ، ٧٤ ، والدميري : ١ / ٣٠ .

(٣) الأدفى : الذي طالت أذناه وأقبلت إحداهما على الأخرى حتى تكاد تتماس أطرافها في الحدار قِبَل الجبهة . تأخير الشدقين : هَرَتُهُما وسعتها وذلك من علامات نجابة الكلاب » .

(٤) مفروراً : من فَرَّ الدابة : كشف عن أسنانها لينظر ما عمرها .

(٥) استعار الخناجر لأسنان الكلب .

(٦) السحور : جمع سَحْر بفتح السين وهو الرئة أي رئة الحيوان المطرود ، انظر الديوان : ٦٣٧ ، والحيوان : ٢ / ٦٨ .

وهو لا يقف عند نعت شيات الكلاب الحسية وإنما يجلو صفاتها المعنوية أيضاً ، فيكثر من الحديث عن قوة شدّها وسرعة عدوهـــا ويتحفنا في هذا المجال بصورة رائعة تجعلنا نشهد اندفاعها في جريها وتغرينا على أن نتتبع بخيالنا خطاها :

قد أغتدي في فلَقِ الإصْبَاحِ
بمُطعَمٍ يُوجَرُ في سَراحِ [1]
غذَتْهُ أظْآر من اللقَاح [2]
فهو كَمِيشٌ ذرِبُ السَّلاحِ [3]
لا يسأم الدهرَ من الضُّباحِ [4]
مُنجَّدٌ يَأشَرُ للصِّيَــاح [5]
ما البرقُ في ذي عارضٍ لَمَّاح [6]
ولا انقِضاضُ الكوكَبِ المُنْصاح [7]
ولا انبتاتُ الدَّلْوِ بالمَتَّاح [8]
ولا انسياب الحوتِ بالمُنْدَاح [9]
حين دنـــا من راحة السَّبَّاح

---

(١) السراح : الإرسال للصيد .
(٢) الأظآر : جمع ظِئْر وهي العطوف على ولدها وولد غيرها . واللقاح : نوق ذات ألبان غزيرة .
(٣) الكميش : السريع . الذرب : الحاد .
(٤) الضُّباح : الصِّياح .
(٥) المُنجَّد : المجرَّب . يأشَر: ينشط ويمرح، أي أنه ينشط عندما يصيح القانص به
(٦) العارض : السحاب الذي يعترض الأفق .
(٧) المنصاح : المنحطُّ الساقط .
(٨) المَتَّاح : الذي ينتزع الدلو من البئر .
(٩) المُنداح : المراد به البحر الواسع .

أجَدّهُ في السرعة من سِرْياح[1]
يكادُ عنـــد ثَمَلِ المِراح[2]
إذا أرَى الخاتِلُ لِلأشْباح[3]
يَطيرُ في الجَـوّ بلا جَنـــاح

ويصور جَوَلانَـها عندما يهيج بها كَلّابُها واندفاعَها في إثْر طرائدها وما تنشره قوائمُـهـــا من حَصىً عند عَدْوِها ويجلو ذلك في طائفةٍ من التشبيهات البارعة والأخيلة الرائعة[4] :

أنعت كلباً جالَ في رِباطِـــه
جَوْلَ مُصابٍ فَرّ مِن أسْعَاطِه[5]
عند طبيب خـاف من سِيَاطِه
هِجْنَا به وهَاجَ من نَشَاطِه
كالكوكب الدريّ في انْخِرَاطِه
عند تَهاوي الشّدّ وانْبِسَاطِه
يُقمّم القائدَ في حِطَاطِه[6]
وقَـــدّه البيداءَ في اعْتِبَاطِه[7]

---

(١) سِرياح بالكسر : اسم كلب .

(٢) الثمل : بالتحريك : السكر ونشوته . المِراح بالكسر : النشاط والأشر .

(٣) أرى يأرى : لزم موضعه وخاتل الأشباح : عنى به الصائد ، يقول : إن هذا الكلب في الوقت الذي تلزم فيه الحيوانات الصائدة أماكنها ينطلق نشطاً لصيده لا يمل ولا يكل.

(٤) انظر الديوان : ٦٢٥

(٥) الأسعاط : جمع سعوط وهو الدواء .

(٦) يقمم القائد في حطاطه : أي يرمي قائده إلى الأرض من شدة اندفاعه في العدو .

(٧) القد : القطع ، والاعتباط : من اعتبطت الريح وجه الأرض بمعنى قشرته .

لما رأى العَلْهَبَ في أقْوَاطِه [1]
سابَحَهُ وَقَرَّ في التِبَاطِه [2]
كالبرق يَذْرِي المَروَ بالتِقَاطِه [3]
مثل قَلِيٍّ طارَ في أنْفَاطِه [4]

وهو يُكَنى عن شدة عدوها بصورة لا يفتأ يعرضها في أثواب مختلفة من الألفاظ هي صورة الكلاب وقد اشْتَدَّ عَدْوُهـا ، واقترب عند الجرى من الأرض جسدها وَمَسَّتْ آذانُها الطوالُ مواطىء أقدامها فجَرَّحَتْها براثنُها وأدمتها وانتشطت منها سيوراً .

فها هوذا واحدٌ من هذه الكلاب ينصاع نحو فريسته كالكوكب الهاوي، ويعدو وراءَها عَدْواً يجعله يُخَرِّق أذنيه بشبا أظفاره [5] .

فانْصَاعَ كالكَوكَبِ في انحِدَارِه
لَفْتَ المُشِيرِ موهِناً بِنارِه [6]
حتى إذا أخْصَفَ في إحْضارِه [7]
خَرَّقَ أذْنَيهِ شَبَا أظْفاره

---

(١) العلهب: الكبش الطويل القرنين ويريد به تيس الظباء. والاقواط : جمع قوط بفتح القاف : القطيع .

(٢) سابحه : راكضه وجاراه ، الالتباط : العدو .

(٣) يذرى : يثير ، المرو : الحجارة الصغيرة .

(٤) القليُّ : ما يقلى على النار ، الأنفاط : الفقاقيع المتناثرة يشبه تطاير الحصى تحت قوائمه عند العدو باندفاع الفقاقيع من الزيت عند قليه .

(٥) انظر الديوان: ٦٣٠ والحيوان : ٢٧/٢ وديوان المعاني : ١٣٢/٢ ، والتشبيهات: ٤٠ والمصايد والمطارد : ١٥١ .

(٦) الموهن : نحو من نصف الليل . يقول : إنه ينصاع عند إرساله على الطريدة كما ينصاع الكوكب المنحدر ويمر بأسرع من إشارة المشير ليلا بناره .

(٧) أخصَفَ : اشتد وأسرع ، الإحضار : شدة العدو .

وها هو ذا كلب آخر إذا أرسلته وراء الطريدة أعطاك كل ما يملكه من سرعة ولم يضن عليك بجهده ولو أدى ذلك إلى تمزيق أذنيه وجعلها سيوراً[1].

يُعْطِيكَ أقصى حُضْرِهِ المَذْخُورا[2]
شَدّاً تُرى من غَمْزِهِ الأظفورا[3]
مُنْتَشِطاً من أذنه سُيُورا[4]
فما يزال والغاً تامُورا[5]
من ثعلبٍ غادَره عَفِيرا[6]
أو أرنبٍ جوَّرَها تجويرا

وهو يعرض علينا مشاهد مثيرة لصراع الكلاب مع فرائسها وشدة بطشها بها، فهي تارة تختلها إذا كان الختلُ أجدى، وأخرى تبطش بها إذا كان البطش أحزَم، فيقول[7]:

ربما أغدو معي كلبي	طالباً للصيد في صحبي
فسمونا للقنيص به	فدَفَعْناه على أظْبٍ[8]

---

(١) الديوان: ٦٣٣، والحيوان: ٢ / ٣٠، والتشبيهات: ٤٤، والبيزرة: ١٥٣.

(٢) الحُضر بالضم: شدة العدو. المذخور: المدّخر وهي رواية الحيوان وفي الديوان الموفور.

(٣) الغمز: الضغط.

(٤) منتشِطاً من أذنه سيوراً، يقول: إنه من شدة عدوه ينتزع من أذنيه سيوراً.

(٥) التامور: الدم.

(٦) العفير: المعفر بالتراب.

(٧) الديوان: ٦٣٢. والحيوان: ٢/٢٣

(٨) السامي: الصائد مطلقاً، أو الصائد الذى يلبس جوربي شعر ويعدو خلف الصيد نصف النهار ليقيه الجوربان حر الرمضاء، هذا ما جاء في كتب اللغة، والأقرب أن يكون معنى سمونا: برزنا وخرجنا، ومنه قول بشار:

* وسامٍ لمروان ومن دونه الشجا *. الأظب: جمع ظبي.

فاستَدَرْتْه فَدَرَّ لها ... يلطِمُ الرُّفْغين بالتُّرْبِ (١)

فادَّراها وهْي لاهيةٌ ... في جَميم الحاذِ والغَرْبِ (٢)

فَفَرَى جُمَّاعَهُنَّ كما ... قُدَّ مَخْلولانِ من عَصْبِ (٣)

غير يَعْفُور أُهِلَّ به ... جاف دَفَّيْهِ عن القَلْبِ (٤)

ضمَّ لَحْيَيْه بِمَخْطَمِه ... ضَمَّكَ الكَسْرَيْنِ بالشَّعْبِ (٥)

وانْتَحَى للباقيات كما ... كَسَرَتْ شَغْواء من لَهْبِ (٦)

فتمايا التيسُ حينَ كَبَا ... ودنا فُوه من العَجْبِ (٧)

ظَلَّ بالوعساء ينفضه ... آرِماً منه على الصُّلْبِ (٨)

تلك لذَّاتي وكنتُ فتىً ... لم أقل من لذَّةٍ حَسْبِي

وهذه صورة أخرى للكلب وهو يجوب الفلاة بحثاً عن الطرائد ، فيعلو النجاد وينحطُّ إلى الوهاد ، حتى إذا رأى قطيعَ ظباء شَدَّ عليه، ونحا نحو التيس منه ؛ ذلك لأن التيس وإن كان أسرعَ جرياً وأشدَّ مِرَّة وأقوى على الطراد ، إلا أنه ما إن يعروه الفَزَعُ حتى يلحّ عليه البولُ فإذا أراد أن

---

(١) استدرّته : أي استدرت الظباء جَرْيَ الكلب لشدة عدوها أمامه فأخذ يجري وراءها وهو يضرب إبطيه في الأرض كأنه يسبح على الثرى من شدة العدو .

(٢) ادّراها : ختلها ومكر بها ، الجميم : الكثير المتكاثف ، الحاذ : نوع من الشجر والغرب شجرة شائكة تنبت في الحجاز .

(٣) جماع الشيء : ما تجمع منه . قدّ : قطع وشق . المخلول : المشقوق ، العصب : من البرود ، والمعنى أنه فرق جمعهن ومزقهن كما يمزق الثوب الذي قطعه قاطع .

(٤) اليعفور : الظبي أو ولده. الدفّان : الجنبان – جاف : طعنه طعنة تبلغ الجوف .

(٥) شعَبَ الشيء المكسور : أصلحه وضم أحد جزءيه إلى الآخر .

(٦) الشغواء : العُقاب وفي رواية أخرى (فتخاء) ومعناها واحد ، وكسرت : ضمت جناحيها للانقضاض في الهبوط واللهب : المهواة بين الجبلين .

(٧) التيس : ذكر الظبي . كبا : سقط على وجهه . العجب : أصل الذنب .

(٨) الوعساء : رابية لينة من الرمل . ينفضه : يحركه . آرماً : عاضاً .

يقذفه اضطر إلى التوقف لضيق المسيل عنده بخلاف الإناث ، فإنها تقذفه وهي تجري لسعة مسيلها والكلب يعرف ذلك ، فيتجه عند الطراد إلى الذكور من القطيع ويترك الاناث ، وهو يفرق بين النوعين من أول وهلة .

وأبو نواس يعرف ذلك أيضاً فيشير إلى اختيار كلبه للتيس ويصف معركته معه فيقول [١] :

يا رب خَرْق نازِحٍ حَديبِ [٢]
غزوتُه بِمُخْطَفٍ وثُوبِ [٣]
مُضَمَّرِ الكَشْحَيْن كاليَعْسُوبِ [٤]
يعلو الأكام في ذُرَى الكثيبِ
وتارةً يَنْحَطُّ في الغُيوبِ [٥]
كعَوْمِ سُفْنِ البحر في الجَنُوبِ [٦]
رأى ظباءً ذُعُرَ القلوب
فاعتاقها بالشدِّ ذي اللَّهيبِ [٧]
كأنه في شِدَّة الهُبوبِ
تَهْوي به خافِيَتا رقُوبِ [٨]

---

(١) الديوان : ٦٤٠

(٢) الخرق : الأرض الواسعة . النازح : البعيد . الحديب : المرتفع من الأرض .

(٣) المخطف : الطاوي الحشا .

(٤) اليعسوب: ذكر النحل .

(٥) الغيوب : المطمئن من الأرض بخلاف الآكام .

(٦) الجنوب بالفتح ريح تخالف ريح الشمال .

(٧) اللهيب : كناية عن الأسد .

(٨) الخافيتان : مثنىً مفرده خافية وهي ريش ما بعد المنكب من الطائر . الرقوب : العقاب .

مُعْتَمِداً لتيسِهـا المَهيبِ [١]
فصَكَّه بِزَوْرِه الرَّحيب
صكّـاً هَوَى منه إلى شَعُوب [٢]
فقَضْقَضَ العَجْبَ إلى الظُنْبُوب [٣]
وانتهس الأرفـاغَ بالنُيُوبِ [٤]
يهوي بـه صكّاً على الجُنُوبِ [٥]
كثَائِر أمْكَنَ مِنْ مَطْلوب
يا لك من ذي حيلَةٍ كَسُوب [٦]

وقد صوّر أبو نواس مبلغ عناية القانصين بكلابهم ، ومدى ولعهم بهـا وحرصهم عليها ، فهم قد ربّوْها صغيرة كما يربون فلذ أكبادهم ، وابتغوا لهـا المراضع كما يبتغونهن لأولادهم ، وخصصوا لها البيوت التي تقيها من عيون الزائرين .

إذا خافوا عليها البرد ظللوها ببرودهم وأناموها في مهودهم ، وإذا خشوا عليها الجوع قاتوهـا ولو من لحوم أجسادهم ، يضمونها إلى صدورهم كما تضم الأمهات الحانيات أولادهـا ويقلدونها أجمل الحلي والقلائد ، ويتخذون لها أطرف السيور والمقاود .

---

(١) معتمداً لتيسها : ناحياً نحو التيس . المهيب : ذو الهيبة .

(٢) شعوب : الموت .

(٣) القضقضة : صوت كسر العظام . العجب : أصل الذنب . الظنبوب : العظم اليابس من قدام الساق .

(٤) النهس : الأخـذ بمقدم الفم : الارفـاغ : المغابن على الآباط وأصول الفخـذين والواحد رَفْغ .

(٥) الجنوب : جمع جنب .

(٦) كسوب : كثير الكسب .

يحفظون أنسابها ، ويباهون بأحسابها ويجدون فيها إنساناً ذا مروءة ونجدة ، يعرف حق أصحابه فيؤديه ، ويدرك ما أُنيط به من واجب فينهض به ؛ لذلك فهم اتخذوا منها لأنفسهم صاحباً وخليلاً ، ووجدوا فيها أخاً ومعيناً ، فانظر إلى الشاعر وهو يصف لك تربية جِرو من جِراء الكلاب ترَ أمامك طفلاً مدللاً جاء أبويه على كِبَر فأحاطاه بالرعاية وكلآه بالعناية وحَفَّاه بالعطف والحَنان وأسرفا في ذلك ما وسعهما الإسراف[1]:

قد نَحَتَ التلويح من أقْطارِه[2]

من بَعْدِ ما كان إلى أصْبارِه[3]

غَضاً كسته الخُور من عِشاره[4]

أيّام لا يُحْبَس من عِثارِه[5]

وهو طليٌّ لم يَدْنُ من شِغارِه[6]

في منزل يُحْجَبُ عن زُوّارِه

يُساسُ فيه طرفي نهاره

---

(١) الديوان : ٦٢٩ والحيوان : ٢/٢٧ ومختارات البارودي . وديوان المعاني : ٢/١٣٢ والتشبيهات : ٤٠ والمصايد والمطارد : ١٥١

(٢) التلويح : التضمير وفي رواية أخرى التسهيم وهما بمعنى واحد ، أقطاره : نواحيه .

(٣) الاصبار : جمع صبر وهو ناحية الشيء وحرفه ، يقول : إن هذا الكلب بعد أن كبر جعل أصحابه يضمرونه فنحت التضمير جسده من أطرافه كلها وصيره هزيلاً بعد أن كان ممتلئاً إلى نهاياته .

(٤) غضاً : طرياً ممتلئاً شحماً ولحماً . الخور : جمع خوراء : وهي الناقة الغزيرة اللبن. العشار جمع عشراء وهي الناقة التي لها عشرة أشهر من حملها ، يقول : لقد ضمّر هذا الكلب من بعد ما كان ممتلئاً غضاً تغذوه ناقة لها عشرة أشهر من حملها .

(٥) كنى بذلك من صغره حيث كان مدللاً لا يؤاخذ على عثراته ولا يحبس بسببها ، الطلى : الصغير .

(٦) لم يدن من شغاره : لم يقارب من بلوغه ، ذلك لأن الكلب متى شغر أي رفع رجله ليبول فذلك دليل على بلوغه للإلقاح .

حتى إذا أحْمَدَ في ابتِياره (١)

وآضَ مثلَ القُلْبِ من نُضاره (٢)

ثم انظر إلى جراء هذا الكلب وتأمل مـا تلقاه من عطف وحدب قلما يلقى مثلها الأثير الغالي من الأبناء ، حيث يوسعها أصحابها ضمّاً إلى الأحشاء ويقونها بأرديتهم من الأنداء ويضنون بالأرذل منهـا أشدّ الضن ، فما بالك بالفارِه النجيب ؟ (٣)

لمـــا غدا الثعلبُ في اعتدائه

والأجل المقدُور من ورائــه

صَبّ عليـه الله من أعدائه

سوطَ عذابٍ صُبّ من سمائه

مباركاً يُكثِرُ من نَعْمائِــه (٤)

ترى لمولاه على جِرائِـــه

تحَدُّبَ الشيخ على أبنائه

يُكِنُّه في الليل في غِطَائِـه

يوسِعُه ضمّـاً إلى أحشائـه

وإن عَرَى جُلّلَ في رِدائِه

من خشية الطّلّ ومن أنْدائِه

---

(١) الابتيار : الاختبار .

(٢) القلب : السوار . النضار : الذهب . يقول حتى كبر واختبر فحمد ورضي عنه وأصبح مثل السوار في صقله وصفائه وجماله .

(٣) الديوان : ٦٣٩

(٤) مباركاً كنـاية عن الكلب وهي بدل من سوط عـذاب في الشطرة السابقـة .

يَضِنُّ بالأرْذَل من أبنائِـه[1]
ضَنَّ أخي عُكْلٍ على عَطائِه[2]

والكلاب بعد ذلك أو قبل ذلك حسيبة نسيبة مُعِمَّة مُخولة كريمة الآباء نجيبة الأمهات ، ذات أوطان مشهورة وأسماء معروفة وسمات مميزة .

فها هو ذا الشاعر ينادي كَلاَّبَــه ويطلب منه أن يأتي بالكلاب التي أحْكَمَ تدريبها ، ويسأله أن يَذْكُرَ له أروماتها وأن يبرز له سماتهـا ، فجاءه بكلاب معلومة الأسماء مشهورة الألقاب اختيرَت من « سلوق » وعرفت بسيماها المصْكوكة على أفخاذها :

وقلت قد أحكمتَها فهاتِهـا[3]
وارفَعْ لنـا نِسْبَةَ أمهاتها
فجاء يُزْجيها على شِيَاتِهـا[4]
غُرَّ الوجـوه ومُحَجَّلاتها
مُسَمَّيـات ومُلَقَّبَاتهـا
مُخْتَبَرات من سَلُوقِيَّاتِهـا[5]
ترى على أفخاذهـا سِمَاتِها[6]
مُفَدَّيـاتٍ ومُحَمَّياتِهـا[7]

---

(١) الرذل : الخسيس الدون .

(٢) عكل : قبيلة ، وعطاء الرجل ماله الذي أعطيه .

الديوان : ٦٢٨ والحيوان : ٢/٣٦ والتشبيهات الورقة : ٣١ والبيزرة : ١٥٢

(٣) قد أحكمتها : أي أحكمت تدريبها .

(٤) يزجيها : يسوقها ، شياتها : علاماتها .

(٥) سلوقيـات : نسبة إلى سلوق بـلدة بأرض اليمن أو الروم تنسب إليهـا كلاب الصيد الفارهة .

(٦) سماتها : علاماتها .

(٧) هي أثيرة لدى أصحابها ، لذا فهم يفدُّونها بالنفوس ويحمونها من الاذى .

والكلب بعد هذا كائن يشعر بمسؤوليته فينهض بها ويدرك ما نيط به من واجب فيؤديه مهما كلفه ذلك من جهد أو بذل في سبيله من عناء، فهو يصعد وراء الوحش[1] إلى العيّوق ويحطها إلى الأرض دامية الحلوق ويرى أن ذلك عليه من أوجب الحقوق .

أنعت كلبـاً ليس بالمَسْبُوقِ
مُطَهَّماً يَجْري على العُرُوقِ [2]
جاءت بـه الأمْلاكُ من سَلـوق
يَشْفِي من الطردِ جَوَى المَشُوقِ
فالوحشُ لو مَرَّتْ على العَيُّوقِ [3]
أنزلهـا داميـةَ الحُلوقِ
ذاكَ عليـه أوجبُ الحُقوقِ
لكل صيادٍ بـه مَرْزوقِ

وها هو ذا كلب آخر يعول أسرة ناطت حَظَّها في الحياة بحظه، لا كافل لها سواه ولا كسب عندها إلا كسبه ، لذلك تجد مولاه يدين له بالطاعة ويخضع له خضوع العبد لسيده ، ويحرِص عليه حِرْص الأسرة على عائلها ، ينام إلى جانب مهده ، ولا يزال طوال الليل يستره ببرده[4] :

أنعتَ كلباً أهله من كَدِّه
قد سعدت جُدودُهم بجَـدِّه [5]

---

(١) الديوان : ٦٢٤
(٢) المُطَهَّم : التام من كل شيء، البارع الجمال .
(٣) العَيُّوق : نجم في طرف المجرة .
(٤) الديوان : ٦٢٤ والحيوان : ٣٥/٢ والبيزرة : ١٤٩ ، ومختار الأغاني : ٢٤٣/٣
(٥) يقول ان حظهم في الحياة قد سعد بسبب سعادة حظه في الصيد .

وكل خيرٍ عندهم من عندِهِ

يَظَلُّ مولاه لـــه كعبده

يبيت أدنى صاحبٍ من مَهْدِه

وإن عَرَى جَلَّلَه بِبُرْدِهِ

وما دام الكلبُ يَتَمَتَّع بجميع هذه الخِلال ويتَّصف بكل تلك الشمائل، فلا غرو في أن يتخذه الصائدون أخاً وخليلاً : يَرْثونه إذا مات ويثأرون له إذا اعتُدي عليـه ، فالشاعر يخرج في رحلة صيد مع كلب من كلابه الأثيرة لديه فدبَّت له في الغابـة أفعى رقشاء الإهاب كالحة الأنياب فعضته عضة أردته ، فلم يملك الشاعر نفسه من أن يبكيه بدموع غزار وأن يرثيـه رثاء صديق فقد صديقه بعد طول صحبة وكريم عشرة وصافي وداد .

فافتتح قصيدته بنعي الكلب وذكر طرف من مآثره :

يا بؤس كلبي سَيِّدِ الكلابِ

قد كان أغناني عن العُقَابِ [(١)]

وكان قد أجْزَى عن القَصَّابِ [(٢)]

وعن شِراءِ الجَلِبِ الجَلاَّبِ [(٣)]

ثم ترك ذلك إلى مخاطبة عينيـــه ومطالبتهما بأن يجودا بالدموع عليه ، وتساءل مستنكراً إن كان قد بقي بعده كلب يستطيع أن ينهض بما كان يقوم به من جلائل الأعمال :

---

(١) الديوان : ٦٤٣

(٢) أجزى عن القصاب : أي كفاني الحاجة إليه بما كان يصيده لي .

(٣) الجَلِب بكسر اللام الخادم الذي يجلب الأشياء .

يا عينُ جودي لي على « حَلَّابِ »[1]
مَنْ للظباء العُفْرِ والذئابِ ؟!
وكل صقر طالِعٍ وثّـابِ[2]
يختطف القُطْـّانَ في الروابي
كالبرق بين النجم والسحاب
كم من غزال لاحِقِ الأقْراب[3]
ذي جيئةٍ ـ صَعْبٍ ـ وذي إياب
أشبعني منـــه من الكباب

ثم انتقل من ذلك إلى رواية قصة مصرعه ، مُبَيِّناً من خلالها أثره عنده:

خرجتُ والدنيـــا إلى تَبَابِ[4]
به وكانَ عُدَّتِي وَنَابِي
فبينما نحن بـــه في الغَابِ
إذ برزت كالحةُ الأنيَـــاب[5]
رقشاءُ جرداءُ من الشَّباب[6]
كأنّمـــا تُبْصِرُ من نِقَابِ
فعَلِقَتْ عُرْقُوبَه بِنَـــابِ
لم تَرْعَ لي حقّاً ولم تُحابِ

---

(١) لعل « حَلاب » اسم للكلب .

(٢) كانت ترسل الكلاب مع الصقور للصيد معاً فيرمي الصقر الطائر ويأخذه الكلب .

(٣) الاقراب : جمع قرب بضم الراء وسكونهـــا : من الشاكلة إلى مراق البطن ملاحق الاقرب بمعنى ضامر .

(٤) التّباب : الهلاك .

(٥) كالحة الأنياب : كناية عن الحية تكشر عن أنيابها .

(٦) الرقشاء : المخططة .

فخَرَّ وانصاعتْ بلا ارتيابِ [1]
كأنما تنفُخُ من جُراب

ثم ختم مرثيته بتوعّد للأفعى تبرُزُ فيه ثورة الغيظ ورَنّةُ الحزن ، ودعا على نفسه بالهلاك إن لم ينزل بها أقسى العقاب ، فقال :

لا أُبْتُ إنْ أُبْتِ بلا عِقابِ [2]
حتى تذوقي أوجعَ العَذابِ

أما الطرائد التي أطلق الشاعر عليها كلاب صيده فهي الظباء والثعالب والأرانب ، وثور الوحش ، وحماره .

وقد نال الظبي اهتمامه حيث كان هو الحيوان المطرود في خمس عشرة أرجوزة من أصل ست وعشرين، ثم تلاه الثعلب الذي ورد في أربع أراجيز، ثم تلاه الأرنب الذي ورد في أرجوزتين اثنتين ، أما باقي الطرديات وعددها ست فجعل ثلاثاً منها للوحش عامةً وواحدةً للثور الوحشي وأخرى للحمار الوحشي وثالثة لم يذكر فيها الحيوان المطرود .

غير أن أبا نواس لا يولي الحيوانات المطرودَة في أراجيزه هذه أيَّ اهتمام ، فهو في الكثير الغالب يكتفي بإيراد أسمائها مجرّدة من أيّ نعت ، فإذا زاد على ذلك نعتها بصفة واحدة يقتضيها المقام أو يدعو إليها بلوغ القافية أو اجتلاب الروي ، أو إقامة الوزن، فانظر إليه وهو يقول في إحدى طردياته بعد أن وصف كلبه [3]:

تلقى الظباءُ عَنَتاً من طَرْدِه
يشرب كأسَ شدّها بِشَدّه [4]

---

(١) انصاعت : أسرعت .
(٢) يدعو على نفسه بألا يؤوبَ إلى أهله إذا آبت هي إلى جحرها سالمة .
(٣) الديوان : ٦٢٤
(٤) أي ان مجهودها يتلاشى بفعل مجهوده .

ويقول في أخرى بعد أن نعت الكلب ايضاً : [1]

يكتال خِزّان الصحارَى الرُّقَّطا [2]

يلقين منه حاكِماً مُشتَطّا [3]

ويقول في ثالثة بعد أن وصفه : [4]

فما يزال والِغاً تامورا [5]

من ثعلب غادَرَه عَفِيرا [6]

أو أرنب جوّرَها تَجْوِيرا

ويقول في رابعة : [7]

فكم وكم ذي جُدّةٍ لَيَاح [8]

ونازبٍ أعفَرَ ذي طِماح [9]

غادَرَه مُضَرَّجَ الصِّفاحِ [10]

ويقول في خامسة : [11]

رأى ظباءً ذُعُرَ القلوبِ

نائيةً عن نظَرِ المَهيبِ [12]

فاعتاقها بالشَدّ ذي اللهيب [13]

---

(١) الديوان : ٦٢٧

(٢) الخزان : جمع مفرده خُزَر وهو ذكر الأرانب ، الرقط : المنقوشة .

(٣) المشتط : الظالم .

(٤) الديوان : ٦٣٣

(٥) التامور : الدم .

(٦) العفير : المعفر بالتراب .

(٧) الديوان : ٦٣٧

(٨) اللياح : الابيض ، وكني به عن الثور الوحشي .

(٩) النازب : الظبي المصوت ، ونزيب الظبي صوته .

(١٠) المضرج : المصطبغ بدمائه .

(١١) الديوان : ٦٤٠

(١٢) المهيب : كناية عن الأسد .

(١٣) الشد : السرعة .

ولعل المرة الوَحِيدَة التي أربى فيها على ذلك هي تلك التي خلع فيها على الثور الوحشي ثلاثة نعوت فقال : [1]

يا رُبَ ثور بمكان قاصِ
ذي زُمَعٍ دُلامِصٍ دِلاصِ [2]
بات يراعي النجم من خِصاصِ [3]
صَبَّحْتُهُ بِضُمَّرٍ خِمَاصِ [4]

ولعل السبب في عدم التفات أبي نواس إلى الحيوانات المطرودة وقلة اهتمامه بها هو شدة ولعه بكلاب الصيد ، وفرط تعلقه بها ، مما ملك عليه لبه وقلبه ، وحجب عينيه عما عداها من عناصر الطردية ، وصرفه إليها وحدها كل الانصراف .

٢ - البُزَاة :

خصّ أبو نواس البُزَاة بالنصيب الأوفى من طردياته التي قالها في الجوارح، فقد نال البازيُّ منه سبعَ أراجيز من أصل ست عشرة ، وزعها على الصقر واليؤيؤ والزرق والشاهين .

ولعل السبب في ذلك هو أن البازيّ - كما عرفنا من قبل - ملك الجوارح وسيدها وأعلاها كعباً وأغلاها ثمناً وهو مما اختصت به الملوك .

---

(١) الديوان : ٦٤١ .

(٢) الزُّمع : جمع زمعة وهي شبه أظافر الغنم في الرسغ ، الدلامص والدلاص : البراق .

(٣) الخصاص : الخرق الصغير .

(٤) الضمر الخماص : كناية عن الكلاب ، وضمر جمع ضامر والخماص : جمع خميص ومعناهما واحد وهو الهزال من التضمير والتلويح .

وأبو نواس إنما كان يصف جوارح الخلفاء والأمراء لا جوارحه هو ؛ إذ يغلب على الظن أن الشاعر لم يكن صاحب ضوارٍ ولا جوارح وإنما كان صاحباً لأصحاب الضواري والجوارح .

وقد يكون هناك سبب آخر لعناية أبي نواس بالبازي هو أن هذا الجارح أعجميٌّ فارسي اختال بـه الأكاسرة على أندادهم من قياصرة الروم ، وقد عرفنا أن أبا نواس كان مُولَعاً بالعجم حريصاً على نشر مناقبهم والإشادة بمآثرهم والتزيي بزيهم وأن يُظهِر للناس أنه منهم .

وقد تناول أبو نواس البازي في طردياته السبع بالوصف تناولاً شاملاً ، وألمَّ بأهمِّ خصائصه إلماماً كاملاً ، فنَعَتَ صفاتـه الجسدية ، وأبرز مزاياه المعنوية ، وصوَّر صراعه مع طرائده ، وكشف عن مكانته في عالم الصيد والصائدين .

فهو حين نعته من الناحية الجسدية أكمل نعته وأتم صفته وجلاه للناظرين وميزه عما عداه من الجوارح .

نعت ألوانه القُمْرَ ، وحماليقه المكحولة بالتبر ، وهامتـه الململمة لَمَّ الصفاة. ووصف جؤجؤه الصلب الصلد، ومَنْخَرِه الرحب الأغلب ومِنْسَرِه الأقنى الأعوج ، وكفه الشَّثْنَه الغليظة ؛ فقال في إحدى طردياته [1]:

أُطْرِيكَ يا بازِيَنا ، وأُطْرِي

مُرْتَجِلاً ، وفي حَبيرِ الشِّعْرِ [2]

يصقل حملاقاً شديدَ الطَّحْرِ [3]

---

(١) الديوان : ٦٥٨

(٢) حبير الشعر : ما حبر منه وجود وثقف .

(٣) الحِملاق : باطن الاجفان الذي يُسوَّد بالكحل ، الطَّحْرُ : هو مصدر طحرت العينُ قذاها تطحره بمعنى رمت به، والطحر صفة من صفات البازي فهو لا يزال يجلو عينيه.

كأنــــه مكتَحل بِتِبْر

في هامة 'لمتّ' كلَمْ الفِهْر [1]

وجُؤجُؤِ كالحجر القَهقَر [2]

من مِنْخَرٍ رحْبٍ كعقْد العَشْر [3]

ومِنْسَرٍ أقْنَى، رحاب الشجر [4]

شَثْن سُلامى الكف وافي الشبر [5]

وها هو ذا يصف لنا بازياً آخر، فيصوِّره وهو واقف على 'قفّاز بازَياره بكفَّيْه السبطين الرحبين، وبراثنه التي تشاكل براثن الذئاب، ووظيفه الفائق الظُّنبوب، وصدره الذي يحاكي وعاء الطيب، وجناحيه الراسخين على منكبيه، وعظامهما الوافية المفاصل، وريشهما الجمّ الكثير فيقول[6]:

'يوفي على 'قفّــازِه المَجُوبِ [7]

منه بكفٍّ سَبْطَةِ التَّرْحيبِ [8]

كأنهـــا بَراثِنٌ من ذيبِ [9]

---

(١) الفِهر : الحجر قدر ما يملأ الكف ، يشبه هامته من حيث التامها وصلابتها بالفهر .

(٢) جؤجؤ الطائر : صدره ، الحجر القهقر : الصلب .

(٣) العشر : كناية عن الانامل وعقدها قبضها ، يشبه منخر البازي بالانامل العشر عند قبضها من حيث غلظه وحجمه .

(٤) المِنسر الاقنى : المنقار المعوج ، رحاب الشجر : واسع ما بين اللحيين .

(٥) الشثن : الغليظ . السلامى وجمعه سلاميات : عظام الاصابع ، ويحمد في البازي أن يكون شثن الكفين .

(٦) الديوان : ٦٦٦

(٧) القفــاز : كيس من أدم ونحوه ، يلبسه البازيار بيده ويقف عليه البازي لئلا تؤذي براثنه كفّ حامله . المجوب : المقطوع ، صفة للقفاز .

(٨) سبطة الترحيب : شديدة السعة .

(٩) البراثن : المخالب .

يَضْبِثْهُنَّ في ثرىً مَصُوبِ [1]

إلى وظيفٍ فائقِ الظُّنْبُوبِ [2]

وجُؤجُؤٍ مثل مَداكِ الطيبِ [3]

تحت جناحٍ مُوجَدِ التركيبِ

ذي قَصَبٍ مُسْتَوفِرِ الكُعُوبِ [4]

وَحْفِ الظُّهارِ عَصِلِ الأُنبُوبِ [5]

وهذه صورة ثالثة للبازي واضحة المعالم دقيقة الملامح أبرزها الشاعر في إطار من الصور المساعدة فازدادت بها دقة ووضوحاً ، ثم دَبَّجَها بما حملته ريشته الصَّنَاع من ألوان وأصباغ فغدت أكثر رواءً وأوفى أداءً .

تناول فيها أبرز سمات البازي الجسدية ، وأهم ما يتصل به ، فتحدث عن « دَسْتُبانِه » حديثَ البازيار الماهر ، وأبرز ألوانه ، فجلاه للناظرين ، وألمّ بأهم أعضائه وشياته ، فنعت تَضَوُّر شِدقيه ، وتوهُّج عينيه ، وارتفاع هامته ، واعوجاج مِنْسَرِه ، ثم أردف ذلك بتشبيه أعجب علماء البلاغة أشدّ الإعجاب ، فاتخذوه شاهداً على التشبيه العزيز النادر الذي لا يتأتى إلا للخاصة من ذوي الأذواق ، حيث قال [6] :

---

(١) يضبثهن: يقبض بهن ، المصوب المطور الذي نزل به الغيث ، يقول : انــه لشدة براثنه يستطيع القبض على الطرائد بهن في الارض المطورة التي تعيا بها الاقدام .

(٢) الوظيف : مستدق الذراع والساق ، الظنبوب : العظم اليابس من قدام الساق ، الانبوب : في الاصل ما بين كل عقدتين من القصب والمراد به هنا العظم .

(٣) الجؤجؤ : صدر الطائر ، مداك الطيب : وعاؤه .

(٤) قصب مستوفر الكعوب : عظام وافية المفاصل .

(٥) الوحف : الجناح الكثير الريش ، الظُّهار بضم الظاء : الجانب القصير من الريش ؛ عصل الانبوب : معوجه في صلابة والانبوب من القصب والرمح كعبها ، يقول : إن الجناح كثير الريش قوي الانابيب التي ينبت عليها الريش .

(٦) الديوان: ٦٥٠ ، والتشبيهات: ٤٦ ، والمصايد والمطارد : ٦٥ ، والبيزرة : ١٦٦

لما رأيتُ الليل قد تَحَسَّرا
عنّي وعن معروف صبح أسفَرا
كسوتُ كفّي دَسْتُباناً مُشْعَرا [1]
فروةَ سنجابٍ لُؤاماً أوْبَرا [2]
تَقِي بَنانَ الكف ألا تَخْصُرا [3]
وغَمْزَةَ البازي إذا ما طَفَرا [4]
فشمت فيه الكف إلا الخِنْصَرا [5]
أعددت للبُغْثان موتاً مُمْقِرا [6]
أبرَشَ بُطنان الجَناح، أقمَرا [7]
أرْقَطَ ضاحِي الدَّفّتين أنمَرا [8]
كأن شدقيه إذا تَضوَّرا [9]

(١) الدستبان لفظ فارسي وهو القفاز ، وهو كيس صغير بقدر أصابع اليد استحدثته الفرس يدخل القانص فيه أصابعه ويحمل البازي فوقه ، المُشعر : ذو الشعر .

(٢) اللؤام : المتلائم المتفق ، الاوبر : الكثير الوبر ، يقول إن هذا الدستبان متخذ من فروة السنجاب المتلائمة الكثيرة الوبر .

(٣) تخصر : تبرد .

(٤) طفر : وثب وفي بعض الروايات « ظفرا » بمعنى غرز ظفره أي ان من شأن القفاز أن يقي كف حامل البازي من أذى براثنه إذا وثب مندفعاً وراء الطريدة .

(٥) شِمْتُ : أدخلت .

(٦) الموت الممقر : الموت المر ، وكنى بذلك عن البازي نفسه .

(٧) البرش في شعر الرأس : نكتٌ صغار تخالف سائر لونه ، البطنان : جمع مفرده بطن وهو الجانب الطويل من الريش ، الاقمر: الابيض، يقول ان الجوانب الطويلة من ريشه كان فيها برش ، أما لونه بعامة فقد كان أبيض .

(٨) الأرقط : ما كان فيه نقط ، والأنمر : ما كان فيه نقط سواد ، الضاحي : الواضح الظاهر للشمس ، والدفتان : الجناحان ، والمعنى أن ما برز من جناحيه للشمس كان أرقط، وأما باقي جسده فقد كانت فيه نقط سود .

(٩) تضور : صاح من شدة جوعه .

صَدْعان من عَرْعَرةٍ تفَطَّرا (١)

كأن عينيه إذا مـــا أتـأرا (٢)

فصَّان قُدَّا من عقيق أحمرا

في هامة عَلباء تهدي مِنسَرا (٣)

كعطفة الجيم بكف أعْسَرا (٤)

يقول من فيها بِعَقْل فكّرا

لو زادها «عيناً» إلى «فاء» و«را»

فاتصلت بالجيم صارت جَعْفَرا (٥)

ولم يقتصر أبو نواس في نعت البزاة على صفاتها الجسدية ، وإنما تجاوز ذلك إلى شمائلها المعنوية فتحدث عن كرم أروماتها ، ومخايل نجابتهـا ، وشدّة إلفها لساستها ، وقسوة بطشها بطرائدها ؛ فهذا باز معروف الأعراق يشهد

---

(١) صدعان : مثنى صدع ، وعرعرة شجرة خشبهـا أصفر تشبه شدق البازي في اللون ، والمعنى هـو أن شدقيه حين يفتحها يشبهان قطمتين من خشب عرعرة في صفرتها وقد انفردت بهذه الرواية مختارات البارودي، أما باقي المصادر فجاءت فيها فقالت (صدغان) بالغين المعجمة .

(٢) أتأر : أحدّ النظر ، هـذه رواية البيزرة ، وفي الديوان أثار : بمعنى أدرك ثأره والأولى أوضـح ، يشبّه عينيه حين يحدق ويحد النظر بحثـاً عن الطريدة بفصين من العقيق الأحمر .

(٣) علباء : غليظة ، هذه رواية البيزرة ، وفي الديوان علياء والأولى أجود لأنه يحمد في البازي أن يكون غليظ الرقبة .

(٤) الأعسر : الذي يكتب بشماله ومعنى هذا الشطر والذي يليه : أن منقـار البازي الأقنى الاعوج يشبه رأس الجيم قبل أن تتصل بتجويفها (ج) إذا كتب بكف رجـل أعسر ، ذلك لأن الأعسر كما زعموا يجعلهـا أكثر احديدابا فإذا فكر فيهـا مفكر قال : لو زيد على رأس الجيم هذه (عين) و (فاء) و (راء) لغدت « جعفر » .

(٥) الديوان : ٦٧ ، والشعر والشعراء ٢/٧٩٥ ، والتشبيهات : الورقـة ٣٥ ، والبيزرة : ١٦٥

له الأرْمَنيون بصحيح نسبه ، أُخِذَ من عشه فرخاً صغيراً لم يدرج ولم يطر ، فربي على يدي بازياره ، ولو أنــه صيدَ كبيراً من الفلوات لاحتيج إلى خياطة عينيه زمناً ما ، ابتغاءَ تأنيسه وتدجينه ، والأول أفره على الصيد كما يقول علماء البيزرة .

فإذا رميتَ به الطرائد من الكراكي وغيرهــا أصبتها منه بداهية تزرع في قلوبها الرعب ، ويذيقها الأمرّين ، وفي ذلك يقول :

قد أسبق القارية الجونــا	من قبلِ تَـثْويب المنادينا[1]
بكل معروفٍ بأعراقه	على عيون الأرْمَنيينــا
رَبيب بيتٍ ، وأنيس ولم	يَرْبَ بريش الأم محضونا[2]
لم يَنْكِه جرحُ حَيّاصٍ ولم	يَبْغِ له بالتَّفْلِ تَسْكينا[3]
نرسل منــه عند إطلاقه	على الكراكيّ درَخْمينا[4]
داهيةً تخبط أعجازَهــا	خَبْطاً يُحَسّيها الأمرّينــا[5]

وهذا باز آخر حــادُّ الذكاء يَعِي إهابة المُهيب ، ويفهم إشارة المشير ،

---

(١) القارية : الطيور ، ودعيت كذلك لسوادها ، هذه رواية البيزرة ، أما في الديوان فهي الجارية بدلاً من القــارية ولا معنى لها ، التثويب : أن يقول المؤذن في آذان الفجر : الصلاة خيرٌ من النوم ، والمنادون ، المؤذنون .

(٢) أي إنه أخذ من العش فرخاً لم يطر فربي لدى سائسه ولم تربه أمه ، والأول أفره على الصيد .

(٣) لم ينكه : لم يؤلمه والحياص : الخياط والمعنى أنه لم يؤخذ من الفلوات كبيراً حيث يعمد إلى خياطــة عينيه والتفل عليهما لتبردا وتسكنا ويبقى على ذلك أيامــاً حتى يأنس فتفتح عيناه .

(٤) الكراكي : جمع كركى وهو طــائر كبير من الطيور التي يبتغيها الصائدون ، الدرخمين : الداهية .

(٥) يحسيها الأمرين : يذيقها الأمرين .

ألوفٌ لسائسه ، يأنس به ، ويطمئن إلى قربه ، قد أُدِّب فتأدَّب ، ودُرِّب فتدرَّب (١) :

مُفَهَّمٌ إهابــة المُهيبِ
وكلماتِ كلِّ مُستَجيب
أقْنَـى إلى سائِسِه جَنيب (٢)
وقد جَرَى منه على تأديب

والشاعر يكثر من وصف تحَفُّزِ الباري للصيد ويَفْتَنُّ في تصوير لحظة انطلاقه من فوق كف بازياره ، ويبدع في نعت انصبابه على فرائسه .

والسبيل في ذلك أن يُجَوَّع البازي في الليلة السابقة لإخراجه إلى الصيد حتى يشتد نهمه إلى الفرائس ، وأن يُخْرَج به في اليوم التـــالي إلى المصايد محمولاً على كف بازياره ، مشدوداً بالسيور إلى قفازه .

وعند ذلك يُطلِق بصره الحاد في السهوب والمرتفعات والوهاد ويرمي به بعيداً في كل مكان حتى إذا جَلَّى الطريدة وأثبتها دَبَّتْ فيه حُمَّى القَرَمِ إلى صيدها ، وجعل يضرب على يد بازياره كأن بــه مساً من جنون ، فإذا أطلقه من عِقاله الذي كان يشده في قُفّازه انقضَّ على طريدتــــه انقضاض الصاعقة وأخذَها أخْذَ عزيز جبار ، وإلى القارىء صورة من هذه الصور (٣) :

قد اغتدي قبل طلوع الشمسِ
بِأحْجَنِ الخَطْمِ ،كَمِيِّ النَّفْس (٤)

---

(١) الديوان : ٦٦٦ ، وديوان المعـــاني : ١٣٢/٢ ونهاية الأرب ٢١٥/١٠ والمصايد والمطارد : ٩١

(٢) أقنى : لزم ، السائس : البازيار الذي يسوسه ويضريه على الصيد .

(٣) الديوان : ٦٦٣

(٤) أحجن الخطم : معوج المنسر .

غرثانَ إلا أكْلَه بالأمْسِ[1]
آنَسَ بالطَّمْسِ وماءِ الطَّمْسِ[2]
كنَظَرِ المجنون أو ذي المَسِّ
حتى إذا أقْصَدَ بعد الحَبْسِ[3]
عشرين من حُبارِياتٍ قُعْسِ[4]
مثلَ النصارى في ثيابٍ طُلْسِ
فهن بين أربعٍ وخمسِ
صَرعَى ومُسْتَدْمِ أميم الرَّأس[5]
وحَرِبٍ يَشْفِنُ بعد التَّعْسِ[6]
كأنما صَبَغْتَها بِوَرْسِ[7]

وهذه صورة أخرى للحظة انطلاق البازي على طريدته :

آنسَ بين «صَرْدَحٍ» و «لُوبٍ»[8]
بِمُقْلَةٍ قليلةِ التَّكْذيبِ[9]

---

(١) غرثان : جوعان .

(٢) الطمس : اسم مكان .

(٣) أقصد : طعن .

(٤) قعس جمع قعساء وهي التي برز صدرها ودخل ظهرها والحباريات ضرب من الطيور المصيدة في قدر الديك كثير الريش طويل العنق .

(٥) أميم الرأس : مشجوجه .

(٦) الحرب : السليب . يشفن : ينظر بمؤخرة عينيه .

(٧) الورس : صبغ أصفر .

(٨) الصردح: المكان المستوي ، اللوب : جمع لابة وهي الارض الحرة ذات الحجارة السود .

(٩) كنى بذلك عن حدة بصره ، فمقلته قلما تكذبه وتريه خلاف الحقيقة .

طُرَّاحةٍ خلفَ لُقَى الغيوب (١)
فانقض مثلَ الحجر المَنْدوب (٢)
مُنْكَفِتاً تكفُّتَ الجَنيب (٣)

أما الطرائد التي أطلق الشاعر بازيَّهُ عليها فهي الحُبارِيات والكراكي ، والبغثان . وقد وصف الحباريات والكراكي وأهمل البغثان لقلة شأنها فهي ـ كما تقول كتب اللغة ـ طيور غُبْر الألوان ، بطيئة الطيران ، دون الرخمة في الحجم (٤) .

وقد أبدع في وصف الحباريات وأكثر من تشبيههن بالنصارى الشيب إذا أخذوا زينتهم عند عيد بروز الصليب حيث قال (٥) :

يا رُبَّ غَيْثٍ آمِنِ السُّرُوْبِ (٦)
حُبارِيات جَلْهَتَي « مَلْحُوبِ » (٧)

---

(١) طراحة : ترمي ببصرها بعيداً ، يقال طرح النوى بفلان كل مطرح، إذا نأت به ، والغيوب : جمع غيب وهو المطمئن من الارض ، وما غُيِّبَ عنك ايضاً وأيهما أردت استقام معه المعنى .

(٢) المندوب : السريع لانحداره .

(٣) الكفت : السوق الشديد ، ورجل كفت وكفيت : أي سريع ، الجنيب : الطائع المنقاد .

(٤) انظر الصحاح للجوهري (بغث) .

(٥) الديوان : ٦٦٦ ، وديوان المعاني : ١٣٨/٢ والمصايد والمطارد : ٩١ ونهاية الأرب : ٢١٥/١٠

(٦) الغيث : أريد به العشب على سبيل المجاز المرسل الذي أطلق فيه السبب وأريد المسبب ، السروب : جمع سرب وهو الجماعة من الطير وغيرها .

(٧) الجلهة : ناحية الوادي ، وملحوب : واد لبني أسد ورد في طردية للشمردل .

يَرْفُلْنَ في بَرانِسٍ قُشُوب[1]

من حِبَرٍ عُولينَ بالتَّهْذيب[2]

فهن أمثال النصارى الشِّيَّبِ

في يومِ عيدٍ مَبْرَزِ الصَّليب

وأما الكراكي فلم يصفها هي ، وإنما وصف صيد البازي لها وفتكته بها وصراخها وإعوالها حين ينقض عليها حيث قال[3] :

يَحْمِي عليها الجَوُّ من فوقها	حيناً ويُغْرِيها الأحايينا
وهن يَرْفَعْنَ صُراخاً كما	جَهْوَرَ في الشِّعْبِ المُلَبُّونا[4]
فمُقَمَّصٌ أثبت في سَحْرِه	وخاضِبٌ من دَمِه الطِّينا[5]
قد مَشَقَته في الحَشا مَشْقَةً	ألقت من الجَوْفِ المَصارينا[6]

٣ – الصقور

لم يقل أبو نواس في الصقور إلا ثلاث أراجيز قصيرة لم تزد أشطارها جميعاً على ثلاثة وأربعين شطراً مع أن الصقر هو الجارح الذي اختُصَّت به العرب وَزهَتْ بتضريته على غيرها من الأُمم ، وأخذ الفرس عنها التَّصيُّد به ، فقد روي أن كسرى بهرام جور لما بلغه تضريةُ العرب للصقور على صيد الظبي والأرنب أرسل إلى نصر بن خزيمة صاحب الجزيرة يلتمس منه صقوراً[7].

---

(١) قشوب : بيضاء نقية .

(٢) الحبر : جمع حبرة وهي ضرب من برود اليمن .

(٣) الديوان : ٦٧٠ والشعر والشعراء : ٢/٧٩٥ والتشبيهات : الورقة ٣٥ ، والبيزرة : ١٦٥

(٤) جهور : رفع الصوت ، الشِّعْب : شعب مكة حيث يجهر الحجيج بالتلبية .

(٥) المقمص: الذي أصابته ضربة فمات مكانه ، والسَّحْرُ : الرئة .

(٦) مشقته : طعنته .

(٧) القانون في علم البيزرة : الورقة : ٦ وما بعدها .

وقد صادت به العرب في جاهليتها وبعد إسلامها، وهي لا تزال تصيد به حتى اليوم في الجزيرة العربية لا تكاد تعرف غيره، مما جعل علماء الحيوان يقولون: «إن الصقر عربي» كما رأينا من قبل.

ولعلّ السبب في إهمال أبي نواس للصقور هو أنه كانت فيه شعوبية حملته على الولوع بذمّ العرب وثلبهم والنفرة من كل ما يتصل بهم.

وقد يكون هناك سبب ثان هو أن الملوك والأمراء الذين وصف أبو نواس جوارحهم غالـَوْا في اقتناء البُزاة لنُدْرتها وغلاء ثمنها، تكاثراً وتفاخراً، وأعرضوا عن الصقور لابتذالها ورخص أثمانها، مع أنهـا لا تقل عن البزاة صيداً عند أهل العلم بالجوارح.

ونحن سنستعرض فيما يلي هذه الطرديات الثلاث لنلم بأبرز ما جاء فيها:

وأول هذه الطرديات أرجوزة لامية الروي مزدوجته، عدة أشطارها ثمانية عشر شطراً جعلها الشاعر أقساماً ثلاثة: أولها لنعتِ الصقر في ثمانية أشطر، وثانيها لوصف صيده لذكران الأرانب في ستة أشطر، وثالثها خاتمة عرض فيها ثمرات الصيد ونتائجه[1].

وقد وصف الصقر بقوله: إنّه لا صيد إلا بالصقور الأريبة الذكية من كل قَطاميّ حديدِ البصر، بعيد المَدَى، مجَلـُوّ المقلة صحيحها، مولود بقنن الجبال العاليات لم يؤخذ فرخاً صغيراً إلى البيوت ولم يُغذّ بحليب الأمهات، وهو قليل ريش القوادم مضبور الجسم أبرشُ ما بين الظهر والرقبة:

لا صيدَ إلّا بالصقور اللّمّحِ[2]
كل قَطامِيٍّ بعيدِ المَطْرَحِ[3]

---

(١) الديوان: ٦٤٨
(٢) اللمّح: الذكية، السريعة اللمح.
(٣) القطامي: الصقر الحديد البصر، بعيد المطرح: البعيد المدى في طيرانه.

يجْلو حجاجَيْ مقلَةٍ لم تُجْرَح[١]

لم تغـذُه باللبَن المُضَيَّحِ[٢]

أمْ ولم يولـد بسهل الأبْطح

إلّا بإشراف الجبـال الطُمَّح[٣]

أحَصّ أطراف القُدامَى وَحوح[٤]

أبْرشُ ما بين القَرا والمَذْبَح[٥]

ثم انتقل من وصفه إلى الحديث عن صيده لذكران الأرانب فقال : إنه صقر صَيُود يُرْدِي أرانبَ الصّحارى السريعة الجامحة فينقضُّ عليها بعد أن يجلوها ببصره الطامح البعيد ويطعنها برمح مسموم من براثنه الحادة، ويشكها بمنقار أقنى كأنف المِجْدَحِ بينما تكون لائذة بالفرار آخـذة طريقها صُعُداً في الجبال كأنها تبتغي أن ترقى السماء بسلم فتتيح من حيث لا تدري لصائدها النشيطِ أن يلحق بها .

يُلوِي بخِزّان الصّحَارى الجُمَّحِ[٦]

يُنحِي لها بعدَ الطِّماح الأطْمَح[٧]

---

(١) الحجاجان : عظما الحاجب حيث تستقر العينان .

(٢) اللبن المضيّح : الممزوج بالماء .

(٣) إشراف الجبال الطمح : الجبال العالية المشرفة .

(٤) الأحص : القليل الريش ، القدامى : ريش مقدم الجنـاح . الوحوح : المنكمش .

(٥) الأبرش من شعر الرأس : ما خالط لونه لون آخر غيره ، القرا : الظهر .

(٦) يلوى : يذهب، يقال ألوى فلان بفلان : أي ذهب به ، الجمح : السريعة .

(٧) الطماح: من طمح بصره إلى الشيء أي ارتفع أو هي بمعنى الشّرَه ، وأي المعنيين أخذت استقام الشطر .

يُسْلِكُهـا بِنَيزَكٍ مُذَرَّحِ [1]
وِمنسَرٍ أقنى كأنف المِجْدَحِ [2]
وهيَ رَواقٍ بالبِساطِ الأفيَحِ [3]
ومِتْيَحَاتٌ لِلقَاءِ مِتْيَحِ [4]

ثم ينتقل من ذلك إلى الحديث عن جنى صيده فيقول : إنه اصطاد قبل أن يدركه الإعياءُ الشديد ، وقبل أن يُقبل الليل بظلامه خمسين أرنباً كالعنزات السمان ما بين مذبوح وغير مذبوح :

فاصطاد قبل التعب المُبَرِّحِ [5]
وقبل أوْبِ العازِبِ المُرَوِّحِ [6]
خمسين مثل العَنَزِ المُشَدَّحِ [7]
ما بين مذبوح ومـا لم يُذْبَحِ [8]

أما الطردية الثانية مما قاله أبو نواس في الصقر فهي أرجوزة لامية الروي مزدوجته عدة شطورها تسعة عشر ، جعل اثنين منهـا لوصف تبكيره إلى الصيد وثلاثة عشر لنعت الصقر وصيده لسرب الطير ، وثلاثة للحديث عن ثمرات الطراد ونتائجه وقد وصف مبادرته إلى الصيد في الغَلَس بقوله : قد

---

(١) يسلكها : يطعنها . النيزك : الرمح القصير ، المذرّح : المسموم .
(٢) المجدح : ما يحرك به السويق كالملعقة .
(٣) البساط الافيح : كناية عن السماء .
(٤) متيحات : مهيئات ، المتيح ، كمنبر : النشيط .
(٥) المبرح : الشديد .
(٦) العازب المروح : الذاهب السائر في العشي إلى مأربه .
(٧) المشدح : السمين .
(٨) الديوان : ٦٥٣

أغتدي إلى الصيد والليل لا يزال مظلماً أغبرَ اللون مُضرَّجاً بما شابَهُ من ضياء الفجر :

قد أغتدي والليلُ ذو غَيَاطِلِ [١]

هَابِي الدُّجَى مُضرَّجُ الخَصَائِلِ [٢]

ثم انتقل إلى وصف صقره وصيده لأسراب الطير فقال : وكان معي صقر عريق منسوب إلى (تُوَّج) من بلاد فارس ، مرهف السلاح، شديد الغضب ، مزاول للصيد ، يستوي على شمال بازياره استواء الملك الشجاع على عرشه ، بعيد ما بين الفخذين ، مخوف القدرة شديد السطوة :

بِتُوَّجِيٍّ مُرْهَفِ المَعَاوِلِ [٣]

حامِي الحُمَيَّا مِخْلَطٍ مُزايِلِ [٤]

يُوفِي انتصابَ الملكِ الحُلاحِلِ

فوق شمالِ القانصِ المُخاتِلِ

أفْحَجَ مَخْشِيِّ الشَّذَى، قُصائِلِ [٥]

وهو إذ أطلق على طرائده لم يَعدْ إلا إذا ظفر بها واستنزلها من معاقلها، وترك سرب الطير مشتتاً بين مبهور عاجز عن الفرار ، وهارب ناجٍ بنفسه :

حتى إذا أُطْلِقَ غيرَ آئِلِ [٦]

إلا بِمَا اعتَامَ من المَعاقِلِ [٧]

---

(١) غيطلة الليل : اشتداد سواده .

(٢) هابي : مغبر ، الخصائل : جمع خصيلة وهي الفرق بين الظلمة والضوء .

(٣) توَّجي : نسبة إلى توج قرية بفارس:، مرهف المعاول : حاد السلاح .

(٤) حامي الحميا : شديد الغضب ، مخلط مزايل : يقال رجل مخلط أي يزايل الأمور ومنه فلان مخلط مزايل كما يقال فلان فاتق راتق .

(٥) الأفحج البعيد ما بين الفخذين ، الشذى : الأذى ، قصائل : قاطع .

(٦) آئل : راجع .

(٧) اعتام : أخذ .

والسَّرْب بين خارِق ووائِل [1]

لقد برز هذا الصقر لطرائده مختالاً بقوته ، مُنقَلِبَ جفن العين من شدّة غضبه ، ثم هوى عليها كهويّ الصخور على الصخور :

كأنـــه حين َسمـــا كالخائِل [2]
منقلب الحملاق غيرَ غافِـل [3]
مُنكَفِتاً لِسِرْبِهِنّ الجافِل [4]
جندلةٌ تهوى إلى جَنادِلِ [5]

ثم ينهي الشاعر أرجوزته بالحديث عن نتائج الطراد فيقول : لقد طَفِقَتِ الطيور تدوي بين َدنِف ينقـل خطواته ببطء ، ومَفْرِيّ الظهر مقصومه يبدو في جلده الممزق وهو أشبه ما يكون بلابِسِ فراءٍ مُهَلْهَل الحواشي:

يَدْوِينَ بين َدنِفٍ مُناقِـــل [6]
وبين مَفْرِيّ القَرا ، خَرادِلِ [7]
كأنـــه في جلده الرُّعابـِل [8]
لابسُ َفرْوٍ نائِس الذُّلاذِل [9]

---

(١) الخارق : الدَّهِش الخائف ، والوائل ، العائذ اللائذ .

(٢) الخائل : المختال .

(٣) الحملاق : باطن الجفن .

(٤) المنكفت : المسرع ، الجافل : الخائف النافر .

(٥) الجندلة : الصخرة .

(٦) الدنف : الملازم للمرض ، المناقل الذي يسير سيراً بين العدو والخَبَب .

(٧) مفري القرا : مقطوع الظهر ، الخرادل : المقطّع اللحم .

(٨) الرعابل : اللحم المقطوع .

(٩) نائس : متحرك ، الذلاذل : الحواشي .

أما الطردية الثالثة مما قاله أبو نواس في الصقر فهي أرجوزة سينية عدة شطورها ستة جعل واحداً منها للحديث عن تبكيره للصيد ، وآخر لوصف صقره ، وأما الأربعة الباقية فمحّضها لوصف برقع الصقر .

وقد رأينا من قبل كيف حضّ البيازرة على تغطية رأس الصقر وعينيه بالبرقع لئلا ينطلق على الطريدة قبل الأوان ويثب عن يد صقاره من غير حاجة ، فتهن قواه وتضعف عزيمته ، وعلمنا أن البرقع بالنسبة للصقر بمنزلة الغمد للسيف ، وأنه خاص بالصقر والشاهين والعقاب دون البازي ، فإنه لا يصلح له البرقع .

وأبو نواس يصف لنا في هذه الطردية برقع الصقر فيقول [1] : قد أغتدي للصيد مبكراً قبل الغُدُوّ بالبعير الذي أظْمِيءَ ثلاثة أيام إلى مورده ليشرب ، ومعي صقر ملتهب ينفض كف لامسه ، وقد بُرْقِع بقلنسوة منضوحة بالطيب ، ذات كمرة عظيمة تغطي رأسه ، وتستر عينيه ، تتدلى من فوقها سيور من جلد كأنها عَذَب العمائم ، ولها فم مفتوح يشبه فم القايىء :

قد أغتدي قبل مذادِ الخامِسِ [2]
بِضَرِمٍ يَنْفِضُ كَفَّ اللامِسِ [3]
عليه من مَنْضُوحَةِ القلانِسِ [4]

---

(١) الديوان : ٦٦١

(٢) مذاد الخامس : سوقه ليشرب ، والخامس من الإبل ما أظمىء ثلاثة أيام وأورد في الرابع .

(٣) الضرم : الملتهب ، ينفض : يحرك ويضرب .

(٤) المنضوحة : التي نضحت بالمسك والقلانس جمع قلنسوة وهي غطاء الرأس .

قَنفاءُ ذاتُ عَذَبٍ نَوايِس[1]
يَهُوعُ فوها كَهُواعِ القالِس[2]

٤ – اليؤيؤ

لأبي نواس في اليؤيؤ طرديتان اثنتـان ألمّ بوصفه فيهما إلماماً لا يميزه من سواه ولا يجلو صورته للقارىء.

وأولى الطرديتين أرجوزة هائية عدة شطورها ستة عشر شطراً، افتتحها الشاعر بذكر غدوه إلى الصيد مبكراً قبل أن ينفصل الصبح عن الليل تمام الانفصال حيث تكون آثار ظلماته لا تزال تلوح فوق أنوار الصباح[3]:

قد أغتدي والصبحُ في دُجاه
كَطُرّة البُرْدِ علامتـاه[4]

ثم انتقل إلى وصف اليؤيؤ، فقال إنه يؤيؤ رائع المجتلى يعجب من رآه، فريد الحسن ما في اليآيي له ضريب، أسفع الخد أزرق الجسم صادق العين، لا تخطىء نظرته يرمي ببصره بعيداً فيرى ما لا يراه القانص ولو أن صاحبه أبصر ما يبصره لأكبره وأعظمه وفداه بأمه، وقد فعل.

بيؤيـؤ يُعجِب من رآه
مـا في اليآئي يؤيؤ شَرْوَاه[5]

---

(١) القنفاء: الكمرة العظيمة، يشبه البرقع بالكمرة، العذب: ما يتدلى خلف العمامة من فضلها، والبرقع له سيور من جلد تتدلى عليه لتزينه، نوايس: متحركاً من ناس ينوس.

(٢) يهوع: يقيء، القالس: الذي يقيء.

(٣) الديوان: ٦٥٤ والمصايد والمطارد: ٩٣

(٤) طرة البرد: كفته وهي جانبه الذي لا هدب له. والبرد: الثوب.

(٥) شرواه: مثيله.

من سُفعَةٍ طُرّ بها خدّاه [1]
أزرق لا تكذبه عيناه
فلو يرى القانصُ ما يَراه [2]
فَدّاه بالأمّ ، وقد فدّاه

ثم ينتقل الشاعر من ذلك إلى الحديث عن ضراوة هذا اليؤيؤ وفتكه بطرائده فيقول: إنه متى أثبت «المُكّاء» بنظره غدا ملك يديه وفي قبضته، فلا ينجيه منه منكباه، ولا ينقذه من بأسه جناحاه ، ولا يعصمه منه تسبيح الله ، ذلك بأنه متى طار وراءه لم يرجع عنه إلا إذا أذاقه كأس حمامه ، وانتزع رئتيه من بين أحشائه :

من بعد ما يذهب حِمْلاقاه [3]
لا يوئِلُ المُكّاءَ منكباه [4]
ولا جناحان تكنّفاه [5]
منه إذا طار وقد تلاه
دون انتزاع السَّحْر من حَشاه [6]
لو أكثر التسبيحَ ما نجّاه

(١) السفعة : السواد ، وطربها خداه : بدت على خديه وطرت عليها كما يطر شارب الغلام .

(٢) ان من شأن الجوارح أن ترمى ببصرها الى مدى أبعد من المدى الذي يصل اليه بصر الانسان ، وإن من الطرائد ما لا يراه القانص فكثيراً ما يرسلها على ما رأت لا على ما رأى .

(٣) الحملاقان : مثنى حملاق : وهو باطن الجفن . . ويذهب حملاقاه : يرمى ببصره بعيداً أو يثبت طريدته .

(٤) يوئل : ينجى ويعصم ، المُكّاء : بضم فتشديد : طائر في شكل القنبرة حسن الصوت يسكن الريف .

(٥) تكنّفاه : أحاطا به .

(٦) السَّحر : الرئة .

ثم يختم الطردية بحمد الله الذي حباه هذا اليؤيؤ ، والثناء عليه لما ألهم هذا الجارح من الهدى :

ذاك الذي خَوَّلَنَـــاهُ الله [1]
تبـــارك الله الذي هَـداه

وأما الطردية الثانية التي قالها أبو نواس في اليؤيؤ فهي أرجوزة ميمية ، عدة شطورها ستة عشر شطراً تشاكل أختها في الشكل والمضمون وحتى في الطائر المصيد الذي هو « المكاء » أيضاً [2]. والجديد الذي يلفت النظر فيها هو أن اليؤيؤ فيهذه المرة حسيب نسيب معمّ مخول ينتمي إلى أكرم الأعراق وينحدر من أنبل الأرومات شأنه شأن الكلاب التي رأينا من قبل :

قد أغتدي والليل في مَكْتَمِه [3]
بيؤيؤ أسْفَعَ يُدْعَى باسمِـــه [4]
مُقابَلٍ من خالـــه وعمـه
فأي عرق صالح لم يَنْمِـه

وما دام هذا اليؤيؤ كذلك فلا عجب إذا كان صاحبه حفياً بـــه فوق حفاوة أمه به ، أثيراً لديه حتى لو استطاع لقاته من لحمه وصانه من الأنداء بثوبه ووقاه من الأذى كما توقّي الأم ابنها عند ضمه، وإمتاع أنفها بلذيذ شمه:

وقانص أحْفَى بـه من أمّه
لو يستطيـع قاتَه بلحمـــه [5]

---

(١) خولناه : أعطانا إياه .

(٢) الديوان : ٦٦٩ ومختارات البارودي : ٣٠/٤

(٣) مكتمه : ستره وظلمته .

(٤) الأسفع : الأسود ويدعى باسمه: يعرف اسم نفسه لحدة ذكائه.

(٥) قاته : أطعمه .

يقيه من برد الندى بِكُمّه
تَوْقِيَةَ الأم ابنهـــا في ضمّه
لمـــا يَلَذُّ أنفَها من شمّـــه

ثم ينهي هذه الطردية بالحديث عن سطوة اليؤيؤ على طرائده ، ومنهـا (المُكّاء) ، فهو أمامَ اليؤيؤ بين أمرين فإمـــا أن يتعرض لِصَكّه ، وهَصْره ، وعَصْر حلقه ، وإما أن يستسلم له وينزل راضياً مختاراً عندحكمه :

ينازل المكاء عنـــد نَجْمِهِ [١]
بالغَتّ أو ينزل عند حكمه [٢]

٥ — الشاهين

لم يقل أبو نواس في الشاهين إلا طردية واحدة ، وهي أرجوزة جيمية ، عدة شطورها واحد وثلاثون شطراً ، جعل اثنين في مطلعها للحديث عن تبكيره للصيد ، وأربعة في آخرها للكلام على ما ينعم به هو وأصحابه من ثمرات صيد هذا الجارح [٣] .

وباقيها وهو خمسة وعشرون شطراً لنعته وتصويره للقارىء ، حتى إن المرء ليكاد يراه بعينيه ويتمثله بخياله منتصباً على كف حامله يختـال بحسن طلعته ويزهو بجمال شكله .

لقد نعته فأكمل نعتـــه ووَفّى وصفه ، ووصَف ألوانه الزاهية ، فهو إسبهرج أحمر ضارب إلى السواد ، ذو وشْيٍ بديع مُدَرّج مُعرّج كأنـه

(١) المكاء : بضم فتشديد طائر في شكل القنبرة حسن الصوت . يسكن الريف ، نجمه : ظهوره من نجم ينجم بمعنى ظهر يظهر .

(٢) الغتّ : عصر الحلق والإكراه في الأمر .

(٣) الديوان : ٦٦٤ والمصايد والمطارد : ٨٠ والبيزرة : ١٧٥

باقي حروف الخط الخرفاجيّ ، وجناحين أخرجين التقى فيهما البياض مع السواد :

قد أغتدي قبل الصباح الأبلج
وقبل نقناق الدّجاج الدُّجّج [1]
بسَهْرَدار اللون أو إسْبَهْرَج [2]
كأن لونَ ريشه المُدَرَّج
من قائم منه ومن مُعَرَّج
باقي حروف السّطرِ المُخَرْفَج [3]
أبْرشُ أوتار الجناح الأخْرَج [4]

ووصف حجاجيه الواسعين ، وعينيه الفيروزجيتين ، وهامته الململمة المُدْمَجة كالصفاة ، ومِنْسَره الحادّ الأقنى ، وشدقه الرحيب الأهْرَت ، وظهره القوي المحبوك ، ورأسه المُبَرْنَس المتوّج ، ومُوقيه المُكتَحّلين ، وجفنيه المزججين :

ذو مقلةٍ واسعة المُحَجّجِ [5]
كأنما تطرف عن فَيْرُوزَج [6]
في هامة مثل الصّلا المُدَمْلَج [7]

---

(١) الدجج : التي تدج في السير وتدب في البيت .
(٢) السهردار واللون : أحمر يضرب إلى السواد ، الإسبهرج : لون فيه بياض وصفرة .
(٣) الخرفج : ضرب من الخط يقال له الخرفاجي .
(٤) الأبرش : الذي في شعر رأسه نكت صغار تخالف سائر لونه ، الأخرج : الذي فيه لونان أسود وأبيض .
(٥) المحجج : ما كان له حجاج واسع، والحجاج ما حول العين من فوقها وأسفلها .
(٦) الفيروزج: حجر كريم .
(٧) الصّلا : الصفاة والصخرة ، المدملج : الأملس .

ومِنْسَر أقنَى رحاب المَفرَج [1]
مِن كل محبوك القَرا مُدَمَّج [2]
مُكحَّلَ الآماق أو مُزَجَّج [3]

ووصف حدته ومِرَّته ، فهو لا يزال من قَرَمِه للصيد ، وبَرَمِه بالحبس والقيد ينهش السيور التي تشده إلى يد صاحبه .

ووصف صفيره ، فهو لا يفتأ يهزج من منقار أقنَى محدودب احديداب رأس الملعقة التي يُجرَف بها السويق :

يَنهَسُ سيرَ المِقود المُحَمْلَجِ [4]
من نَهَم الحرص وإن لم يَلمُجِ [5]
يصفر أحيانا إذا لم يَهزَجِ [6]
من مثل حرف المِجدَح المُعَبَّجِ [7]

وأخيراً فإن الشاعر وصحبه ما زالوا بسبب هذا الجارح في رغد من العيش وبسطة من الرزق، ينعمون بسمين صيده ودهين طرائده ، وقد راحوا بين منضج للحم وموقدٍ للنيران :

---

(١) رحاب المفرج : واسع الفم .

(٢) القرا : الظهر ، المدمج : الذي دمج بعضه في بعض .

(٣) المزجج : المدقق الحاجبين .

(٤) النهس : أخذ الشيء بمقدم الفم ، المقود المحملج : المقود المفتول المحكم الفتل .

(٥) نهم الحرص : شدة الحرص على الصيد والرغبة فيه ، وإن لم يلمج : وإن لم يأكل بأطراف الفم .

(٦) يهزج : يغني من الهزج وهو من الغناء ما كان فيه ترنيم وتطريب .

(٧) المجدح : الملعقة التي يجرف بها السويق

فظل أصحابي بعيش سَجْسَجِ [1]
من زَهَمِ الصيد وشرب النَّجْنَجِ [2]
تراهُمُ من مُمجِل ومُنْضِجِ
وقادح أوْرَى ولم يُؤَجِّجِ [3]

٦ – الديك الهندي

لم يكتف أبو نواس بنعت ما تعارف عليه الناس من جوارح الصيد وإنما تجاوز ذلك إلى وصف الديك الهندي ومناقرته لأقرانه من الديكة ونظم في ذلك أرجوزتين لم يحظ أي من الجوارح عدا البازي بمثلهما .

ومناقرة الديك وهراش الكلاب ضربان من اللهو البشع يلهو بهما الإنسان عندما تفرغ حياته من كل معنى ، وتخلو من كل مكرمة .

ونحن ، استكمالاً للبحث ، سنعرض لأهم ما جاء في أرجوزيته هاتين والأرجوزتان داليتان رويهما واحد وهو الدال ، ومطلعهما متفق وهو قوله :

أنعت ديكاً من ديوك الهند [4]

وعدة شطور إحداهما ثلاثون اما الأخرى فهي نصف ذلك .

وقد وصف الشاعر فيهما الديك الهندي وصفاً مبالغاً فيه على الرغم مما اتسم به من دقة الملاحظة واستيفاء الموصوف من جوانبه كلها ، فتحدث عن شكله الذي يبز شكل الطاووس ، وشجاعته التي تفوق شجاعة الأسود وصياحه الذي يحكي هزيم الرعد وبذل الطاعة له من قبل الدجاج :

---

(١) العيش السجسج : الطيب الرغد .
(٢) الزهم : السمين الكثير الشحم ، النجنج : كناية عن الخمر .
(٣) القادح : مشعل النار ، وأورى النار : أشعلها .
(٤) الديوان: ٦٥٩ ومختارات البارودي : ٤/٢٥

أنعت ديكاً من ديوك الهند

أحسن من طاووس قصر المَهْدِي

أشجع من عادى عرين الأسد

ترى الدجاج حوله كالجند

يُقْعِين منه خيفةً للسَّفْدِ [1]

لـه سِقاع كدوي الرعد [2]

ووصف منقاره الحادّ الذي يصول به على أقرانه ، وعينيه الذاهبتين نحو قفاه ، وهامته وعنقه الموردين ، وجلده المُفَوَّف الذي يشبه البرود الموشاة ، وريشه اللماع الذي يحكي أهداب الثياب :

منقاره كالمعْول المُحَدّ

يقهر ما ناقره بالنَّقْدِ [3]

عيناه منه في القفا والخَدّ

ذو هامة وعنق كالورد

وجلدة تشبه وَشْيَ البرد

ظاهرها زِفٌّ شديدُ الوقد [4]

كأنه الهُدّاب في الفِرِنْد [5]

ونعت كمال خلقه ، واستواء جسمه ، واحْدِيداب ظهره ، وسعة ما بين فخذيه ، ووظيفَ ساقيه ووصف براثنه المحددة ، وكفه الذي يشبه المشط :

---

(١) السفد : نزو الذكر على الأنثى .

(٢) السُّقاع : الصوت .

(٣) النقد : بالفتح ضرب الطائر بمنقاره .

(٤) الزُفّ : الريش الصغير ، الشديد الوقد : الشديد الالتماع .

(٥) الفرند : هنا معناه الثوب ، وهدّابه ، أطرافه مما يلي طرته .

مُضَمَّرُ الخَلقِ عميم القَدّ
محدودب الظهر كريم الجدّ
مُفَحَّجُ الرِّجلين عند النَّجْدِ [(1)]
ثم وظيفان له من بعدِ [(2)]
وشوكتان خُصَّتا بالحدّ [(3)]
كأنما كفّاه عند الوخد [(4)]
في خطوه كالمَسَكِ المُرْتَدّ [(5)]

ثم وصف مناقرته للديكة ، فهو إذا رأى أحدها مقبلاً من بُعْدٍ بَرَز له بروز الفارس الشجاع لقِرنه ، وجعل يخطر أمامه تيهاً وكبراً كما يخطر الأسد في غابه ، ثم ينبري له ويبذل في سبيل قهره الجهد الموصول بالجهد حتى يمزق جسده ويجعله قدداً ، ويحمله على أن يفكر بالسجود له إعظاماً لشأنه وإقراراً بسلطانه [(6)]:

حتى إذا الديك بدا من بُعْدِ
ونجمُهُ في النحس لا في السعدِ
رأيتَه كالفارس المُعَدّ
يخطرُ خطراً مثل خطر الأُسْدِ
يَقُشُّه بالكدّ بعد الكدّ [(7)]
مفكراً يُعظِمُه بالسَّجْد

---

(1) مفجح الرجلين : ذو انفراج بينهما ، عند النجد : عند الكد والتعب .
(2) الوظيفان : مثنى وظيف : وهو عظم مستدق الساق .
(3) يريد بالشوكتين مخالبيه .
(4) الوخد : سرعة السير .
(5) المَسَك: بفتح الميم والسين : المشط .
(6) الديوان : ٦٤٥
(7) يقشه : يجره ويسوقه .

الفهـــد

لم يقل أبو نواس في الفهد إلا أرجوزةً واحدةً دالية الروي عدة شطورها عشرون شطراً [1]، وقد افتتحهـــا الشاعر بالحديث عن غُدُوِّه إلى الصيد مبكراً واستنهاض همة فهّاده ليعدّ له فهده، فقال: لمـا بدأ الليل يطوي حواشيَ بروده ويفصح عن صبح مشرق الطلعـة واضح اللون أبيضِه ناديت فهادي نداءً يفيض بالود وسألته أن يعد لي الفهد للصيد: فما أسرع أن لبّى النداء واستجاب للدعاء وجاءَني به يسوقه أمامه:

لمـا طوى الليل حواشي برده [2]
عن واضح اللون نقي وردِه
ناديت فهّادي بِرَدّ فهـدِه [3]
نداء من جـاد له بودّه
فجـاء يزجيه على سمنـده [4]

ثم انتقل من ذلك إلى وصف الفهد فقـال: إنه ليس بالأصفر ولا بالأسود وإنمـا هو ورد بين الحمرة والصفرة، وهو إلى ذلك فريـد في اكتمال جسمه وتمام قده:

أصفر أحوَى بَيْنَ بَيْنَ وَرْدِهِ [5]
واحِدُ قدِّ في اكْمِلال قَـدّه [6]

---

(١) الديوان: ٦٤٩
(٢) حواشي البرد: أطرافه.
(٣) الفهاد: سائس الفهد.
(٤) يزجيه: يسوقه.
(٥) الأحوى: الأسود، والورد: من الألوان ما بين الكميت والأشقر.
(٦) اكملال قده: اكتمال قده.

ثم ترك وصف الفهد إلى الحديث عن صيده لِعِين الوحش ، فقـــال: لقد دعوت فهادي لأن يجعل الفهد رديفَه فثنى له زنده وارتدفه خلفه ومـا هي إلا لحظـــات قصار حتى وقع بصر فهدنا على قطيـع من بقر الوحش وقـف متتابعاً على حفافَيْ مَوْرِدٍ جارٍ يحسو المــاء منه على مهل ، فبادر إليه مسرعاً ، وشد عليه مندفعاً ، فلما انصرم عنا موغلاً في جريه ، وامتد وراءه بصرُ الناظر يتبعه بدا كشهاب هَوى على عفريت من عفاريت الجن حـاول استراق السمع وَعدّ الكواكب .

وما هي إلا لمحات بقدر ما يطوي العادُّ يديه ليعد الخمسين حتى احتوى بقرة الوحش بين زنديه سليمةً صحيحةً وقدمها إلينـا فريسةً سهلةً ، فنحن أضيافُه يقرينا مما صادَه لنا بسيفه :

قلت ارْتَـدِفه فانثنى لزَنْدِه [1]
مـــا كان إلا نظرة من بعده
ونظرة أخرى بأدنى جَهْدِه
حتى أرانا العِين دون وِرْدِه [2]
مُطَّرِداً يَحْسُو بشفرَيْ عِدِّه [3]
فانصاع مُرْقَدّاً على مُرْقَدِّهِ [4]
كأنه حـين انفرى في شَدِّهِ [5]

---

(١) من شأن الفهد أن يركبه فهاده على الجواد خلفه أو يجعله على جواد وحده .

(٢) العين : جمع عيناء : البقرة الوحشية ، دون ورده : دون الماء الذي ورد عليه .

(٣) مطرداً متتابعاً ، يحسو : يشرب شيئاً بعد شيء ، شفري عِـدّه : طرفي مائه الجاري .

(٤) انصاع : بادر وأسرع ، مرقدّاً : مسرعاً .

(٥) انفرى : انقطع ، الشدّ : الجري السريع .

وامتد للنـــاظر في مُرتَدّه [١]
كوكب عفريت هوى لِعَدّه
كما انطوى العاقد من ذي عَقْده [٢]
خمسين عامـــاً بيدي مُعْتَدّه
حتى احتوى العِين ولمّا يُرْدِه [٣]
فنحن أضيافُ حُسامَي غِمْده [٤]

الحصان

لأبي نواس أرجوزة واحــدة فريدة في وصف الصيد بالخيل ، ومن المعلوم أن الحصان ليس ضارياً من الجوارح ، وإنمـا هو أداة من أدوات الصيد يلجأ إليه القـــانص حين يعتمد رمحَه وسيلة للقنص ويجعل سبيله مطاردة الوحش بنفسه ممتطيـاً صهوة جواده وهو ضرب من القنص كثير في شعر الصيد عند الجاهليين ومن نحا نحوهم .

وطردية أبي نواس هــذه أرجوزة بائية الروي ، عدة شطورها ثلاثون شطراً جعل أربعة منهـــا لوصف التبكير إلى الصيد ، واثنين لنعت ظهور الصباح ، وخمسة لوصف ولد النعام المطرود ، واثنين لوصف صيده . أما باقي الأرجوزة وهو ستة عشر شطراً فخَصّصَه لوصف الجواد وحده [٥] .

وقد ابتدأ الشاعر طرديته بوصف الغدوّ إلى الصيد في ظلمـة الليل قبل أن يتنفس الصبح فقال : قد أبادر إلى الصيد ، والليل لا يزال مرتدياً جلبابه

---

(١) في مرتده : في مرتد بصره .
(٢) كان العرب يطوون أصابعهم عند رأس كل عشرة لدى العد ، فسُمّيت عقوداً .
(٣) احتوى العين: أخذ البقرة الوحشية، يُرْدِه : يقتله .
(٤) لعل المراد بحـامي غمده براثن يديه لأنها تغمد في كفه وتخرج حين يريد إخراجها.
(٥) الديوان : ٦٥٧

القاتم مختضباً بخضابه الأسود ، مدثراً بحجبه الكثيفة فهو أشبه ما يكون بحبشيٍّ مجرَّدٍ من ثيابه لا تقع العين منه إلا على السواد :

قد اغتدي والليل في إهابِـــهِ
أدْعَجُ ما جُرِّدَ من خِضَابِـهِ (١)
مُدَثَّر لم يبـــدُ من حِجابه (٢)

ثم انتقل إلى وصف جواده الذي بادرِ به الصيد ، فنعته بأنه هَيْكلٌ تامُّ الخَلْق، مكتمل الحسن، ينتهي نسبه إلى الأعوج فرس بني هلال ، ذو قوائم كأنما قُدَّتْ من شجر القعو تضعه في مقدمة الجيـاد، وله كاهل قوي وعنق أغلب يتيه بهما على أترابه ، وحافر صلب يجاري به أنداده ويقيه عند العَدْو من عدوان الخيل الأخرى عليه :

بِهَيْكَلٍ قوبِلَ في أنْسابِـهِ (٣)
مُرَدَّد الأعوجِ في أصلابِهِ (٤)
يهديه مثل القَعْوِ في انتصابه (٥)
وكاهِلٍ وعنق يأبَى بِـــه (٦)
يصافح اللِّدَّانَ من أضْرابـه (٧)

---

(١) أدعـج : الأدعج من الرجال الأسود .

(٢) مُدثّر : متلفف بالدثار ، والدثار : ما كان فوق الشعار .

(٣) الهيكل : الفرس الضخم الطويل .

(٤) الأعوج فرس لبني هلال تنسب إليه كرام الخيل .

(٥) يهديه : يجعله في اوائل الخيل و« مثل » فاعل يهديه والقَـعْوُ : شجر صلب يشبه قوائمه به والقعو ايضاً خشبتان في البكرة فيها المحور .

(٦) الكاهل: ما بين الكتفين ، يأبى به : يمتنع به .

(٧) يصافح: يأخــذ باليد والمراد به يجاري ، اللدان : جمع لَدْن : وهو الطري اللين من كل شيء ، أضرابه : أمثاله .

بوَقِحٍ يَقِيـه في انسيابه [١]
نشا المطاريد وحَدٌّ نابـه [٢]

ثم يترك الحديث عن جواده إلى وصف انبلاج الصبح ، حيث بدا له في ضيائه ولد النعام فيقول : وما إن برز لنا الصبح من بابـه ، وانفرج شدقاه عن بعض أنيابه ، حتى بدا لنا مـا يشبه ولد النعام ، فقد كنا لا نستطيع إثباته لشدة سرعته وبعده عنا وقلة الضياء :

حتى إذا الصبحُ بَدا من بابِـه
وكَشَّرَتْ أشداقُـه عن نابِـه
عَنَّ لنا كالرَّأل لا نَرى بِه [٣]

ثم انتقل إلى وصف ولد النعام فقال : إنه ظليم أحوى اللون انفرد عن القطيع، فجعل يفري الأرض حَزْنَها وسَهْلَها فَرْياً، ويطوي فلواتها طيّاً، ذلك لأنه كان ضامراً لاحق الخاصرتين مقتدراً على الجري :

ذو حُوَّة ، أُفْرِدَ عن أصحابه [٤]
يفري مِتانَ الأرض مع سهابِـه [٥]
فقد رماه النَّحْضُ في أقْرابه [٦]

ثم عاد إلى وصف جواده كرةً أخرى كأنما أراد أن يوازن بينه وبين هذا الرأل فقال : أما الطِّرْف فقد كان مُتَزَمِّلاً بجلاله ، وكان فارسه يعاني من

---

(١) الوقح : الحافر الصلب .
(٢) النشا : جمع نشاة : وهي الشجرة الصلبة واستعارها هنا للقوائم .
(٣) عنَّ : بدا ، الرأل : ولد النعام .
(٤) الحُوَّة : لون مثل صدأ الحديد ، وقيل الحوة حمرة تضرب إلى سواد ويقال عن البعير أحوى إذا خالط خضرته سواد وصفرة .
(٥) سهاب الأرض : فلواتها .
(٦) النحض : اكتناز اللحم وضموره ، الأقراب : جمع قُرُب وهو الخاصرة.

فرط نشاطه فقلنا له : انزع عنه جله ، فلما أزاحه عنه بدا كالهلال الذي يبزغ من خلف السحاب أو كالسيف الصقيل الذي استُلَّ من القراب :

والطِّرْفُ قد زُمِّلَ في ثيابِهِ [1]
قائدُهُ من أرَنٍ يشقى بِهِ [2]
قلنا له : عَرِّهِ من أسلابِهِ [3]
فلاح كالحاجبِ من سَحابِهِ [4]
أو كالصَّنيعِ استُلَّ من قِرابِهِ [5]

ثم ختم الأرجوزة بوصف مطاردة الظليم وصيده فقال : لقد سدَّ الجواد الطرد في وجه الرأل من غير أن يُحفَزَ على العدو أو يزجر ، ثم انصاع يعدو وراءه مسرعاً إسراع الحريق في الهشيم ، وينصبُّ عليه انصباب الصقر على طرائده ، حتى لكأن البيداء نهبٌ له يتصرف بها كيف شاء ، وعند ذلك أدرك الفارسُ طريدته وشَكَّها في عَجْبِها بسنان رمحه كما تشكُّ الفتاة الدر في أسلاكه :

فسدَّد الطَّرْقَ وما هَاهَا بِهِ [6]
فانصاع كالأجْدل في انْصِبابِهِ [7]
أو كالحريق في هشيم غابِهِ

---

(١) زمّل : لف والمراد بثيابه جله .

(٢) الأرَنُ : النشاط .

(٣) أصل معنى الأسلاب : ثياب المآتم السود وهنا أريد بها الجل الأسود .

(٤) لاح : بدا ، الحاجب هنا : الهلال والمعنى أن الفارس لما عرى الجواد من جله الأسود بدا من تحته جسم الحصان الأبيض كما يبدو الهلال من خلال السحب .

(٥) الصنيع : السيف الصقيل المحكم الصنع .

(٦) هاها به : زجره .

(٧) الأجدل : الصقر .

مُلْتَهِباً يَسْتَنُّ في التِهابِه [1]
كأنما البيداء من نِهابِه
فحازه بالرمح في أعْجابِه [2]
شَكُّ الفتاةِ الدرَّ في أحزابه

الفخ

طرديات أبي نواس السابقة جميعها دارت حول أدوات الصيد الحيّة من الجوارح والضواري ؛ أما هذه الطردية فتتناول أداةً من أدوات القنص غير الحيّة وهي « الفخُّ » .

وهي أول طردية يعدل فيها عن الرجز إلى القصيد فينظمها على البحر السريع ، وعدة أبيات هذه الطردية تسعة [3] نعرضها فيما يلي : افتتح الشاعر طرديته بما ينبغي أن يكون خاتمة لها فكشف عن أن الفخ أخفق في بلوغ الغرض الذي وُضِع من أجله ، وأن العصفور نجا من الشرك الذي نصب له فقال : قد كاد هذا الفخ أن يعقر طريدته لولا أن العصفور تَحَرَّف عنه وأبى أن ينقر الحب الذي نثر فوقه :

قد كاد هذا الفَخُّ أن يَعْقِرا وانحرف العصفور أن ينقرا

ثم طفق الشاعر يحكي قصة إخفاق الفخ ونجاة العصفور من الوقوع بين فكيه ، فقال: لقد غَيَّبْتُ في الترب عن العصفور شَرَكاً نصبْتُه له ، وسوّيته بالأرض حتى لا أثير شكوكه ، وأوقظ مخاوفه ، فلما رأى موضعه من الثرى وجد فوقه جثوة من الحجارة وضعتها لأخفيَ معالمه ، فلم يستنكر ما رأى ،

(١) ملتهباً يستن : مسرعاً يقمِصُ .
(٢) في أعْجَابه : في أصل ذنبه .
(٣) الديوان : ٦٦١

وأشرفَ على موضع الفخ من علٍ، ووافى مكانه وجعل ينظر إلى الحب الذي انتثر فوقه وهَمّ بالسقوط عليه والتقاطه :

غيبت في الترب عليـــه له | بالمُستَوِي خشيةَ أن ينفرا [١]
لما رأى الترب، رأى جِشْوَةً | هائلة الشخص فما استنكرا [٢]
حتى إذا أشرفهـــا مُوفِياً | وعايَنَ الحَبّ بها مُظْهَرا

عند ذلك برز له من نفسه زاجر ما كنت أحسب أنه يبرز له، وحذره مغبة ما هو مقدم عليه، فأعمل الفكر في ذلك، ومن يعمل فكره في أموره فإن الله يقيه المهالك :

خاطبـــه من نفسه زاجر | قد كنتُ لا أرهب أن يزجرا
فأعمَلَ الفكر قليــلا، ولا | يَقْتُلُهُ الرحمن ما فكّرا

فنشبت في نفسه حرب بين الإحجام والإقدام وكان جندها (لا) و(نعم) فكان الحذر ينادينه بلا وكان الطمع يلح عليه بنعم، وما هو إلا قليل حتى دُحِرَتْ (نعم) فلاذت بالفرار، وانتصرت (لا) فضَمّ العصفور كَشْحَيه إلى صدره واستنجد بجناحيه اللذين طالما أنجداه في الملمات وصفّق وطار :

فاحتربت (لا) و (نعم) ساعة | ثم انجلَى جُنْدُ نعم مُدْبِرا
فضمّ كَشْحَيْه إلى جؤجؤ | كان إذا استنْجَدَه شمّرا [٣]

أما أنا فقد راعني إخفاق مسعاي حين رأيته يُدَوّمُ في الفضاء آمناً مما كنت أعددته له :

فلم يرعني غيرُ تدويمـــه | آمنَ ما كنتُ له مُضْمِرا [٤]

---

(١) بالمستوى : بما استوى من الأرض .
(٢) الجشوة : بتثليث الجيم الحجارة المجموعة .
(٣) كشحيه : جناحيه ، الجؤجؤ : صدر الطائر ، شمر : بمعنى أنجد .
(٤) تدويمه : دورانه وتحويمه .

قوس البُنْدُق

لأبي نواس طردية واحدة في قوس البندق[1] ، وهي أرجوزة همزية عدة شطورها ستة وعشرون شطراً جعل الشاعر أربعةً منها لوصف الروضة التي بكّر للصيد فيها وثمانيةً لوصف القوس، وخمسة لوصف البندق، وباقيها وهو تسعة أشطر لوصف التصيد بهذه الأداة :

افتتح الشاعر طرديته بالحديث عن الرياض التي غلّس للصيد فيها فقال : رب روضة باسقة الأشجار وارفة الظلال ، تسمع للطير في أرجائها زقاءً مبهماً متداخلاً بعضه في بعض يشبه لفط كتاب الدواوين حين يجتمعون للإملاء على من يكتبون عنهم .

لقد وافيت هذه الروضة مبكراً حيث كانت الشمس لا تزال في خدر أمها ، فهي كالفرخ الذي لم يبرح قشرته وحيث كان المقرورون لا يزالون مُسْتَكِنّين في بيوتهم لم يخرجوا للاستدفاء بأشعتها التي لم تبزغ بعد :

وارِفَــةٌ للطير في أرجائِها[2]
كلَفَطِ الكتاب في استِمْلائِها[3]
أشْرَفْتُها والشمسُ في خِرْشائِها[4]
لم يبرز المَقْرور لاصْطِلائِها[5]

ثم انتقل الشاعر إلى وصف القوس،فقال إنها شظية شُقّتْ من الأشجار، حياة الصائد في إبقائها صحيحةً سليمةً ، فهي إذا رَمَى القانص عنها صدقت

---

(١) الديوان : ٦٦٨

(٢) وارفة صفة لموصوف محذوف تقديره هي روضة وارفة أو نحو ذلك .

(٣) اللفط : الأصوات المبهمة .

(٤) أشرفتها : أطللت عليها ، الخرشاء : قشرة البيضة العليا .

(٥) المقرور : الذي أصابه القر وهو البرد .

ظنه ، وحبَتْه من سَبْيِها ما يكفل طعامه ويؤمن خوفه من أن يجوع :

بِشِقْةٍ طولُك في إبقائِها (١)

إذا انتحى النّازِع في انتِحائها (٢)

لم يَرْهَبِ الفُطورَ من سِبائها (٣)

ثم تابع وصف القوس فتحدث عن نشأتها منذ كانت عصاً نديةً لم تُثقّفْ ولم تيبس ، إلى أن اكتملت وغدت آية في الجودة والحسن :

حتى تأناها إلى انتهائها (٤)

واستَوْثق القِشْرُ على لِحائها (٥)

وشُمِّسَتْ فيَبُسَتْ من مائها (٦)

فالحسنُ والجَوْدَة من أسمائها

ثم انتقل من الحديث عن القوس إلى وصف البندق ، فقال : لقد بادرنا الطير ببنادق محكمة الصنع، مستوية الجِرم ، اتُّخِذَت من طين شديد التماسك بعيد عن الفضار ، خالٍ من الرمال التي تمنع تلاحمه ، فجاءت جميعُها في الجودة سواء، فهي لا تُحْوِج الرامي إلى تَخيُّرِ بعضها دون البعض الآخر:

ثم ابتدرنا الطيرَ في اعتلائها (٧)

بنادقاً تعجب لاستوائها

---

(١) الشقة : ما شق منه العصا وغيرها مستطيلا ، الطّول : الحياة .

(٢) الانتحاء : الاعتماد والميل ، النازع : الرامي ، يقال : نزع في القوس أي جذب وترها .

(٣) من سبائها : مما تصيده .

(٤) تأناها : استأنى في صنعها ولم يعجل حتى تبلغ أشدها وكمالها .

(٥) اللحاء : قشر الشجر ، واستوثق اشتد واستمسك .

(٦) شمست: عُرّضت للشمس حتى يجف ماؤها وتيبس .

(٧) ابتدرنا الطير : أسرعنا إليها .

من طينة لم تَدْنُ من غضرائها [1]
ولم يخالطها نقا ميثائها [2]
لا تُحْوِجُ الرامي إلى انتقائها

ثم ترك القوس وبنادقها إلى وصف الصيد بها فقال : إنها قوس بعيدة الرمي تَلْحق بالطير مهما علا ، وتُراقبه مهما ارتقى ، وتَتلظّى عند الإطلاق تلظّيَ النار ، إنها لترمي الطيرَ من علياء سمائها وتحطها إلى الأرض مهشمة الخطم مضرجة بدمائها ، وتجعلها ممزقة الأحشاء متدلية الأمعاء :

فهي تُراقي الطير في ارتقائها
مثل تلظّي النار في التظائها
طَرّاحةٌ للطير من جَرْبائها [3]
مَرْثُومةُ الخَطْمِ بطين مائها [4]
تَرْفُلُ في نعلين من أمعائها [5]
يَحُطُّها للأرض من سمائها

خصائص شعر الطرد عند أبي نواس

بعد أن استعرضنا طرديات أبي نُواس جميعها ذلك الاستعراض الوافي صار في وسعنا الوقوف على خصائص هذا الفن عنده ، وتقويم شعره الذي قاله فيه ، وإصدار الأحكام عليه مدعمةً بالشواهد مؤيدةً بالأدلة .

---

(١) الغضراء : طينة خضراء علكة .
(٢) النقا : القطعة من الرمل والميثاء : الأرض السهلة .
(٣) جاء الشطر في الديوان طراحة للحوت وفيه مبالغة لأن الحوت برج في السماء ثم ان ما بعده لا يستقيم على هذه الرواية ، الجرباء : السماء والناحية التي يدور فيها الفلك .
(٤) مرثومة الخطم : مكسورة المنقار .
(٥) المعنى أنها تسقط على الأرض وقد علقت أمعاؤها في رجليها فكأنها اتخذت منها نعلين لها تميس بها .

ولإيضاح خصائص شعر الطرد عند أبي نواس يحسن بنا أن نقف أولاً على طريقته في بناء الطردية ، ثم نتتبع ذلك بتبيان الخصائص المعنوية واللفظية والتصويرية والموسيقية لهذه الطرديات :

كيف بنى أبو نواس طرديته :

خط أبو نواس لطردياته خطوطها العريضة ، والتزمها التزاماً كبيراً في جل ما قاله في هذا الفن ، وكان أبرز هذه الخطوط : أن الشاعر التزم في طردياته جميعها بحر الرجز ولم يعدل عنه إلى غيره إلا مرتين اثنتين حيث استبدل به في كلتيهما البحر السريع الذي يقاربه في وزنه ويشاكله في رشاقة موسيقاه [1] .

ثم إنه التزم في أراجيزه القافية المزدوجة الروي ولم يعدل عنها ابداً حتى غدت سمة من سماته وميزة تمتاز بها طردياته .

وقد أقام أبو نواس طرديته في الكثير الغالب على ثلاثة أركان : هي المقدمة ، والمتن ، والخاتمة . أما المقدمة فيتحدث فيها ـ غالباً ـ عن التبكير إلى الصيد حيث لا تزال الطيور في وكناتها والوحوش في مرابضها ، ويصف الليل الذي ما برح يلف الكون ببروده السود ويصور تنفس الصبح ، وانبلاج ضوئه الخافت من خلال سدف الظلام .

وأكثر مقدماته تفتتح بكلمة : « قد أغتدي » فيقول : « قد أغتدي والطير في مثواتها » « قد أغتدي والليل في اعتكاره » « قد أغتدي والليل محمر الطرر » « قد أغتدي بزُرّقٍ جُراز » « قد أغتدي بزرق صبيح » « قد أغتدي والليل ذو غياطل » « قد أغتدي والصبح في دجاه » « قد أغتدي والليل في إهابه » « قد أغتدي والليل داجٍ عسكرُه » « قد أغتدي

---

(١) الديوان : ٦٣٥ ، ٦٦١

قبل مذاد الخامس » « قد أغتدي والليل أحوى السُّدَّ » « قد أغتدي قبل طلوع الشمس » « قد أغتدي قبل الصباح الأبلج » « قد أغتدي والليل في مكتمه » [1] .

وكثيراً ما يفتتح مقدماته بكلمة « أنعت » فيقول : « أنعت كلباً لقن النحاس » « أنعت كلباً ليس بالمسبوق » « أنعت كلباً جال في رباطه » « أنعت كلباً مرهفاً خميصاً » « أنعت ديكاً من ديوك الهند » [2] .

وقد يفتتحها بكلمة (رب) إما مسبوقة بـ (يا) أو متبوعة بـ (ما) أو يستبدل بها « واوها » فيقول : « يا رب بيت بفضاء سبسب » « يا رب خَرْقٍ نازِح حديب » « يا رب ثور بمكان قاص » « يا رب ظبي بمكان خال » « يا رب غيثٍ آمن السروب » [3] « ربما أغدو ومعي كلبي » [4] « وقانص محتقر ذميم » [5] .

وقد يفتتحها بـ (لمَّا) الحينية فيقول : « لما غدا الثعلب من وجاره » « لما تبدّى الصبح من حجابه » « لما غدا الثعلب في اعتدائه » « لما بدا الثعلب في سفح الجبل » « لما رأيت الليل منشق الحجب » « لما رأيت الليل قد تَشَزَّرا » [6] وقلما افتتح طردية بغير ذلك .

وأما متن الطردية فهو يخصصه لوصف الحيوان الصائد – جارحاً

---

(١) انظر على التوالي الصفحات : ٦٢٨ ، ٦٣٥ ، ٦٣٦ ، ٦٣٧ ، ٦٣٨ ، ٦٤٦ ، ٦٤٨ ، ٦٥١ ، ٦٥٢ ، ٦٥٤ ، ٦٥٧ ، ٦٦٠ . ٦٦١ ، ٦٦٢ ، ٦٦٣ ، ٦٦٤ ، ٦٦٩ من ديوان أبي نواس .

(٢) انظر على التوالي الصفحات : ٦٢٤ ، ٦٢٥ ، ٦٤٢ ، ٦٤٥ ، ٦٥٩ من ديوان أبي نواس .

(٣) انظر على التوالي الصفحات : ٦٣٤ ، ٦٤٠ ، ٦٤١ ، ٦٦٢ ، ٦٦٦

(٤) الديوان : ٦٣٢

(٥) الديوان : ٦٣٥

(٦) انظر على التوالي الصفحات : ٦٢٩ ، ٦٣١ ، ٦٣٩ ، ٦٤٤ ، ٦٥٠ من الديوان.

كان أم ضارياً – وصفاً وافياً ، أما الحيوان المصيدُ وعملية الصّيد فقليلاً ما يصفها الوصف الكافي .

وأما الخاتمة فهو يذكر فيها حصاد صيده ، ويعقب على ذلك بتحميدة أو حكمة مناسبة للمقام، أو إطراء للحيوان الصائد ، أو اعتبارٍ بما حدث وذلك كقوله : « فالحمد لله الذي أعطى » ، وقوله « الحمد لله وليّ الحمد » وقوله : « لا خير للثعلب في ابتكاره » [1] وقوله : « يا لك من كلب نسيج وحده » وقوله « يا لك من ذي حيلة كسوب » وقوله« يا لك من كلب إذا صاد عدل» وقوله « يا لـك من ديك رُبي في المهد » وقوله عن البازي : « نعم الخليل ساعة الإعواز » . وقوله في اليؤيؤ : « تبارك الله الذي هداه » [2] أو غير ذلك ممـا يشعر القارىء بانتهاء الطردية ولا يقطع حَبْلَها به قطعاً .

غير أن الشاعر لم يلتزم هذا البناء الثلاثيّ الأركان دائماً ، وإنما عَدَل عنه أحياناً فهناك طرديات قَصَرَها على وصف الحيوان الصائد مع خاتمة ذكر فيها ثمرات صيده ، وأخرى قصرها على وصف عملية الصيد نفسِها مع خاتمة خفيفة .. وهنا لا بد لنا من الإشارة إلى أن بناء الطردية في أحسن أحواله عند أبي نواس لم يبلغ مرتبة الكمال التي كان يُرْجَى له أن يبلغها بسبب ما ساد عصره من ثقافة ومنطق وموضوعية ؛ ذلك لأن عملية الصيد لها عناصر ثابتة هي: الزمان، والمكان ، والحيوان الصائد، والحيوان المصيد، والإنسان الذي يوجه الصيد ثم ثمرات الصيد ونتائجه .

والطردية الكاملة (عندي) هي تلك التي تلم بهذه العناصر كلهـا إلماماً مناسباً فتعطي كلّ عنصر حقه بحيث لا يجور على غيره ولا يجور عليه غيره ،

---

(١) الديوان : ٦٢٨ ، ٦٥٩ .

(٢) الديوان : ٦٥٤ .

غير أن أبا نواس لم يوفق في أية من طردياته إلى إقامة بنائها على هذا النمط الذي ذكرناه .

حقاً إنه وصف زمان الصيد – وهو لحظات البكور – وصفاً رائعاً ، ونعت الحيوان الصائد نعتاً بلغ فيه الغاية وألمّ أحياناً بعملية الصيد إلماماً مناسباً ، وتحدث عن نتائجه في الكثير الغالب لكنه أهمل مكان الصيد والإنسان الصائد فلم يلتفت إليهما إلا مرةً واحدةً التفاتةً سريعةً أفاضت على الطردية رونقاً وجمالاً .

ولو أن الشاعر سلك الطريق الذي أشرنا إليه لزان طردياته بمشاهدرائعة وأغناها بصورٍ نفسية دقيقة ، وَلوَفَّى القارىء الملالة التي بعث عليها ضيق الموضوع وكثرة التكرار .

فالمكان الذي يقع فيه الصيد جدير بأن ينعت ليُوضَع القارىء في جوّ الطراد وعلى أرضه ،والانسان الذي يوجه عملية القنص حَرِيٌ بأن يوصف،فهو حين يطلق جوارحه وضواريه تعتمل في نفسه شتى الانفعالات وتتحرّك فيها مختلف العواطف ، إنه يأمل الدّرَك ، ويخشى الفَوْتَ ، ويرجو النُّجْح ويخاف الإخفاق ، وهو إذا أدرك ونجح فاضت نفسه بالسرور والغبطة، وإذا أخفق استشعر الغم والأسى .

هذه الحالات النفسية كلها كانت جديرة بأن تُصَوَّر حتى تبلغ الطردية غايتها في كمال البناء .

ومع هذا فلأبي نواس طرديات خَطَت أشواطاً في طريق الكمال نعت فيها زمان الصيد ، والجارح والصائد ، والطير المصيد والعراك الذي دار بينهما وما أسفر عنه الصيد ، وذلك كما في أرجوزته النونية التي قالها في البازي وصيده للكراكي[1].

---

(١) انظر الديوان : ٦٧٠

الخصائص المعنوية لطرديات أبي نواس

لعل أبرز ما يميز طرديات أبي نواس من الناحية المعنوية أنها حفلت بطائفة كبيرة من المعلومات المتصلة بالحيوانات الصائدة وبخاصة الكلاب حتى إن هذه المعلومات لو نُشرت وشُرِحَت لاجتمع منها كتاب في البيزرة لا يقل عن غيره مما أُلّف في هذا الباب. فالشاعر – كما رأينا عند استعراض طردياته – وصف الكلاب والبُزاة وغيرهما من الضواري والجوارح وصفاً تناول كل عضو من أعضائها ، واستوفى كل شِيَةٍ من شِياتها وكشف عن أمارات فراهتها وعلامات نجابتها وألمّ ببعض آداب معاملتها وطُرق تربيتها ونَعَت شدة حرصها على الصيد ، وحِدّة قَرَمِها إليه وما إلى ذلك مما رأيناه ، ومن هنا تحتم على دارس هذه الطرديات أن يقف قبل قراءتها على كتابٍ من كتب البيزرة ، وأن يلم بما ورد فيه من معلومات حتى يتمكن من فهمها كاملاً وتذوقها تذوّقاً صحيحاً، وإلا فمن أين للقارىء أن يفهم قوله في البازي:

رَبيبُ بيت ، وأنيس ولم ... يرب بريش الأمّ مَحْضُونا

لم يَنْكِهِ جرح حَيّاص،ولم ... يَبْغِ له بالشّفْلِ تَسْكينا [1]

إذا لم يكن عالماً أن أفرَه البُزاة على الصيد ما أُخِذ من عشه فرخاً صغيراً قبل أن يطير ، وأن البازيّ الذي يؤخذ بعد طيرانه وتَوحّشِه لا بدّ له من أن تخاط عيناه مدة من الزمن ليأنس ، وإنه مهما كان أمره فلن يبلغ في الفراهة على الصيد ما يبلغه البازيّ الذي يؤخذ وهو فرخ ، ثم من أين له أن يدرك هذه الصورة التي أكثر الشاعر من عرضها في طردياته ووصف فيها شدة عدو الكلاب حيث قال [2]:

(١) الديوان : ٦٤٦

(٢) الديوان : ٦٢٦

قد خدشت رجلاه في آباطه
وخرّم الأذنين بانتشاطه

وقال أيضاً :

حتى إذا أخصف في إحضاره
خرّق أذنيه شبا أظفاره [1]

إذا لم يكن عارفاً أن طول أذني الكلب ورقتهما من أمارات فراهته وعلامات نجابته ، وأن من شأنه إذا اشتد عدوه أن يقترب جسدُه من الأرض ، وعند ذلك كثيراً ما يطأ ببراثنه على أذنيه المتدليتين فيُدميهما بأظفاره .

ثم إن هذه الطرديات توقف القارىء على مدى تهالك الخلفاء والأمراء والأشراف وذوي اليسار على الصيد ومبلغ استهتارهم به حتى جعلوا من كلابه بخاصة وحيواناته الأخرى بعامة شخصيات مرموقة لها أسماؤها المعروفة ، وأنسابها المحفوظة يُجلّلونها ببرودهم إذا بردت ، ويفدّونها بأمهاتهم إذا طردت ويضمّونها إلى صدورهم إذا نجبت ، ويتّخذون لها البيوت لتقيها من عيون المقتحمين ، ويوظّفون لها الساسة ليقوموا عليها آناء الليل وأطراف النهار ، ويختارون لها النوق العشراء ليغذوها بألبانها بل إنهم تمنوا أن يطعموها من لحوم أجسادهم لو وجدوا إلى ذلك سبيلا [2] كما رأينا من قبل .

وأن هذا التهالك يتجاوز حده حين يتخذون من الديكة وسيلةً للاستمتاع فيتسلون بمناقرتها [3] .

---

(١) الديوان : ٦٣٠

(٢) انظر الديوان : ٦٢٩ ، ٦٣٩ ، ٦٦٩

(٣) الديوان : ٦٤٥ ، ٦٥٩

ثم إن هذه الطرديات تكشف عما بلغه المترفون في هذا العصر من تأنق ، وأخذ بأسباب الزينة التي لم تقتصر عليهم ، وإنما امتدت إلى ضواريهم فزانوها بالحلي التي جمَّلَتْ تمرح فيها وعمَّموها بالقلانس ذوات العذب التي تنوس على رؤوسها ، واتخذوا لها القفاز من فرو السنجاب الثمين [1] .

ثم إن هذه الطرديات تكشف لك عن المكانة التي كان يتمتع بها سوّاس الجوارح والضواري ، فالشاعر ينادي فهّاده نداءً يفيض بالود ويسأله في رفق أن يعدّ له الفهد ليغدو به إلى الصيد [2] .

ثم إن هناك معنى آخر توحي به هذه الطرديات هو أن الصيد أصبح غايةً تقصد لذاتها بعد أن كان وسيلة المرزق ، وآيةُ ذلك تخصيص كثير من طرديات الشاعر لوصف الحيوان الصائد وحده ، وإغفال ما عداه من الحيوان المصيد وطريقة الصيد وثمرته [3] ، ومما يلفت النظر في هذه الطرديات ايضاً غلظُ قلوب الصائدين وانعدام الرحمة منها حتى لكأن الإيغال في متع الصيد ولذاته جعلت على قلوبهم أكنةً فما عادت تحس بأية رحمة لهذا الحيوان ، فالثعلب خرج مبكراً ليكد على صغاره الذين خلفهم وراءه ينتظرون أوبته ، فصبّحه الشاعر بكلبه ورماه به فمزق جسده وأزال مفاصله عن فقاره ، وقدّ جانبي صدره ، وهنا وقف الشاعر منتشياً بهذا المشهد يردد كلمات الشماتة [4] .

وشيء آخر يسترعي الانتباه في طرديات أبي نواس هو عدم ظهور آثار الإسلام فيها إلا في حالات قليلة نادرة وبصورةٍ شاحبة فقد عرفنا أن التسمية عند إطلاق الجارح شرطٌ في حل أكل الطريدة وأن من شأن الصائدين أن

---

(١) الديوان : ٦٢٩ و ٦٦١ و ٦٥٠
(٢) الديوان : ٦٤٩
(٣) الديوان : ٦٣٣ ، ٦٣٤
(٤) الديوان : ٦٢٩

يـذكروا اسم الله على صيدهم ، غير أن أبا نواس لم يلتفت إلى ذلـك إلا مرة واحدة وعلى وجه لا يوحي بالقصد ، وذلك عندمـا ذكر ولع أحد الصائدين بكلبه وأتبعَ ذلك بوصف اندفاع الكلب وراء طريدته فقال [١] :

يَبيعُ باسم الله في أشلائـــه
تكبيرُهُ والحمــدُ من دُعَائه

ولعل السبب في إهمال هذا الجـانب زمن أبي نواس هو أن الصيد لم تكن غايته الإفادة من أكل الطرائد حتى يُتَوَخَّى حلها وتتوقى حرمتها ، وإنمـا كان الهـدف منه هو الاستمتاع بالطرَد نفسه ممـا جعله غايةً تُقْصَد لذاتها لا لفوائدها وثمراتها .

ولعل أعظم ميزة لهذه الطرديات هو مـا اتسمت به من وحدة الموضوع والتسلسل المنطقي بين أجزائها ، فأبو نواس قد مَحَّضَ أراجيزه هذه للصيد ولم يشركه بشيءٍ آخر معه فأصبح قـارىء الشعر العربيّ يتناول أرجوزةً ذات عنوانٍ محدد الدلالة ، فإذا قرأها وجد أن كل ما جاء فيها منبثقٌ عن العنوان الذي صُدِّرَت به ، ثم ألفى نفسه يتنقل بين أجزائهـــا في حركةٍ منطقيةٍ تُفضِي فيها المقدمات إلى النتائج وتنبثق فيها النتائج عن المقدمات ، وهي مَزِيَّة كبيرة حققها أبو نواس للشعر العربيّ عن طريق طردياته ، وهو لم يشذ عن ذلك أبداً في سائر طردياته التي أربت على الخمسين إلا مرتين اثنتين ، وفي لحظـات سريعةٍ خفيفةٍ لا يـكاد يشعر بهـا القارىء وذلك في طرديته الرائية التي نظمهـا في وصف كلبٍ لأميرٍ من أمراء بني هـاشم هو سليمان بن داوود الهاشمي [٢] ، حيث ختمها بالدعاء له والثناء عليه فقال [٣] :

---

(١) الديوان : ٦٣٩

(٢) انظر الحيوان : ٣٠/٢

(٣) الديوان : ٦٣٣

فامتــع الله بــه الأمــيرا
ولا يزال فَرِحــاً مسرورا
مكرَّماً من غِبْطَةٍ مبرورا
يُزَيِّـنَ المِنْـبَرا والسريرا

وفي طرديته الميمية التي مدح فيهـا من دعَاه بفتى شيبان ولعـله يزيد بن مزيد الشيباني ، وذلك حين شبه اقتحام الكلب لطرائده باقتحام فتى شيبان لأعدائه وإيقاعه بهم فقال عن الكلب (١) :

كأنه في الكَرِّ واقتِحامِه
ضربُ فتى شيبانَ في إقْدامه

والمعاني في طرديات أبي نواس كثيراً ما تتسم بالطرافة والعمق ، ولا غرو فهو الذي جُمِعَت له المعاني فأخذ منها مـا شاء ثم فَضَّ باقيها على الناس كما رأينا من قبل .

وأنت إذا أردت مصداق ذلك فتأمل هـذه الطائفة من معانيه الطريفة النادرة ، تأمله وهو يصف ولع القانص بكلبه وشِدَّة تعلقه به وفرط حَدْبه عليه حيث يقول (٢) :

ترى لمــولاه على جرائــه
تَحَدُّبَ الشيخ على أبنائـه
يُكِنُّه بالليل في غطائــه
يوسِعُه ضَمّـاً إلى أحشائـه
وإن عَرى جُلِّلَ في ردائه
من خشية الطلّ ومن أندائه
يضن بالأرذل من أبنـائــه
ضن أخي عُكْلٍ على عَطَائِه

---

(١) الديوان : ٦٣٦
(٢) الديوان : ٦٣٩

والطرافة والعمق في هذا المعنى يبدوان في ثلاثة أمور : أولها أن الشاعر عبر عن ولع القانص بكلبه عن طريق نقل هذا الولع إلى جرائه وهو أبلغ في أداء المعنى وأعمق ، وثانيها أنه عندما وصف ولع القانص بهذه الجراء شبهه بولع الشيخ بأبنائه ، والشيوخ أشد تعلقاً بأولادهم من الشباب وأعظم شفقة عليهم ، وثالثها أن هذا الصائد إنما يضن بالأدنى والأرذل من هذه الجراء ضنّ البخيل بعطائه فما بالك بالذي تبدو عليه مخايل النجابة ؟!

وهذا معنى آخر يصف فيه الشاعر تعلّق الصائد بجارحه ، وهو لا يقل عن سابقه عمقاً ولطفاً وطرافة[1] :

وقانصٍ أحْفَى بـه من أمه
لو يستطيع قاتَه بلحمه
يقيه من برد الندى بكمّه
تَوْقيَةَ الأم ابنها في ضمه
لما يَلَذُّ أنفها من شمه

فهل رأيت تعبيراً عن الحنو أبلغ من قوله : « لو يستطيع قاته بلحمه »؟ وهل أبصرت صورةً للعطف أروع من صورة الأم وهي تضم ابنها إلى صدرها وتملأ خياشيمها من شميمه فتبعثها تلك الغبطة الغامرة على المبالغة في توقيته ودفع هبوب الريح عنه .

وأخيراً انظر إليه وهو يصور لك عَدْوَ الفرس مرةوعدو الكلب أخرى فيقول في صورته الأولى[2] :

فانصاع كالأجدل في انصبابِهِ
أو كالحريق في هشيم غابه
كأنما البيداء من نهابه

(١) الديوان : ٦٦٩
(٢) الديوان : ٦٥٨

ويقول في الثانية [1]:

تراه في الحُضْر إذا هَاهَا بِه
يكاد أن يخرج من إهابـــه

وهما صورتان غنيتان عن كل تعليق .

غير أننا لا نريد أن يذهب الظن بالقارىء إلى أن معاني أبي نواس تجري في طردياته كلها على هذا السّنن من الطرافة والعمق، ذلك بأننا نجد إلى جانب هذه المعاني العميقة أخرى لا ترتفع عن المألوف ونجد مع هذه وتلك معاني يحتويها العقل ، وذلك إما بسبب المبالغات التي يمجهـا الذوق من مثل قوله وهو يصف شجاعة الديك الهندي التي فاقت شجاعة الأسود وصوتـه الذي يحكي قصف الرعد [2] :

أنعت ديكاً من ديوك الهند
أشجعُ من عادى عرين الأسد
لـــه سِقاع كدويّ الرعد[3]

وأما بسبب انسياقه وراء ما خلـّفه الرعد من أساطير ينكرها المنطق ، ذلك حين جعل الشياطين تدعو بالويل والثبور على الأرانب ، متأثراً بما كان يزعمه عرب الجاهلية من أن الجن تهرب من الأرانب لأنها تحيض ولا تغتسل ، وأنها لهذا السبب لم تتخذها مطايا لها فصارت من مطايا الغيلان ، وفي ذلك يقول أبو نواس [4] :

---

(١) الديوان : ٦٣١

(٢) الديوان : ٦٥٩

(٣) السِقاع : الصوت .

(٤) الديوان : ٦٣٣

إذا الشياطين رأت « زنبورا »[1]
قد ’قلّدَ الحَلْقَةَ والسيورا
دعت لخِزّانِ الفَلا ’ثبُورا[2]

وأخيراً ففي طرديات أبي نواس شعوبية ظاهرة ، وقد يكون عجيباً أن يكون فيها ذلك مع أن المقام لا يتسع لهذه الشعوبية، ولكن الواقع كذلك، فقد بدت شعوبيتـه تلميحاً حين أكثر من نعت البازيّ وهو جارح فارسيّ وأقل من نعت الصقر وهو عربيّ مع أن الصقر لا ينزل عن مرتبة البازيّ في الصيد وربما فاقه ، ثم بدت تصريحاً عند نعته الديك الهندي حين قال فيه[3]:

أنعتُ ديكاً من ديوك الهندِ
كريمَ عـم وكريمَ جـدِ
لنِسبَةٍ ليسَتْ إلى مَعَدّ
ولا ’قضَاعِيٍّ ولا في الأزْدِ

الخصائص اللفظية لطرديات أبي نواس

تأثرت ألفاظ الطرديات عند أبي نواس بطائفةٍ من العوامل أولها ذوق العصر الذي جعل يؤثر مأنوس القول ومألوفه وينفر من وحشيه وغريبه .

وثانيها طبيعة الرجز ـ والطرديات جلها أراجيز ـ وهي طبيعة تقوم على اصطناع الغريب وتسقّطه وحشده في الأرجوزة .

وثالثها نظرة النقاد المتعصبين للقديم إلى أبي نواس وأضرابه من الشعراء المولدين من أمثال ابن الأعرابي الذي كان ’يضعّفُ شعرَه ويستلينه[4].

---

(١) زنبور : اسم كلب .
(٢) خزان : جمع مفرده ’خزَر وهو ذكر الأرنب .
(٣) الديوان : ٦٤٥
(٤) زهر الآداب : ١ / ٢٤١

ورابعها قصة نسب الشاعر التي أشرنا إليهـا عند الحديث عن حياته مما جعله يتعاجم في شعره ، ومما أغرى شعراء عصره بهجائه لهذا التعاجم [١] .

هذه العوامل الأربعة كانت تتنازع أبا نواس وهو يتخير ألفاظ طردياته وقد أذعن لها جميعاً واستجاب لنداءاتها كلهـا ، لذا فأنت تقرأ طائفةً من طردياته فتجد نفسك أمـام شاعر مألوف اللفظ مأنوسه ، ثم تقرأ طائفة أخرى فتهم بأن تنكر ما تسمع لكثرة ما يعترضك من الغريب الذي يحوجك إلى التنقيب في المعجمات والتنقير عن معاني الكلمات ، وتقرأ طائفة أخرى فتجد أن الشاعر لم يُغْرِبْ فحسب وإنما تعاجَم أيضاً .

ومن هنا رأيت أن أقسم طرديات أبي نواس من حيث ألفاظهـا إلى ثلاثة أقسام : أولها تلك التي قالها (على الطبع) متأثراً فيها بذوق عصره مراعياً فيها قراء شعره ، وهي طرديات مأنوسة اللفظ مألوفة القول لا يستعمل فيها من الغريب إلا ما دعت إليه الحاجة واقتضته طبيعة الموضوع .

وثانيها تلك التي قالها (على سبيل التحدي) فحشد فيها الغريب حشْداً، وَقَصَدَ إليه عَمْداً ، بل إنه لا يبعد أن يكون قد نَقَّبَ عنه في دفاتره التي وجدوها عنده بعد وفاته أو تحراه فيما وعته ذاكرته من أراجيز قلَّ أن اجتمعت في حافظة شاعر غيره .

فقد كان يريد أن يرمي بهـذا الضرب من طردياته وجوهَ الذين جعلوا يُضَعِّفونه ويستلينون شعره وأن يكاثِرَهم في الغريب الذي كانوا ينفقون عمرهم في روايته ، وأن يتعالم عليهم بما يظنون أنه يجهله وأن يقول لهم : إنه ليس أقل معرفـة بغريب كلام العرب من الشعراء السابقين الذين يدينون لهم بالولاء ويعطونهم الطاعة وهم مطمئنون .

---

(١) مختار الأغاني : ٣ / ٢٨

وثالثها تلك التي قالها (على سبيل التعاجم) فحشد فيها من الألفاظ الفارسية ، المُعَرَّبَة وغير المعربة أكثر مما يمكن أن تحتمله أرجوزة عربية إظهاراً لنسبه وإشادة ببني قومه وتنويهاً بهم .

ومن حسن الحظ أن الضرب الأول من طردياته هو الغالب عليها ، ثم يليه الثاني ، ثم الثالث .

ونحن سنورد فيما يلي ثلاث مقطوعات من طردياته تمثل هذه الانواع الثلاثة : فمن النوع الأول قوله في طرديةٍ رأيناها من قبل [1] .

أنعتُ كلباً أهله من كده
قد سعدت جُدودهم بِجَدِّه
وكلُّ خيرٍ عندهم من عِنْدِه
يظل مولاه له كعبده
يبيت أدنى صاحب من مهده
وإن عَرى جَلَّلَه ببرده
ذا غُرَّةٍ مُحَجَّلاً بزنده
تلذ فيه العينُ حسنَ قده
تأخير شدقيه وطول خَدِّه
تلقى الظِّباءُ عَنَتاً من طَرْدِه
يشرب كأسَ شَدِّها بِشَدِّه
يصيدها عشرين في مُرْقَدِه
يا لك من كلب نسيجٍ وحْدِه

ومن النوع الثاني قوله [2] :

---

(١) الديوان : ٦٢٤
(٢) الديوان : ٦٢٥

أنعت كلباً جــال في رباطه

جَولَ مُصابٍ فرّ من أسْماطه

يُقَمِّمُ القــائد في حِطـاطه

وَقَـدّه البيداءَ في اعْتباطه

لما رأى العَلْهَبَ في أقواطِه

سابَحَهُ وَفرّ في التباطــه

كالبرق يَذْرِي المرو بالتقاطه

مثل قَلِيّ طــار في أنفاطِه

وانصاع يتلوه على قِطـاطِـه

أغضف لا ييأس من خِلاطِـه

يصيد بعـد البعد وانبساطه

إن لم يَبُتّ القلبَ في انْكِباطِه

فلم يزل يأخــذ في لِطاطِه

كالصقر ينقض على غِطاطِه

ومن النوع الثالث قوله [1] :

قــد أغتـدي بزرّق جرازِ

مَحْضٍ رقيق الزّفّ والطرازِ

دُبّق من نعمان شَهْرَدَازِ

تصيدنا رزقــاً ودَسْتَخَازِ

زين يد الحـامل والقُفّاز

وقوله [2] : قد أغتدي قبلَ الصباح الأبلَجَ

(١) الديوان : ٦٤٨

(٢) الديوان : ٦٦٤

بسهرداز اللون أو إسْبَهْرَجِ

أبرش أوتار الجنـــاح الأخرج

بين حوافيـــه إلى الدّهْبَرّجِ

إلى أن يقول : من دَيْزَجِ اللون وعزّ الديزَجِ

(فالدستخاز) معناه: الذي إذا رأى الصيد طار عن اليد، و(الدّهْبَرّج): الريشات العشر ، و (الديزج) بمعنى لون الخيل و(السهرداز والإسبهرج) : لَوْنان وكلها ألفاظ فارسية أوردهـا الشاعر تعاجماً ، ولو شاء أن يستبدل بها ألفاظاً عربية ما عزّ عليه ذلك .

الخصائص التصويرية لطرديات أبي نواس :

تعتمد الطرديات أكثر ما تعتمد على الوصف فهي في جملتها نعت للحيوان الصائد والمصيد وما يدور بينهما من طراد .

والوصف إنما يهدف إلى تصوير الموصوف وتمكين القارىء من رؤيته بعيني خيـاله ، وكلما كانت الصورة أكثر استيفاءً للموصوف وأشد دقـة في إبراز جوانبه الهامة كانت أمتع للنفس، وأوقع في الحس، وأدل على قدرة الشاعر .

وأبو نواس في طردياته مصوّرٌ بارعٌ يملك ريشةً عزّ أن تجد لها نظيراً في شمول صورها ، ودقة خطوطها وبراعة ألوانها ، وحسن عرضها . وقد اعتمد أبو نواس في إبراز صوره على أدوات أربـع : أولاها الاداء المباشر الذي يقوم على الإفادة من المعاني الحقيقية للألفاظ واستخراج أقصى مـا تملكه من قدرة على التعبير وعدم اللجوء إلى المجاز على الرغم مما يزخر به من طاقات تزيد في قدرة اللغة على التصوير والنعت .

ولعل السبب الذي جعل الشاعر يعتمد في إبراز صوره على الأداء المباشر هو تمكنه من نواصي الكلم تمكناً جعلها تنقاد له كيفما شاء وتواتيه أنّى أراد

وتعطيه أقصى ما فيها من طاقـات بسهولة ويسر ، فكم من صورة جلاهـا الشاعر بوساطة المعاني المباشرة للألفاظ من غير أن يلجـأ إلى أيّـةِ وسيلة من وسائل البيان .

أما الأداة الثانية التي اعتمدهـا أبو نواس في إبراز صوره فهي التشبيه ، وهو يمتلك في هذا الباب قدرةً بارعةً مكّنته من تجسيد المعقولات وتوضيح المحسوسات وتزيين الصور حتى إن القارىء ليكاد يلمس منعوتاته بيديه ويراها بعينيه ، وقد أدرك القدمـاء قدرته هذه فقالوا عنه : إنه متى استعمل أداة التشبيه فقال: كأن أو كأنه صور لك الشيء ومَثّلَه أمامك كأنك تراه[1] .

أما الأداة الثالثة فهي الكناية ، والكناية ضرب من البيان لطيف الإشارة حسن الدلالة يتطلب من القارىء أن يتجاوز معنى اللفظ المبـاشر إلى لازم معناه، وفي الانتقال من الملزوم إلى اللازم حركة عقلية لطيفة تستمتع بها النفس ويرتاح لها الذهن وتبرَز بها الصور وتُؤدّى المعاني .

وكنايات أبي نواس تتسم بلطف الإشارة ووضوح الدلالة وصحة النُقلة من اللازم إلى الملزوم .

أما الأداة الرابعة من الأدوات التي استعملها الشاعر في إبراز صوره فهي الاستعارة ، غير أن اعتماده عليها كان قليلاً نسبياً ، فكم من طردية حفلت بالصور وهي خلو من الاستعارات .

ومن خلال الحقيقة المباشرة ، والتشبيه الدقيق البليغ ، والكناية الموحية المعبرة ، والاستعارة القليلة النـادرة ، أبرز أبو نواس صوره في طردياتـه وجلّى موصوفاته .

وإلى القارىء طائفةً من صوره تشهد بصحة مـا قلناه : فمن صوره التي

---

(١) انظر مختار الأغاني ٣ / ٢٩٠٧

اعتمد فيها الأسلوب المباشر وحدَه قوله[1] من طردية كنا ألممنا بها من قبل:

أنعتُ كلبـاً ليس بالمسبوقِ
مُطَهَّماً يجري على العُرُوقِ
جاءت به الأملاكُ من سلُوقِ
يَشْفِي من الطرد جَوَى المشُوقِ
فالوَحْشُ لو مرَّت على العيُّوقِ
أنزلهـا داميـةَ الحُـلوقِ
ذاك عليـه أوجبُ الحقوقِ
لكل صيـاد بـه مَرْزُوقِ

فالشاعر لم يعتمد على غير الأسلوب المباشر في أداء الصورة وذلك بفضل غنى ثروته اللغوية وقدرته على التصرف بها واستخراج جميع ما حفلت به من قدرة على التصوير والتعبير . أما تشبيهاته فهي أكثر من أن تحصى وأعز من أن تستقصى ، وهي كلها جميلة رائعة ازدانت بها مختارات القدماء من أمثال ابن أبي عون في كتابه التشبيهات ، وأبي هـلال العسكري في كتابه ديوان المعاني ، وابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء فمما اختاروه من تشبيهاته قوله في وصف حدة أسنان الكلب ، ودقة حسه ، وشدة عَدْوِه[2] :

كأن لحييه لدى افـتراره
شَكُّ مسامـير على طَوَارِه[3]
سِمْعٌ إذا استَرْوَحَ لم يُمَـارِهِ[4]

---

(١) الديوان : ٦٢٤

(٢) ديوان المعاني : ٢ / ١٣٣

(٣) طواره : نواحيه .

(٤) السِّمْعُ : ولد الذئب من الضبع وهو أشد مـا يكون خبثاً ، والمعنى أنه دقيق الحس فإذا شم الطريدة فلا تماره في دقة حسِّه وصدق شمه وأطلقه عليها .

إلا بأنْ يُطْلَق من عِذارِه

فانصاع كالكوكب في انحدارِه

لَفْتَ المشير مُوهِناً بنارِه

وقوله في وصف أظافر الكلب وشدة سرعته [1] :

كأنما الأظفور في قَنابِه

موسى صَنَاع رُدَّ في نِصابِه

تراه في الحُضْر إذا هَاهَا بِه

يكاد أن يَخْرُجَ من إهابِه

وقوله في وصف مناقير طير الماء العريضة [2] :

كأنما يَصْفِرْنَ عن مَلاعِقِ

صَرْصَرَةَ الأقلام في المَهارِقِ [3]

وقوله في وصف الحُبَاريات [4] :

يَخْطُرْنَ في بَرانِسٍ قُشُوبِ [5]

من حِبَر عُولِينَ بالتَّهْذِيبِ

فَهُنَّ أمثالُ النَّصارى الشِّيبِ

وقوله في وصف سرعة الكلب وقد أرسله كَلاَّبُه على الطريدة [6]

أرسله كالسهم إذْ غَالَى بِهِ

يسبق طرف العين في إلهابِهِ

---

(١) ديوان المعاني : ٢ / ١٣٢ وما بعدها .

(٢) ديوان المعاني : ٢ / ١٤٠ والشعر والشعراء : ٢ / ٧٩٦

(٣) المهارق : جمع مهراق : الصحيفة البيضاء يكتب فيها .

(٤) ديوان المعاني : ٢ / ١٣٨

(٥) قشوب : جديدة .

(٦) التشبيهات : ٤٢

يــكاد أن يَنْسَلّ من إهابـهِ
كَلمَعان البرْقِ في سحَابـهِ

ومن روائعه في مطاردة أنوار الصباح لظلمات الليل قوله [1] :

قد أغتدي والليل في حَريمِه
مُعَسْكِرٌ في الزُّهْرِ من نجومِه
والصبح قد نَشّم في أديمِه
يَدُعُّهُ بِكَنَفَي حَيْزُومِه
دعَّ الوَصِيّ في قَفا يتيمِه

ولو رحنا نستقصي تشبيهاته لعزّ علينا المطلب وكلها رائع بديع ، أمــا كناياته فكثيرة ايضاً ، لكنها لا تبلغ مرتبة تشبيهاته كمّاً ولا كيْفاً وإن كانت لا تقل عنهـا كثيراً في الطرافة والجمال ، فمن ذلك قوله مكنّياً عن التبكير [2] :

قد أغتدي والطير في مثواتهـا
لم تعرب الأفــواه عن لغاتها

وقوله كنايةً عن استواء البندق في إحكام الصنعة [3] :

بنادقــاً تعجب لاستوائهـــا
لا تحْوِجُ الرّامي إلى انتقائها

وقوله كناية عن شدة نشاط الفرس واندفاعه في الجري[4] :

---

(١) التشبيهـات : الورقة ١٥
(٢) الديوان : ٦٢٨
(٣) الديوان : ٦٦٨
(٤) الديوان : ٦٥٨

فــائده من أُرنٍ يشقى بهِ
قَسدَّدَ الطرق وما هَاهَل بهِ

وقوله كناية عن رقة أذن الكلب[1] :

لو يلصق الخدَّ بأذْن لالتصق

وقوله كناية عن شدة ضراوة الكلاب على الطرائد والتأكد من ظفرها بها وفرط ضمور أجسادها[2]:

تغدُ عينَ الوحشِ من أقتواتِها
قد تحتَ التقْريح واريتها[3]
وأشْفقَ القانِصُ من حفاتِها[4]

أما الاستعارات فهي قليلة نادرة في طرديات أبي نواس – كما اشرنا آنفاً – غير أن هذا القليل منها لا يقل جودة وجمالاً عن كناياته ، فمن ذلك استعارته الشُرْبَ لإذهاب قدرة الطريدة في قوله عن الكلب[5]:

تلقى الظباءُ عنتاً مِن طردِهِ
يشربُ كأسَ شدّها في شدّه

والاستعارة التي يشبه فيهـا الليل بجواد مطرود والصباح بجواد طارد والليل بالجِلال[6]:

(١) الديوان : ٦٣٨
(٢) الديوان : ٦٢٨
(٣) التقريح : أثر انهاكها في الصيد ، وارياتها : سميناتها .
(٤) حفاتها : رقة أقدامها من كثرة العدو .
(٥) الديوان : ٦٢٤
(٦) الديوان : ٦٦٠

قد أغتدي والليلُ داجٍ عَسْكَرُه
والصبح يُفرِي جلّه ويَدْحَرُه

ومن ذلك استعارة الجِراب لبراثن البازي والتّبْر لكحل عينيه في قوله [1] :

له جراب فوق قفّازه يجمعن تأنيفاً وتسنينا
ومقلة أشْرِب آماقُها تبراً يروق الصَّيْرَفِيّينا

وصور أبي نواس في طردياته تمتاز بأربع خصائص هي : الاستيفاء ، والحركة ، والوضوح ، والتلوين ، وهي ميزات تبدو للقارىء في جل أراجيزه ، من ذلك قوله في وصف البازي [2] :

أقمرُ من ضرب بُزاةٍ قُمْرِ
يصقل حِملاقاً شديدَ الطّحْرِ
كأنه مُكْتَحِلٌ بِتِبْرِ
في هامةٍ لمّتْ كلَمِّ الفِهْرِ
وجُؤجُؤ كالحَجَرِ القَهْقَرِ
من مِنْخَرٍ رحب كمَعْقِدِ العَشْرِ
ومِنْسَرٍ أقنَى رحاب الشّجْرِ [3]
شثن سُلامَى الكف وافي الشّبْرِ

وهي صورة غاية في الوفاء والوضوح ، زانها الشاعر بالحركة عندما صوّر إزالة عيني البازي لِقذاهُما ، وباللون حين وصف لونه الأقمر ، وأمثال هذه

(١) الديوان : ٦٧٠
(٢) الديوان : ٦٥٨
(٣) الشجر : ما بين اللحيين .

الصورة كثير في طردياته، ونحن كنا رأينا العديد منها لدى استعراض أراجيزه.

الخصائص الموسيقية لطرديات أبي نواس

من يقرأ طرديات أبي نواس تَرُعْه تلك الموسيقى التي تهزج من خلال سطورها هزجاً يطرب النفس ويمتع الحس ويطلق صوت القارىء بالإنشاد ويستحثه على الاستزادة منه ، لا فرق في ذلك بين الطرديات التي اتسمت بسهولة الألفاظ وإلفها وبين تلك التي حفلت بالغريب وازدحمت به .

ويمكن إرجاع هذه الموسيقى إلى مصادر أربعة : أولها بحر الرجز الذي اتخذه الشاعر وَزْناً لطردياته ولم يعدل عنه إلا مرتين اثنتين حيث استعمل بحراً يقاربه في وزنه ويشاكله في موسيقاه كما أشرنا من قبل .

والرجز ذو تفعيلاتٍ ثلاث متماثلات متتابعات متلاحقات تحمل إلى أذن القارىء نغماً موسيقياً متكرراً متتابعاً يهزّ الأذن هزاً مثيراً ، ويحرك النفس حركة نَشطة ، ويصور الجري والطراد أصدق تصوير وأجمله .

وثانيها ذلك الرويُّ المزدوج الذي لم يعدل عنه الشاعر في سائر أراجيزه، وازدواج الروي يوفر للقارىء طاقةً موسيقيةً فوق طاقة البحر ؛ ذلك بأن من ينشد هذه الأراجيز ذات الروي المزدوج لا يكاد ينتهي من شطر صغير يقف فيه على حرف الروي وينقطع عنده الصوت حتى يُفْضِي في نهاية الشطر التالي إلى حرف آخر مماثل لسابقه فيقف عنده تلك الوقفة أيضاً، وهكذا .

وثالثها تلك الألفاظ التي حَمّلها الشاعر فوق معانيها اللغوية إيحاءً موسيقياً ملائماً ممّا جعل القارىء يتلقى المعنى من مصدرين : أحدهما المدلول الوضعي للكلمة وثانيهما دلالتها الموسيقية على ذلك المعْنَى .

خُذ مثلاً هذه الأبيات من إحدى أراجيزه وانظر إلى ما حفلت به من

كلمات (تتلظّى) بموسيقى حادة ملتهبة أثارها حرف الظاء المشدّد المطلق الآخر بالألف تجد مصداق ما قلناه [1] :

أعددتُ كلباً للطراد فظّا
إذا غدا مِنْ نَهَمٍ تلظّى
وجاذبَ المِقْوَدَ واستلظّا
كأن شيطاناً له ألظّا
يكظُّ أسراب الظِّباء كظّا
حتى تراها فِرَقاً تشظّى

إن القارىء ليُدرك معنى قوله «يكظّ أسراب الظباء كظّا» حتى ولو لم يكن واقفاً على معنى (الكظّ) في اللغة ، وليَرى بعينيه تمزق جماعات الظباء خلال قوله «تشظّى» قبل أن يستنجد بالمعجم لإدراك مدلول التشظّي ، ثم خذ هذه الأبيات أيضاً وتأمل ألفاظها كما تأملتَ ألفاظ سابقتها تجد أن موسيقاها لا تقل دلالة على معانيها من تلك [2] :

لما غدا الثعلب من وجاره
يلتمس الكسب على صفاره
عارضْتُه في سَنَن امتيارِه
بِضَرِمٍ يمرح في شوارِه
مُضْطَرِمِ القصري من اضطِمارِه

فالضَّرِمُ والمُضْطَرِم والاضطمار كلها ذوات جرس يوحي بمعانيها ويشير إليها .

---

(١) الديوان : ٦٤١

(٢) الديوان : ٦٢٩

وهذه أبيات من أرجوزة ثالثة أكثر دلالة من أختيها على ما ذهبنا إليه ، وصف فيها الشاعر مصرع ثعلبٍ على يدي كلبٍ من كلاب صيده [1] :

خضخض طِبْيَيهِ على أمعائِـه
وَشدَّ نابيـــه على علبائِـه
كَدَجِّكَ القُفْلَ على اشْبائِه

فكلٌ من (خضخض) و (شَدَّ) و (دَجَّ) توحي بمعناها وتومىء إلى مدلولها ، وذلك كثير في شعره .

ورابعهـــا إفادة الشاعر من الجناس الناقص المدعوّ بجناس الاشتقاق وإكثاره من استعماله ، مما زاد وَقْراً جديداً في قيثارته ؛ ذلك بأن هذا الجناس يقوم على استعمال طائفـة من مشتقات المصدر الواحد في البيت أو الشطر ، فيتأتّى من تكرار الحروف الأصلية للكلمات نَغَمٌ موسيقيٌّ عذب الجرس حسن الوقع على الأذن .

من ذلك قوله [2] :

أعددتُ كلباً للطراد سَلْطَـا
مُقَلَّداً قلائِـــداً ومَقْنطا
ترى له خَطَّيْنِ خُطَّا خَطّا
ذاك ومَتْنَيْنِ إذا تمطّى
قلت شراكان أجيدا قطـا
من أدَمِ الطائِف عُطّا عَطّا
أسرع من قول قطَـاةَ قطـــا

فانتظر إلى قوله « مقلَّداً قلائدا » ، وقوله « وخَطَّين خُطّا خَطّا » ، وقوله « عُطّا عَطّا » ، وقوله « قطاة قطـــا » ، وتأمل الجرس الذي أشاعته الحروف المتشابهة الموجودة في أصول هذه الكلمات تجده حافلاً بالعطاء الموسيقيّ الرائع غنياً بالنغم الحلو الممتع .

---

(١) الديوان : ٦٣٩

(٢) الديوان : ٦٢٧

الفصل السادس

اتّساع شعر الطّرد

في القرن الثاني الهجري

العوامل التي أدت إلى اتساع شعر الطرد في القرن الثالث الهجري :

أرأيتَ إلى الكرة الصغيرة وهي تَتدَحرجُ على أرض مَثلُوجة كيف تكبر لحظة بعد لحظة بما تحمله في سيرها من ثلج يجعل حَجمَها بعد قليل أضعاف ما كانت عليه ؟.

إن شأن الترف ، حين تقبل عليه الأمم كشأن هذه الكرة ، فهو لا يزال يتسع كلّ يوم بما يضيفه المترفون الجدد إلى أسلافهم القدماء .

وإن الولع بالصيد في القرن الثالث الهجري كان ضرباً من ذلك الترف الذي ما فَتِيءَ يزداد ويفشو على مر الأيام .

فقد اشتد إقبال خلفاء بني العباس عليه وكثر المُستَهترون به من أصحاب الثراء ، فجدّدوا في أدواته، وافتَنّوا في أساليبه وطرقه ، وغالوا في اقتناء جوارحه وضواريه ، وكثر الشعراء الذين أقبلوا على قرض الشعر فيه .

فالمعتصم الذي ولي الخلافة في العقد الثاني من هذا القرن أربى على الذين

سبقوه في كثرة التعلق بالفروسية وشدة الولع بالصيد، فقد قال كشاجم عنه: إنه كان أكثر خلفاء بني العباس محالفة للصيد، وأخفهم فيه ركاباً، لتوفر همته على الفروسية وما شاكلها [1].

وكانت له رحلات صيد يمضي فيها الأيام الطوال ذوات العدد، فينشط لذلك جسمُه وتنبسط نفسه، ويزداد إقباله على الطعام، بل إنه اختار الأرض التي بنى عليها «سامرا» في رحلةٍ من رحلات صيده، لِما ألفاه في ذلك المكان من طيب المُناخ واعتدال الجو، فقد روى المسعودي أن المعتصم كان في رحلة صيد «فانتهى إلى الموضع الذي بُنِيَت فيه سامرا ... فنظر إلى فضاء واسع تسافر فيه الأبصار، وهواء طيب، وأرض صحيحة فاستمرأها، واستطاب هواءها وأقام هناك ثلاثة أيام يتصيد في كل يوم، فوجد نفسَه تتوق إلى الغذاء وتطلب الزيادة» [2].

وكان المعتصم لفرط شجاعته واعتداده بنفسه يمعن في الصيد وحدَه، ويبعد عن أصحابه ويسامر الذين يلقاهم في الفلوات، ثم لا يكون حديثه معهم إلا عن الصيد وطرائفه.

فقد رَوى صاحب البيزرة عن ابن الدّاية أن المعتصمَ أوغل يوماً في الصيد وحده، فبَصُرَ بقانص يصيد ظباءً فاستدناه وقال: حدثني عن أعجب ما رأيت في صيدك، فقال: خَرْبَقْتُ [3] المشارع التي تَرِدُها الظباء فلما شمت الخربق رجعت عِطاشاً ولم تشرب، ثم عادت من غدٍ فانصرفت ايضاً عطاشاً، ثم عادت في اليوم الثالث بأجمعها، فلما جهدها العطش رفعت رؤوسها إلى السماء، فأتاها الغيث، فما انصرفت حتى رَوِيَتْ وخاضت في الماء [4].

---

(١) المصايد والمطارد: ٥

(٢) مروج الذهب: ٤ / ١٠

(٣) الخربق: نبت كالسم يغشى على آكله ولا يقتله، وخرْبق المشارع جعل فيها الخربق.

(٤) البيزرة: ٣٩

وقد تأثر الناس بخليفتهم الفارس الصياد فتزيّوا بزيّه واقتدوا بآثاره فقد جـاء في مروج الذهب أنه غلب علـى المعتصم حب الفروسية والتشبه بالملوك الأعاجم في الآلةِ ، ولبس القلانس والشاشيات فلبسها النـاس اقتداءً بفعله وائتماماً به [١] .

ولم يكن المتوكل الذي ولي الخلافة في اوائل العقد الثالث من هـذا القرن أقل من أبيه المعتصم تعلقاً بالصيد واقبالاً عليه وإن كان لا يدانيه في فروسيته وشجاعته ، فقد أولع بالفهود وأغـْرِي بها واستكثر منها ، وكان يهوَى صيدَها واللعب بها [٢] ، وهو إلى ذلك أول من تصيّد بالشبكة ثم اتخذهـا الخلفاء من بعده ، فكانت للمستنجد شبكة .

ويبدو أنّ شبكة المتوكل هذه كانت من حسن الصنعة وغلاء الثمن بالقدر الذي جعـل بعض البيازرة يقول : إن الشبكة لا تصلح أن تكون إلاّ للسلطان [٣] .

وفي زمن المعتضد بلغ الاستهتار بالصيد غـايته وعدا طوره ، فالخليفة قد ورث عـن المعتصم قوّتَـه وولعه بالفروسية وشغفه بالصيد ، فقـد رَوَى صاحب المصايد والمطارد أنّ المعتضدَ كان كالمعتصم في أكثر أموره ومآربه ، وأشبه به من سائر أهل بيته وبنيه من الخلفاء ، لمباشرة الحرب والصيد ومـا اشبههما ، ولم يكن ينفك من حرب إلاّ إلى صيدٍ إلاّ إلى حرب [٤] .

وورث عن المتوكل الولع بالفهود والاستكثار منها وأربَى عليه في ذلك

---

(١) مروج الذهب : ٤ / ٢٤٦

(٢) أنس الملا : ٦٩

(٣) انظر أنس الملا : ١٣٧

(٤) المصايد والمطارد : ٦ والبيزرة : ٤٦

حتى قـــال صاحب الجمهرة : واكثر من اشتهر باللعب بالفهود من العبـاسيين المعتضد ، فإنه كان شديدَ الغواية بها [1] .

وكان إلى ذلك مغرما بالصيد بالعُقاب ، وهو جارح صعب المنـال يعتصم بالشواهق من قِنَنِ الجبال ، عسير الترويض إذا كبر وتوحش لذا كان عزيزاً نادراً لدى هواة الصيد ، وقـد بلغ من شغف المعتضد بالصيد وتفانيه فيه أنه دأب على ممارسة صيد الأسود بنفسه دون أن يمكّن احداً من مؤازرته في ذلك أو مساعدته عليه [2] .

فقد روى كشاجم في المصايد والمطـــارد ، والمنكلى في أنس الملا [3] : أن المعتضد كان يخرج إلى صيد الأسود فيخيّم عليهـــا ، ولا يزال يمعن في صيدهـــا حتى لا تبقَى منهـا باقيةٌ ، وهو يباشر ذلك بنفسه لا يشركه أحد فيه .

وقد أشاد أحد الشعراء بصيده للاسود وفتكه بها فقال [4] :

يا صائدَ الأُسْدِ إنَّ صَيْدَكها [5]	لجَـــامعٌ خلتين من رَشَـدِ
فـلذة تُجتَنَـى ومنفعـــةٌ	للسالكين السُّبْلَ والقَعَـدِ [6]
وأيُّ شيءٍ أجَلُّ مَنْفَعَةً	من أسَدٍ قاسِطٍ إلى أسدِ
وأي لص أجَـلُّ مَرْزَأةً	من مُتلِفِ الروحِ مُتلِفِ الجسَدِ

بل إن للمعتضد كان ذا مذهب بالصيد لم يُرَ مثله [7] وشغف به لم يَبْلُغْه

---

(1) الجمهرة في البيزرة ، الورقة : ٥٤
(2) أنس الملا : ١١٩
(3) المصايد والمطارد : ٦ وانس الملا : ١١٩ وانظر البيزرة : ٤٦
(4) المصايد والمطارد : ١٧٣
(5) وردت في المصايد والمطارد : « صيدكا » والتصويب من عندي .
(6) وردت في المصايد والمطارد : « السبيل » ولا يستقيم معها الوزن .
(7) أنس الملا : ١٢٠

أحَدٌ قبله حتى غدا وكأنه لا يطيق صبراً عنه ، فإما أن يمارسه بيده ، وإما أن يراه بعينه وذلك أضعف الأحـوال ، فقد رَوَى عنه نديمُه يَحْيَى بنُ علي [1] أنه لما بَنَى قصره (الثريا) كان يقول كثيراً « أتعلم أنَّ بناءً من أبنية الخلفاء يشبه هذا البناء أو يعادله في محل أو موقع !! أما تراني قاعداً على سريري يعرض عليَّ وزيري ، ويُصَاد بين يديَّ صيدُ البر والبحر كـأني في وسط المتصيد» [2] .

وقد عرف عُمَّال المعتضِد مدى ولعه بالصيد وحيوانه ، فجعلوا يهدون إليه الجوارح في جملة مـا يسوقونه إليه من الطرَف ، فقد رَوى الطبريُّ أنه في سنة ستٍّ وثمانين ومائتين وافت إلى المعتضد هديةُ عمرو بن الليث الصفَّار من نيسابور إلى بغداد فكان مبلغ المال الذي وجهه أربعة آلاف ألف درهم وعشرين من الدواب بسروج ولُجُم مُحَلَّاة،ومائة وخمسين دابَّةً بجلال مشهرة وكسوة وطيباً وبُزاة [3].

والقارىء لا يستطيع أن يتصوَّر مَدى تهالك المعتضد على الصيدواندفاعه فيه إلا إذا عرف المبلغ الذي كان مخصَّصاً له في نفقات الدولة ، ونظر إليه بالنسبة إلى وجوه الانفاق الأخرى ، فقد كانت جملةُ نفقات بيت المـال في السنين الأولى من خلافـة المعتضد العباسي (٢٫٥٠٠٫٠٠٠) دينار في السنة تدفع مياومة باعتبار كل يوم سبعة آلاف دينار تنفق على حرس القصر والغلمان والفرسان وأصحاب الرسائل ، واصحاب الأخبار والقراء والمؤذنين والمنجمين والمضحكين وشرطة دار السلام ، ونفقات المطابخ والمخابز ، وثمن وظائف الشراب للخاصة والعامة وآلاته، ونفقات خزائن الكسوة والخِلَع والطيب، وحوائج الوضوء ، وخزائن السلاح ، وأرزاق القائمين في القصر . . وأرزاق

---

(١) لعله ابن المنجم المتوفى سنة (٣٠٠ هـ) ، انظر الأعلام .

(٢) المصايد والمطارد : ٦ والبيزرة : ٤٦

(٣) الطبري : ٨ / ١٩٦

الخاصة من الغلمان والمماليك ، وأرزاق الحشم والصناع من الصاغة والخياطين وغيرهم ، وأرزاق الحرم وثمن علوفه والكُراع ، وثمن الكراع نفسه والإبل والخيل ، وأصحاب الركاب والجنائب وأكابر المُلَـهّين وجماعة المتطببين ، وأرزاق الملاحين في الطيارات والحراقات ، وثمن النفط للنفاطات والمشاعل ، وجاري أولادالمتوكل والواثق والناصر ،وأرزاق مشايخ بني هاشم وجمهورهم.. وأرزاق أكابر الكتاب وأصحاب الدواوين .. والمديرين والأعوان.. ونفقات السجون ، وثمن أقوات المسجونين ، ونفقات الجِسْرَين وثمن ما يُبدّل من سفنهما ونفقات البيمارستانات ، وأرزاق الأطبـــاء وأثمان الدواء والطعام » إن مجموع ما كان يُنفَقُ على ذلك كله في اليوم الواحد سبعة آلاف دينـار كان تدفع منها سبعون ديناراً يومياً لأصحاب الصيد من البازياريين والفهّادِين والكلاّبين ، وهو ما يعادل واحداً في المائة من أصل ذلك المبلغ الذي كان ينفق في تلك الوجوه التي ذكرناهـا [1] ، وهو أمر يدعو إلى الدهشة ويبعث على العجب ، ويصور المكانة التي كان يحتلهـــا الصيد في المجتمع العباسي في القرن الثالث الهجري .

ولما آلت الخلافة من المعتضد إلى ابنه المُكتَفِي في العقد الأخير من هذا القرن لم يكن الولد دون أبيه ولعاً بالصيد واستهتاراً به ، فقد ورث عن أبيه الخلافة وورث معها جوارحه وضواريَه وبيازِرَته وفهّاديه وكلاّبيه ، فقد نقل كشاجم عن شَهْرام [2] أحدِ خاصّة المكتفي وعن أبي بكر الصولي : « أن المكتفي لم يتأخر عن مذهب أبيه في الصيد إلا أنه كان أكثر ما يدمنه الصيد بالفهد والعقاب ، وأنه كان يباشر ذلك بنفسه ويمتهنها فيــه لشدة الشغف به والارتياح إليه » [3].

---

(١) انظر تاريخ التمدن الاسلامي : ٢ / ٦٨ - ٧١

(٢) كان شهرام عالماً بالصيد حسن الدربة فيه فاختص به المكتفي .

(٣) المصايد والمطارد : ٧ ، والبيزرة : ٤٨

وشغَفُ المكتفي بالصيد قديمٌ يرجع إلى أيام صباه قبل أن يلي الخلافة ، فقد رَوى كشاجم أن المكتفي رُئِيَ بظاهر « أنطاكيّة » عند مُنصرَفه عنها مع أبيه المعتضد والفَهدُ رديفُه ، وقد التمسه أهلهـا للسلام عليه بعد تسليمهم على أبيه فألفَوْه على تلك الحال غير محتشم منها [1].

ومن طريف ما يُروى عن المكتفي أنه وَجد على نديمه وشاعره يحيى بن علي المنجم لهفوة ارتكبها وهما منصَرفان من الرقة فعاقبه بأن يَرِدَ إلى «قرقيسيا» وأن يبقى فيها حتى يصيد أسداً ، فجعل الشاعر النديم يرسل للخليفة الصياد القصيدة تلو القصيدة يستعطفه بها ويستلينه ، فكان مما قاله :

كلفونا صَيْدَ السباع وإنا ... لبخير إذا لم تصدنا السباع

كل شيء يجوز تكليفه الإنسان إلا ما كان لا يُستَطاع

حتى عفا عنه [2].

ولم تكن عامة الناس وأصحاب الجد منهم يرتاحون إلى انهماك خلفائهم في الصيد وامتهان أنفسهم فيه وانشغالهم بـــه عن عظائم الأمور ، فقد روى صاحب البيزرة أن المكتفيَ « نُسِب إلى الإخلال بأعماله والتقصير في تنفيذ أموره فدافع عن نفسه بشعر قاله » [3] .

بل إن المهتدي بن الواثق الذي ولي الخلافة في العقد السادس من هـــذا القرن حاول القضاء على هذه الآفـــة « فأمر في سنة خمس وخمسين ومائتين بإخراج القيان والمغنين والمغنيات من سامرا ونفيهم منها ... وطَرْدِ الكلاب وإبطال الملاهي التي كانت في دار السلطان ورَدّ المظالم » ، ولكنّ الخلفـاء الذين جاؤوا من بعده مـا لبثوا أن عـــادوا إلى ما كان عليه الحال من قبل وغالوا في الأمر تلك المغالاة التي شهدناها عند المعتضد وابنه المكتفي .

---

(١) المصايد والمطارد : ٧ ، ٨

(٢) انظر المصايد والمطارد : ١٧٤ وما بعدها .

(٣) البيزرة : ١٢٠

في أكناف هذه القصور التي يُخيِّلُ للمرء – بعدما رويناه من أخبار – أنها توشك أن تحيا للصيد وحده .

وفي ظل أولئك الخلفـاء الذين كانوا يريدون أن يُدبِّروا أمر الرعية وهم يشهدون من فوق سُرُرِهم صيد البرّ والبحر، اتسع شعر الطرد ونما وازدهر، وكان في طليعة شعرائه في هذا العصر ، عبد الصمد بن المعذل وابن أبي كريمة ومحمـــد الناشىء وعبدالله بن المعتز ، فإلى هؤلاء الشعراء الأربعة نترجم لهم وندرس ما عثرنا عليه من طردياتهم [1] .

---

(١) الطبري : ٧ / ٥٣٩

عبد الصمد بن المعـذل

ترجمته :

هو عبد الصمد بن المعذل بن غيلان ، وينتهي نسبه إلى معد بن عدنان وكنيته أبو القاسم ، ولد في البصرة وفيهـا نشأ ، وكان أبوه المعذل وجدّه غيلان شاعرين ، وكان أخوه أحمـد بن المعذل « غايَةً في اللغـة والأدب والبيان ، وهو إلى ذلك عفيفٌ ذو مروءةٍ ودينٍ وله جاه واسع في بلده وعند سلطانه ، وكان أخوه عبـد الصمد على النقيض من ذلك فكان يحسده ويهجوه ويسيء إليه » .

أما أمُّ عبد الصمد فتدعى الزرقاء ، وكانت أمَةً طبّاخةً عند أبيـه ، فبَنَى بها فولدت له عبد الصمد [1] .

وليس في أخبار عبد الصمد أو شعره ما يشير إلى اتصاله بأي من الخلفاء، بَيْد أنه اتصل بعدد من الولاة منهم : إبراهيم بن رباح والي ديوان الضياع في خلافة الواثق حيث أفاد منه ومن أولاده مالاً كثيراً واعتقد عقداً نفيسة فلما حبسه الواثق هجاه [2].

---

(١) الأغاني : ١٣ / ٢٢٦ الدار ، وفوات الوفيات : ١ / ٥٧٥ ، وعيون التواريخ : ٧ / ٥٢٥ ، وزهر الآداب : ٦٥١ - ٦٥٤ ، وطبقات الشعراء : ٣٦٩

(٢) زهر الآداب : ٦٥٦

ومنهم علي بن عيسى أمير البصرة [1].

وكان عبد الصمد خبيثَ النفس واللسان ، فاحش القول والعمل ، لا يَتَحرّج من إتيان مُنكَرَة ، ولا يتأثّم من فعل كبيرة ، قَطوع لرحمه ، مُسيءٌ لمن يحسن إليه ، وكان يتخذ هجاءه سلاحاً يُرهِب به الناس ، حتى إن « لم يسلم من هَجْوه أحد ممن كان مدحه فما بالك بغيره » [2].

وممن تعرض لهم بالهجاء أبو تمام ، فَردّ له الحَجر من حيث جاء وحَسم الشرّ بشرّ أكبر منه [3].

وكان عبد الصمد ـ على كل مساوئه ـ ظريف اللسان عذب البيان طيّب المجلس [4] ، وكانت وفاته سنة أربعين ومائتين [5].

شاعريته وشعره :

عبد الصمد بن المعذل شاعر فصيح اللسان قوي العارضة [6] مليح التشبيه [7] حسن الاستعارة [8] ، اختار المُبَرّد بعض أشعاره وقال فيها وفي نظائرها : « هذه أشعار أخذناها من أشعار المولدين ، حكيمة مستحسنة يُحتَاج إليها للتمثيل لأنها أشكل بالدهر ويُستَعار من ألفاظها في المخاطبات والخطب والكتب » [9].

---

(١) الأغاني : ١٣ / ٢٥٦

(٢) انظر الاغاني : ١٣ / ٢٣٠ ، وزهر الآداب : ٦٥٦ ، وفوات الوفيات : ١ / ٥٧٥ . وعيون التواريخ : ٧ / ٥٢٥

(٣) انظر المصايد والمطارد : ٤٦

(٤) انظر زهر الآداب : ٦٥٦

(٥) انظر : فوات الوفيات : ١ / ٥٧٥ ، وعيون التواريخ ٧ / ٥٢٥

(٦) فوات الوفيات ١ / ٥٧٥ وعيون التواريخ : ٧ / ٥٢٥

(٧) التشبيهات ، الورقة ١٦

(٨) الكامل : ٣ / ٨٧٧

(٩) الكامل : ١ / ٣٤٨

غير أن النقاد الذين أعجبوا به تتبعوه فغلّطوه ولحّنوه وسرّقوه، فالمبرد يقول: إنه أخطأ في كلمة (البَصِرَة) الواردة في قوله:

رأيتـــك منظراً عجبـــاً غـــداة النحـــر بالبَصِرَة

وإنه لحن في قوله:

إنّ أبا رُهْمَ في تَكَرُمِـه بَلّغَـــه الله منتهى هممِـه

لأنه ترك صرف ما ينصرف وهو (رهم) [1].

وقد طرق عبد الصمد جل أبواب الشعر المعروفة في عصره فهجا ومدح ورثى وتغزل وعاتب، وقال في الخمر والمجون لكن أكثر شعره كان في الهجاء وأجوده كان في الطرد.

ونحن سندرس فيما يلي ما وقعنا عليه من طردياته:

طرديات عبد الصمد بن المعذل

لقد بحثت عن طرديات عبد الصمد بن المعذل ما وسعني الجهد، فلم يسفر بحثي الطويل الصابر إلا عن طردية واحدة كبيرة ونتفٍ صغيرة من طردياتٍ ضاعت بواقيها.

وقد وردت الطردية الكبيرة في المصايد والمطارد [2] وفي البيزرة أيضاً [3]، وهي أرجوزة قافية الرويّ عدة شطورها واحد وخمسون شطراً [4]، قالها الشاعر في الفهد، وقد علّق عليها المغفور لهما الدكتور أسعد طلس محقق المصايد

---

(١) الموشح : ٥٢٩

(٢) المصايد والمطارد : ١٩٠

(٣) البيزرة : ١٢٤

(٤) هذه رواية البيزرة، أما رواية المصايد فقد سقط منها شطران.

والمطارد والأستاذ كرد علي محقق البيزرة بقولها في هـــذه القصيدة غموض واضطراب ، ولم نعثر لها على مصدر آخر [1].

وقد بذلت الجهد في إيضاح غموضها وإزالة اضطرابها وتصحيح تصحيفها وشرح معانيهـــا حتى استقامت مبنىً ومعنىً ، وغدت مُيسّرة للقراءة والدراسة ، وهي جديرة بما أُنفِق فيها من جهد لمـا اشتملت عليه من جليل المعاني وجميل الصور .

وأما الثانية فهي قصيدةٌ دالية الرويّ قالهـا الشاعر في الصقر وهي على البحر الخفيف .

ونحن سندرس فيما يلي هاتين الطرديتين دراسةً وافيةً .

قسم عبد الصمد أرجوزته إلى ثلاثة أقسام : تحدث في أولها عن تبكيره إلى الصيد مع أصحابه الأمجاد ، ونعت في ثانيهـــا الفهد نعتاً وافياً ضافياً ، أمـا القسم الثالث فجعله لوصف الطراد والصيد ، ثم ختم الأرجوزة بدعوة للأمير صاحب الفهد .

وقد افتتح الشاعر طرديته بقوله : كم غدوت إلى الصيد مُبكراً ،والشمس لا تزال محتجبةً في خدرها ، هاجعةً في قبتِها لم توقظهـا الظـُلمةُ من سُباتها ولم تأذن لها السُّدْفَةُ بالشروق على الكون .

ومعي صحبٌ أمجادٌ كرام الأعراق ، امتطوا صهوات جيادٍ عتاقٍ تنتمي إلى الأعنق سيد فحول خيل العرب :

قد أغتدي والشمس في أرواقِها [2]

---

(١) المصايد والمطارد : ١٩٠ ، والبيزرة : ١٢٤ « الحاشية ».

(٢) الأرواق : جمع مفرده :روق وأروقة، وهو الفسطاط والقبة وموضع الجلوس والشقة دون العُليا .

لم تأذن السُّدْفَةُ في إشراقها [1]

وصحبتي الأمجادُ في أعراقِهـــا [2]

على عِتاق الخيـل من أعْناقِها [3]

ثم انتقل الشاعر إلى وصف الفهود التي اصطحبوهـا معهم ليقنصوا بهـــا فقال [4] : إنها لفهود معقود ببراثنها الظفر ، فالنمور من بنات القفر معدودة في جملة أرزاقها محسوبة في عداد ما تملكه يداهـــا ، فهي إذا غدت للصيد ، تعلقت منايا الوحوش بها ، وإذا أُطْلِقَت من أطواقهـــا وخُلِّيَ بينها وبين الوحش حان حينه ، ووافته منيته .

لقد عاهدتنا هـذه الفهود على الظفر فبرت ، وواثقتنا على الفوز فوفت ، فالغدر لم يكن في يوم من الأيام خلقاً من أخلاقها أو سجيةً من سجاياها :

نُمْرُ بنات القفر من أرزاقها [4]

تغدو منايا الوحش في أطْواقِها [5]

قَدْ واثقتنا وهي في ميثاقها

وفيةٌ ، مـــا الغدر من أخلاقها

---

(١) السُّدفه ، بفتح السين : الظلمة .

(٢) الأعراق جمع مفرده عرق ، وعرق كل شيء أصله ، يقـال رجل معرق في الكرم والحسب .

(٣) وردت كلمة « أعناقها » في كلا المصدرين « عناقها » وليس لها معنى في هذا المقام، فجعلناها «أعناقها» ، وهو جمع مفرده « أعنَق » وهو فحل من خيل العرب معروف تنسب إليه بنات أعنق من الخيل (انظر لسان العرب) والمعنى أن هـذه الخيل تنحدر من صلب « الأعنق » فهي كريمة من كريم .

(٤) النمر : بضم النون وسكون الميم ، جمع نمر بفتح النون وكسر الميم وهو ضرب من السباع أخبث من الأسد ، سمي بذلك لنمرة فيه وذلك أنه من ألوان مختلفة واصطياده عسير (انظر لسان العرب) .

(٥) الأطواق : جمع مفرده طوق ، وهو حبل يُجْعَلُ في العنق .

ثم يترك الشاعر وصف فهوده من الناحية المعنوية إلى نعت صفاتها الجسدية فيقول : هي فهود محبوكة الأجسام ، هِيفُ القدود ، ضامرة البطون ، إذا انتظمت للصيد في الأرض المستوية رأيت بأيديها براثن تشبه المخارز في انزلاقها ونفوذها ، فهي تقُدُّ ما علقت به كما يَقُدُّ التجار الأثواب عند شقها :

مُدْمجة هِيفٌ على أخْناقهـا [1]

ترى بأيديهـا لدى اتّساقِها [2]

وصيدِها بالقـاع واتّفاقِها [3]

مثل أشافي القَيْنِ في انزلاقهـا [4]

تَقُدُّ مـا تخبط باعتِلاقهـا [5]

قَدَّ التّجار العَصْبَ من شِقاقها [6]

ثم انتقل الشاعر من وصف براثنها الحادة إلى نعت عيونهـا الضيقة الخزر وأشداقهـا التي خططت بخطوط سود ، فشبّهها بنسوة من الترك اكتحلن بالأثمد فجرى الكحل من آماقهن وانساب خطوطاً سوداً على خدودهن :

كأنها والخُزْرُ من أحْداقِهـا [7]

---

(١) المُدْمج : الذي دمج بعضه في بعض ، الهيف : جمع هيفـاء وهي الضامرة البطن والخاصرة ، الإخْناق : الضمور يقـال أخنق سنام البعير أي ضمر ودقّ ، وكذلك لصق بطنه بظهره .

(٢) اتساقها : انتظامها .

(٣) القاع : المستوي من الأرض .

(٤) الاشافي : جمع أشفى وهو السراد الذي تخرز به الأساقي والمزاود والمخصف للنعال .

(٥) في كل من المصايد والبيزرة (تحبط) فرجحنا أنهما (تَخيط) أو (تَخبِطُ) ليستقيم المعنى . وتقد : تقطع ، والاعتلاق العلوق بالشيء .

(٦) العَصْبُ : ضرب من برود اليمن .

(٧) الخزَرُ : ضيق العيون ورجل أخزر : بيّن الخزرِ وهو أن يكون كأنه ينظر بمؤخر عينه .

والخطط السودُ على أشْداقِها [١]

تُرْكٌ جرى الإثمِد من آماقها [٢]

ثم عاد الشاعر إلى وصف فهوده من الناحية المعنوية فتحدث عن شوقها للصيد وتحرّقها للقاء الطرائد فقال : لقد غدت هذه الفهود من فرط تلهفها على الصيد تجذب أعناقها من أطواقها وتنزع إلى التخلص منها كنزوع أسرى العجم للتخلص من الأوهاق التي شُدّت على رقابها ، وهي لشدة نَزَقِها كانت تتضرّم إلى الصيد كما تتضرم النار عند احتراقها :

باتت إلى الصيد من اشتِياقِها

وجَذْبِها الأعناق من أرْباقِها [٣]

كأسراء العُجْم في أوْهاقِها [٤]

تضرم في المَعْزاءِ من نَزاقِها [٥]

تَلَهّبَ النيران في احتراقها

ثم انتقل الشاعر بعد ذلك إلى وصف صيد هذه الفهود فقال : ومـا إن حظيت هذه الفهود بما كانت تتوق إليه ، حين أبصرت التيوس تروح وتغدو على الرمال اللينة آمنةً مطمئنةً ترعى نباتها الأخضر المنور ، ومـا إن أثبتتها بطرفها الذي لا يكذب واستوثقت منها بشمها الذي لا يخيب حتى

---

(١) الأشداق : جمع شدق وهو جانب الفم.

(٢) الإثمد : الكحل .

(٣) الأرباق : جمع مفرده ربق : وهو حبل تشد به البُهم .

(٤) الأوهاق : جمع وهق : وهو الحبـل المفتول يرمى فيهـا بأنشوطة فتؤخـذ به الدابة أو الانسان.

(٥) وردت في المصدرين « المزاء » بدلاً من « المعزاء » التي وضعناها ، والمعزاء : بفتح الميم : الارض الحزْنة الغليظة .

أخذت تتنزّى قلقاً ، فما كان منّا إلا أن حللنا عنها أطواقها وذكرنا اسم الله على إطلاقها:

حتى إذا آلت إلى مَتاقِها[1]
بالسَّهْلة الوَعْساء من بَرْقائِها[2]
في مَأمَنِ الصّيران من طُرّاقِها[3]
ورعيها الناضِرَ من طُبّاقها[4]
وآنستْ بالطرف واستِنْشاقها
وجعلت تأشَر من إقلاقها[5]
حُلّت وسمّينا على إطلاقها[6]

ثم تابع الشاعر وصف صيد هذه الفهود فقال : حطّطنا لها الوحوش من عُلْوٍ إلى سُفْلٍ ، وجمعناها عليها من كل جهة فكانت تسعى إلى حتفها بظلفها إلى أن أدنيناها منها كما تدنو الحُور العينُ من عشاقها .

أما الفهود فكانت ملتصقةً بالارض حتى خفيت عن عيون مرسليها ، مطرِقةً إطراق الحيّات لشدة خَتْلِها للوحش وفرط حذرها من أن تشعر بها الطرائد :

---

(١) المتاق : اسم مكان من تاق يتوق توقاً ، والتوق نزاع النفس إلى الشيء .

(٢) السَّهلة بكسر السين : رمل ليس بالدقاق . الوعساء : الارض اللينة ذات الرمل . البرقاء : الظبية التي خالط بياضها سواد والتيس أبرق ، وقد وردت في المصدرين « براقها » .

(٣) الصيران : جمع صوار بالكسر والضم وهو القطيع من البقر .

(٤) الطُبّاق بضم ففتح مشدد : شجر نحو القامة لــه ورق دقاق خضر ونور أصفر مجتمع وهو ينبت بناحية الحجاز .

(٥) الأشَر : البطر .

(٦) حُلّت : أي أطلقت من عقالها وخُلّيت للصيد .

وقد حَدَرْنا الوحشَ من آفاقها [1]
يسوقها الحَيْنُ إلى مَساقهـــا [2]
حذّافة تَخفَى على رُمّاقِها [3]
من خَتْلِها الوحشَ ومن إشفاقِها [4]
كأنها الحَيّات في إطراقِهـا

ثم وقعت الواقعة ، وانقضّت الفهود على طرائدهـا ، فهل رأيت الرياح الهوج في هبوبها ، والبروق الساطعة في التماعها ، والمطر الشديد يقذف وجه الأرض بوابله ، والسهام المسنونة تنطلق من قِسِيِّهـا والدلو الممتلىء يهوي ساقطاً إلى البئر من يد مَتّاحه ؟

إنها كانت كذلك في انقضاضها على الطرائد :

أمَا رأيتَ الريح في اخْتِراقِها [5]
ولَمْعَةَ البارق في ائتِلاقِها
وغَبْيَةَ الشؤبوب في انبعاقها [6]

---

(١) حدر الشيء : حطه من علو إلى سفل ، الآفاق : أطراف الأرض ونواحيها ، وكان الصيادون يتحلقون حول العانة ويحوشونها نحو الضواري حتى تنقض عليها ولا تفلت منها .

(٢) الحين : الأجل ، المساق : اسم مكان من ساق يسوق .

(٣) الحذافة : التي من حذف يحذف حذفاً : أي رمـاه عن جانب ، وفي المصدرين (حذافة) ، الرُّماق : جمع رامق وهو الناظر .

(٤) ورد هذا الشطر في المصدرين على الوجه التالي :

* من ختلها للوحش من أسفاقها *

وهو كما ترى لا معنى له فاجتهدنا وأثبتناه على الوجه الذي يراه القارىء .

(٥) اختراق الريح : مرورها وهي في المصدرين « انخراقها » .

(٦) الغبْيَة: الدفعة الشديدة من المطر وهي في الأصلين (الغيبة) . الشؤبوب: الدفعة من المطر ، انبعاقها : سيلانها بشدة ، يقال انبعق المطر : إذا سال بشدة لكثرته .

وطَيرة الأقداح في انـمِراقها [١]
تهوي هويّ الدّلْوِ في ارتشاقها [٢]

إن أبصارنا لم تدرك إلا لحظة لحاقها بطرائدها وهصرها للظباء واعتناقها معها ولصقها لأيديها على أعناقها كما يلصق الإسكافي الماهر نعلاً على نعل .

ما أدرك الطرفُ سوى لحاقِها
وَهصْرها الآرامَ واعتِنَاقِها [٣]
وَخصْفِها الأيدي إلى أعناقِها [٤]
شرْكَ الصنّاع النعلَ في طِرَاقها [٥]

وما هي إلا لحظات حتى رأينا الظبـــاء شاخصة الأبصار كأنما غُصّت بالبكاء ، تفحص بقوائمها في دمائها المهراقة ، وتُطرَحُ على الأرض كما يَطرَح السكارى المخمورون الذين غلبهم النعاس زِقاقَهم .

عند ذلك سألنا الله أن يبارك للأمير بأمثال هذه الفهود :

شاصِيَةٌ تَنْشجُ في آماقِها [٦]
تَفْحَصُ في التّامور من مُهْراقها [٧]

---

(١) الأقداح : جمع قِدْح وهو السهم .
(٢) ارتشاقها: الرمي ، وترشّقَ في الأمر : احتد ، وهي في المصدرين (إرشاقها)
(٣) الهصر : الكسر ، ويقال : هصر الغصن : إذا أخذ برأسه فأماله إليه . الآرام : الظباء ، الاعتناق : العناق ، يقال : عانقه إذا جعل يديه على عنقه وضمه إلى نفسه ، وقيل : العناق في المودة والاعتناق في الحرب .
(٤) خصْفِها الأيدي : ضمها الايدي يقال : خصَفَ النعل أي خرزها .
(٥) شرك : يقال : شرّك النعل وأشركها أي جعل لها شراكاً ، الصنّاع : الماهر الحاذق وهي في المصدرين (الضباع) ، الطّراق : جلد النعل .
(٦) شاصية : من شصا بصره أي شخص ، تنشج : تغص بالبكاء .
(٧) تفحص في التامور : أي تضرب برجليها في دمائها .

يَبطَحُ الغُواةِ الوَقْذَ من زِقَاقِها[1]
بُورِكَ للأميرِ في رِفَاقِها

نظرة في طردية ابن المعذل

إن طردية عبد الصمد التي عرضناها آنفاً تصور تفوق الشاعر في هذا الفن من القول ، وتَنْهضَ به فتضعه في مقام الصّدارة بين شعراء الطرد ، وكشاجم حين رواها قال : « وهذه أرجوزة تشمل على معان كثيرة سرقها عبد الصمد بن المعذل » [2] .

ونبادر فنقول : إن أروع ما في الأرجوزة إحكام بنائها ، واكتماله ، فالشاعر جعل لأرجوزته مقدمةً وصف فيها تبكيره إلى الصيد على عتاق الجياد مع كرام الصحاب .

ومَتْناً نعت فيه الفهد الصائد نعتاً أوفى فيه على الغاية ولم يترك زيادة لمستزيد فوصفه مادةً ومعنىً ، وروحاً وحساً ، ووصف معه مكان الصيد والحيوان المصيد ، ثم وصف طريقة الفهد في صيد طرائده ، وصور تربصه بها وختله إياها حتى إذا واتته الفرصة وقع عليها وقوع المنون .

ثم وصف الطرائد غِبَّ المعركة وقد غدت شاخصة الأبصار تفحص بأقدامها في دمائها ، وجعل للأرجوزة خاتمةً تحدث فيها عن جَنَى الصيد وأنهاها بدعوة دعا بها للأمير صاحب الضواري .

وهو بناء تام متكامل ألم فيه الشاعر بزمان الصيد ، ومكانه ، والحيوان الصائد ، والحيوان المصيد ، وطريقة الصيد ، والنتيجة التي أسفر عنها ،

---

(١) البطح : من بَطَحَه على وجهه بطحاً أي ألقاه على وجهه ، الوقيذ : المغشى عليه؛ ويقال : وقذه النعاس إذا غلبه .

(٢) المصايد والمطارد : ١٩٠

فجعل القارىء أمام قصة متناسقة الخطوات أو مقالة متكاملة الأجزاء ، أما المعاني الكثيرة التي أشار إليها كشاجم ، فلعل منها هاتين الاستعارتين اللتين طالعنا بهما الشاعر في البيت الأول من أرجوزته حين جعل للشمس فسطاطاً تأوي إليه ، وجعل للسّدفة الوصاية على الشمس فهي التي تأذن لها بالاشراق حين تريد :

قد أغتدي والشمس في أرواقها
لم تأذَن السّدْفَة في إشراقها

وقد أخذ ابن المعتز استعارته للثانية فقال :

حتى إذا ما عَرَفَ الصيدَ الضارْ (١)
وأذِن الصبح لنا بالإبْصَارْ

فتلقفها علماء البلاغة وجعلوها شاهداً على الاستعارة الخاصية التي لا تتأتى إلا لأرباب الأذواق السليمة، وأصحاب المعاني الكريمة ، ولعل من هذه المعاني تشبيه الفهدة وعيونها الضيقة والخطوط السود التي على أشداقها بنسوة من الترك اكتحلن بالإثمد فجرى من مآقيهن على خدودهن :

كأنها والخُزْرُ من أحداقها
والخطط السود على أشداقها
تركٌ جرى الإثمد من آماقها

فأخذ ابن المعتز منه هذه الصورة الرائعة ايضاً ، وقال في الفهدة :

لها مجلسٌ في مكان الرّدِيف	كالتركية قد سَبَتْها العرب
ومقلتُها سائِلٌ كحلها	وقد حليت سَبَجاً من ذهب(٢)

---

(١) الضار : مخففة من الضاري .

(٢) الديوان : ١٣٤

ومنهـا ايضاً تلك الصورة البديعة التي شبّه فيهـا شدة نزوع الفهد إلى الصيد وقوة جذبه لرقبته من مقوده بجذب أسارى العجم رقابهم من الأوهاق التي أُلْـقِيَتْ فيها :

باتت إلى الصيد من اشتياقها

وجذبهـا الأعناقَ من أرْباقها

كأُسَراء العُجْم في أوْهَاقها

ثم انظر أخيراً إلى تلك الصورةِ صورةِ الطرائد التي تفحص بأقدامها في دمائها المهراقة، ثم تُلْـقَى على الأرض لا حراك فيها كيف شبهها الشاعر بزقاق شَرْبٍ أوْهَن السُكْر قواهم وعقد النوم أجفانَـهم فألقوهـا على الأرض :

تَفْحَص في التَّامور من مُهْراقها

بَطْحَ الغواةِ الوَقْـذَ من زِقَـاقِها

أما الأماكن التي أخذ منها الشاعر صوره، فمنها قوله عن الفهود :

* تُمْر بناتِ القفر من أرزاقها *

أخذها من قول أبي النجم في زوجة الصياد (١) :

* تعد عاناتِ اللِّوَى من مالِها *

ومنها قوله عن براثن الفهود :

تَقُدُّ مـا تخبط باعتلاقهـا

قَدَّ التِّجارِ العَصْبَ من شقاقها

أخذها من قول أبي نواس في براثن الكلاب وفتكها بالظباء :

---

(١) انظر ص (٨٩) من هذا الكتاب.

يلقَيْنَ منه حاكماً مُشتَطّا

للعظم حطمــاً والأديم عَبْطا

فَرْيَ الصّنّاع سابراً وقبطا (١)

ومنها قوله في انقضاض الفهد على طرائده :

أما رأيت الريحَ في انخرافها

ولَمْعَة البارق في ائتلاقهـــا

تهوى هويّ الدّلْو في ارتشاقها

أخذها من قول أبي نواس في الكلب :

ما البَرْق في ذي عارض لمّاح

ولانقضاض الكوكبِ المُنْصَاح

ولا انبتات الجَوْأب المُنْداح (٢)

حين دنا من راحــة المتّاح

أجَدّ في السرعة من (سِرْياح) (٣)

غير أننا لو رحنا نتتبع كل شاعر مثل هذا التتبع مــا سَلِمَ لنا شاعر ابداً من عيب أو نقص ، وإنما هي سنّةُ الشعراء ، يأخذ اللاحق عن السابق كما يرث الأبناء عن الآباء ، لا ضيرَ في ذلك مــا دام الشاعر يكسو المعــاني القديمة أثواباً طريفة جديدة من عنده .

---

(١) الديوان : ٦٢٨

(٢) الجوأب : الدلو .

(٣) الديوان : ٦٣٧

ابن أبي كريمة

هو احمد بن زياد بن أبي كريمة شاعر فحل من معاصري الجاحظ ومخالطيه جلس إلى أبي مالك عمرو بن كِرْكِرَة أحد شيوخ الجاحظ ، ولعله أخذ عنه اللغة .

وهو على الرغم من فحولته التي نوّه بها كشاجم ، ومخالطته للجاحظ لم يحظ باهتمام المؤرخين وأصحاب كتب التراجم ، فأغفلوا ذكره ولم يترجموا له ، ولولا أن الجاحظ أورد طائفةً من أخباره في كتابه الحيوان ، واستشهد على لسان صاحب الكلب بقصيدة من شعره ثم تناقلتها كتب الأدب ، لغدا نسياً منسياً .

والذي يُستَشَفُّ من هذه الأخبار التي رولها الجاحظ أن ابن أبي كريمة كان راوية للشعر مُشتَغِلاً بالحيوان ، مشاكِلاً للجاحظ في اعتماده على التجريب لبلوغ الحقيقة [1] .

وقصيدة ابن أبي كريمة التي أوردها الجاحظ في وصف الكلب والفهد تعد من روائع الشعر الذي قيل في هذا الباب ، وهي بائية من الطويل عدة أبياتها

(١) انظر الحيوان : ٢ / ٣٦٧ و ٣ / ٣٤٩ و ٤٩٩ و ٥٢٥ والبيان والتبيين : ٣ / ٢٢٤

ثلاثة وثلاثون بيتاً جعلها الشاعر شطرين ، وصف في أولهما الكلب في عشرين بيتاً ووصف في ثانيهما الفهد في ثلاثة عشر بيتاً ، ونحن سنعرض القصيدة فيما يلي :

١ - وصف الكلب (١)

افتتح الشاعر وصفه للكلب بخمسة أبياتٍ نعت فيها الجو الذي غدا فيه إلى الصيد ، وصوّر انسلاخ النهار من الليل ، وأطرى صحبه فقال : بعد أن جلت ريحُ الشمال عن وجه السماء السحبَ السود ، واستبدلت بها غيماً رقيقاً تصافحه ريحٌ هادئة رخاءُ لا باردةٌ ولا سمومٌ ، أثرتُ للصيد فتيةً كراماً لا يثنيهم عن عزمهم عذل العاذلين .

وكان الليل يلملم أثوابه ويهم بالرحيل ليفسح المجال أمام الصبح الذي أقبل ينعي الدجى فبدا للسارين في عتمة الفجر كقنديل راهب دأب على تفقده والعناية به .

وغِبُّ غمامٍ مزّقتْ عن سمائه شآميةٌ حصّاءُ جُونَ السّحائبِ (٢)
مَواجِهِ طَلْقٍ لم يُرَدّدْ جَهامَه تَذاؤُبُ أرْواحِ الصَّبا والجَنائِبِ (٣)
بعثْتُ، وأثوابُ الدجى قدْ تقلّصتْ لِغُرّةِ مشهورٍ من الصبح ثاقبِ (٤)

---

(١) الحيوان : ٢ / ٣٦٨ والمصايد والمطارد : ١٤٤ ونهاية الأرب : ٩ / ٢٦٦

(٢) غِبٌّ غمام : بعد غمام ، الشآمية : الريح الشمالية ، الحصّاء ، الصافية بلا غبار ، وتزعم العرب أن ريح الشمال تمزق السحاب ، والجُون : جمع جَوْن وهو الأسود المشرّب حمرة .

(٣) الجَهام : السحاب لا ماء فيه ، التذاؤب : اختلاف الرياح واضطرابها ومجيئها من هنا وهناك ، يقول : هذا الغمام واجه هواءً طلقاً لا حاراً ولا بارداً وهو لا يعوقه عن السير ريح أو غيره ، و« مواجه طلق » صفة للغمام في البيت السابق .

(٤) الغرة : هنا أول النهار ووجهه والصبح المشهور : الظاهر الساطع .

وقد لاحَ ناعِي الليـل حتى كأنه يسَاري الدجَى في الليل قنديل راهبِ[1]
بَهاليلَ لا يَثنْيهُم عـن عزيمة وإن كانَ جمٌّ الرشدِ لومُ الأقـاربِ[2]

ثم انتقل إلى وصف كلاب الصيد فقال : لقد قـاد هؤلاء السادةُ البهاليل إلى ميدان الصيد كلاباً مسترخية الآذان ، لطيفة الأبدان ، تحكي السهام ، قد شرَّطَت آذانهـا ببراثنها من شدة العدو ، حتى يخيل للمرء أن سياطاً علقت في مؤخراتها ودأبت تلسعها وتحفزها على الجري .

وهي إلى ذلك ذوات أعنـاق طويلة تشبه قـداح الميسر التي ضَمُرَت ومَلُسَت من كثرة المداولة والتقليب :

بتَجنيبِ غُضْفٍ كالقِداح لطيفة مُشَرَّطَةٌ آذانُهـا بالمخـالبِ[3]
تخال سياطـاً في صَلاها منوطةً طِوال الهوادي كالقِداح الشَّوازِبِ[4]

ثم تابع وصف عَدْوِ هذه الكلاب فقال: إنها شديدة التأثير على الأرض، فإذا عدت في السهل أثارت الغبار ، وإذا جرت في الحَزْنِ تطاير الشرر من وقع براثنها على الحجارة .

إنها تجاوز في سرعتها طرف العين ، فكأنها سهام رامٍ غـالى في دَفْعِها أو كواكب انقضّت من السّماء :

---

(١) قنديل الراهب : زاهر منير دائماً لأنه يُعنَى به ويتفقده .

(٢) البهاليل : جمع بهلول وهو العزيز الكريم ، وبهاليـل مفعول « بعثت » الواردة في البيت الثالث .

(٣) تجنيب الكلاب : هنـا قيادتها كما يجنب الرجـلُ البعيرَ بمعنى يقوده إلى جنبه ، والغضف : جمع أغضف ، وهـو المسترخي الأذن من الكلاب ، القِداح : جمع قدح وهو السهم قبل أن يراش وينصل ، مشرطة آذانها : يريد وصف الكلاب بالسرعة وشدة العدو حتى إنها تُقطّع آذانها ببراثنها من شدة العدو .

(٤) الصّلا : مغرز الذنب ، الهوادي الأعنـاق ، ومفرده هـادٍ ، الشوازِب : جمع شازب ، والشازب من قداح الميسر : هو الذي ضمر من كثرة المداولة والتقليب .

إذا افترشت خبتاً أثارت بمتنه عجاجاً وبالكدان نار الحباحب[1]
يفوت خطاها الطرف سبقاً كأنها سهام مغال أو رجوم الكواكب[2]

ثم نعت ضمور أجسادهـا فقال : لقد غير هـذه الكلاب ، وأنحل أبدانها طراد الوحوش في الفلوات حتى أوشكت لفرط نحولهـا تخرج من قلائدها لولا حيلولة مناكبها دون ذلك :

طراد الهوادي لاحها كل شتوة بطامسة الأرجاء مرت المسارب[3]
تكاد من الأحراج تنسل كلما رأت شبحاً لولا اعتراض المناكب[4]

ثم انتقل إلى وصف بحثها عن الطرائد ، فقال : إنها تنفض الفلوات نفضاً بحثاً عن طرائدها من الأرانب ، فتعلو النجـاد وتنحط إلى الوهاد ، وتتشمم هنا وهناك ، قلقة متلهفة كأن بها ذعراً ، مما يجعل قلوبها تطير هلعاً لسماع أية نأمة ، وهي تدير في محاجرها عيوناً ضيقة تتقد كجمر الغضى ، وتعد للطرائد أنياباً حادة :

تسوف وتوفي كل نشز وفدفد مرابض أبناء النفاق الأرانب[5]
كأن بهـا ذعراً يطير قلوبها أنين المكاكي أو صرير الجنادب[6]

---

(1) الخبت : البطن الواسع من الأرض ، الكدان : جمع كديد وهو الأرض الغليظة نار الحباحب : الشرر الذي يحدث من تصادم الحجارة .

(2) المغالي بالسهم الذي يرفع به يده يريد أن يبلغ به أقصى الغاية .

(3) هوادي الوحش : أوائلها ، لاحها : غيرها وأضمرهـا ، طامسة الأرجاء : أراد فلاة متباعدة النواحي أولاً أثر فيها لسالك لما يسفي عليهـا الريح ، ومرت المسارب : قفرة المسالك .

(4) الأحراج : جمع حرج بالكسر وهي قلائد الكلاب .

(5) تسوف المرابض : تتشممها لتتعرف ما فيها ، توفي النشز : تأتي المكان العـالي الفدفد : الفلاة لا شيء فيهـا ، أبناء النفاق : الأرانب لأنهـا تنافق أى تدخل النافقاء وهو الجحر الذي تستتر فيه .

(6) المكاكي : جمع مكاء بضم الميم وتشديد الكاف : طائر من القنابر ذو صفير حسن.

تدير عيوناً رُكّبتْ في بَرَاطِلٍ كجمر الغضى خُوْزاً ذِرَابَ الأنابِيبِ(١)

ثم ترك ذلك إلى وصف مطاردتها لفرائسها فقال : إذا ما أُطْلِقتَ هذه الكلاب على طرائدها لم يحمها منها استتارها بين مَلْتَفِ الأشجار، أو كمونها خلف مجاري المياه ، ولم ينجها منها عَدْوُها السريعُ فهي لا تلبث أن تأخذ عليها مسالكَ الطرق مهما كانت بعيدةً عنها ، وهي مــا تكاد تسمع همسة كلاّبها حتى تعدو وراء الطريدة عدواً يوشك أن يمزق جلودها فتبدو متونُها عند الطراد كغصون الخيزران امتداداً وليناً :

إذا ما استُحِثّت لم يُجِنّ طريدَهــا
لهُنّ ضَراء أو مجــاري المَــذَانِبِ(٢)
وإن باصَها صَلْتاً مدى الطرفِ أمْسَكتْ
عليـه بدونِ الجَهْدِ سبل المَذَاهِبِ(٣)
تكاد تُفَرّي الأهبَ عنهــا إذا انتحت
لِنبأةِ شَخْتِ الجُرْمِ عارى الروّاجبِ(٤)
كأن غصونَ الخيزُران مُتونُهــا
إذا هي جالت في طِراد الثعــالب(٥)

---

(١) البراطل : جمع مفرده برطيل بكسر الباء وهو حجر مستطيل صلب تنقر به الرحى شبه العظم المستدير حول العين بـه ، الخزر : الضيقة الصغيرة ، ذِرَاب الأنابِيب : حِدادُ الأنياب .

(٢) لم يجن : لم يستر ، الضّراء بفتح الضاد : الشجر الملتف في الوادي الذي يستتر فيه الصيد ، المذانب : مسايل المياه واحده مذنب بوزان منبر .

(٣) باصها : سبقها وفــاعله ضمير يعود على الحيوان المصيد ، صلتا : ركضا ، مدى الطرف : غاية امتداد العين .

(٤) تفري الأهب : تشقق الجــلود ، الشخت : الضامر الدقيق لامن هزال ويريد به صاحب الكلاب المتصيد بها ، الرواجب : مفاصل أصول الأصابع واحدتها راجبة .

(٥) متونها : ظهورها .

ثم ختم القصيدة بوصفٍ عامٍّ لهذه الكلاب وما تلقاه منها الوحوش ، فقال : إنها كلاب عابسة الوجوه مكشّرة عن أنياب حداد ، ذوات آذان مرهفة ونظرات مفعمة بالتيه والكبرياء ، إذا خُلّيت للصيد صبّت على وحوش القفر الموت الزؤام :

كواشِرُ عن أنيابهن كَوالِحٌ مُذَلّقة الآذان شُوسَ الحَواجبِ[1]
كأنَّ بناتِ القفر حين تفرّقت غَدَوْنَ عليها بالمنايا الشّواعِبِ[2]

٢ – وصف الفهود[3]

بعد أن فرغ الشاعر من وصف كلاب الصيد انتقل إلى نعت الفهود نقلة تذكّر بما كان يفعله الشعراء الجاهليون حين ينتقلون من غرض إلى آخر فقال : لقد كنت أبتغي الصيد بتلك الكلاب تارةً ، وتارة أخرى بالفهود ، ثم طفق يصفها ، فقال : إنها فهود ضامرة الأحشاء رحبة الصدور ، دقيقة الذيول ، ملونة الظهور ، مخططة الآذان غلاظ الأعناق ، مُحلاّة بنُكَتٍ مستديرة كالدنانير ، وقد اجتمع على أُهُبِها السوادُ والبياض ، وهي ذوات عيون غائرة بعيدة النظر تستوعب قمم الجبال ، وتلتمع في محاجرها كما يلتمع ضوء النار الثاقب في ظلام الليل الداجي :

---

(١) كوالح : عوابس ، مذلقة : محددة ، شوس : جمع أشوس وهو الذي ينظر بإحدى عينيه ويميل بوجهه في شق العين التي ينظر بها يكون ذلك خلقة ويكون من الكبر والتيه والغضب .

(٢) بنات القفر : عنى بها الوحوش ، الشواعب : المفرقات .

(٣) الحيوان : ٢ / ٣١٢ و ٦ / ٤٧٥ والمصايد والمطارد : ١٨٨ ونهاية الأرب : ٩ / ٢٤٩ ، والبيزرة : / ١٢٢ مع اختلاف يسير في الرواية .

بذلك أبغي الصيدَ طوراً وتــارةً
بِمُخْطَفَةِ الأحْشاءِ رُحْبِ التَّرائِبِ (١)
مرقَّقَــة الأذناب ، غُرٌ ظهورهــا
مخطَّطة الآذانِ غُلْبُ الغَوارِبِ (٢)
مُدَنَّرَةٌ وُرْقٌ كأن عيونَها
حَواجِلُ تستَتْذمي متون الرَّواكِبِ (٣)
إذا قلَّبَتْها في الحِجاج حسبْتَهـــا
سَنَا ضَرَمٍ في ظلمة الليـــل ثاقِبِ (٤)

ثم مــا زال يتابع وصف شِياتِها وأعضائِها ، فقال : إنها فهود لامعة الأهُبِ ، فُطْسُ الأنوف ، كالحاتُ الوجوه ، على أشداقها خطوطٌ سودٌ تَحْكِي خطوطَ أقلام الكاتبين ، ولها آذان صغيرة تشبه مَداهِنَ الطِّيبِ تنصبها فتلتقط بها الأصوات من كل صوب ، ولها في أكفِّها براثنُ كالمثاقب تنفذ في صمّ الصُّخور محدَّدة بالفطرة معوجَّـــةٌ معقْرَبة تشبه أصداغ الغيد الحسان :

مُوَلَّعةٍ ، فطسِ الأنوفِ عوابسٍ تخال على أشداقهـــا خطَّ كاتب (٥)
نواصِبَ للآذانِ حتى كأنهـــا مَداهِنُ للإجْراس من كلّ جانِبِ (٦)

---

(١) مخطفة : صغيرة ضامرة ، الترائب : عظام الصدور .
(٢) غـر : جمع أغر وهو الذي فيه نكتٌ سود وبيض ، غلب الغوارب : غلاظها ، والغوارب جمع غارب وهو ما بين العنق والظهر .
(٣) مدنرة : بها نكت كالدنانير ، ورق : جمع أورق وهو الذي في لونه سواد وبياض ، الحواجــل : جمع حوجلة وهي القـارورة الواسعة الرأس يريد وصف عينيهـــا بالغؤور ، تستذمي : تتبع أي تتبع الصيد بحثاً عنه ، الرواكب جمع راكب وهو رأس الجبل .
(٤) الحجاج : العظم المستدير حول العين .
(٥) المولعة : الملمعة ، فطس : جمع أفطس وهو تطامن قصبة الأنف وانتشارها .
(٦) المداهن: جمع مدهن وهو آلة الدهــن أو قـارورته ، الإجْراس بكسر الهمزة استماع الجَـرس بفتح الجيم وهو الصوت .

ذواتِ أشافٍ رُكِّبَتْ في أكُفِّها   نوافذ في صُمِّ الصُّخور نواشِبِ (١)

ذِرابٍ بلا ترهيفِ قَيْنٍ كأنها   تَعَقْرُبُ أصداغ الملاح الكواعِبِ (٢)

ثم انتقل من نعت خلقتها إلى وصف صيدها فقال :

هذه الفهود تمتطي صهوات الخيل في وقت السلم وتترجل على الارض عند الحرب ، ولها عند لقاء العدو أناة وروية ، فهي تكمن له في مسارب الطرق ، وتُخْفِي شخوصَها وتضائل من أجسادها ، حتى لا تكاد تستبينها أحدُّ العيون بصراً وأصدقها رؤية ، وهي إلى ذلك شديدة الحرص ، بعيدة الخطو يسبق أقل عدْوها لمح البرق ، مضراةٌ على الصيد ، غلابة للطرائد ، قد أحكمها طول التجارب ، توسد فرائسها على أذرعها المخضبة بالدماء وتعانقها عناق المحبين :

فوارسَ ما لَمْ تلقَ حرباً ، ورِجْلَةً   إذا آنست بالبيد شُهْبَ الكتائبِ (٣)

تَرَوٍّ وتَسْكِينٍ يكونُ دَريئَةً   لهن بذي الأسرابِ في كل لاحِبِ (٤)

تضاءَلُ حتى ما تكاد تُبينُها   عيونٌ لدى الصَّرات غيرُ كواذِبِ (٥)

---

(١) الأشافي : جمع إِشْفَى بكسر الهمزة وفتح الفاء وهي مثقب الإسكاف .

(٢) الترهيف : ترقيق الحد ، القين الحداد ، الصُّدغ بالضم : الشعر المتدلي بين العين والأذن ، وتعقرب الصدغ : تلويه وتعطفه .

(٣) الرَّجلة : بفتح الراء وكسرها جمع راجل وهو الماشي على رجليه وقد كانت الفهود تركب الخيول ، شهب الكتائب : المراد بها جماعات الوحش ، والكتيبة الشهباء : هي العظيمة الكثيرة السلاح .

(٤) أصل معنى الدريئة ما يستتر به الصائد عن الوحش وأراد بها هنا الحيل والخداع ، بذي الأسراب : أي بتلك الطرق ، اللاحب : الطريق الواضح .

(٥) لدى الصَّرات : عند شق العيون لتزداد إبصاراً .

حِراصٌ يَفوتُ البرقَ أمكثُ جريِها ضِراءٌ مُبِلاتٌ بطولِ التّجاربِ[1]

تُوسّد أجيادَ الفرائِسِ أذرُعاً مُرَمّلةً تحكي عناقَ الحبائبِ[2]

نظرة في قصيدة ابن أبي كريمة

إن الدارس لهذه القصيدة تبدو له طائفة من الملاحظات أهمها أن الشاعر عَدلَ في بناء طرديته عن الرجز المتوثب الخفيف إلى القصيد الوقور الرصين، واتخذ لوزنهــا البحر الطويل الهادىء ذا الروي الواحد بدلاً من الرويين المتزاوجين المتناغمين.

وأنه لم يفتتحها بإحدى العبارات التقليدية التي دأب شعراء الطرد على استعمالها من أمثال « قد أغتدي » و« غدوت » و« أنعت » وما شاكل ذلك.

وأنه جمع فيها نعتاً لضاريين اثنين هما الكلب والفهد وقد يكون فيها ضوارٍ أخرى، فكلام الجاحظ عليها يوحي بأن هذا الذي أورده إنما هو جزء منها وأنها أطول من ذلك[3].

أما من حيث المعاني فقد حفلت القصيدة بوصف صادق لكلٍ من الكلاب والفهود، فصورت شياتها ونعتت أعضاءها وجلّت ألوانها في استيفاء ودقة، فهو لم يطلق عليها النعوت جزافاً ولم يخلع عليها الصفات العامة التي تصلح لكل حيوان، ثم لا تفضي بعد ذلك إلى تمييز أو تحديدٍ ولا تكسب معرفة.

وذلك يدل على أن وراء القصيدة رجلاً من أهل العلم وأصحاب التجاريب،

---

(١) أمكث جريها: أبطأ جريها، ضِراء: معتادة على الصيد، مبلات: غالبات، يقال: أبل فلان على فلان أي غلبه.

(٢) المرملة: الملطخة بالدم.

(٣) الحيوان: ٢ / ٣٦٨

يعطي للشعر قدراً وافراً من العقل فيزينه بحلية الفكر ويصونه من الابتذال ويجعله متعةً للقلب واللب في وقت معاً .

ثم يجد الدارس إلى جانب هذه الروح العلمية التي سرت في القصيدة كلها طائفةً من المعاني الجزئية الطريفة ، من ذلك قوله في ضمور أجساد الكلاب : إنها بلغت حداً من النحافة يكاد يتيح لهـــا المروق من قلائدها لولا حيلولة مناكبها دون ذلك :

تكاد من الأحراج تَنْسَلُ كلما   رأت شبحاً لولا اعتراضُ المناكب

وقوله في سرعتها : إن المرء ليحسب أن سياطاً نيطت في أعجازها فإذا عدَتْ لسعتها ، وإذا لسعتها غالت في العدْو وهكذا :

تخال سياطاً في صَلاها منوطةً   طوال الهوادي كالقداح الشّوازِبِ

ومنها تشبيهه لرقابهـا الدقيقة الملوسة بقداح الميسر ، وقد خص قداح الميسر لأن الأيدي بَرتها من كثرة التداول ، وذلك كما في الشطر الثاني من البيت السابق .

ومنهـا تشبيهه لضوء الصبح الذي يلوح من خلال عتمة الفجر بقنديل راهب ، وقد خَصَّ الراهب لأنـه لا يزال يتمهد قنديله بالزيت والإصلاح ، فيبقى مزهراً :

وقد لاح ناعي الليل حتى كأنه   لساري الدُّجى في الفجر قِنديلُ راهب

ثم إن الشاعر حاول ألا ينساق وراء شعراء الطرد الآخرين فيما تواطؤوا عليه من بعض المعاني ، فهم قد دأبوا جميعاً على القول بأن كلابهم عند العدْو لا تكاد تمسّ الأرض إلا مَسّاً رفيقاً خفيفاً ، فقال أبو نواس [1]:

---

(١) الديوان : ٦٢٧

براثناً سُحْم الأثافي ملطــا ما إن يَقَعْن الأرض إلا فَرْطا

وقال الناشىء[1] :

يخط بالبرثن في ترابـه خطَّ يد الكاتب في كتابه

مُلْتَقِطاً للخطو في انتدابه لقط يد الماهر في حسابه

وقال ابن المعتز[2]:

خفيفـة الوطء على التراب منصورة الأظفـار والأنياب

وقال أيضاً[3] :

ما إن تمسّ الأرض إلا وَلهَا كأنها تقبض جمراً قد زهـا

لكن ابن أبي كريمة خالفهم جميعاً فقال : إن للكلاب عند جريها تأثيراً بالغاً في الأرض فهي إذا أسهلت أثارت العجاج ، وإذا أحزنت تطاير الشرر من وقع براثنها على الصخور :

إذا افْترشَتْ خبْتاً أثارت بمتنه عجاجاً وبالكَدّان نار الحُباحِب

وابن أبي كريمـة يبالغ أحياناً في معانيه ، بيد أن الذوق لا ينفر من مبالغته وذلك للطف مأخذها والاحتراس الذي يشفعه بهـا ، من ذلك قوله في ضمور الكلاب :

تكاد من الأحراج تنسل كلهـا رأت شبحاً، لولا اعتراض المناكب

وقوله في سرعتها :

تكاد تُفرّي الأُهْبَ عنهـا إذا انتحت

لنَبْأةِ شخْتِ الجُرْم عاري الرّواجِب

---

(١) المصائد والمطارد : ١٥٢.

(٢) الديوان : ٤ / ١١

(٣) الديوان : ٤ / ٤٤٢

فهو قد احترس في كلتا مبالغتيه بكلمة (تكاد) فحقق ما أراد من مبالغة، وحفظ جانب الحقيقة ورعاه بالاحتراس والتقريب .

أما في مجال التصوير ، فابن أبي كريمة يمتلك ريشةً واضحة الخطوط غنية بالألوان يمدها خيال رحيب، انظر إلى هذه الصورة المتقنة المدبَّجَة التي رسمها لعيون فهوده وأنوفها وأشداقها تجد مصداق ذلك :

مُدَنَّرةٌ ورقٌ كأن عيونها حواجل تَستَدْمي متونَ الرَّواكب
إذا قلَّبتْها في الحجاج حسبتها سنا ضرم في ظلمة الليل ثاقب
مُوَلَّعَةٌ فطس الأنوف عوابسٌ تخال على أشداقها خط كاتب

ثم انظر إلى تنفُّس الصبح من عتمة الفجر :

قد لاح ناعي الليل حتى كأنه لساري الدُّجَى في الفجر قنديل راهب

ثم انظر أخيراً إلى صورة براثن الفهود :

ذوات أشافٍ رُكِّبَتْ في أكُفِّها نوافذُ في صم الصخور نواشب
ذِراب بلا ترهيف قَينٍ كأنها تَعَقَّرُب أصداغ الملاحِ الكواعبِ

وقف قليلاً عند كلمة « رُكِّبَتْ » فهي قد دعمت الصورة وقوتها فجاءت من باب الاستعارة المرشحة التي يعمد إليها عند قصد المبالغة في إبراز المعاني والصور .

أما القصيدة من الناحية اللفظية — فهي قد بُنِيَت بناءً جاهلياً يذكر بشعر الفحول ، فهي جزلة الألفاظ فخمة التراكيب محكمة النسج تنحو منحى الغرابة التي هي أشبه بالعصرين الجاهلي والإسلامي منها بالقرن الثالث الهجري.

لكنَّ الشاعر شاب قصيدَته من الناحية الأسلوبية بما ورد فيها من تقديم وتأخير واعتراض عَقَّدَ الأسلوب بعض الشيء ويبدو ذلك في قوله :

بعثتُ ، وأثوابُ الدجى قد تقلصت لغرَّة مشهور من الصبح ثاقب
وقد لاح ناعي الليل حتى كأنه لساري الدجى في الفجر قنديل راهب
بهَاليلَ لا يَثنيهم عن عزيمة وإن كان جم الرشد لومُ الأقارب
بتجنيب ُغضفٍ كالقداح لطيفة مشرَّطة آذانُها بالمخالب

فمفعول « بعثت » في البيت الأول هو « بهاليلَ » في البيت الثالث ، والجار والمجرور في البيت الرابع متعلقان ببعثت في البيت الأول أضف إلى ذلك تقديم النعت على المنعوت في قوله : « وإن كان جم الرشد لوم الأقارب » مع ما فيه من لاعتراض أيضاً .

ومهما يكن من أمر فإن نعت كشاجم لابن أبي كريمة بالشاعر الفحل لا تزيُّدَ فيه ولا مبالغة ، فطرديته التي وقفنا عليها آيةٌ على ذلك .

وهو قد عمد فيها إلى إخراج الطرد من نطاق الرجز الخفيف إلى ميدان القصيد الرصين ، وأغناها بطاقة ولفية من طريف المعاني وجميل الصُّوَر ، في اسلوبٍ متينٍ شَابَهُ شيءٌ من التعقيد ولفظ جزيلٍ يجنح للاغراب .

الناشىء الأكبر

ترجمته :

هو عبد الله بن محمد الأنباوي وكنيته أبو العبـــاس ، ولقبه الناشىء ثم وُصِفَ بالأكبر تمييزاً له – على ما يبدو – من الناشىء الأصغر [١] ، وهو علي ابن عبد الله بن وصيف أحد الشعراء المجيدين والمصنفين المعدودين ، إماميُّ المذهب ، بغداديُّ الموطن توفي سنة ست وستين وثلاثمائة وذلك بعد وفاة الناشىء الأكبر بنحو ثلاث وسبعين سنة ، ويُعرَف النـــاشىء الأكبر بابن شِمرِشير ، والأصغر بالحَلاّء [٢] .

ولد الناشىء الأكبر في الأنبار ، وإليها نُسِبَ ، وفيها نشأ ثم رحل إلى بغداد وأقام فيها الشطر الأكبر من حياته يطلب العلم حتى غدا عالِماً متبحراً في كثير من العلوم منها : المنطق والكلام والنحو والعروض والشعر ، وأصبح شاعراً مُجيداً في طبقة ابن الرومي والبحتري ، وصَنّفَ كتباً كثيرةً جميلةً واسعة في أنواع من العلوم ، ونظم قصيدة في أربعة آلاف بيت على قافيـــة واحدة سمعها منه الناجم ذكر فيها أهل الآراء والنحل والمذاهب والملل وما إلى ذلك [٣] .

---

(١) طبقات الشعراء : ٤١٧ .

(٢) الأعلام : ١١٩/٥ .

(٣) انظر تاريخ بغداد : ٩٢/١٠ وابن خلكان : ٢٧٩/٢ ومروج الذهب : ٣٦١/٣ وشذرات الذهب : ٢١٤/٢ .

وكان الناشىء يتمتع بذكاء حـاد ونفس مشبعة بروح الثورة وعقل حر يكره التقليد ويطمح إلى التجديد ويشك في كل ما يُلـقى إليه ، فأعمل فكره في منطق أرسطو وألـّف كتاباً في نقضه، ونظر في علل النحاة ودأب على إسقاطها بقوة علم الكلام ، وتأمل قواعد العروض فأنكر ما قاله الخليل ومَثـّلَ لقواعده بغير أمثلته ، وتحدى الشعراء فكان يقول في خلاف كل معنى قالوا فيه ، ثم ألف كتاباً في الشعر ونقده ليظهر مذهبه فيه .

وقد كان من آثار هذه الثورة العارمة أن استعدى كثيراً من الناس عليه فجعلوا يثلبونه وينتقصونه ويرمونه بالتهويس ويعملون ما في وسعهم لإسقاطه حتى بلغوا ما أرادوا ، فسقط الشاعر في بغداد وغادرها لاجئاً إلى مصر حيث قضى فيها بقية حياته وتوفي سنة ثلاثٍ وتسعين ومائتين [1] .

شاعريته وشعره :

الناشىء شاعر مجيد [2] غزير الشعر [3] طويل النـَّفـَس مما جعله يقول قصيدة في أربعة آلاف بيت على قافية واحدة [4] ، وقد وضعه ابن خلكان في منزلة ابن الرومي والبحتري وأنظارهما [5] وقال عنه المسعودي : إن له أشعاراً كثيرة حساناً [6] ، غير أن المرزباني خالف في ذلك كله وقال : « كان أبو العباس الناشىء مهوساً شديد الهوس وشعره كثير وهو مع كثرته قليل الفائدة » [7] والذي يبدو لقارىء ما تبقى من شعره أن المرزباني كان

---

(١) انظر تاريخ بغداد : ٩٢/١٠ وابن خلكان : ٢٧٧/٢ وشذرات الذهب ٢١٤/٢ وزهر الآداب : ٦٣٢/٢

(٣،٢) ابن خلكان : ٢٧٧/٢

(٤) مروج الذهب : ٣٦١/٣ .

(٥) شذرات الذهب : ٢١٤/٢ .

(٦) مروج الذهب : ٣٦١/٣ .

(٧) تاريخ بغداد : ٩٢/١٠ .

متحاملاً عليه لأنه « أخذ نفسه بالخلاف على أهل المنطق والشعراء والعروضيين وغيرهم ، ورام أن يحدث لنفسه أقوالاً ينقض فيها ما هم عليه فسقط في بغداد »[1] .

وقد وصف الناشيء شعره بقوله[2] :

يَتَحَيَّر الشعراء إن سمعوا به	في حسن صنعته وفي تأليفه
فكأنه في قُرْبه من فهمهم	ونكولهم في العجز عن ترصيفه
شَجَرٌ بدا للعين حسنُ نباته	ونأى عن الأيدي جَنَى مقطوفه
فإذا قرنت أبيَّه بمطيعه	وقرنته بغريبه وطريفه
ألفيت معناه يطابق لفظَه	والنظم منه جليّه بلطيفه
فأتاه مُتّسِقاً على إحسانه	قد نِيطَ منه رزينه بخفيفه
هذّبْتُه فجعلته لك باقياً	ومنعت صَرفَ الدهر من تصريفه

وقد قال الناشيء كثيراً من الشعر في الأغراض المختلفة غير أن شعره ضاع ولم يبق منه إلا القليل ، وجل هذا الباقي في الطرد ، وأقله في الغزل ومجالس الشراب والوصف .

ويبدو أن باب الطرد يحتلُّ في شعره مقاماً كبيراً فقد أشار الذين ترجموا له إلى أن أشعاراً كثيرة في جوارح الصيد وآلاته والصيود وما يتعلق بها ... منها قصائد ومنها طرديات ... ومنها مقاطيع »[3] .

والفضل كُلُّ الفضل في حفظ شعره في الطرد ووصوله إلينا يرجع إلى كتاب المصايد والمطارد لكشاجم وكتاب الجمهرة في علوم البيزرة للأسدي ، وكتاب البيزرة المنسوب إلى الحسن بن الحسين بازيار العزيز بالله الفاطمي .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) زهر الآداب: ٦٣١ .

(٣) ابن خلكان : ٢٧٧/٢ ، وشذرات الذهب : ٢١٥/٢ .

فقد وَعَتْ هذه الكتب الثلاثة أربعاً وعشرين طردية للشاعر عدة أبياتها ثلاثمائة بيت ، غير أن مُحقّق المصايد والمطارد ـ غفر الله له ـ أثبت هذا الشعر في الكتاب مُحرّفاً مُصحّفاً مُشوّشاً ، حتى ليعز على القارىء أن يظفر منه ببيتين متتالين سليمين ، فعكفتُ على هذا الشعر أعمل فيه يد الإصلاح، حتى استقام منآدُه، وسلم مُصحّفُه واعتدلَ مُحرّفُه ولم يستغلق عليّ منه سوى بضعة أبيات ، ولقد أعان على ذلك مخطوطة الجمهرة في علوم البيزرة ، وكتاب « البيزرة » ففيها كثير مما ورد في المصايد والمطارد .

ونحن سنعرض فيما يلي طردياته كلّها أسوة بما صنعناه مع أقرانه الذين تناولناهم بالدراسة من قبل .

طرديات للناشىء :

للناشىء ـ كما أسلفنا ـ أربع وعشرون طردية قالها في مختلف جوارح الصيد وضواريه وأدواته، فنظم في الكلاب والفهد وَعَناق الأرض وابن عرس من الضواري ، وفي البازي واليؤيؤ والشاهين والزُمّج من الجوارح ، كما نظم في صيد الأسد بالزبية وباللباد ، وقال في الجلاهق أيضاً . وإلى القارىء عرض لهذه الطرديات حسب موضوعاتها :

١ ـ الكلاب

لم تحظ كلاب الصيد عند الناشىء بما حظيت به عند شعراء الطرد الآخرين فهو لم يقل فيها سوى أرجوزتين اثنتين ، إحداهما بائيّة عدة شطورها أربعة وعشرون شطراً [١] والأخرى قافيّة عدة شطورها أربعة عشر شطراً [٢] وقد صور في إحدى أرجوزتيه هاتين منزلة الكلاب في نفس صاحبه وأثره في

---

(١) المصايد والمطارد : ١٥٢

(٢) المصايد والمطارد : ١٥٥

حياته تصويراً لم يبلغه أحدٌ قبله فقال : إن صاحب هذا الكلب يرى حقوق نفسه في ماله دون حقوق كلبه ، وهو قد صاغَ طباعه على وفق طباعه وجعلَ سلوكه على حسب هواه حتى لكأنه سيدٌ يملك رقّه ويتصرف في حريته ، وهو يبذل في سبيل رعايته ومرضاته الكبير والصغير ، والكثير والقليل ، فكأنه في فرط تودده إليه عبدٌ يرجو من سيده أن يحرر رقبته :

يا رُب كلب رَبُّه في رزقه

يرى حقوقَ النفس دون حقه

مُتّبِعاً بِخُلْقِه لِخُلْقِه

كأنما يملك عقد رقه

يصونه بِجِلِّه ودِقّه [1]

كآمل من مالك لِعِتْقِه

ثم صور الكلب بصورة تؤهله لهذه المنزلة التي احتلها من نفس صاحبه فجعله إنساناً كادحاً جُبِلَت لقمته بالعرق والجهد ، ونيط رزقه بصولة ظِفْره وكفاح نابه ، وهو إلى ذلك ذو مروءة يرتاح للنضال والعناء كما يرتاح أخو النشوة إلى الخمر :

قد أغتَدِي والفجرُ في حجابِهِ

لم يَحْلُلِ العقدة من نِقَابِهِ

بأغْضَفٍ عَيْشُه من عذابِهِ

من صولةٍ بظِفْره ونابِهِ

(١) جلّه ودقه : كثيره وقليله ، يقال : أخذت جلّه ودقّه كما يقال : أخذت كثيره وقليله .

يَرَاح أن يُدْعَى لِيُغْتَدى بِـهِ [1]
روحة ذي النشوة من شرابِـهِ [2]

ثم أضاف إلى هذه الصورةَ المعنوية التي تفعم النفس إكباراً لهذا الحيوان صورةً حسيةً تملأ العين بجماله فهو من فرط ضموره بدا كعاشق أضناه طولُ حبه حتى غدا أصفر يأسر جمالُ صورته العيونَ ويلهيها عما سواه ، فهو كالنضار الذي أخرج من حُقّه ، له غُرة تُميّزه وتظهر تفوّقه وحجولٌ تبرزه وتبدي سبقه :

تراه في تسريحـه ورَبْقِـهِ [3]
كعاشق أضناه طولُ عشقِـهِ
أصفر يلهي العينَ حُسْنُ خلقِـهِ
كذهب أبرَزْتَـه من حُقّه
ذي غُرّة فارِقـةٍ لِفرقِـه
وذي حجول بيّنَتْ عن سَبْقِـهِ

٢ - الفهـد

للناشيء طردية واحـدة في الفهد وهي قصيدة ميمية من الطويل عدة أبياتها ثمانية عشر بيتاً مطلعها :

وأغرَ مَوشيّ القميصِ مُلَمَّعٍ كأن عليه منه رقماً مُوَشّما [4]

---

(١) يراح : يقال: راح فلان للمعروف يراح راحة إذا أخذته له خفة وأريحية . وفاعل يراح المصدر المؤول من (أن يدعى) ويغتدى به : يذهب به في الغداة للصيد وفي الكتاب: يقتدى به وهو تصحيف ،

(٢) كنى بذي النشوة عن صاحب الخمر .

(٣) الرَّبْق مصدر قوله ربَقت الجدي أربُقة : إذا جعلت رأسه في الرِّبقة. وهي حبل تُشدُّ به البهم .

(٤) المصايد والمطارد : ١٩٧

والطردية نموذج رائع للوصف الذي يستوفي المنعوتَ من جوانبه كلها في دقّة بالغة شابتها بعض المبالغات .

وهي قسمان أولهما لنعت الفهد وثانيهما للحديث عن تضريته على الصيد .

أما نعت الفهد فقد قال فيه : رب فهد أغر خالط بياضَه سوادٌ ذو إهاب موشّى كأنه قميص مرقّم مخطّط موشّم ، وعلى خدّيه خطّان هابطان من الأعلى متعرّجان قليلاً عند الأسفل ، وله عضدان مفتولان كأنما شدّ عليهما قِدٌّ محكم مُبْرَم ، وساعدان اتصلا برسغين أوثق اتصال ، وأظفار صلبة تعزُّ على من يروم تقليمها وتحكي في حدتها وتَحَدُّبِها شوكات الحائكين .

وله هامة صلبة لو دَفعَتْ بها كفٌّ ضعيفة على صفاة صلدة لانهدّت ، وعينان وقادتان لو أدْنَيْتَ منهما فتيلاً لاشتعل ، ونابان حادّان لو صال الزمان بهما على الورى لسقاهم كأس المنون، ووجه على الرغم من يمن طالعه يأبى التبسم كيداً للمخلوقات ، وشدقان كأنهما كهفان يلتهمان ما يصادفانه من أوابد الوحش :

وأغرَ مَوْشِيّ القميص مُلَمَّعِ
كأن عليه منه رقماً مُوَشَّما [1]
يلوح على خديه خطّان عُرّجا
قليلا وَرُدّا هابطين فقوّما
مُفتَّلُ عَضْدَي ساعِدَيه كأنما
أُعيرا بِقِدٍّ ، ثم شُدّا فأُبْرِما [2]

(١) الأغر : الذي على شية النمر وهو أن تكون فيه بقعة بيضاء وبقعة أخرى على أي لون كان أو ما كان فيه بياض وسواد ، والجمع نُمر ، والرقم : الكتابة والختم ورقم الثوب: كتابه ، والأرقم الحية التي فيها سواد وبياض . الوشم : ما يكون على اليد من رقوم إذا غُرزت بإبرة وذر عليها النَّيْلج .

(٢) القدّ ، سير من جلد غير مدبوغ ، أبرما : أحكما .

فنيطت فضولُ السّاعدين وأُحكِمت
برسغين لزّا بالوصول فألحِمَا

تضَمّنَ أظفاراً كأنّ حجونَها
حجونُ الصَّيَاصِي أعجزت أن تقلّمَا [1]

له هامة لو أن كفّاً رهيشةً
دحتها على صُمّ الصفا لتهدما [2]

وعينان لو تُدنِي إلى قبسيهما
ذبالاً تذكّى منهما وتضرّما [3]

ونابان لو يسطو الزمانُ على الورى
بحدّيهما كان الحِمَامُ مقدّما

ووجهٌ يجيل الخير في صفحاته
أبى كيدُه للخلق أن يتبسما

وشدقان كالغارين يلتهمان ما
من الرُّبدِ والحُمْش الأوابد ألْهِما [4]

ثم انتقل الشاعر إلى الحديث عن تضريته لهذا الفهد وما عاناه في ذلك حتى بلغ الغاية فقال : لقد اعملتُ فيه يد التقويم والتثقيف حتى كففته عن الطبائع الراسخة الأصيلة وقومت من أخلاقه ما يعز على التقويم ، ورضته على استبقاء الطريدة حية بعد ما كدت أيأس من ذلك ، فغدا كما شئتُ له أن

---

(١) الصياصي : جمع صيصة وهي شوكة الحائك ، وحجونها : ما أعوجّ منها .

(٢) الكف الرهيشة : الكف الضعيفة .

(٣) الذبال : جمع ذبالة وهي الفتيلة .

(٤) الرُّبد : جمع ربداء : وهي الشاة السوداء المنقطة بحمرة . والحمش : جمع أحمش وهو الدقيق الساقين يشير بذلك إلى الظباء .

يكون وأصبح يأتي ما كان يأباه ، وتطيب نفسه لنا بما يصيده ، ويأتي بالطريدة سالمة لم تصب بأذى :

أجَدْتُ له التقويم حتى كففته عن الشِّيَم اللاتي أبتْ أن تُقوَّما
وعلَّمته الإمساكَ للصيد بعدما يئست لطبع الجهل أن يتعلَّما
فجاء على ما شئتُه ووجدتُه مُحِلاً لما قد كان من قبلُ حرَّما
إذا ما غدونا نبتغي الصيد أسْمَحَتْ لنا نفسُه ألاّ يُريقَ له دَمَا
وما يتولى منه إزهاق نفسه ولكن يؤديه صحيحاً مُسَلَّما

ثم ختم القصيدة بوصف الفهد في اللحظات الأخيرة التي تسبق انقضاضه على فريسته فقال : إذا لمح ظبياً ورامه تَنَمَّر واكفَهَرَّ وثارت حفيظتُه ، وكَفَتْه الوثبة عن العَدْوِ خلف الطريدة ، وأغناه التجهم لها عن بذل الجهد في طلبها ، فهو متى عَبَسَ وَقَفَزَ فقد قَنَص :

إذا لاحظتْ عيناه خشْفاً يرومُه
تَنَمَّر في اكفهراره وتَزَغَّما [1]
فيكفيه من إحضاره وثَبَاتُه
ومن رَوَغانِ الصيد أن يَتَجَهَّما [2]

٣ ـ عَنَاقُ الأرض

للناشيء طردية في « عَناق الأرض » ، وهي قصيدة دالية من البسيط في خمسة عشر بيتاً [٣] ، وهذه أول مرة نلقى فيها شاعراً يتناول هذا الضاري في طردياته ، فعَنَاق الأرض نادر الوجود في بلاد العرب ، أشار إليه علماء

---

(١) تزغم الجمل : ردد رغاءه ، وهو هنا بمعنى غضب .

(٢) الإحضار : العدوُ ، والروغان : الطلب .

(٣) المصايد والمطارد : ٢٢٥ ، والدميري: ١ / ١٦٣ ، وهي في الدميري أقل تصحيفاً لذلك اعتمدنا روايته .

البيزرة إشارات خفيفة لا تروي غليلاً ولا تكسب معرفة وعذرهم في ذلك هو ما ذكره صاحب أنس الملا عند حديثه عن هذا الضاري حيث قال : « ولم أذكر عناق الأرض في هذا الكتاب إلا تطرُّفاً لأنه لا يكون في بلادنا ولا يوجد إلا في بلاد العجم »[1] ، غير أن الناشيء نعت هذا الضاريَ فأحسن نعته ووصفه فأكمل وصفه ، وسد الثغرة التي أهملتها كتب البيزرة .

وقد جعل قصيدته شطرين ، وصفه في أحدهما وصفاً شاملاً كاملاً وتحدث في الثاني عن صيده .

أما في مجال وصفه فقد قال : من كان يبتغي الكسب من صيده فليس له إلا سبع من فرسان البيداء ذو مرة وقوة ، لكنه مع ذلك رائعُ الطلعة يملأ العين بجماله ويستميل القلب بحسنه ويشبه الفتاة المخدرة التي تبرز للناس ، وهو بديع الشمائل عذب الأوصاف يحلو لك منه وَطفُ جفنيه ، وصفاء أديمه وضمور خصره .

لقد أخذَ من كل شيء أروع ما فيه ، فله من البدر استدارة وجهه والسُّفَع السمر التي تزينه ، وله من الليث ناباه ومخاليبه ، وله من الظباء النحر المشرق والجيد الأتلع :

من كان للصيد كَسَّاباً فقانصه	ذو مِرَّة في سباع البيد معدودُ[2]
لكنّه كفَتَاة الحي بارزة	من خدرها ، مالىءٌ لِلعَيْن مودود
حلوُ الشمائل في أجفانِهِ وَطفٌ	صافي الأديم هضيمُ الكَشْحِ مَمْسُودُ[3]
فيه من البدر أشباه تُوَافِقُه	منها له سُفَعٌ في وجهه سود[4]

(١) أنس الملا : ٧٤

(٢) المرة : القوة .

(٣) الوطفُ : كثرة شعر الجفنين والحاجبين ، الكشح : ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلفي .

(٤) السفع جمع سُفعة بالضم : سواد مشرب بحمرة .

كوجه ذا وجهُ هذا في تَدَوُّره   كأنه منه في الأشكال مَقْدُودُ
له من الليثِ نابــاه ومِخْلَبُه   ومن غرير الظباء النحرُ والجيدُ

ثم يتابع وصفه فيقول : إنه يتمتع بأذنين تسمعان مـا تعجز غيلان البيد عن سماعه ، تدليان على جانبي رأسه كآستين ناضرتين ، وفي فوديه خطان معوجـان يحكيان خطي العنبر المعقوفين اللذين تُزَيِّنُ بهما الغـادة الحسناء سالفتيها : وهو ذو إهاب كفراء « الفَنَك » ليناً ، وكبنان الكف نعومةً وتمهيداً ، ولون كلون القطا ، وذكاء كذكاء الذئاب :

يُصغِي بأذنين تبدي وشك سمعها   له الذي عَيِيَتْ في غُولِها البيدُ[1]
كآستين على غصنين تعطفهــا   من جانبيه وفي الرأسَيْن تمهيد
كعنبر عَوَّجَتْه في سوالِفهــا   من بعد ما قَوَّمَتْه الغادَةُ الرود[2]
كأنــه لابِسٌ من جلده فَنَكاً   في لينه كَبَنَان الكف تمهيد[3]
تحيكه في لونه نُمْرُ الغَطاط وفي   لطف المكايد منه السِّمْع والسِّيد[4]

أما الشطر المتعلق بوصف صيد عناق الأرض فقد قـال فيه : إذا رأى هذا الضاري الصيدَ ستر نفسه عنه وَقَلْبُه معلق به ، والتصق بالأرض حتى يكاد يخرقها ، واشتد هلعه على الطريدة حتى يبدو وكأنه خائف جزع ، ولا يزال كذلك إلى أن تواتيه الفرصة ، وعندئذ ينساب نحوها انسياب الأرقم ، وينقضُّ عليهـا انقضاض المنون ، فتبتغي منه النجاةَ ، ولكن أينَ المفر من الأجل إذا حُمَّ ؟ :

---

(١) الغُول: بالضم من السعالي وهو كل مـا اغتال الإنسان. والغول بالفتح ثم السكون : بعد المفازة .

(٢) الرود : الشابة الحسنة .

(٣) الفنك : من جنس الثعالب لكنه أصغر منه وفروته من أحسن الفراء .

(٤) الغطاط بالفتح : نوع من القطـا ، والنُّمرُ جمع أنمر ، والسِّمع : ولد الذئب من الضبع وهو أخبث الذئاب ، والسيد : الذئب .

إذا رأى الصَّيْدَ أَخْفَى شَخْصَهُ أَرَباً	وقلبُه باقتناص الصيد مَعْمودُ[1]
يكاد من سَدْكِه بالأرض يخرقها	كأنه لحثيث الذُّعْرِ مَزْؤُودُ[2]
ينساب كالأيْمِ هَبَّالاً لِبُغْيَتِه	حتى إذا أمكنَتْه وهو مَكْنُودُ[3]
سَطَتْ عليه به كفُّ المنون له	تبغي نجياً ووِرْدُ الحَيْن مَوْرُودُ[4]

٤ - ابن عرس

المعتبر من الضواري عند علماء الصيد ثلاثة : هي الكلب والفهد وعناق الأرض ، غير أن الهواة ضَرَّوْا ما لا يظن أن يُضرَّى كالحية والثعلب والعنكبوت وابن عرس .

وابن عرس - وجمعه بنات عرس - على هذا داخل في جملة ضواري الصيد والصيد به سائغ ، وهو يُتَّخذُ لصيد الثعلب ، وقد وصف الناشىء صيده وصفاً جلياً ، وطرق بذلك موضوعاً لم يتناوله أحد من شعراء الطرد الذين درسنا شعرهم ، وطردية الناشىء في (ابن عرس) أرجوزة رائية مزدوجة الرويّ ، عدّة شطورها اثنان وعشرون شطراً ، جعلها قسمين ، تحدّث في أولهما عن الثعلب واعتصامه بوكره ، وفي الثاني عن طريقة صيد ابن عرس له فقال: لو كان هناك حيٌّ يحتاط لعمره ويستوثق لنفسه من نكبات الدهر وغدره لكان هذا الحي أبا الحصين، فقد اعتصم في جحره وخال أنه يستره عن عيون القانصين ، ويقيه من مكرهم ، ويحفظه من جوارحهم وضواريهم ، ولكنه لم يَدْرِ في خَلَدِه أبداً أن ابن عرس سيغزوه في عقر داره وسيقصم ظهره :

---

(١) المعمود والعميد : من هدّه العشق .

(٢) السدك : اللزوم وعدم المفارقة ، والمزؤود : الخائف .

(٣) الأيم : الثعبان ، هبالاً : مغتنماً .

(٤) نجياً : نجاة ، الحين : الأجل .

لو أن حَيّاً واثقاً لعمره
أو عائذاً من نكبات دهره
بِمَقْصِل يحصنه من غدره[1]
أفلت من خَتْل الرَّدى وخَتْرِه[2]
أبو الحصين كامناً في جحرِه
مُقَدِّراً في ظنسه وفكرِه
أن الوِجَار ضامِنٌ لِنَصْرِه[3]
وحفظه من قانص وسَتْرِه
عن حيلة يُعمِلها بفكرِه
إذا غدا بكلبه وصقرِه
وليس يجري في بَنات صَدْرِه[4]
أن ابن عرس قاصمٌ لظهره
وهاجِمٌ عليه في مقَرّه

ثم تحدث في الشطر الثاني من الطردية عن كيفية صيد ابن عرس للثعلب ، فقال : ما أعجبَ هذا القانص الذي اقتحم من فريسته وكرها وهو مشدود من رقبته بحبل أمْسَكَ به صاحبه حتى إذا استوثق من أنه تشبَّثَ بفريسه وتمكَّن منه جذبه بالحبل المعلق في عنقه فخرج ومعه صيده .

فلله هذا القانصُ من شجاع يهصر قِرْنه فيقدُّ ظهره أو يقطُّ خصره أو يذبح عنقه بِشباة نابه وحدِّ ظفره .

---

(١) المقصل : السيف البتار القاطع .
(٢) الختر : الغدر ، يقال ختره فهو ختّار .
(٣) الوجار : سَرَبُ الضبع والوحش .
(٤) بنات فكره : كناية عن ظنونه .

وهو قد يبلغ الغاية، وذلك حين يُخْرِجُ الفريسةَ من وكرها حيةً سليمة لم تُصَب بكَلْم ولم يُرَقْ لها دمٌ :

أعجبْ به مقتحماً في وكره
وخطْـــه معلق في نَحْرِه
حتى إذا أمرْتهــم بجره
جرُّوه فاستخرجه من قَعْرِه
لله مـــا أعظمه بِهَصْرِه
وقدّه أو قطعه من خَصْرِه[1]
وذبحــه بنابــه وظُفره
لكنه بِعَصْرِه وقَسْرِه
أحسنُ في استحيائِه وأسره[2]

٣ ـ صيد الأسد بالزُّبْيَة واللِّبَّاد

وهذا موضوع طريف آخر يطرقه الناشىء ، وهـــو صيد الأسد بالزبية وصيده باللباد ، وهمـــا طريقتان من طرق الصيد أشرنا إليهما فيما سبق عند الكلام على طرق الصيد وأدواته ، وقد صنع في ذلك قصيدتين من الرَّمَل ، إحداهمـا ميمية في ستة وعشرين بيتاً [3] والأخرى نونية في اثنين وعشرين بيتاً [4] ، وقد سلك في قصيدتيه كلتيهما مسلكاً واحـــداً حيث تحدث عن الأسد في الشطر الأول منهما ، فوصف قوّته التي تدين لها القوى وصولته التي ترْهِبُ الأحياء جميعـاً ، وبطشَه الذي لا يكفّ ولا يرحم ، ثم انتقل من

---

(١) قدّه : قطعه .
(٢) استحيائه : استبقائه حياً .
(٣) المصايد والمطارد : ١٨١
(٤) المصايد والمطارد : ١٨٠

ذلك إلى الصورة المقابلة فوصف وقوعه في الزُبْى أو في أيدي أصحاب اللبابيد فريسةً سهلةً من حيث لا يُقدِّر ولا يحتسب ، وقد أنهى إحدى القصيدتين بكلمةٍ تشف عن حزنه على سيد الغاب والأخرى بعبرة أوحى بها الموقف .

فكان مما وصف به الأسد قبل اقتناصه قوله في ميميته: رب أسد قسورة قد نزل القضاء بعرينه .. وهو الذي أرهب الخلق فلا ترى حياً يلم به أو كائناً تحدثه نفسه بالدنوِّ من حرمه ، له هامة كترس المحاربين صلادةً ، وفمٌ كالغار رحابة ، وساعدٌ كالقِدِّ المضفور قوة ، ومبتسم كالوهد سعة ، وعين تومض كالبرق من شدَّة شوقه إلى الصيد .

إن الموت يتربع بين لحيَيه وأنيابه ... وإذا كان لكل إنسان حظه المقسوم من الرزق فهو الذي جُعِلَ الخلقُ كلُّه من قسمته :

رب ذي شبلين قَسْوَرَةٍ　　قد أحمَّ الحَيْن في أجَمِهْ

لا ترى حيّاً يُطيف به　　لا ، ولا يدنو إلى حَرَمِهْ

كمِجَنِّ الحرب هامته　　وكفَوْرِ الغار رحبُ فَمِهْ (١)

وكضَفْر القِدِّ ساعِدُه　　وكَوَهْد رحبُ مُبْتَسمهْ (٢)

وكأن البرق ما قَدَحَتْ　　عينُه باللحظ من ضَرَمِهْ

وكأن الموت معترضٌ　　بين لحيَيْه ومُلتثَمِهْ (٣)

إن يكن رزق الورى قِسَماً　　فجميع الخلق من قِسَمِهِ

ومن وصفه له ايضاً قوله في نونيته : إنه لأسد لا يرتوى إلا من أكباد

---

(١) الغار : الكهف ، وغوره : قعره .

(٢) الضَّفرُ : الجدل ، والقِدُّ : سير من جلد غير مدبوغ .

(٣) اللَّحيان: مثنى لَحي بالفتح وهو منبت اللحية من الانسان وغيره ، والملتثم : مكان التلثم وهو الفم .

الخلق ، قد أبطرته القوة ، فغدا يمشي مرحاً في طرقه ومغانيه التي نبَت عنها الأسودُ وتحاشتْها المخلوقات .

وما له لا يبطر وهو يملك من آلات البطش ما يغنيه عن السعي في طلب الرزق ... فهو إذا التمعت عيناه كالتماع البرق في سحبه لم تتحول عن بصر لاحها إلا إذا سُلّت روحه من بدنه ، فكلُّ ذي نفسٍ يخضع له ويخشى الاقتراب من طرقه :

واردُ الأكباد ذي لبــد	خادِرٌ يَستَنُّ في أرَنِــه[1]
تصبح الآساد نابيــةً	عن مغانيــه وعَنْ قَطَنِه[2]
أوثِقَتْ للبطش آلتُــه	فكفته السَّعْيَ في مِهْنِـــه
وإذا أجفانــه ومَضَتْ	كوميض البرق في مُزنِه
لم تُرِغْ عن عَيْنِ لاحِيِهــا	دون سَلّ الروح من بدنِه[3]
كل ذي روح يدين لـــه	ويخاف القُرْبَ مِنْ سَنَنِه[4]

وقد وصف صيده بالزُّبية وهي - كما عرفنا من قبل - حفرة تُحفَر على نشزٍ من الأرض وتُغَطّى بما يَستُرُها من كلأ ونحوه ، ويُشَدُّ بالقرب منها حيوان لإغراء الفرائس ، فإذا خطَتْ فوقهـــا هوَتْ إلى قاعها فيأخذها الصائدون حيّةً أو يُصوّبون إليهـا سهامهم فيقتلونها ، وفي ذلك يقول عن هذا الأسد :

حين تمّتْ منـــه مُدّتُه	وانقضى ما امتَدَّ من زَمنِه[5]

---

(١) الخادر : الأسد الذي خدر في أجمته ، يستن : ينشط ، واستن الفرس : عدا لمسرحه ، الأرن : البطر والمرح .

(٢) قطنه : سكنه ، وهي في المصايد فطنه بالفاء وهو تحريف .

(٣) لم ترغ : لم تمل ولم تتحول وهي في المصايد لم ترع وهو تحريف .

(٤) في المصايد (وتخاف) وهو تحريف .

(٥) أي حين استوفى أجله .

فَسَرَى والحَيْنُ يَقْدُمُـه	غيرَ مُطْويٍّ على ظِنَنِهْ
وأتى يبغـي فريستَه	فَوهَى وانهدَّ من رُكْنِهْ [1]
وغدا القُنّاصُ فانتظموا	بين متنيه إلى ذَقَنِهْ
بسهام ألْحَفَتْه كما	تَدْرِجُ المقبورَ في كَفَنِهْ [2]
فثوى والتُرْبُ مَسْكَنُهُ	نائِيَ الأوطان عن وَطَنِهْ

ووصف صيده باللُّبّاد أيضاً ، وهي طريقة يسلكها الأشداء من القانصين فيرتدي أحدهم قَبـاءً من اللباد الثخين المضاعَف يستره من قمة الرأس إلى أخمص القدمين ، ويتمنطق بحبل غليظ وكساء واسع متين وقيود ويصطحب معه من يعينه على عمله ، ثم يكمن في دروب الأسود فإذا مرَّ بـه واحد منها ألقى على وجهه الكساء وشده عليه ، وعند ذلك يهب رفيقه لمؤازرته فيكمّمان فمه ويقيّدان قوائمه ويقودانه ذليلاً صاغراً ، وقد وصف الناشىء ذلك فقال:

عَبِثَتْ كفُّ المنونِ بهِ	فأبانَتْه عـلى نِقَمِـهْ [3]
بضئيل الحـال مُعْترضٍ	وخَفِيِّ الآلِ مُكْتَتِمِـهْ [4]
ذا عليه طِمْرُ ذي شَعَثٍ	مَلَّت الأيام من قِدَمِـهْ [5]
وَلِـذا درع مُلَبَّـدة	طال مـا يلقاه من كلمِهْ [6]
لم يرعـه غـير فجأتـه	باركاً يسعى إلى وَقَمِـهْ [7]

---

(١) الفاعل في وهَى يعود على « الخرق » الوارد في بيت سابق لم يستقم كله .
(٢) ألحفته : صارت له كاللحاف .
(٣) على نقمه : على كرهـه وهي في المصايد « على ندمـه » فاجتهدنا بجعلهـا على نقمه ليستقيم المعنى .
(٤) الآل : الشخص كناية عن القانص .
(٥) الاشارة في (ذا) تعود على رفيق القانص باللباد .
(٦) الاشارة في قوله (ولذا) تعود على القانص الذي اكتسى باللباد .
(٧) الوقم : الإذلال والقهر .

وازْبأرَّ الليثُ واعتَوَرَت	بَالَـه الأوجـالُ من َلمَمِهْ [1]
وسعى المُخفِي مكيدتَه	بكَبُولٍ كُنَّ في حزمـه [2]
ومُكَمِّمـات وأكسية	فأجـاد الشدَّ من خَطَمِه [3]
وأعـضَّ الكَبل نخوتَـه	ثم تَـلَّ القَيْدَ في قَدَمِهْ [4]
فرأيت الليثَ مُنجَـدِلاً	لائـذاً من هَضْم مُهتَضِمِه [5]
إن في هـذا لمُعْتَبَراً	لسديـد الرأي مُنبَرِمِـه [6]

٦ ـ البازي

للناشىء ثـلاث طرديات في البازي أولاهـا قصيدة رائية من الطويل في ثمانية عشر بيتاً [7] ، والثانية أرجوزة جيمية مزدوجة الروي في ثلاثة عشر شطراً [8] ، والثالثة قصيدة نونية من المتقارب في تسعة أبيات [9] .

وقد نعت الشاعر البازيّ في الطرديتين الأولى والثانية نعتاً وافياً مَزَجَ فيه العلم بالأدب وجمع على صعيده الحقيقة مع الخيال، حيث قال : إذا تأملت

---

(١) ازبأر : انتفش ، الأوجال : جمع وجل : وهو الخوف وفي المصايد « الأوحال » وهو تحريف ، اللمم الطائف من الجن والجنون .

(٢) الكبول : جمع كبل : وهو القيد .

(٣) الكمامة والكمام : ما يكمّ به فم البعير لئلا يعض وكمت الشيء : غطيته، الخطم من الدابة مقدم الفم .

(٤) تلّ : ألقى وصب .

(٥) منجدلاً : ساقطاً على الأرض ، الهضيم : الكسر والظلم .

(٦) المُنبرم : المحكم السديد .

(٧) المصايد والمطارد : ٦٨ والجمهرة في علوم البيزرة : ٥٠ والبيزرة : ١٦٧

(٨) المصايد والمطارد : ٦٧ والجمهرة في علوم البيزرة : ٥٠ والبيزرة : ١٧٢ وابن خلكان : ٢ / ٢٧٧ وشذرات الذهب : ٢ / ٢١٤ ونهاية الأرب : ١٠ / ١٨٨

(٩) المصايد والمطارد : ٦٨ والجمهرة في علوم البيزرة : ٥٠ والبيزرة : ١٧٢

هذا البازيّ رأيتَ مكان سوادِ عينه عقيقة حمراء وألفَيْتَ بياضها قد طُوّق بتبر أصفر ، وهي حين تحدّق في الأشياء تمور كما يمور النّور .

وهو ذو جناحين يحكيان بُرْداً مختلِف الألوان بهيّ الرواء ذا شقّتين عاليتين ضافيتين ، وجسد كأنما أُسْبِلَ عليه درع من الخزّ الموشّى ، وريش مدرج كحبك الغدران غِبّ المطر :

مكانُ سوادِ العين منه عقيقةٌ وتِبْرٌ على خطّ البياض يدورُ

تمور إذا ما رَنّقَتْ في مآقِها كما مار من ماء الزّجاجةِ نور[(١)]

له قُرْطُقٌ ضافي البَنائِق أغبَرٌ مُفوّفُ ضاحي الشقّتَين طرير[(٢)]

ومن تحته درع كأن رقومَه تعاريجُ وشي أرْضُهُنّ حرير[(٣)]

كأن اندراج الريش منه حبائك بعقب سحابات لهن نُشور[(٤)]

وكان مما وصفه به أيضاً قوله : لقد خلع البارىء على هذا البازي حلة من الديباج موشاة تحار العين في خطوطها المنسقة المتعرجة فحلّاه بها من ساقه إلى أوداجه ، ثم زان فوديه بزينة فاقت بهاء التيجان وأغنته عن عزها :

ألبَسهُ الخالقُ من ديباجِه

وَشياً يحار الطرف في اندراجهِ

في نَسَقٍ منه وفي انعراجِهِ

وزان فوديْه إلى حجاجِه

بزينة كفَتْه عِزّ تاجِه

---

(١) رنقت : من الترنيق بمعنى إدامة النظر .

(٢) القرطق: الثوب ، فارسي معرب ، البنائق : جمع بنيقة وهي لبنة القميص ، الضاحي : العالي .

(٣) الرقوم : جمع رقم : ورقم الثوب : كتابه .

(٤) الحبائك: جمع حبيكة وهي الطريقة في الرمل والماء ونحوهما .

وتحدث الشاعر في هاتين الطرديتين عن أصل هذا البازي والتدريب الذي لقيه على يد بازياره فقال : لقد اختار القناص هذا البازي من أرومة هي موضع فخر القانصين ، ثم أعمل فيه يد التهذيب والتثقيف حتى أصبح ذا ضمير يقف على ما تهواه الضمائر ، ويشعر بما ترومه النفوس :

تخيّره القنّاص من بين عصبة	لها عند فخر القانصين فخورُ
وهذّبه حتى كأن ضميره	له دون ما تهوى النفوس ضميرُ

أما الطردية الثالثة التي قالها في البازي فهي ضرب من الغزل سبيله الطرد، أو لون من الطرد أفضى إلى الغزل ، فالشاعر ينادي صاحبه قائلاً : عليّ بالبازيّ يا صاحبي ، عليّ به فهو جُنتي من الفقر والبؤس ، ألستَ ترى هذه الظباء التي ترد المياه الصافية البراقة ؟

ثم يلتفت الشاعر إلى مُخاطبة ضواريه فيقول لها: انهدي إليهن يا ضوارينا واجعليهن من حظي وإذا لم تجيئيني بهن فسوف أغالي في لومك ، ثم يستنجد بخيله فيقول لها: اتبعيهن لعلك تظفرييننا بهن فنأخذ منهن ثاراتنا، فقد جنَت علينا أشباههن ، فكم من قتيل لنا أهلكنه بأحداقهن وكم من مرة أطلقن ضواري عيونهن على سائمات قلوبنا فصدنها وأوقعنها في أسرهن :

أيا صاح بازيّ بازيّ إنّه	من البؤس والفقر جُنّه
ألستَ ترى ظَبيات يَرِدْن	مياهاً يُضيءُ تلألؤهُنّه
ضوارينا شأنُكنّ النهود	لهنّ فهنّ إليّ يكنّه [1]
فياما أُقبّحكنّ الغداةَ	إذا لم تجِئنَ إلينا بهنّه [2]

---

(١) فهن إلي يكنه : في المصايد (فهن أولياؤكنه) وهو كلام لا يستقيم لا معنى ولا وزناً.

(٢) فياما : أي كم ، وقد وردت في المصايد والمطارد وفي البيزرة (قياماً) والتصحيح من الجمهرة .

ويا خيلُ ويهاً دراكِ دراكِ عساكنّ تمنحْننا صيدَهُنّهْ

فنأخذ منهن ثاراتنا بحقٍّ جناية أشباهِهِنّهْ

فكم من قتيل لنا هالكٍ بأحداقهنّه وأجفانهنّهْ [1]

يُمكّنّ من سائمات القلوب ضواري العيون فيصطدنهنّه

٧ - الصقر

للناشىء أربع طرديات في الصقر إحداها أرجوزة رائيّة عدة شطورها ثلاثون شطراً [٢] والثانية أرجوزة قافيّة عدة شطورها اثنان وثلاثون [٣] والثالثة قصيدة رائية من الطويل في اثني عشر بيتاً [٤] والرابعة أرجوزة على حرف الزاي عدة شطورها اثنان وعشرون [٥] .

والطرديات الأربع يكمل بعضها بعضاً، ففي إحداها وصف الصقرَ وصفاً مستوفىً وأطنب في ذلك ، غير أنه لم يعرّج على الحيوان المصيد ، وفي أخرى نعت الحيوان المصيد نعتاً جيداً ، وفي ثالثة نعت كيفية صيد الصقر ، وفي رابعة نعت المكان الذي اصطيد منه الصقر ووصف الجهد الذي بُذِل لتعليمه الصيد وتضريته عليه ، وهو حين نعت الصقر أعاد جُلّ الصور التي صور بها البازي فقال : رب صقر فاره يفترس الصقور التي تنطلق معه إلى الصيد ويكسر العقبان التي تحاول أن تستلب منه صيده .

إنه يرتدي ثوباً فاخراً مخططاً شيّقاً يستر جسمه ويكشف عن ساقيه ،

---

(١) لنا هالك : في المصايد والمطارد : « لنا هنالك » وهو لا يستقيم معنى ولا وزناً ، والتصحيح من الجمهرة .

(٢) المصايد والمطارد : ٨٥ ، والجمهرة في علوم البيزرة : ٩٣ ، والبيزرة : ١٧٨

(٣) المصايد والمطارد : ٨٦ ، والجمهرة في علوم البيزرة : ٩٣

(٤) البيزرة : ١٧٩

(٥) المصايد والمطارد : ٨٨ والبيزرة : ١٨٠

وتحته قَبــاء من حرير اجتمع له الوشْي مع التنمير ، وتعريج الخطوط مع التدوير ، فأشبه السطور التي ضَمَّ الكاتب الماهر بعضَها إلى بعض .

وهو إلى ذلك رائع الصورة مكتمل الجمــال كأنــّه أُعْطِيَ حقَّ إبداع ذاته فصوَّر نفسه كما يشاء :

يا رب صقر يفرِس الصّقورا

ويكسِر العقبانَ والنـُّسورا

يَجتَابُ بُرْداً فاخراً مَطْرُورا (١)

مُسيَّراً بكتفــه تَسْيـيـرا (٢)

وقــد تَقَبَّى تَحتَه حريرا (٣)

مُشمّراً عن ساقــه تشميرا

يُضاعِفُ الوَشْيُ به التّنْمِيرا (٤)

مُعَرّجــاً فيه ومُستَديــرا

كما يَضُمُّ الكاتِبُ السُّطورا

كأنه قَــدْ مَلَكَ التّصْويرا

لنفسه فأحسنَ التّقْـديرا

ووصف مبلغ رعاية صَقـّاره له ، ومدى عنــايته بتثقيفه وتدريبه منذ أخذَ فَرْخاً صغيراً إلى أن غدا جارحاً مكتملاً صيوداً ، يعرف ما له ومــا عليه ، ويدرك ما للصديق من حق في عنقه :

سَبَاه من كان بــه خَلِيقا

فَرْخاً صغيراً ما أقلَّ موقــا

---

(١) يجتاب : يرتدي ويلبس .

(٢) المُسيّر : المخطّط .

(٣) تقبّى : لبِس القباء .

(٤) الوشي : التطريز ، وجاء في المصايد (المشي) والتصحيح من الجمهرة .

زَيَّنتُه برأيِـه شَفيقـا
كما يَصُونُ العاشِقُ المَعْشُوقا
حتى انتهى وحَمَلَ الحُقُوقا
ونَفَعَ الصاحب والصديقا
وعرف الإيحاء والتَّصْفيقا
وأحسنَ الإمْسَاكَ والتعليقا

ونعت طريقة صيده للغزلان فقال : لقد بدا لنا قطيع من الظباء يمضي في طريقه ، فرفع الصقر رأسه ، وأجال طرفه فحللنا عُقَدَ سيوره وأطلقناه على طرائده فنحا نحو أولاها وحَطّ على هامتها وجعل يلطم وجهها بجناحيه ويلفهما حول رأسها كما تُلَفّ المعاجر على الهامات ، وفي مثل ارتداد الطرف صرعها وأنشب في جسدها مخاليبَ تحكي الخناجر :

فعَنّ لنا من جانب السفح رَبْرَبٌ
على سَنَنٍ تَستَنُّ فيه الجآذرُ (١)
فجلّى وحُلّت عقدةُ السَّيْرِ فانتحى
لأوّلِهـا إذ أمكَنَتْه الأواخِرُ
يحث جناحيه على حرّ وَجْهِه
كما فُصِّلَت فوق الخدودِ المَعاجِرُ (٢)
فما تمّ رجعُ الطرف حتى رأيتها
مُصَرَّعَةً تهوي إليها الخَنَاجِرُ

أما الطرائد التي أطلق عليها الشاعر صقره فهي الظبي — كما رأينا آنفاً —

---

(١) عنّ : بدا ، الربربُ : القطيع ، تستنّ : تسير في طريقها مرحاً .
(٢) المعاجر : جمع معجر وهو ما تلوثه المرأة حول رأسها ، وفي المصايد (المغافر) وكلا اللفظين يؤدي المعنى .

والإوَزْ ، وقد نعت الإوز نعتاً شيّقاً غنياً بالصور زاهياً بالألوان فقال : إن لهذه الإوزات عيوناً حمراً كالعقيق وقد تمنطقت بأوشحة مدبجة مذهبة براقة .

لقد حكم الباري‌ء المبدع لهذه الطيور أن تشوق الناظر فزوّقها لذلك أحسن التزويق ، وحباها أجمل الزينة :

تخال في أحداقِها عَقيقـــا
ولابِسـاتٍ وُشُحاً طروقا [1]
مُدبَّجاتٍ نُطِّقَتْ تَنْطيقا
مُذْهَبَةً ترى لهـــا بَريقا
قَضَى لها الصانع أن تَشُوقا
كأنّما زوّقَهـــا تَزْويقـــا

٨ - اليؤيؤ

للناشى‌ء طرديتان في اليؤيؤ إحداهما أرجوزة عينية مزدوجة الروي عدة شطورها ستة عشر شطراً [٢] ، والثانية قصيدة حائية من البسيط في أحد عشر بيتاً [٣] ، ونتفة صغيرة في ثلاثة أشطر [٤] .

وقد وصف اليآيي‌ء في هذه الطرديات وصفاً مُمَيِّزاً لها مُبْرِزاً لِشيَاتها ، فقال: إن اليآئي أخف الجوارح روحاً وأنجحها مسعى وهي زرق الأجساد، واسعة العيون ، سُفْعُ الخدود مُدَبَّجةٌ مُوَشّاةٌ ، اكتست أثواباً ترى في جمالها قدرة الخالق .

---

(١) الوشحُ : بضمتين : جمع وشاح وهو مـــا ينسج من الأديم عريضاً ويرصّع بالجواهر وتشده المرأة بين عاتقيها .

(٢،٣،٤) المصايد والمطارد : ٩٢ والجمهرة في علوم البيزرة : ٢٧

إنها شثنة السلاميات رحبة المناخر.. لها هامات كالفهر استدارة وصلابة ومناسر كسابة للصيد ومخالب كأظافر الأسود :

إن اليآئي أخفُّ الطير أرْواحا
نعم ، وأسرعُها في السّعْي إنْجَاحا
زرقٌ كأن عيونَ الوحش أعْيُنُها
سُفْعُ الخدود تزينُ الكفَّ والرّاحا [1]
مُدَبّجـــات مُوَشّاةٌ يلامقهـــا
يُوْضِحْنَ عن حِكْمَةِ الرحمن إيضاحا [2]
شَثْنَ السُّلامى رحيبُ المِنْخَرين إذا
مـــا راح من غير بُهْرٍ خلتَه ارتاحا [3]

وصَوّر انقضاضها على طرائدها ، فقال : إنها تهب إلى طرائدها هبوب الريح ، وتمضي إليها مُضِيَّ السهم ، وتنحط عليها انحطاط الشهاب ، وإذا رأيتها تهتز قرماً للصيد وتصيح شهوةً له أدركت ما في صدورها من الحقد على الطرائد :

يَنْقَضُّ كالريح أو كالسهم مُنْخَرِقاً ‏ ‏ ‏ أو كالشهاب إذا ما انصاعَ إيضاحا
يكاد يعلم ما تُخْفِيه مُهْجَتُه ‏ ‏ ‏ من الحقود إذا ما اهْتَزّ أو صاحا

ونعت سطوتها على الطيور وتَمَلُّكَها لنفوسها وفتكها بها ، فشبه أُهُبَ الطيور بأقفالٍ أقفلتها على أنفسها لتحتمي بها ، وَشَبَّهَ اليؤيؤ بالمفتاح الذي يفك تلك الأقفال :

مُمَلّكٌ لنفوس الطير يَنْسِفُها ‏ ‏ ‏ نَسْفاً فيقبِض أجساماً وأرواحا
كأنما أَقْفَلَتْ بالأُهُبِ أنفسَها ‏ ‏ ‏ فكان بالقهر لِلأَقْفَالِ مِفْتاحا

---

(١) سفع : جمع أسفع وهو ما كان أسود في حمرة .
(٢) اليلامق : جمع يلمق وهو الثوب .
(٣) شثن السلامى : غليظ الأنامل .

ووصف في الطردية الأخرى القفاز الذي يتخذه البازيار لليؤيؤ فقال : ُجدْ علي يا صاحبي بِدَسْتُبان طويل الشعر ، مبطن بفراء الثعالب الملمع فهو ُجنَّة كفي ووقاية كوعي :

يا صاح ُجدْ بِدَسْتُبان أفرَعِ [(١)]

ُمبَطَّن بِفَنَكٍ ُملَمَّعِ [(٢)]

ُجنَّة كَفِّ ووقاءُ أكْوُعِ [(٣)]

ُمقَسَّم الأُهَبِ لِكُلِّ أصبعِ

٩ ـ الشاهين

لم يقل الناشىء في الشاهين إلا أرجوزةً واحدةً نونيةً عدة شطورها عشرون شطراً [(٤)] ، وسنعرضها فيما يلي :

سأل الشاعر القَنَّاص قائلا : هل لك في شاهينٍ مثقفٍ أمينٍ معروف الأعراق جيء به من (زِرين) .

ثم ضراه سائسه تارة بالتخشين وأخرى بالتليين ، فأحكم تضريته حتى غدا يدرك وحي الجفون ولحظ العيون :

هل لكَ يا قناص في شاهين

ُشوذَانِق مـؤدب أمـين [(٥)]

---

(١) الدستبان : القفاز الذي يلبسه الصائد في كفه ليقف عليه الجارح ، والأفرع : التامّ الشعر . (٢) الفنك : ضرب من الفراء .

(٣) جنة : وقاية ، والأكوع : جمع كوع .

(٤) المصايد والمطارد : ٨٠ والجمهرة في علوم البيزرة : ٩٠ ونهاية الأرب : ١٠ / ٢٠ والبيزرة : ١٧٦

(٥) الشوذانق: بالشين المعجمة أو بالسين المهملة لفظ فارسي معرب معناه الشاهين ثم غدا – على ما يبدو – وصفاً له .

جاء به السّائِسُ من (زِرِينِ) [١]
ضَرّاه بالتّخْشِين والتلْيِينِ
حتى لأغناه عن التّلْقِينِ
يَكادُ للتثقيف والتّمْرِينِ
يَعرِفُ مَعنَى الوحي بالجفونِ

ثم انتقل إلى وصف شكله البديع فقال : إنه يزدان بجناح كثوب الخز الثمين المُفَوّف ، الناعم ، ويتحلّى بطراز يحكي برد « أنو شروان » أو محظيته « شيرين » :

يَظلّ مِن جَناحِه المُزَيِّنِ
في قُرْطُقٍ من خَزّه الثّمِينِ [٢]
مُفَوّفٍ في نِعْمَةٍ ولِينِ
يُشبِه في طِرازِه المَصُونِ
بُرْدَ «أنو شِروان» أو «شيرِين» [٣]

ثم أنهى الطردية بوصف سلاح هذا الشاهين فقال : إنه ذو سلاح كالدرع المُنَضّد المُحكم المُضاعف النسج الذي تَنِي بعضُه على بعض ، وله مِنْسَر محدد مسنون يحكي في شكله جزءاً من الحاجب المقرون ، ويشبه في اعوجاجه عطف حرف النون :

وشِكّةٍ كَزَرَدٍ مَوْضُونِ [٤]
مُضاعَفٍ بالنسج ذي غُضُونِ [٥]
ذي مِنْسَرٍ مُؤلّلٍ مَسْنُونِ [٦]

---

(١) (زرين) أو (رزين) : اسم موضع ، ولم أجده في معاجم البلدان .
(٢) القرطق : فارسي معرب معناه الثوب .
(٣) شيرين : محظية كسرى أنو شروان .
(٤) الشِكة بكسر الشين : السلاح ، الموضون : المحكم التنضيد .
(٥) الغضون : جمع غضن كلّ تثنٍّ في ثوب أو نحوه .
(٦) المؤلّل : المحدد .

وافٍ كشطر الحاجب المَقْرونِ
مُنْعَطِفٍ مثلَ انعطافِ النُّونِ

١٠ - الزُّمَّج

للناشىء أرجوزة واحدة في الزُّمَّجِ جيمية الروي مزدوجة عدة شطورها عشرون ، مطلعها :

أعددتُ للنُّدمان صيدَ زُمَّجِ   عَبْلَ السَّراةذي قوام عسلج

وقد نعته فيها نعتاً عاماً يشاكل ما قاله في الجوارح الأخرى فخلع عليه القُرْطق المُحَبَّر المُدَبَّج ، والوَشْيَ الدقيق المعرَّج ، والبُرْدَ المُضاعَف المدَرَّج وما إلى ذلك مما يصلُح له ولسواه .

ثم وصفه وصفاً خاصاً بـه بعض الشيء ، فتحدث عن مِنْسَره الطويل القوي الذي يحكي قرن الظبي ، ومنخره الكبير الذي يشبه فُوْق السهم الأفلج ، وساقه الطويل الذي يماثل ساق ولد النعامة فقال :

ذي مِنْسَرٍ كقَرْن َظبْيٍ أدْعَجِ
ومِنْخَرٍ كفُوقِ سَهْمٍ أفْلَجِ[١]
وساقِ هَقْلٍ خاضِبٍ مُضَرَّجِ[٢]

وختم الطردية بالحديث عن كثرة ما صاد به من الطرائد ، حتى راح إلى ندمائه وهو يحمل لهم الخيرَ العميم والعيش الرافه ، فأوسعهم لحماً طُبِخ بعضُه في القدور فأنضج ، وشُوي بعضُه الآخر على النار فلُهْوِج :

سَوَّمْتُه في يومِ دَجْنٍ مُبْهِجِ[٣]
فرحت للشَّرْب بعيش رَهْوَجِ[٤]

---

(١) المصايد والمطارد : ١٠٢ . فوق السهم : الفرضة في آخره حيث يثبت الوتر .
(٢) الهقل : ولد النعام ، والخاضب : الذي أكل نبت الربيع فاحمرت ساقاه .
(٣) سوَّمته : أي خليته للصيد ، ويوم الدجن : يوم الغيم الذي لا مطر فيه .
(٤) الرَّهْوَج : لفظ فارسي معرب معناه : الليِّن السهل .

أوسعتُهم من القَديرِ المُنْضَجِ [1]
ومن حنيذ المُعْجَلَ المُلَهْوَجِ [2]

١١ - الزرّق

للناشىء طردية واحدة في الزُرّقِ وهي قصيدة رائية في أربعة عشر بيتاً [3]، خصصها جميعها لوصف هذا الجارح ، فلم يلتفت إلى الصيد أو إلى الحيوان المصيد أو إلى أي شيء يتعلق بالطرد، ووصفُه للزرق - كما سنرى - لا يعدو أن يكون تكراراً للنعوت التي نعت بها الجوارح الأخرى - فلم يميز الموصوف عما عداه ، ولم يبرز خصائصه وشياته . وسنعرض هذه الطردية فيما يلي :

افتتح الشاعر قصيدته بنداء قَنّاصِه وسأله أو يغدو إليه بِزُرّق مجرّب ذي جناح وافي الريش كثير التّنْمير ، ثم التفت إلى وصفه فقال: لقد اجتمع لهذا الزرق قَدٌّ مبطن بالحرير ، وكفٌّ أسد مفترس مُعوّجٌ الأظافر ، ومِنْسَرٌ مُنعَطِفٌ كقَرن الظّبي الصغير ، وصدرٌ كصدر البازي يحكي في وشيه وتدبيجه ثوباً مطرزاً متعرج الخطوط :

وله فوق ذلك ساقا ولد نعامة وعينا صقر فاره كثير الذعر :

يا قانص اغْدُ علينا بزُرّق مُخَبُورِ [4]
له جناحٌ وثيرٌ مُضاعَفُ التّنْميرِ
مُظاهرٌ بين قَدّ مُبطّنٌ بحريرِ [5]

---

(١) القدير : ما طبخ بالقدر .

(٢) الحنيذ : المشوي ، الملهوج : الذي لم ينعم شيه .

(٣) المصايد والمطارد : ٨٤

(٤) اغد علينا : تعال إلينا في الغداة وفي المصايد « اعد » بالعين المهملة .

(٥) مظاهر : معاون ، والقد : القوام .

وكف سبع هصور ... مُحجّنِ الأظفورِ[1]
ومِنْسَرٍ ذو انعطاف ... كقرن ظبْيٍ غرير
وصدرُ بازٍ طـــريرٍ ... مُفَوّف التّحْبيرِ
كأنـــه ثوب وشْيٍ ... مُعَوّجُ التَسْييرِ[2]
له ظنابيب هَقْـــلٍ ... وعَيْنُ صقرٍ ذعُورِ[3]

ثم أنهى الشاعر قصيدته بالحديث عن صوت الزرق العذب فقال : إن لهذا الجارح صوتاً شجياً كنغمة المزمار ، ولحناً إذا أصغى إليه المرء أسَرَه وألهاه عن الناي وما حفلت به من ألحان البَمّ والزّيرِ :

له بديهـــةُ صَوْتٍ ... كنُبْذَةٍ من زَمِـيرِ
إذا استمرّت لسمع الغـــادِي لشرب الخمـــورِ
ألْهَتْه عن كل ناي ... يحـــكي لِبَمّ وزيرِ[4]

١٢ ـ الجلاهق أو قوس البندق

للناشىء أرجوزتان في وصف الصيد بالجلاهق أولاهما قافية مزدوجة الروي عدة شطورها خمسة وعشرون شطراً[5] ، والثانية عينية مزدوجـة الروي أيضاً عدة شطورها واحد وثلاثون شطراً[6].

وسنعرض أولاهما عرضاً كاملاً ثم نلم بالثانية إلماماً خفيفاً لما بينهما من تماثل.

---

(١) محجّن : معوّج .
(٢) التسيير : التخطيط وفي المصايد(التسنير بالنون) ولا معنى له .
(٣) الظنابيب : جمع ظنبوب وهو عظم مستدق الساق . والهقل : ولد النعام .
(٤) البم : الوتر الغليظ ، والزير : الوتر الدقيق .
(٥) المصايد والمطارد : ٢٥٢ وورد بعضها في نهاية الأرب : ١٠ / ٢٣٥
(٦) المصايد والمطارد : ٢٥٣

افتتح الشاعر قافيتَه بوصف طير الماء وأفاض في ذلك إفاضة كادت تنسيه غرضه فقال : رب منهل يُترعُ قلب الناظر إليه حبُوراً قد انتظمت فوقه أسراب الكراكي الفردة ، وجماعاتُ الطير من صافر وناعق وصغير وكبير وما بين ذلك .

وقد ازدانت هذه الطيور بوشيٍ رائع بارع حلِّيَتْ به صدورها ومناكبها. وكانت تختال عند الماء بأجنحة خفاقة كالقراطق ، وتتبختر في برود ملونة مفوفة كأنها أزهار الرياض .

وهنّ ـ إلى ذلك ـ ذوات عيون حُمْرِ الأحداق كُحْلِ الجفون ، طُوِّقت أعناقهن بالقلائد ، ونُطِّقَت أوساطهن بالزنانير :

ومَوْرِدٍ يُجْذِلُ قلبَ الرّامِقِ [1]
مُنَظَّمٍ بالفُرَّدِ الغَرانِقِ [2]
وكلّ طير صافرٍ أو ناعِقِ
مُكْتَهِلٍ أو بالغ أو لاحِقِ
مَوْشيَّة الصدور والعواتِقِ
بكلّ وَشْيٍ فاخر وفائِقِ
تختال في أجنحة خَوافِقِ
كأنما تختال في قَراطِقِ [3]
يَرْفُلْنَ في قُمْصٍ وفي يَلامِقِ [4]

---

(١) المورد : موضع الورود إلى الماء ، يجذل : يفرح ، الرّامق : المطيل النظر من رمق يرمق .
(٢) الغرانق : طير أبيض من طيور الماء وقيل هو الكركي .
(٣) القراطق: جمع قرطق وهو كساء ذو طاق واحد وهو فارسي معرب .
(٤) اليلامق : جمع يلمق ، وهو القباء المحشو .

كأنَّهُنَّ زَهَـرُ الحدائقِ
حمر الحِداق كُحُلُ الحَمالِق[1]
كأنما يجُلنَ في مَخانِـق[2]
كأنما نُطِّقْنَ بالمَناطِق

ثم انتقل من ذلك إلى الحديث عن صحبه الذين أمَّ بهم هذا المكان ليصيدوا معه فقال: لقد وردت هذا المنهل بفتية نُجُبٍ خِفافٍ إلى الفضائل ذوي حذق ودهاء مُتمَرِّسين بالصيد مُدَوِّخين للطير المعتصم بالقمم السامقة:

وَرَدْتُـه بكل ندب فائقِ[3]
يحوز في الإرْبَة حِذْقَ الحاذِقِ[4]
مُدَوِّخٍ لقُلَـل الشَّواهِقِ[5]

ثم ترك ذلك إلى وصف البندق والقوس فقال: إن صحبي هؤلاء يدوخون الطير ببنادق مُلس خارقة لا تخطىء ولا تضل، يرمون بهن عن قوس مستديرة كريمة الشَّجَر، محكمة الصنع تُوَسِّع عند النَّزْعِ باعَ الرامي، ذات أوتار مجموعة مجدولة كالحبال:

بِمُلُسٍ بَوارِزٍ خَوارِقِ[6]
غير كيودات ولا مَوارِقِ[7]

---

(١) الحمالق: جمع حملاق، وهو باطن جفن العين.
(٢) المخانق: القلائد.
(٣) الندب: السريع إلى الفضائل الظريف النجيب الخفيف إلى الحاجة.
(٤) الإربة: الحذق والدهاء.
(٥) القُلل: جمع قلة وهو أعلى رأس الجبل.
(٦) بملس: من الملاسة والنعومة وهو نعت للبنادق وفي المصايد (بملس) وهو تحريف لا يستقيم معه المعنى.
(٧) كيودات: من كاده كيداً أي حاربه.

يصدُرْنَ بالبُغْيةِ عن فلائِق[1]
كريمةِ النَّبْعَةِ والخَلائِق[2]
تُرْحِبُ في الإنباض باعَ الرَّاشِق[3]
مجموعةِ الأوتار في رَبَائِقِ[4]

أما أرجوزته الثانية التي قالها في الجلاهق فقد حذا فيها حذو الأولى خطوة فخطوة فافتتحها بوصف المورد الذي اجتمعت عليه الطيور فقال :

يا رُبَّ ضحضاح قريب المشرعِ[5]
مُطَّردٍ مثل السيوف اللمعِ
مُجلَّل بسابحات وُقَّعِ

ولما أتم وصف الطير انتقل إلى الحديث عن أصحابه الكرام الذين ورد بهم هذا المورد فقال :

بكُلِّ مأمولِ النَّدَى سَمَيْدَع[6]
مُجَرَّبٍ مُوَفَّقٍ مُوَقَّعِ[7]

ثم انتقل من ذلك إلى وصف البندق والرمى ، فقال عن البنادق:

مثل الدَّحاريجِ التي لم تُصْدَعِ
كُبِبْنَ من حُرِّ الأديم الأرْفَعِ[8]

---

(١) الفلائق : جمع فلقة وهو القوس المتخذ من نصف دائرة .
(٢) النبع : شجر تتخذ منه السهام والقسي ، الخلائق : جمع خليقة وهي الطبيعة التي يخلق بها الانسان .
(٣) الإنباض : جذب الوتر .
(٤) الربائق : جمع رِبق بالكسر وهو حبل فيه عدة عُرى وكل عروة رِبقة .
(٥) الضحضاح : الماء اليسير القريب القعر.
(٦) السميدع : الذكي النابة وهو يطلق في الأصل على الشيطان .
(٧) الموقّع : المجرَّب المبتلى الذي أصابته الرزايا .
(٨) كببنَ : أي جعلن كبباً وفي المصايد (كثبن) وهو تصحيف لا يستقيم معه المعنى.

ثم ختم الطردية بذكر ثمرات الصيد التي عمت أصحابه فقال :

ظَلُّوا به في ظِلِّ عيش أوْدَعِ

خصائص شعر الطرد عند الناشىء :

بعد أن عرضنا شعر الطرد عند الناشىء ذلك العرض الشامل الوافي أصبح في وسعنا تقويم هذا الشعر والوقوف على خَصَائِصه .

وقبل الخوض في ذلك ، يحسن بنا أن نقف على طريقة الشاعر في بناء طردياته .

لقد تحرر الناشىء في افتتاح طردياته من المطالع التقليدية التي التزم بها سلفه أبو نواس ومعاصره ابن المعتز فهو لم يستعمل كلمة « قد أغتدي » التي توارثها شعراء الطرد عن امرىء القيس إلا مرّة واحدة في طردياته الأربع والعشرين ولم يستعمل كلمة « أنعت » التي أكثر الشعراء الآخرون من استعمالها إلا مرّتين اثنتين ، ولم يستعمل « لمَّا » الحينية إلا مرة واحدة .

وتحرَّر الناشىء أيضاً من التزام بحر الرجز المزدوج الروي إلى حد كبير ، فجعل نصف طردياته أراجيز ونصفها قصائد فيها الطويل والبسيط والمتقارب وغيرها .

وتحرر أيضاً من الالتزام بوصف الليل وانسلاخ النهار منه ، فلم يفعل ذلك إلا في ثلاث من طردياته ، مَسَّ فيها هذا الجانب مساً خفيفاً لا إيغال فيه – كما هو الشأن عند ابن المعتز – فلم يعطِه إلا بيتاً واحداً باهتاً حيث قال في إحدى هذه الطرديات [1] :

قد أغتدي والليل في حجابه   لم يَحْلُلِ العقدة من نِقابِه

وقال في الثانية [2] :

---

(١) المصايد والمطارد : ١٥٢   (٢) البيزرة : ١٧٩

غدونا وطرْفُ الليل وَسْنانُ غائرُ   وقد نزل الإصباح والليل سائرُ

وقال في الثالثة [1] :

لمّا تفرّى الليل عن أسباجه   وارتاح ضوءُ الصبح لانبلاجه

ثم إن هناك أمراً رابعاً يُلحَظُ في بناء الطردية عند الناشىء هو أنه محّضها - أو كاد - لوصف الحيوان الصائد من جارح أو ضارٍ ، وأهمل وصف الطراد والصيد ، وأغفل نعت الحيوان المصيد إلا في القليل النادر ، مما أفقد هذه الطرديات معناها الأصيل وجرّدها من أحد عناصرها الهامة وجعل إطلاق اسم « الطردية » عليها أقرب إلى المجاز بعد أن جُرّدَتْ من الطرد [2] .

وصفوة القول هي أن الشاعر حوّل الطرديات إلى ضرب من الوصف موضوعه الجوارح والضواري .

والوصف المحض لا يحتاج إلى مقدمات وخواتيم ، ولا يقتضي رجزاً أو روياً مزدوجاً ، وإنما يستوجب من الوصّاف أن يوفّي الموصوف حقه من النعت ، وقد فعل الناشىء ذلك على أفضل وجه في أكثر طردياته .

الخصائص المعنوية لشعر الطرد عند الناشىء :

لعل أبرز الخصائص المعنوية لشعر الطرد عند الناشىء هو أنه زاد في موضوعات هذا الشعر زيادة رحّبت آفاقه وجدّدت فيه ، فقد وصف « عَناق الأرض » [3] ، وهو ضارٍ اختُصّت به الروم والأعاجم وقلّ وجوده عند العرب ، ووصف الصيد « بابن عرس » [4] ، وهو حيوان ندر استعماله في الصيد ، إذْ أن المُعتَبَر من الضّواري ثلاثة هي الكلب والفهد

---

(١) المصايد والمطارد : ٦٧

(٢) انظر المصايد والمطارد : ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٤ ، ٨٠ ، ٨٥ ، ٩٢ ، ١٠٢ ، ١٩٧ .

(٣) المصايد والمطارد : ٢٢٥   (٤) المصايد والمطارد : ٢٢٧

وعَناق الأرض ، ووصف صيد الأسد بالزبية [١] ، وصيده باللباد [٢] ، وهي موضوعـــات لم يطرقها أحـد من شعراء الطرد الذين تناولناهم بالدراسة ولا نحسب أن أحداً طرقها قبله ، وإنما كان له فيها فضل السبق والريادة ، ثم إن كثيراً من طرديات الناشىء اتسمت بالموضوعية وحفلت بالحقـــائق العلمية ، فنَمَّتْ على شخصية عـالمة بطبائع الجوارح والضّواري ، واقفة على الصيد وأساليبه ، فهو حين وصف البازيّ والصقر واليؤيؤ مَيَّزَ هذه الجوارح الثلاثة تمييزاً واضحـاً ، وحين نعت الصيد بابن عرس وصيد الأسد بالزبية واللبـــاد صَوَّرَ ذلك للقارىء تصويراً جلياً وَوَقَفَهُ عليه ، كما لو كان يقرؤه مبسوطاً في كتاب ، بل إنه أربى في الإيضاح على ما جاء في كتب البيزرة ، فقد قال كشاجم في صيد ابن عرس للثعلب « وهو يصيد الثعلب صيداً مليحـاً يدخل إليـه مشدوداً في عنقه حبل ثم يجـــذب فيخرجه معه » ولم يزد على ذلك شيئاً [٣] ، فجاء الناشىء يصف للقارىء احتراس الثعلب واعتصامه في حجره ، واعتقاده أن ذلك يقيه من كيد القانصين وكلاب الصائدين إلى أن قال [٤] :

وليس يجري في بنات صدرِهِ
أن ابن عرس قاصِمٌ لظهرِهِ
وهاجِمٌ عليـه في مَقـرِّهِ
أعْجبْ به مُقتَحِماً في وَكْرِهِ
وخيطُـــه معلّق بِنَحْرِهِ
حـــتى إذا أمرتُهم بِجَرِّهِ
جروه فاستخرجه من قعْرِهِ
لله مـــا أعظَمه بِهَصْرِهِ

---

(١) المرجع السابق : ١٨
(٢) المصايد والمطارد : ١٨١
(٣) المصايد والمطارد : ٢٢٧
(٤) المصدر نفسه .

وَقدّه أو قطَّعَه من خَصْرهِ
وذبحــه بنابــه وظُفرهِ
لكنه بعصره وَقسْرهِ
أحسنَ في استحيائِه وأسْرهِ

فقد نعت الصيدَ بهذا الجارح نعتاً أربى على ما قاله كشاجم، وكشف عن عن طريقته في إخراج فريسته، فتارةً يَقْضي عليها، وتارةً أخرى يبلغ الغاية حين يخرجها سليمة صحيحةً يُنْتَفَع بفرائها.

وما يقال في صيد ابن عرس يقال في صيد الاسد بالزُبية واللبّاد، فقد اكتفى كشاجم عند حديثه عن الأسود بقوله : « ومنها ما يصاد باللبابيد يستتر فيها الرجال »[1]، ثم ترك للناشىء وغيره أمر وصف الصيد باللباد.

ثم إن طرديات الناشىء مثّلتْ بعض جوانب العصر الذي قيلت فيه من النواحي الاجتماعية والحضارية والسياسية، وقد بدا ذلك في عدة أمور منها: أنه وصف الجوارح والضّواري وصفاً جَمالِياً يلائم ذوق القارىء ويتسق مع روح العصر، فلم تبْقَ هذه الحيوانات الكاسِرة رمزاً للقوة فحسب، وإنما غدت مظهراً من مظاهر الجمال، فعَناقُ الأرض الذي ضَرَبَ العرب المثل ببطشه فقالوا : « لقي فلان عَنَاق الأرض »[2] أي داهية.

جاء الناشىء فقال فيه[3]:

لكِنّه كفتاة الحيّ بارزة ... من خدرها مالىءٌ للعين مَوْدودُ
حلو الشمائل في أجفانه وَطفٌ ... صافي الأديم هضيم الكشْحِ مَمْسُودُ
فيه من البدر أشباه موافقـة ... منها له سُفَعٌ في وجهه سُودُ
كوجه ذا وجهُ هذا في تَدوُّره ... كأنه مِنه في الأشكال مَقدُود

---

(١) المصايد والمطارد : ١٩٧
(٢) انظر الصيد والطرد : ٨٣
(٣) المصايد والمطارد : ٢٢٦

ثم قال في أنعت ذنبه :

كآستين على غضنين تعطفها ... من جانبيه وفي الرأسين تحديدُ

كعنبر عَرَّجَتْه في سوالفها ... من بعدما قَوَّمَتْه الغادةُ الرُّودُ

وما هذه الصورة إلا واحدة من صور كثيرة رأيناها ونحن نعرض طردياته .

بل إن الشاعر بالغ في تغليب الصبغة الجمالية على هذه الحيوانات حتى خرج في بعض الأحيان على الحقائق العلمية ، وذلك حين صوّر الزُّمَّج بصورة طير من طيور الزينة ثم جعله ذا تغريد عذب يَحْسُن في الآذان ويلهي أخا اللذات عن لذاته والاستماع إلى البم والزَّمْر ، مع أنه لا يوجد بين هذه الجوارح طائر غرد يتصف بشيء من هذه الصفات التي خلعها الشاعر على الزُّمَّج [1] .

ومنها : أنه أعطى القارىء صورةً دقيقةً ملونةً لملابس الناس وأزيائهم التي كانوا يؤثرونها في عصره ، وذلك حين وصف أجنحةَ جوارحه وريشَ جسدها ومَثَّلها بما كان يلبسه المترفون من برود يظاهر بعضُها بعضاً فتكتمل باجتماعها لِبْسَةُ الرجل الأنيق ، من ذلك قوله في الصقر [2] :

يجتاب برداً فاخراً مَطْرورا ... مُسَيَّراً بكتفه تَسْييرا

وقد تَقَبَّى تحتَه حريرا ... مُشَمَّرا عن ساقه تشميرا

يضاعف الوَشْيُ به التنميرا ... مُعَرَّجاً فيه ومستديرا

وأمثال هذه الصورة كثيرة في طردياته التي وقفنا عليها من قبل .

ومنها : أنه أشار إلى شيوع الكتابة في ذلك العصر حين شَبَّه نَمْنَمَةَ ريش جوارحه ووشيها بخطوط الكاتبين ، وسطور الألواح ، وحروف الكلم ، وأكثر من ذلك كثرة تعاب عليه .

---

(١) المصايد والمطارد : ٧٥

(٢) المصايد والمطارد : ٨٥

ومنها : أنه ألمع إلى مكانـــة الفرس في المجتمع العبـاسي بصورةٍ غير مباشرةٍ ، وذلك حين أكثر من استعمال الألفاظ الفارسية المعربة من أمثال « اليلامِـــق » و « القَراطِق » و « الشَّوْذَنِيق » و « الدَّسْتبان » و « الرَّهْنوَج » وغيرها .

وحين شبه وشي شاهينه بِبُرْدِ « أنو شروان » ومحظيته « شيرين » فقال [1] :

يشبه في طرازه المصون　　　بُرْدَ أنو شروان أو شيرين

وحين شبه سلاحه بدرع « يزد جرد أو شروين » فقال [2] :

وشِكَّةٍ كزَرَدٍ موضون　　　مُضاعَف بالنسج ذي غُضُونِ

كدرع يَزْدَجُرْدَ أو شروين

ثم إن هذه الطرديات صوّرت تهالك بعض الناس في هذا العصر على المتع واللذات وابتذال أنفسهم في سبيلهـا حتى غدا السيد في هذا المضمار مسوداً والعبدُ معبوداً ، من ذلك قوله في أحد غواة الصيد الذي مـا زال يَرُوضُ طباع نفسِه حتى جعلها وفق هوى كلبه ، شأنــه في ذلك كشأن العبد الذي يجعل سلوكه طبقاً لما يرتاح له سيده [3]:

يا رب كلب رَبُّه في رزقِه
يرى حقوقَ الناس دون حقِّهِ
متبعاً في خُلْقِه لِخُلْقِه
كأنمــا يملك عقد رِقِّهِ
يصونه بِجُلِّه ودِقِّهِ
كآمِلٍ من مالِكٍ لِعتْقِه

وهذا آخر يبلغ ولعه بصقره أن ينذر النذور في سبيل سلامته وبقائه [4]:

(١) المصايد والمطارد : ٨٠
(٢) المصدر نفسه .
(٣) المصايد والمطارد : ١٥٥
(٤) المصايد والمطارد : ٨٦

سَباه مِنْ شاهِقَةٍ صغيرا
من كان بالرفق به جديرا
ينذُر في بقائـه النُّذورا

ثم إن هذه الطرديات اشتملت على طائفة من المعاني الجزئية الطريفة ، من ذلك قوله في اتقاد عينَيِ البازي[1]:

لو استضاء المرء في إدْلاجِـه ... بعينه كفَتْه عن سراجِـــهِ

وقريب من هذا المعنى ما قاله في عيني الفهد[2] :

وعينان لو تُدْنِي إلى قبسيهما ... ذبالاً تَذكَّى منهما وتَضَرَّما

ومن ذلك قوله في تصوير جمال الصقر[3]:

كأنه قـــد مَلَكَ التصويرا ... لنفسه فأحسنَ التقديرا

ومن ذلك قوله في بأس اليؤيؤ وتسلطه على الطير مهما احترزت منه[4]:

مُمَلَّكٌ لنفوسِ الطير ينسِفها ... نَسْفاً فيقبِض أجْساماً وأرواحَا
كأنما أقفلت بالأهْبِ أنفسَهـــا ... فكان بالقَهْرِ للأقْفال مُفتاحا

ومن ذلك قوله في تصوير ولع الكلب بالصيد وارتياحه له[5]:

يُراح أنْ يُدْعَى ليغْتَدَى به ... رَوْحَةَ ذي النشوة من شرابه

ونظائر هذه المعاني ليست قليلة في شعره، غير أن الناشىء شابَ موضوعيَّته التي أشرنا من قبل ومعانيَه الطريفة التي ألممنا بها الآن ببعض الشوائب .

منها : عدوانه على الحقيقة حين زعم أن لبعض الجوارح أصواتاً شجية عذبة ، وذلك كما في المثال الذي أوردناه من قبل وكما في قوله عن اليؤيؤ[6]:

---

(١) المصايد والمطارد : ٦٨
(٢) المصايد والمطارد : ١٩٨
(٣) المصايد والمطارد : ٨٥
(٤) المصايد والمطارد : ٩٣
(٥) المصايد والمطارد : ١٥٢
(٦) الجمهرة في علوم البيزرة : ٢٧

يصفر كالملحن المُرَجِّعِ بِرَونَقِ المَبْدأ حُلوِ المَقطَعِ

ومنها : تكرار المعاني وترديد الصور على وجه يورث الملالة ، وهي آفة أصابت شعراء الطرد جميعاً حين أكثروا من القول في موضوع محدود ، وفيما قدمناه من شواهد كثيرة دليل على ذلك .

ومنها : تلك المبالغات التي لا يرتاح إليها الذوق أحياناً من ذلك قوله في صلابة رأس الفهد ، وحدّة نابيه [1] :

له هامة لو أنّ كفّاً رَهِيشَةً دَحَتْهَا على صُمّ الصّفا لتَهَدّما
ونابان لو يَسْطُو الزمانُ على الورى بِحَدّيْهما كان الحِمامُ مُقَدَّما

وقوله في كف الزُّرق التي تحكي كف سبع هصور [2] :

له جنــاح وثــير وكف سبع هَصُور

وقوله في ظنابيب ساقيه التي تشبه ظنابيب ولد النعام [3] :

لـه ظنابيب هَقْل وعينُ صقرٍ ذَعُورِ

ومنها : أخذه من الآخرين ، من ذلك قوله في الطينة التي اتخذ منهـا البندق [4] :

مثل الدّحاريجِ التي لم تُصْدَعِ كُبِبْنَ من حُرّ الأديم الأرْفَعِ
لا مَلِحِ الرّمْلِ ولا المُشَمْشَعِ

أخذه من قول أبي نواس [5] :

بَنَادِقــاً تُعْجِبُ لاستوائِها من طينةٍ لم تَدْنُ من غَضْرائِها
ولم يخالطهــا نَقَا ميثائِهـا

(١) المصايد والمطارد : ١٩٨
(٢ و ٣) المصايد والمطارد : ٧٤ - ٧٥
(٤) المصايد والمطارد : ٢٥٤
(٥) الديوان : ٦٦٨

وقوله في عيني اليؤيؤ [1] :

ويـؤيـؤ مهـــذّب رشيـــقَ كأنَّ عينيـه لدى التحقيق

فصّان مخروطـــان من عقيق

أخذه من قول أبي نواس [2] :

كأن عينيه إذا مـا أثـأرا َفصّان ُقضّا من َعقيقٍ أحمَرا

وأمثال ذلك ليست قليلة في شعره .

الخصائص التصويرية لشعر الطرد عند الناشيء :

الناشيء َوصّافٌ ماهرٌ قـادرٌ على جلاء الموصوف ووضعِه تحت البصر ، ولا غرو فـإنَّ َفنَّ الطرد يقوم على الوصف ، فهو في جملته وتفصيله نعتٌ للحيوان الصائد ، والحيوان المصيد وما يدور بينهما وما يتصل بهما ، والشاعر الذي لا يملك القدرة على التصوير لا ينحو منحى هذا الفن ولا يستكثر منه .

والصور عند الناشيء تمتاز بطائفة من السمات :

منها : استيفاء الموصوف ، فهو يتناول المنعوت تناو ُلاً شامِلاً ُيلِمُّ بأبرز جوانبه . ولا يغفل الدقـائق من صفاته إذا كانت تساعد على إيضاح الصورة أو تزيينها فهو حين وصف الفهد في قصيدته الميمية ـ مثلاً ـ [3] جعل يتأمل موصوفـَه عضواً عضواً ويستجلي ملامحَه التي ُتعَبِّر عنـه ، لا فرق في ذلك بين الجوانب الكبيرة أو الصغيرة ما دامت موحِيَةً ُمصَوِّرةً ، شأنه في ذلك كشأن الرسام الذي يتأمل الشخوص الماثلة أمامه وينقل ملامحها إلى ألواحه .

---

(١) المصايد والمطارد : ٩٢ (٢) الديوان : ٦٥١

(٣) البيزرة : ١٢٩

ولإيضاح ذلك لا بد لنـا من أن نستعيد بعضَ مشاهد تلك الطردية التي وصف فيها الفهدَ حيث قال :

يلوح على خديه خَطـّان عُرِّجا ... قليلا ورُدّا هابطَيْن فقوّمـا

فهذان الخطان اللذان يلوحـان على خدي الفهد هما – على ضآلة شأنهما – علامتـان فارقتان مميزتان لهذا الحيوان من غيره ، لذلك تجد الشاعر يتتبعهما منذ هبوطهما من الأعلى حتى يبلغـا مكاناً في أسفل الوجه يرتدان عنده إلى أعلَى قليلاً في شيء من التعرج .

وهذه صورة أخرى أكثر دقةً واستيفاءً من سابقتها وأوفى عناية بدقائق الموصوف التي تُجدِي على الصورة :

مُفتَّل عضُدَي ساعديه كأنما ... أُعيرا بقِدٍّ ثم شُدَّ فأبرِمَا

فنِيطَتْ فضولُ الساعدين وأحكِمَتْ ... برسغين لُزّا بالوُصول فأحكِمَا

تَضَمَّنَ أظفـاراً كأن حجُونَـها ... حجونُ الصَّياصِي أعجزَتْ أنْ تُقلَّما

أرأيت إلى هـذا التأمل الطويل لعضدي الفهد وما يتصل بهما من ساعدين ورسغين وما ينبثق عنهما من أظافر كيف أدّى إلى استيفاء الصورة وإحكامها؟

ومنها : أن الشاعر يُعنَى في صوره بالألوان ويوليها أهميةً كبرى؛ لما لها من أثر في إبراز الصور وتزيينها ، من ذلك قوله في الطيور [(١)] :

يَرفُلْنَ في قُمُصٍ وفي يَلامِقِ ... كأنهُنَّ زَهَرُ الحَـدائِقِ

حُمْر الحِداقِ كحُلُ الحَمَالِقِ ... كأنمـا يَجلُنَ في مَخانِقِ

وقوله فيها من طردية أخرى [(٢)] :

من كلّ مَوْشِيّ الطراز أذرَعِ ... مُوَشَّح بمرْطِـه المُجَزّعِ [(٣)]

كأن عينيه ولمّـا يُهْرَعِ ... فَصّا عقيقٍ رُكّبا لإصبَعِ [(٤)]

---

(١) المصايد والمطارد : ٢٥٢ (٢) المصايد والمطارد : ٢٥٣

(٣) يقال ثور مذرع إذا كانت في أكارعه لمع سود ، المجزع : الذي فيه خرز يماني له بياض وسواد . (٤) يهرع : يرعد من غضب أو فزع أو حمى .

وقوله في البازي[1] :

مكانُ سواد العــين منه عقيقة وتِبْرٌ على خطٌ البياض يدورُ
له قُرْطُقٌ ضافي البنائِق أنمر مُفوّفُ ضاحِى الشقتين طريرُ

وقوله في الصقر[2] :

أحمرُ رحْبُ الجوْفَ مخْطوفُ العجُزْ
كأنمـا الريش عليـه حمل خزْ
كأنمـا جِملاقـه زنّـارُ قزْ
كأنمـا ينظر من بعض الخرَزْ
أنْمَرُ من عزّ به في الصيد بزْ

ومنها : ازدحام الصور في المشهد الواحد وتراكم خطوطهـا بعضها فوق بعض مما يُحْوِجُ القارىء إلى تأملها بأناة ، وممـا يشير إلى الجهد الذي بذله الشاعرفي تخطيطهاوتنميقها وإتقانها،ولعل خير ما يمثل ذلك قوله في البازي[3] :

له قُرْطُقٌ ضافي البَنائِق أنْمَر مُفَوّفٌ ضاحِي الشقتين طريرُ
ومن تحْتِه درع كأنّ رقومَه تعاريجُ وَشْيٍ أرْضُهُنّ حريرُ

أرأيت إلى هذه الصورة المتقنة كيف ازدحمت فيها الخطوط وتراكمت مما أدى إلى تعقيدها وأوجب على متأملها أن يطيل النظر فيها حتى يستجلي جمالها ويمتع حسّه وعقله ببراعة رسمها .

وهل تأملتَ القرطقَ السابغ الأنمر المُفَوّف الطرير وقد جُعِل في شقتين إشارة إلى جناحي البازيّ .

---

(١) المصايد والمطارد : ٦٨ (٢) البيزرة : ١٨٠
(٣) البيزرة : ١٦٨

وهل أمعنت النظر فيما تحت هذا القرطق من درع ذات رقوم تحكي تعاريج وَشْيٍ على أرضٍ من حرير .

وأمثال هذه الصورة ليست بقليلة في شعره .

وقد استعان الناشىء على إبراز صوره بالتشبيه فأكثر منه ، وأبدع من خلاله طائفةً من الصور الدقيقة الجميلة ، من ذلك قوله في مِنسر الشاهين[١]:

ذي منسر مُؤَلَّل مسنون وافٍ كشطر الحاجب المقرون

منعطف مثل انعطاف نون

وقوله في سرعة عَدْو الكلب وخِفّة وطأته على الثرّى وإخراج أظافره عند الحاجة إليها[٢] :

يخط في البُرثُن في ترابه خَطَّ يد الكاتب في كِتابه

مُلْتَقِطاً للخطو في انتدابه لَقْطَ يد الماهر في حسابه[٣]

يُنَصِّلُ الأظْفُورَ من قَنَابِه كما تَسُلُّ السيفَ من قِرابِه[٤]

وقوله في كلب أصفر اللون بالَغَ كلاّبُه في تضميره حتى هزل[٥] :

تراه في تسريحه وربقِه كعاشقٍ أضناه طولُ عشقِهِ

أصفر يلهي العينَ حسنُ خَلْقِه كذهب أبرزته من حقّه

وقوله في هامة الأسد وفمه وساعده ومبتسمه[٦] :

---

(١) البيزرة : ١٧٧

(٢) المصايد والمطارد : ١٥٢ ، ١٥٣

(٣) لقط يد الماهر في حسابه : إشارة إلى طريقة العرب في العد وعقد الأصابع عند كل عشرة .

(٤) ينصل : ينزع ويخرج ، القناب : غطاء الظفر .

(٥) المصايد والمطارد : ١٥٥

(٦) المصايد والمطارد : ١٨١

كمِجَنّ الحرب هامَتُه وكَمغفور الغار رحبٌ فمه
وكفِهْرِ القِيدِ ساعِدُه وكوَهْدٍ رحْب مُبتسمه

وكما استعان الشاعر على إبداع صوره بالتشبيه فقد استعان بالاستعارة أيضاً، من ذلك قوله في رامي البندق الذي يُرْدِي ببنادقه طير الماء[1] :

يُهْدي بِنَيّاتِ الدواهي النُزّعِ إلى بُنَيّات الميـــاه الرتّع[2]

فهو قد شخّص كلّا من الدواهي والمياه وجعل لهن بنيات.

وقوله في ثوب القانص الخَلَق البالي[3] :

ذا عليه طِمْرُ ذي شَمَثٍ مَلّتْ الأيامُ من قِدَمِهْ

فهل هناك تصوير لقدم شيء أبرع من هذا التصوير الذي يُشخّص الأيام ويحملها على طولها الذي لا يُحدّ تمَلّ من قِدَمِ هذا الثوب ؟

وقوله في البازي حيث صوّره بطائفة من الاستعارات[4] :

ألبَسه الخالق من دِيباجِـــه ثوباً كفَى الصانعَ من نِساجِه
حالٍ من الساق إلى أوْداجِه وَشْياً يحار الطرف في اندراجه

ولو رحنا نستقصي صور الناشيء في طردياته لطال بنـــا المقال، وفيما أوردناه دليل على سواه.

الخصائص اللفظية لطرديات الناشيء

تتسم ألفاظ الناشيء في طردياته بثلاث سمات :

---

(1) المصايد والمطارد : ١٢٦

(2) المصايد والمطارد : ٢٥٤

(3) المصايد والمطارد : ١٨٢

(4) البيزرة : ١٧١

أولاها : الإلفُ والبعدُ على الغرابة إلا بالمقدار الذي تقتضيه طبيعة الموضوع، ولا عجب في ذلك فمصره عَدَلَ عن وحشِيّ الكلام إلى مأنوسه، كما لاحظنا من قبل .

وثانيتها : كثرة الألفاظ الحضارية التي دارت في طردياته حتى غدت طابعاً مميزاً له ، وذلك من أمثال : الوشي ، والتفويف ، والخَزّ والحرير ، والديباج والعنبر والحلي، والطراز ، والوشاح ، والعقيق ، وما إلى ذلك حتى إنه فاق في هذا المضمار ابن المعتز ربيب القصور .

وثالثتها : الإكثار من الألفاظ الفارسية المعربة التي أشرنا إليها في غير هذا المقام من أمثال : اليَلامِق ، والقَراطِق ، والشَوذَنيق ، والدَسْتبان ، والرَهْنَوَجِ ، وغيرها .

الخصائص الموسيقية لطرديات الناشىء :

إن أول ما يلفت النظر في موسيقى طرديات الناشىء هو عدوله عن الرجز إلى القصيد في نصف طردياته ، والرجز أخف الأوزان حركة وأكثرها جَرْياً مع الفطرة ، وأشدها قرباً من طبيعة الطرد وتمثيلاً له .

ولعل السبب في إيثاره للبحور الهادئة الطويلة في بعض طردياته هو أنه أهمل جانب الطرد فيها واقتصر - أو كاد - على وصف الجوارح والضواري وصفاً هادئاً يقوم على التأمُّل المُستَأنى أكثر مما يقوم على الحركة المتوثبة .

بَيْدَ أن ذلك لا يعني أن الناشىء لم يُولِ الموسيقَى في طردياته كلها ما تستحقه من اهتمام ، فنحن نجد له طائفة من الأراجيز والقصائد حفلت بطاقات موسيقية موحية معبرة مصورة .

خذ مثلاً أرجوزته الزائية في الصقر [1] ، واستعدها أكثر من مرة ،

---

(١) البيزرة : ١٨٠

ومثع سمعك بما حفلت به من موسيقى مردهـا إلى بحر الرجز المتوثب وإلى حرف الزاي الذي اتخذه الشاعر رويا لأرجوزته فطفق يَئِزُّ في الأذن كأزيز القدر التي تغلي :

أنعتُ صقراً جـل باريه وعَزْ
نَدْباً إذا قدّم ميعـاداً نَجَزْ
مُجتَمِعَ الخلق شديداً مكتَنِزْ
أحمر رحب الجوف مخطوف العَجُزْ
كأنما الريش عليه حمـل خَزْ
كأنمـا حِملاقُـه زنارُ قَزْ
كأنمـا ينظر من بعض الخَرَزْ
أنـمَرُ من عزّ بهِ في الصَّيْد بَزْ
أمضى من العَضْب إذا ما العَضْبُ هُزْ

على أن الموسيقى في شعر الناشىء لا تأتي من البحر والروى فحسب ، وإنَّما لهـا مصادر أخرى أهمها توأوم الألفاظ وإقامة لونٍ من التوازن فيما بينها ينبعث عنه جرْسٌ موسيقي لا يقل عن نغمة البحر جمـالاً وتأثيراً في النفس ومن ذلك قوله [١] :

ومَوْرِدٍ يُجنْدِل قلبَ الرّامِقِ
مُنتظمٍ بالغُـرّد الغَرانِقِ
وكلِّ طيرٍ صافِرٍ وناعِقِ
مُكتَهِلٍ أو بالغٍ أو لاحِقِ
مَوْشيَّة الصدور والعـواتِق
بكلّ وَشْيَ فاخرٍ وفائِقِ

---

(١) المصايد والمطارد : ٢٥٢

ففي هذه الأبيات الثلاثة طائفة من الألفاظ جاءت كلها على وزن «فاعل» من أمثال : صافر ، وناعق ، ولاحق ، وفاخر ، وفائق ، فكان لهذا التوازن بينها نغمة لا تقل عن نغمة البحر والروي عذوبة وتأثيراً .

ومن مصادر موسيقاه ايضاً إكثاره من جناس الاشتقاق وهو ضَرْبٌ من الصنعة يُضْفِي على الشعر نغمةً عَذْبَةً تنبعث عن تكرار الحروف الأصلية في المُشْتَقّات التي تنتمي إلى أصلٍ واحد من ذلك قوله في الصقر [1] :

أنعت صقراً كُرّزاً بطريقا
وقد تَقَبّى يَلْمَقاً رشيقا
مُفَوّفاً مُلَفّقـاً تَلْفيقا
فيـه خطوط نُمّقَت تَنْمِيقا
كأحرف عَلّقْتَهـا تَعْلِيقا

ومن ذلك قوله في الكلاب وفراهته على الصيد [2] :

يُرَاح أن يُدعَى ليُغْتَدَى بِهِ
رَوْحَةَ ذي النشوة من شرابِهِ
يخـط بالبُرثُن في ترابِهِ
خطّ يد الكاتب في كِتابِهِ
مُلْتَقِطاً للخطو في انتِدابِهِ
لَقْطَ يد الماهر في حِسابِهِ

وبعد ، فإن الناشىء عَلَمٌ من أعـلام شعر الطرد في العصر العباسي رَحّبَ آفاقه ونَوّع موضوعاته وأغنى معانيه وحرّره من كثير من تقاليده. لكنه انحرف به كثيراً عن غرضه فحوّله إلى ضرب من نعت الجوارح والضواري بعد أن كان نعتُها فقرةً من فقراته تسبقها وتلحقها فقرات أخرى يتم بها بناء الطردية ويتحقق لها معنى الطرد .

---

(١) الجمهرة في علوم البيزرة : ٩٣
(٢) المصايد والمطارد : ١٥٢

عبد الله بن المعتز

ترجمتــه :

هو عبد الله بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد وينتهي نسبه إلى العباس عم الرسول صلوات الله عليه، وكنيته أبو العباس ، ولقبه المرتضي بالله، لُقّب به يوم بُويع بالخلافة .

ولد ابن المعتز في بغداد سنة سبع وأربعين ومائتين [1] وبها نشأ كما ينشأ أترابه من أولاد الخلفاء في عز الملك وبسطة العيش وترف القصور، لكنه كان مع ذلك ذا شغف بالعلم وأهله، فتلقى الأدب واللغة على المبرد وثعلب، وأخذ الغريب عن صَعود صاحب الفراء ، وسمع من أحمد بن أبي فَنن ، وأفــاد من الحسن بن عليل العَنَزِي ، واتصل بفصحاء الأعراب الذين كانوا يفدون من البادية على(سُرَّ مَنْ رأى)،وانقطع زمناً إلى مؤدبه أحمد بن سعيدالدمشقي، ونشأ في الرواية والسماعة [2] ، فغدا « غزير الأدب ، كثير الشعر ، واسع الفكر ، جَمّ الحفظ والعلم ، بارع الفضل ، يحسن في النظم والنثر ، وكان أول من صنّف في صنعة الشعر فألف كتابَ « البديع » وله تصانيف أخرى

---

(١) وفيات الأعيان : ٢ / ٢٦٣

(٢) انظر أشعار أولاد الخلفــاء : ١٠٧ ، وتاريخ بغداد : ١٠ / ٩٥ ومعاهد التنصيص : ١٩٤

كثيرة منها : مكاتبة الإخوان بالشعر ، وكتاب السرقات ، وكتاب أشعار الملوك، وكتاب فيه أرجوزة بذم الصبوح»[1] وكتاب طبقات الشعراء وغيرها.

وكان إلى ذلك « حسنَ العلم بصناعة الموسيقى والكلام على النغم وعللها وله في هـذا الفن كتب مشهورة ، ومراسلات تدل على فضله وغزارة علمه وأدبه [2] » .

وكان ابن المعتز صاحب صيدٍ وقنص ُمولعاً بالجوارح والضواري عالماً بها مما جعله يؤلف فيها كتاباً سماه « كتاب الجوارح والصيد » .

وقد ظل ابن المعتز ممتعاً بحياته منصرفاً إلى كتبه تارة ولهوه وأنسه تارة أخرى حتى شغِب بعض القواد على المقتدر فخلعوه وولوا ابن المعتز مكانه فقبل الخلافة شريطة ألا يُقتَل بسببه مسلم ، لكنه مـا لبث أن اجتمع أصحاب المقتدر ، وحاربوا أعوان المعتز فشتتوهم وأعادوا المقتدر إلى الخلافة بعد يوم وليلة،فاختفى ابن المعتز في دار ابن الجصاص حتى أخذه المقتدر وسلمه إلى مؤنس الخادم فقتله في شهر ربيع الآخر سنة ست وتسعين ومائتين [3].

شاعريته وشعره :

أطنبَ بعض النقاد القدماء في شعر ابن المعتز وشاعريته إطناباً جاوز الحد ونزل به آخرون ، فنعته الصولي بأنه شاعر مفلق محسن ، حسن الطبع من شعراء بني هاشم المتقدمين [4].

وقال عنه ابن خلكان إنه « كان أديباً بليغاً شاعراً مطبوعاً مقتدراً على الشعر

---

(١) وفيات الأعيان : ٢ / ٢٦٤

(٢) انظر الأغاني : ١٠ / ٢٧٦

(٣) انظر ابن خلكان : ٢ / ٢٦٣ ، ومعاهد التنصيص : ١٩٦

(٤) معاهد التنصيص : ١٩٤ ، انظر أشعار أولاد الخلفاء : ١١٣

قريب المأخذ سهل اللفظ جيد القريحة حسن الإبداع للمعاني، له أشعار رائعة وتشبيهات بديعة »[1].

وقال الثعالبي : « عهدي بالخوارزمي يقول : من روى حوليات زهير واعتذاريات النابغة وأهاجي الحطيئة وهاشميات الكميت ونقائض جرير والفرزدق وخمريات أبي نواس وزهديات أبي العتاهية ومدائح البحتري ، وتشبيهات ابن المعتز وروضيات الصنوبري ولطائف كشاجم وقلائد المتنبي ولم يتخرّج في الشعر فلا أشبّ الله تعالى قرنه »[2] . وقال العبامي : « هو أشعر بني هاشم على الإطلاق وأشعر الناس في الأوصاف والتشبيهات »[3]

وقال الحصري (كان ابن المعتز في المنصب العالي من الشعر والنثر وفي النّهاية من إشراق ديباجة البيان والغاية من رقة حاشية اللسان ، وكان كما قال المرزباني : إذا انصرف من بديع الشعر إلى رقيق النثر أتى بجلال السحر وليس بعد ذي الرُّمة أكثر افتناناً وأكثر تصرفاً وإحساناً في التشبيه منه [4] وكان عبيد الله بن عبدالله بن طاهر يقول عنه : « هو أشعر قريش لأنه ليس منهم من له مثل فنونه » .

وكان أبو العباس أحمد بن يحيى يقدمه ويقول «هو أشعر أهل زمانه»[5]. أما ابن رشيق فقد َنبّه في قراضة الذهب على الكثير من سرقاته [6] .

غير أن الذي أنصَفَه على مـا يبدو هو أبو الفرج ، حيث جعل شعره ثلاثة أضرب : فهو مُحْسِنٌ في الكثير ، متوسط في البعض ، مقصر في اليسير منه [7] .

---

(١) أشعار أولاد الخلفاء : ١٠٧

(٢) وفيات الأعيان : ٢ / ٢٦٣

(٣) ثمار القلوب : ٢١٦

(٤) زهر الآداب : ١ / ١٧٦

(٥) أشعار أولاد الخلفاء : ١١٣

(٦) بروكلمان : ٢ / ١٢٣

(٧) الأغاني : ١٣ / ٢٧٤

ولابن المعتز ديوان شعر طبع أكثر من مرة ، فقد نشره في بيروت السيد محيي الدين الخياط سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة وألف ، ونُشِرَ في مصر في مطبعة المحروسة سنة إحدى وتسعين وثمانمائة وألف للميلاد .

وطبع بعد ذلك في مطبعة المعارف في استانبول حيث نشرته جمعية المستشرقين الألمانية سنة خمس وأربعين وتسعمائة وألف وعُني بتصحيحه المستشرق : ب . لوين وهي طبعة محققة متقنة مستوفاة ، ومن يتتبع ديوان ابن المعتز يجده قد طرق أبواب الشعر المعروفة في عصره كلها من مديح وهجاء ، وعتاب ورثاء وزهد ووصف وخمر وغزل ، ويجد أن باب الطرد قد احتل مكاناً رحيباً من ديوانه .

ونحن سندرس فيما يلي جميع طردياته ثم نعقب عليها بكلمة نوضح فيها خصائص هذا الفن عنده .

طرديات ابن المعتز

الطرد – كما أشرنا من قبل – ضرب من اللهو يحتاج إلى فراغ عريض ، ومال وفير ، وإنسان متفتح للحياة ، مقبل على متعها ولذاتها ، وابن المعتز كان كذلك وأكثر من ذلك .

لذا أقبل على الصيد بعقله فألّف كتاباً في جوارحه وضواريه ، ومارسه بشخصه فصاد وقنص وتتبع الوحش في الفلوات ورصد الطير في الجو وكمن له على مساقط المياه . وعبر عن ذلك بقريضِه فحفل شعره بباب للطرد كبير ، اشتمل على خمس وأربعين طردية بين مقطوعة صغيرة وقصيدة كبيرة ، وردت جلها في ديوانه المطبوع ، ووثقتها مصادر أخرى أهمها : أشعارُ أولاد الخلفاء للصولي ، والمصايد والمطارد لكشاجم ، والجمهرة في علوم البيزرة للأسدي ، والمختارات للبارودي ، ونهاية الأرب للنويري ، وكتاب البيزرة . وقد تناول ابن المعتز في طردياته الصيد بجل أشكاله وأدواته ، فقال في

الكلاب ، والبزاة ، والصقور ، والزُّرَّق ، والشواهين ، والفهود ، وقِسِيّ البندق ، وقصب الدَّبْق ، والشبك ، والخيل .

ونحن سنلم بطردياته كلها حسب موضوعاتها دارسين مقومين وسنجعل مرجعنا الأول ديوانه المطبوع في الآستانة ، وسنشير إلى المصادر الأخرى كلما دعت الحاجة إلى ذلك .

١ - كلاب الصيد

لابن المعتز في كلاب الصيد ثلاث عشرة طردية وصفها فيها وصفاً حسياً جسدياً ألمّ ببعض أجزاء جسمها البارزة فنعت عيونها الصافية ، وآذانها الطويلة ، وقوائمها المَتينَة ، وبراثنها الحادة ، وبطونها الضامرة ، وخصورها الناحلة ، وما إلى ذلك ، كما وصفها وصفاً معنوياً ألمّ بخفة حركتها وقوة شدها ومظاهر فراهتها وما شاكل ذلك .

فاستمع إليه وهو ينعت كلباً من كلابه نعتاً حسيّاً جسدياً فيقول : رب كلب ضامر الجسم ، ناحل الخصر ، وثيق الأعضاء ، ذي أذن بعيدة المدَى ، تحاكي في شكلها أوراق السوسن ، وبُرْثُنٍ حاد يشبه في حدته ونفوذه مثقب الحذّاء ، ومقلة قليلة القَذَى صافية صفاء قطرات السحب [١] :

وَمُخْطَفٍ مُوَثَّقِ الأعضاءِ [٢]
ذي أذن ساقِطَة الأرْجَاءِ [٣]
كوردة السَّوْسَنَةِ الشَّهْلاءِ [٤]
وَبُرْثُنٍ كَمِثْقَبِ الحَذَّاءِ

---

(١) الديوان : ٢ ، وأشعار أولاد الخلفاء : ٢٠٧ (٢) المخطف : الضامر .
(٣) ساقطة الأرجاء : بعيدة المدى . (٤) السوسن : الزنبق .

ومقلةٍ قليلة الأقذاءِ [١]

صافيةٍ كقطرة السماءِ

وهذه صورة حسية جسدية أخرى لكلب آخر يقول فيها : أنعت كلباً مُزَعْفَرَ الإهاب مهفهف الجسم وثيق الأعضاء ، منتعلاً بأخمص مشقوق ، يملأ نفس القانص وحسه [٢] :

أنعتُه مُزَعْفَرَ القميصِ [٣]

مُهَفْهَفاً مُوَثَّقَ الفُصُوصِ [٤]

يملأ نفس القانصِ الحريص

مُنْتَعِلاً بأخمصٍ مَفْرُوصِ [٥]

وهذه صورة ثالثة لكلبة كثيرة الحركة موفورة النشاط تأبى أن يضبطها مكانٌ ، شبهها الشاعر عند تمطيها بالجان ، ومثّلها برمح ، فجعل جسدها قناتَه وخَطْمَها سِنانه فقال [٦] :

وكلبةٍ غدا بها فِتيانُ

أبَتْ فما يضبطها مكانُ

كأنها إذا تمطّتْ جانُ

أو صَعْدة وَخَطْمُها السِّنانُ [٧]

(١) الأقذاء : جمع قذى وهو ما يقع في العين من قش أو غبار .

(٢) الديوان : ٤ / ٤٩

(٣) المزعفر : الذي له لون الزعفران أو الذي صبغ به ، القميص : استعارة للإهاب .

(٤) المهفهف : الضامر البطن الرقيق . والموثق : المحكم ، والفصوص : جمع فَصّ : وهو ملتقى كل عظمين ، ويقال للفرس: إن فصوصه نظاء: أي ليست برهلة كثيرة اللحم .

(٥) الأخمص: ما دخل من باطن القدم فلم يصب الأرض، والمفروص : المشقوق المقطوع.

(٦) انظر الديوان : ٤ / ٤١ ، وأشعار أولاد الخلفاء : ٢١٩

(٧) الصّعدة : القناة المستوية التي نبتت كذلك فما تحتاج إلى تثقيف ، والخطم : مقدم الأنف .

وهذه صورة رابعة لكلب ضامر الجسم ذي قوائم أربع خفيفة الحركة قوية الشدّ ، ذات أظفار كأشافي القين ، إذا علقت بظبي من الظباء لاقى حتفه [١] :

قد أغتدي في ثوب ليل ضافي [٢]
بمُخْطَفٍ ذي أربع خِفافِ [٣]
يملؤها شدّاً بكيل وافِي [٤]
كأنما أظفارُه أشافِي [٥]
ما للظباء معه من كافي

ولعل ذلك الذي أوردناه هو كل ما جاء في طرديات ابن المعتز الثلاث عشرة من نعت لأعضاء الكلاب وشياتها الجسدية .

أما صفاتها المعنوية وبخاصة سرعة جريها وقوة شدّها ، وخفة وثبتها وثقوب نظرتها ، فقد أولاها من اهتمامه أكثر ما أولى صفاتها الجسدية ، وله في ذلك صورٌ بارعة ونعوت جديدة رائعة ، من ذلك قوله في كلبة : إنها زهت على الكلاب بما حباها الله من شمائل ، فهي تفوق في سرعتها لحظة الانسان المرتاب ، وتنساب وراء طريدتها انسياب الأراقم على الصعيد ، وتنظر من مقلة لا تضل ولا تخطىء ، حتى لكأنها موقوفة على الصواب [٦] :

قد أغتدي والليلُ كالغُرابِ
داجي القناع حالكُ الخِضابِ

(١) الديوان : ٤ / ٣٢ (٢) الضافي : السابغ .
(٣) المخطف : بضم الميم الضامر ، اللاحق : ما خلف الحزم من بطنه .
(٤) الشدّ : العدو السريع .
(٥) الأشافي : جمع أشفية وهو المخرز .
(٦) الديوان : ٤ / ١٠

بكلبة تامت على الكلاب
تفوت سَبْقاً لحظةَ المُرْتابِ
تنسابُ مثل الأرقم المُنْسابِ
كأنمــا تنظر من شِهابِ
بِمُقْلة وقفٍ عــلى الصّوابِ

فهل رأيت أسرع من ارتداد الطرف ولحظة العين، ثم هل رأيت في لحظ العيون ما هو أسرع من لحظة المرتاب المذعور؟ لقد كانت كلبة الشاعر أسرع من ذلك كله، وهذه صورة أخرى لسرعة العَدْوِ أعمق من سابقتها معنى، وأرحب خيالاً، وأكثر طرافة وجدّة.

إنها صورة مـا بين اليدين والرجلين من ميثاق لا يُخْلَفُ ووَعْدٍ لا يخيس، فاليدان لا تزالان تَعِدان بالجري السريع، والرجلان مـا تفتآن تقتضيان ما وعدت به اليدان[1]:

غدوتُ للصيد بِغُضْفٍ كالقدَدْ[2]
عواصِفٌ منتهيات لِلأمَــدْ
ما يَسْتَتِرْ دُهاالشوطُ من عَدْوٍ تَزِدْ
وتقتضِي الأرجلُ والأيدي تَعِدْ

ونعت الشاعر حرص كلابه على الصيد وشدة غرامها به ومبلغ نُجْحِها فيه وأتى في ذلك بطائفة من الصور الحية والمعـاني اللطيفة فهذه كلبة تُفَـادِي الظباء بموت عاجل كالسم الزعاف، وهي مولعة بفرائسها ولع الخليل الرفيق بخليله، غير أنها تختلف عن الأخلاء بعناقها الشديد الجافي وبأنها لا يشفيها من

---

(١) انظر الديوان: ١٩٤، وأشعار أولاد الخلفاء: ٢١٢

(٢) الغضف: جمع أغضف: وهو الطويل الأذنين مع استرخاء فيهما، القدد: جمع قِد بالكسر وهو سير يعد من جـلد غير مدبوغ، يقول إنـه بكر إلى الصيد بكلاب طوال الآذان ضامرة كالقدد.

جواها اللثمُ والعناق والضم ، كما هو شأن المحبين ، وإنما يكون شفاؤها من شرب دماء من أحبت ، حيث يقول في كلب [1] :

ما للظبـــاء معه من كافي
حتف يغـاديهن بالذُّعَـافِ [2]
خِلٌ رفيقٌ واعتناق جـافي [3]
ليس له غيرُ دم من شافي

وهذه صورة رائعة تمثل مدى حرص كلابه على الصيد، فهي كلاب ضامرة البطون تخالهن لفرط ضمورهن نُقَّهاً خرجن وشيكاً من المرض ، إنهن يصدن للقانص بهن كل ما يرومه وما يشتهيه ، وهن لشدة ولعهن بالصيد لا يكففن عنه إلا إذا كَفَّ عنه القانص ، وإذا ما خُلِّينَ من قلائدهن لم يرجعن إلا بما يشأن من الصيد لا بما يشاء لهن الحظ ، وهن حين يُطْلَقْنَ للصيد فلا يَحْتَجِنَّ إلا لقولة « ها » ، أما إذا أريد زجرُهُنَّ عنه فلا بد من الصياح ، لأنك تَكُفُّهُنَّ عما يُحْبِبْنَ وتذودهن عما يشتهين [4] :

قدنا لغزلان الدُّجَيلِ والمَها [5]
ضوامِراً تحسِبُهُنَّ نُقَّهَـا
يَصِدْنَ للغادي بِهِنَّ ما اشتهى [6]
وما انتهت قطُّ به حتى انتهى

---

(١) انظر الديوان : ٤ / ٣٢

(٢) الذعاف : العاجل والسريع .   (٣) الجافي : الخشن القاسي .

(٤) انظر الديوان : ٤٢/٤ ، وأشعار أولاد الخلفاء : ٢١٩ والمصايد والمطارد : ١٥٤

(٥) الدجيل : اسم مكان بالقرب من بغداد .

(٦) للغادي بهنّ : لمن يغدو للصيد بهن .

إنْ خُرِطَتْ من قِدِّها لم تَرَها[1]
إلا وما شاءَتْ من الصَّيْدِ لَها
يُشْلَيْنَ بالزَّعْقِ ويُدْعَيْنَ بِ(ها)[2]

وهو ينعت كلابه بالذكاء والفطنة ، فهي تعرف حقوق أصحابها عليها ، وترعَى مصالحهم فيما تصيده لهم ، وآية ذلك أنها تحافظ على الطرائد سليمة من كل أذى فلا تجرحها ببرثن ولا تدميها بناب ، من ذلك قوله في كلبته وقد صادت كثيراً من ذكران الأرانب، ثم قدمتها له خالصة من كل أذىً[3]:

فكم وكم من خُزَرٍ وثّابِ[4]
قد قصمته بَشَبا الأنيابِ[5]
ومنعته جَوْلَةَ الذّهابِ
لم تُدْمِه حِفْظاً على الأصحابِ

وقال فيها أيضاً ، وقد رأت ظباء وصادتها فحافظت عليها كما حافظت على ذكران الأرانب من قبل[6] :

رأت ظباءً رُتَّعَ الأسْرابِ
فأخذَتْ عشراً بلا إتْعابِ
لم يُدْمِ صيداً فمُها بنابِ
حفظاً وإبْقاءً على الأصحابِ

---

(١) خُرطت من قدها : أطلقت من قلائدها .
(٢) يشلين : يدعين ، والمراد به هنا الزجر عند الصيد ، ويدعين : أي إلى الصيد ، و « ها » : حرف للتنبيه ، والزعق : الصياح .
(٣) الديوان : ٤ / ١٠ ، وأشعار أولاد الخلفاء : ١١٠
(٤) الخزر : ذكر الأرانب وجمعه خزان .
(٥) بشبا الأنياب : حد الأنياب .
(٦) الديوان : ٤ / ١١ ، وأشعار أولاد الخلفاء : ٢١٠ مع اختلاف في الرواية .

أما الطرائدُ التي أطلق عليها الشاعر كلابه فهي الظباء والأرانب ، وهو قلما نعتها نعتاً وافياً أو قريباً من الوفاء ، وإنما يكتفي بإيراد اسمها مع نعت خفيف قد يقتضيه الوزن أو تستدعيه القافية، من ذلك قوله في كلبة [1]:

رأت ظباءً رُتّعَ الأسرابِ

وقوله في أخرى [2] :

وَنجمَت لِلحظها غزلان
يقدُمها مُهَفْهَفٌ يقظان

وقوله في كلب [3] :

ما للظباء معه من كافي

وقوله في كلبة [4] :

فكم وكم من خُزَر وَثّابِ
قد قصمَته بشبا الأنيابِ

٢ ـ البزاة

خصّ ابن المعتز البزاة بعشر من طردياته وتناولها فيها تناولاً أوفى من تناوله لكلاب الصيد وأكمل، وعرضها عرضاً أبرع وأجمل، ولا غرو فالبازي من جوارح الملوك وابن المعتز واحد منهم .

فقد وصف البزاة وصف حَفِيٍّ بها ، فجلاها للناظر في صور مشرقة تملأ العين جمالاً ، والقلب جلالاً ، وتجعل القارىء يبصر الجارح من خلاله شعره ، كما لو كان ماثلاً أمامه ، يرمقه بعينيه ويمسه بيديه ، فانظر إليه وهو يجلو صفات بازيّه الجسدية من مقلته الثاقبة التي زانت رأسه فبدت كمسمار من ذهب، إلى انتصابه على شمال بازياره كما ينتصب الأمير المزهوّ بعطاياه وجوده ، إلى

(١) الديوان : ٤ / ١١
(٢) الديوان : ٤ / ٤١
(٣) الديوان : ٤ / ٣٢
(٤) الديوان : ٤ / ١٠

مِنسَرِه الذي يحكي السِّنان المرهف المخضب بدمله طرائده ، إلى ذيله الريان ذي الريش المُشاكِل للقصب ، وقد أسبله على جسم أبيضَ نقيٍّ كالقطن ، إلى حلل الكتّان ذواتِ الأهداب التي أُلقيَت عليه فسَرْبَلتْهُ حتى ساقيه [1] .

ذو مُقلَةٍ تَهتِكُ أستار الحَجُبْ
كأنهـــا في الرأس مِسمارُ ذَهَبْ
يَعلو الشمالَ كالأمـــير المُنتَصِبْ
أمكَنَه الجودُ فأعطَى ووَهبْ
ذو مِنسَرٍ مثلِ السِّنان المُختَضِبْ
وذَنَبٍ كالذيل رَيّان القَصَبْ [2]
أُسبِلَ فوقَ عُطبَةٍ مِنَ العُطَبْ [3]
كأنَّ فوقَ ساقِه إذا انتَصَبْ
مِنْ حلَلِ الكتّان راناً ذا هُدُبْ

وهذا بازيٌّ آخَرُ أروَعُ من ذاك منظراً وأبهَى مُجتَلَىً ، فهو مكتمل السلاح ، أقمر ، أزهر ، كالملك المتوّج ، ذو مقلة نقية صافية ، ولحظ مضطرب مضطرم ، ومخلب كالحاجب الدقيق المزجج ، وجنـــاح أبرش الباطن أحمر الظاهر أُسبِل على جسده كما يُسبَل الطيلسان المدبّج على مليك مترف [4] :

(١) الديوان ٤ / ٧ ، وأشعار أولاد الخلفاء : ٢٠١ ، والمصايد والمطارد : ٦٧ ، والبيزرة : ١٧٠

(٢) القصب : أنابيب من جوهر والقصب كل عظم مستدير أجوف .

(٣) العطبة : القطن

وهدب الثوب : ما على أطرافه ، ودمقس مُهَدَّب : ذو هُدّاب .

(٤) الديوان : ١٥/٤ وأشعار أولاد الخلفاء : ٢١٠

وَمُكمِلٍ شِكّته مُدَجّجِ [1]
أقمرَ مثــل الملك المتوّجِ [2]
ذي مقلة نقيّة المُحَجّجِ [3]
مُقيمةٍ واللحظ يَمْضِي وَيَجِي [4]
وَجَفنِ عينٍ كشفاء المحدجِ [5]
ومخلبٍ كالحاجب المُزَجّجِ [6]
أبرش بُطنانِ الجناح الدّيزَج [7]
كطيلسانِ المَلِكِ المُتَوّجِ

وهذه صورة ثالثة لباز لا تقل عن سابقتيها دقة واستيفاءً وجمــالاً ، فبازيُّه يقف في وسط المُتَصَيّد وقفة الفـارس المنتصب كالسور الحصين ، يرسل بصره فيجلو كلّ شَبَحٍ ناءٍ بعيدٍ ، وهو ذو صدر كالرخام المَرْمَار مَوْشِيّ مُنَمْنَمٍ كَمُصْحَفٍ مُسطّر ، وله مقلة صفراء ذهبية كالدينـار ، ترفع جفناً ذا هدب كطرف الزنار ، ومخلب محـــدد معطوف كعطف المسمار [8] :

جلا لكل شَبَحٍ نائي الدّارْ [9]
فارسُ كفٍّ ماثلٌ كالأسْوار [10]

---

(1) الشّكة بالكسر السلاح . (2) الأقمر : الأبيض .
(3) المحجج : العظم الذي يحيط بالعين من أعلى ومن أسفل.
(4) يجي : مسهلة من يجيء المهموزة .
(5) المحدج : ملعقة طويلة يجوف بها السويق وشفاء المحدج : طرفه يشبه به الجفن .
(6) المزجج : المرقق .
(7) الديزج : كلمة فارسية معربة معناها لون الجواد الأسود الضارب إلى الحمرة . الأبرش : هو الذي خالط لونه لون آخر . بطنان الجناح : باطنه .
(8) الديوان : ٢١/٤ (9) جلا : كشف .
(10) فارس كف : كناية عن البازي لأنه يحمل على اليد ، وفارس فاعل جلا .

ذو جؤجؤٍ مثلُ الرُّخامِ المَرْمَارْ (١)

أو مُصحفٍ مُنَمْنَمٍ ذي أسْطارْ (٢)

ومقلةٍ صفراءَ مثلِ الدينارْ

ومخلبٍ مثلِ عطفِ المسمارْ

ولم يكتفِ ابن المعتز بوصف البازي وصفاً حسياً يبرز شِيَاته وألوانه ويصور شكله وهيئته وإنما نعته نعتاً معنوياً أيضاً، فوصف بُعْدَ نظرته ونُجْحَه في صيده وقدرته على طرائده، فها هو ذا يقول: لقد غدوت إلى الصيد مرتدياً ثوب الليل الخَلَق، ومعي بازيٌ يرمي بنظراته البعيدة في كل أفق، إنه ميمون النقيبة فاره على الصيد، ما أبصر طريدة إلا نالها، وما اتجه نحو طائر إلا ولحق به، وهو لشدة قَرَمِه للصيد يكاد يحترق حين يَرْمِي به القانص عن كفه (٣):

غدوتُ في ثوبٍ من الليلِ خَلَقْ

بِطارِحِ النظرةِ في كُلِّ أفُقْ

مبارك إذا رأى فقد رُزِقْ

أو طار نحو صيده فقد لَحِقْ

وإن رَمَتْهُ الكفُّ كادَ يحترِقْ

وها هي ذي صورة ثانية للبازي يبرز فيها الشاعر شهوته للصيد وارتياحه إليه، وولعه به، فهو لا يزال معلق الألحاظ بالأشباح بحثاً عن الطرائد، فإذا أبصرها ركض وراءها بجناحيه كركض جواد السبق في الأرض الرحبة الواسعة (٤):

---

(١) الجؤجؤ: صدر الطائر. المرمار: الناعم يقال جسم مرمار أي ناعم.

(٢) منمنم: مزخرف مرقش.

(٣) الديوان: ٤/٣٤، وأشعار أولاد الخلفاء: ٢١٨

(٤) الديوان: ٤/١٦

قد أغتدي في نَفَس الصباحِ [1]
بِقَرِمٍ للصيد ذي ارتياحِ [2]
مُعَلَّقِ الألحاظ بالأشباحِ
يركض في الهواء بالجَناحِ
كرَكْض طِرْفِ السَّبْقِ في البَرَاحِ [3]

ثم إن الشاعر نعت مطاردة البازي للطيور المتصيدَة وصوّر فتكه بها وذعرها منه، وأبدع في هذا المجال طائفةً من الصور البصرية السمعية الملونة الزاخرة بالحركة والحياة. من ذلك نعته لبازٍ زَرَعَ الرعب في قلوب الطيور فسلبها نعمة الأمن، وحرمها طعم الاستقرار؛ فهي لا تكاد تحط على مائها حتى يزعجها عنه خوفها منه، فهو قد حَكَّم فيها مِنسَراً حاداً مضمّخاً بنجيعها ومِخْلَباً منضوحاً بدمائها جعلها تلوذ منه بكل ملاذ، وتملأ الجو صراخاً من بأسه وخطفه [4]:

أخافَ طيرَ أرضِه ودوَّخَا
يُعْجِلُها في مائها أن تَرْسَخا
حَكَّمَ فيها مِنسَراً مُضَمَّخا
ومِخْلَباً بدمها مُنَضَّخا [5]
عوائِذاً من خَطْفِه وُصرَّخَا

وهذه صورة ثانية لبازٍ أبصر طائفة من طيور الماء تسبح آمنة مطمئنة في غدير بين الرياض، فانقضّ عليها انقضاض السهم المريش، ولم يحد عنها حتى بلغ منها أربه، فإذا هي بين صريع ومصعوق، وممزّق تطاير ريشه في كل صوب [6]:

---

(١) نفس الصباح: ظهور الصباح.
(٢) القرِم: بالتحريك: شدة الشهوة في اللحم.
(٣) طرف السبق: جواد السبق، البراح: المتسع من الأرض التي لا زرع فيه ولا شجر.
(٤) الديوان: ٤/١٧ (٥) مُنَضَّخا: مرشوشا.
(٦) الديوان: ٤/١٤

آنَسَ في نَوَّارِ رَوْضٍ قد سَمَقْ [1]
سَوابِحاً في متنِ جُنِّيٍّ غَدَقْ [2]
فطارَ كالقِدْحِ المَريشِ المُخْتَرِقِ [3]
ما صافَ عن قِرْطاسِهِ حتى خَرَقْ [4]
مات الذي أصاب منها أو صُعِقْ
وطَيَّرَ الريشَ على الأرضِ مِزَقْ

٣ - الزرق

خصّ ابن المعتز الزُّرَّق بأربع من طردياته، والزرق - كما عرفنا من قبل - صنف من البزاة أصغر منها جسماً وأخف طيراناً وأقل قدرة على الصيد، إذ أنه يعجز عن صيد ما تقنصه البزاة من كبار الطيور كالكركي [5]، وقد نعته ابن المعتز في طردياته الأربع نعتاً لا يخرج عن نعت البازي في شيء وخلع عليه ما خلعه على البازي من أوصاف وخلال، ولولا أنه ذكره باسمه وحاول مرة أن يوازن بينه وبين البازي ويرفعه إلى مرتبته ما استطاع القارىء أن يدرك أنه أمام جارح جديد غير البازي.

فانظر إليه وهو يمزج نعته الحسيّ الجسديّ بخلاله المعنوية فيقول: إنه لزرق متمرس بالصيد طويل التجربة في ميادينه شديد الإقدام عليه، وهو إلى ذلك رائع الصورة تام الحسن، إذا نظرتَ إليه وهو على يد الغلام للقانص خلته بلونه الأبيض المشوب بالسواد صبحاً تسربل بدرع من الظلام [6]:

---

(١) النوار: الزهر: وسمق: علا.
(٢) الغدق بالفتح: الماء الكثير، وغدقت العين بالماء: غزرت.
(٣) القدح المريش: الذي ثبت عليه ريشه.
(٤) صافَ السهم عن الهدف: عدل عنه، القرطاس: الغرض.
(٥) انظر ص: ٤٥ من هذا الكتاب.
(٦) الديوان: ٣٩/٤

وزرقٍ مجرَّبٍ مِقدامِ
صار من الحُسن إلى تمامِ
كأنه فوقَ يد الغُلامِ
صبحٌ له درعٌ من الظَّلامِ

ثم يتابع وصفه فيشبه ما على جؤجئه من نَمْنَمَةٍ وترقيش بنمش الرخام أو بأسطر كُتِبَت بدقاق الأقلام فخفيت حروفها ولم يستبن نقطها :

ذي جؤجؤ كَنَمَش الرُّخامِ
أو أسطر دقيقة الأقلام
خَفِيَّة الأحرف والإعجامِ

ثم ترك ذلك إلى وصف مقلته التي تُجَلِّي الوهاد ، وتكشف النجاد ، وتنفُضُها نفضاً والتي تتقد في حِجاجها كما يتقد السراج ، وتنتهب الأماكن البعيدة بطرْفها الذي يسمو إلى كل شيء ويناله :

ينفُض غَيْبَ القُفِّ والآكام (١)
بمقلة تُسْرَجُ كالضِّرامِ
يَنْتَهِبُ البعدَ بِطَرْفٍ سامي

وهو ينعته في طردية أخرى نعتاً قريباً من ذلك فيصف جؤجؤه المطرز المَوْشِيَّ ، ومقلته التي تتعلق بالأبعاد القصيَّة وَتَلْتَمع في محجرها كما يلتمع دينار الصيرفي ، وثوبه القُوهي الذي تسربل به ، وساقيه اللذين يشبهان غصنين من الذهب المجلوّ : (٢) .

ذي جؤجؤ مُحَبَّرٍ مَوْشِيِّ (٣)
ومقلة تلحق بالقَصِيِّ

(١) القف : ما بين النشزين من الأرض .
(٢) الديوان : ٤ / ٤٣ (٣) المحبَّر : الموشيُّ .

كأنها دينار صيرفي
واتصلت برانه القوهي (١)
ساق كغصن الذهب المجلو

ثم يختم الصورة بوصف سلاحه المتمثل في منسره ومخالبه ، وشجاعته التي تضاهي شجاعة الأبطال الكماة ، وإبائه الذي يجعله يعلو على الأباة (٢) :

وافي السلاح بطل كمي
أشوص أبّاء على الأبي (٣)

وهو يوازن بينه وبين البازي في طردية أخرى فيرفعه إلى منزلته بل يسمو به عليه (٤):

ما زادنا البازي على حسابه
ولا وددنا أنه لنا به
بل خطفه أسرع إذ نرضى به(٥)
وهو أخف منه إذ يغدى به

من هذا العرض السريع لما قاله ابن المعتز في الزرق نقف على تلك الصور الرائعة البديعة غير أن تكرارها في أثواب متقاربة في الألفاظ ذهب بالكثير من بهائها وروائها ، ولكن ما حيلة الشاعر والمجال أمامه ضيق يحمله على الترديد والتكرار ، وما الذي يقنع القارىء وهو يطمع أن يتحفه الشاعر في كل لحظة بجديد يحرك نفسه ويمتع حسه ويغني خياله .

---

(١) الران : كالخف إلا أنه لا قدم له. والقوهي: نسبة الى« قوهستان » من بلاد فارس.
(٢) الديوان : ٤ / ٤٣
(٣) الأشوص : الذي يضرب جفن عينيه ولعلها محرفة عن الأشوس .
(٤) الديوان : ٤ / ٦
(٥) إذ نرضى به : لعل صوابها « إذ نرمي به » بمعنى نطلقه على الطرائد .

٣ - الصقور

لابن المعتز أربع طرديات في الصقر أولاهـــا بائية من السريع مزدوجة الروي مطلعها :

قد أغتدي والصبح كالمشيب
بقـــارح مسموم يعبوب

وعدة شطورها عشرون شطراً أنفق الشاعر ثلاثة عشر منها في وصف جواده الذي غدا به إلى الصيد ، ثم التفت إلى صقره فقال فيه سبعة أشطر نعته فيها بإحكام الصيد وحذقه وولعه به واستجابته له وما تعانيه الطيور من كَسْرِه وشَدّه ، فهو سوط عذاب مسلط عليها يهوي فوقهـا هُويّ الماء في البئر ويتبعها مهما نأتْ عنه ، ذلك بأنه لم يطر إلا ليعود ظافراً [١] :

وأجْدلٍ أُحْكِمَ بالتأديبِ [٢]
صبٍّ بكف كلِّ مُستَجيبِ
سَوْط عذاب واقِـع مَجْلوبِ
يهوي هُوِيَّ الماء في القَليبِ [٣]
مُتثَبِـمــاً لطمع قَريبِ
وإن نأت مَسارِحُ المطلوبِ
مـــا طار إلا لدم مَصْبوبِ

وأما الثانية فرائية من السريع أيضاً عدد شطورها ستة فقط وصف فيها صيد الصقور للإوَز فقال : لمـــا سمونا على نشَزٍ من الأرض وأبصر الصقر طرائده هَزَّ جناحيه كما تهز الرمح القصير المغروز في الأرض وانطلق نحوهـا وهو يَحُزُّ أعناق الرياح التي تعترض طريقه ، حتى انقضّ عليها وسامها نقراً

---

(١) الديوان : ٤ / ٨ ، وأشعار أولاد الشعراء : ٢٠٩ ، ونهاية الأرب : ١٠/ ١٩٨
(٢) الأجدل : الصقر (٣) القليب : البئر .

بمِنسره ووَخزاً بمخالبيه ، وكان يبدو من شدة قرمه إليها كمن يبتغي في رأسها كنزاً ، فهو يحرص عليه أشد الحرص ويبذل في سبيله غاية الجهد [1]:

لما رآها وعَلَوْنا نَشْزَا [2]
هَزَّ جناحيه إليها هَزّا
كما هززت النَّيْزَكَ المُرْتَزّا [3]
يَحُزُّ أعناق الرياح حَزّا
وسامها قَبْضاً ونقراً وَخْزَا [4]
يطلبُ في رؤوسهن كَنْزَا

وأما الثالثة فظائية من السريع أيضاً عدة شطورها ثلاثة [5] وصف فيها الصقر بالقسوة على طرائده والفظاظة في صيدها، فما بينه وبينها لينٌ وَعظ وإنما سَفكٌ وقَتلٌ ، وهو صيود مُظَفَّر تنال يداه كلَّ ما أبصرته عيناه:

قاسٍ على سَفْكِ الدماء فظٌّ
ما بينَه وبينهن وَعْظُ
يُعطي يديه ماأراه اللَّحْظُ

أما الرابعة فهي أرجوزة قافيّة الروي وردت في الديوان بروايتين اثنتين تكمل إحداهما الأخرى [6] عدة شطورها خمسة وثلاثون ، وصف الشاعر فيها الصقر وصفاً وافياً ، لكنه لم يخرج في خطوطه العريضة عن وصف الجوارح الأخرى ، وسنعرض هذه الطردية فيما يلي :

---

(١) الديوان : ٤/٢٥ . (٢) النشز : المرتفع .

(٣) النَّيْزك : الرمح القصير ، المُرْتزّ : المغروز في الأرض .

(٤) سامها : أذاقها وأوقع بها . (٥) الديوان : ٤/٣٠

(٦) الديوان : ٤/٣٦ ، وورد بعضها في نهاية الأرب : ١٠/١٩٧

افتتح الشاعر أرجوزته بوصف الليل الذي غدا فيه إلى الصيد مع أصحابه فقال : رب ليل أسود كجناح الغراب قطعت ظلماته مع فتية سادة قادة نَبْتَغِي مُتَصَيَّداً نائياً لم تطأه أقدام القانصين ولم تُرَوِّعْ طيرَه جوارح الصائدين :

يا رب ليل كجَنَاحِ الناعِقِ [1]
سريته بِفِتْيَةٍ بَطَارِقِ [2]
نَنْتَابُ صيداً لم يُرَعْ بطارِقِ [3]

ثم انتقل إلى وصف صقره وصفاً معنوياً فقال : وكان معنا صقر ذكي الفؤاد يدرك نطق الناطق ، عليم بخطف الطيور السانحة حاذق في أخذها :

بأجْدَل يَلْقَنُ نطق الناطِقِ [4]
طَبٍّ بخطف السانِحات حاذِقِ

ثم ترك ذلك إلى وصف جسمه فنعته بأنه ملموم الرأس ، فخم المنكب أحمر المخالب دقيقها فكأنها نوناتٌ سَطَّرتها كف كاتب ، وهو ذو صدر موشّىً يشبه مبتدأ اللامات على الطروس ، أو امتداد الكحل في حمالق العيون :

مُلَمْلَمِ الهامة فخم العاتقِ [5]
ذي مِخْلبٍ أقْنَى كنونِ الماشق [6]
وجؤجؤ لابس وشي رائق

---

(١) الناعق : الغراب .

(٢) البطارق : جمع بطريق وهو في الأصل القائد من قواد الروم، ويريد به هنا السادة الأشراف . (٣) الطارق : القادم في ليل .

(٤) الأجدل : الصقر ، يلقَن : يفهم وغلام لقن : سريع الفهم .

(٥) العاتق : موضع الرداء من المنكب (٦) الماشق : الكاتب السريع في كتابته.

كمبتدا اللامات في المَهارِق [1]
أو كامتداد الكُحْل في الحَمَالِق [2]

ثم انتقل من ذلك إلى وصف صيد الصقر للإوز فقال : لقد بدت لعينيه من خلال أوراق النبات الطافية على وجه الماء عشر إوزات ، فما إن رآها حتى هَبَّ إليها هبوب الريح المرسلة يعضده عزمٌ صادق ، ثم دنا منها وَخَتَلَها كما يختل السارق غريمه ، وانقض عليها من عل بجناحه القوي انقضاض الصواعق فإذا هي بين هالك ومُشْفٍ على الهلاك :

ونَجَمَت للَحظ عينِ الرامِقِ [3]
عشرٌ من الإوز في غلافقِ [4]
فمَرَّ كالريح بعزم صادِقِ
حتى دنا منهن مثل السارقِ
ثم علاها بجناح خافقِ
كما رأيتَ رَجَّةَ الصواعِقِ
فَطَفِقَت من هالك وفائِقِ [5]

٤ – الشاهين

لابن المعتز طرديتان اثنتان في الشاهين خرج فيهما على مألوف شعر الطرد وسلك في بنائها مسلكاً جديداً يقوم على الابتداء بنعت الحيوان المصيد ووصف نمط حياته ، ثم يعقب على ذلك بالحديث عن الجارح الذي صاده ، وهو مسلك

---

(١) المهارق : الصحف البيض يكتب فيها .
(٢) الحمالق : جمع حملاق : وهو باطن العين الذي يسوّده الكحل .
(٣) الرامق : الناظر .
(٤) الغلافق : جمع غلفق : وهو الطحلب أو نبت ينبت في الماء ورقه عراض .
(٥) الفائق : من فاق الرجل فواقا إذا أوشكت نفسه على الخروج .

فيه طرافة وجدة يبعث على التشويق وينفي الملالة التي يبعث عليها تكرار المألوف وترديده .

وأولى هاتين الطرديتين أرجوزة كافيّةٌ قالها في الشاهين وطير الماء ، عدة شطورها أحد عشر شطراً جعل خمسة منها لوصف طير الماء المصيد وستة لنعت الشاهين الصائد وصيده [١] .

وقد افتتح الشاعر طرديته بقوله : رحمةٌ لطير الماء ربيب الغدران وابن البرك ، أتى عليه حين من الدهر وهو يحيا آمناً مطمئناً في جوار بحيرة تداعب الريح صفحتها فتتكسر وتلتثنى ، وكان يأتيه رزقه رغداً من سمك هذه البحيرة فهو لا تزال تلتمع سمكة صغيرة في منقاره المحدد المدبب الذي يحكي خنجر رجل عيّار خفيف الحركة شديد الذكاء قوي الضرب :

وَيحَ ابنِ غُدْرانِ المَسيلِ والبِرَكْ
جاوَرَ حيناً ماءَ بحرٍ ذي حُبُكْ [٢]
لم يفتقد حانيةً من السَّمَكْ
تلمع في منقاره حيث سَلَكْ
كخنجرٍ في كفِّ عيّارٍ فتكْ [٣]

ثم انتقل إلى وصف الشاهين وصيده لطير الماء ، فقال : ويحاً لطير الماء ورحمةٌ له من خاطف ذي كف لها مخاليب كالأسنة ، غدا مع الصباح ظمآن للدماء ، فلما أبصر طريدته لم يقنصها ، وإنما تركها عامداً ليأخذها أخذ قوي مقتدر ، ثم علا فوقها وانكفأ عليها كما ينكفىء الطود الذي إذا صكّ شيئاً صعقه .

---

(١) الديوان : ٣٧/٤ (٢) الحبك : جمع حِباك وحَبيكة وهي الطريقة في الماء والرمل ونحوه ، والحبك أيضاً تكسّر كل شيء كالماء إذا مرت به الريح .

(٣) العيّار : الرجل الكثير التطواف والحركة والذكاء ، وسمي الأسد عياراً لمجيئه وذهابه في طلب الصيد .

من ذي اختطاف كفه ملأى حسك (١)
غدا إلى الدماء عطشان الحنك
حتى إذا أبصره لم يمتسك (٢)
يتركه عمداً وللأخذ ترك
ثم علا ، ثم تكفى وانسفك
كحجر الطود إذا صك هتك

والطردية – كما رأينا – فيها متعة وطرافة ، وفيها خروج على المألوف الذي يدعو إلى الملالة وفيها نزوع إلى التجديد في بناء الطردية التي لا ينبغي لها أن تلتزم حالة واحدة وأن تسكب في قالب فريد لا يتطور ولا يتجدد .

وأما الطردية الثانية فهي أرجوزة عينية قالها في الشاهين والغراب عدة شطورها سبعة عشر شطراً جعل أربعة عشر منها لوصف الطائر المصيد الذي هو الغراب وثلاثة لاقتناصه من قبل الشاهين (٣) .

وقد افتتحها بنعت الغراب وحياته بين إخوانه من الغربان ، وهي ترتع في المراعي الخصيبة فقال : لقد أقبل هذا الغراب يفري بعض النبات ويفسده ويدع بعضه الآخر سليماً ، والذعر يلوح على عينيه فقد كان خائفاً مرتاعاً من غير سبب .

وكان إذا وقع على الأرض بعد طيرانه بدا كفرد خف انتزعه منتعله من قدمه وألقى به ، وهو يحيا مع جيش كثيف من الغربان السود التي تحكي أظلال السحب ، وإذا أبصر روضاً رتع في نباته غير متوقع لما يخبئه له القدر ولا عالم أن بعض الخير يكمن فيه الضر ، فلما لاح له شبح الشاهين

---

(١) الحسك : بفتح السين نبات ذو شوك صلب له ثلاث شعب ، والحسك أيضاً ما يعمل من الحديد على مثله وهو من آلات العسكر .

(٢) لم يمتسك : لم يأخذ طريدته ولم يمسك بها . (٣) الديوان : ٣١/٤

عراه الفزع فطار غير بعيد ، ثم عجز عن الطيران ووقع على الأرض ليلقى ريب الدهر الذي خدعه ومكر به :

أقبلَ يَفري ويَدَعْ [١]

ممتلىءَ اللحظ جَزَعْ [٢]

مُستروعاً ولم يُرَعْ

كَفَرَدِ خُفٍّ مُنتَزَعْ

أمامَ جند وشِيَعْ

سودٍ كأظلال القَزَعْ [٣]

إذا رأى الروض رَتَعْ

ليس يخاف ما صَنَعْ

لما رأى وَجْهَ الفَزَعْ

طار قريباً وانقَمَعْ [٤]

ورَيْب دهرٍ قد خَدَعْ

ثم انتقل من ذلك إلى وسف اقتناصه من قبل الشاهين فقال : لقد حُمَّ القضاء ووقع عندما صَكَّه شاهين بارع حاذق يَكْسَع طرائده كَسْعاً فقَطَّعَ جسده قِطَعاً ولم يترك له في العيش بعد ذلك مطمعاً .

وحُمَّ مَوتٌ ونَقَعْ [٥]

وصَكَّهُ ثَقْفٌ كَسَعْ [٦]

---

(١) يفري : يقطع على وجه الإفساد . (٢) الجزع : الخوف .

(٣) القزع : قطع من السحاب رقيقة ، واحدها قزعة .

(٤) انقمع : من قمعته فانقمع بمعنى قهرته وأذللته .

(٥) حُمَّ : قدر وحان .

(٦) الثقف : من ثقف الرجل ثقافة أي صار حاذقاً فهو ثقف بفتح فسكون .

فقطع البعثَ قِطَعْ

وليس في العيش طَمَعْ

٥ – الفهد

لم يقل ابن المعتز في الفهد إلّا أربع طرديات ، ثلاثاً منها نُتَفٌ صغيرة تتراوح الواحدة منها بين أربعة الأشطار وتسعة الأشطار والرابعة قصيدة تقع في أحد عشر بيتاً ، ولعل السبب في قلة عناية ابن المعتز بالفهد ، هو أنّ الصيد بهذا الضاري يقوم على الاخشيشان وبذل الجهد والشاعر كان أدنى إلى اللين وأمْيَلَ إلى النعومة من أن يتّخذ الفهد أداة أولى لِصَيْده ونحن سنلمّ بهذه الطرديات الأربع فيما يلي [١] :

أما أولاها فهي – أرجوزة واوية الروي ذات أربعة أشطر يقول فيها : أصف فهوداً تفري الفضاء الرحيب بِعَدْوِها السريع وتثب وراء الطرائد وثباً ، إنها تتسم بالقدرة ولكنها لا تتخلق بالعفو عند المقدرة ، وذلك لشدة ولعها بالدماء وتلذذها بحلاوة طعمها :

أنعتها تفري الفضاء عَدوا [٢]

نَوازِياً خلفَ الظّباء نَزْوا [٣]

لا تحسن القدرة منها عَفْوا

قد وَجَدَتْ طَعْمَ الدّماء حُلْوا

وأما الثانية فهي أرجوزة ذالية الروي ذات سبعة أشطر يقول فيها : أصف فهوداً تحكي السهام المراشة في سرعة الانطلاق وحسن القد وضمور الجسم والخلوص من الشوائب ، إذا أرسلت في شوط بطيء شحذها إلى الشوط البعيد

---

(١) الديوان : ٢/٤ ٤٢ وأشعار أولاد الخلفاء : ٢١٩

(٢) تفري الفضاء : تقطعه وتسيره .

(٣) نوازيا : جمع نازٍ من نزا ينزو : بمعنى وثب .

وجعلها تتحرّق عليه وهي تثب خلف الظباء وثباً وتجذبهن إليها جذبـــاً ، وتقطع غيطان الفلاة كما يقطعها النبل الذي دفعته القِسِيُّ ، فأنا لا أدري أيُّها أسرع جرياً أهي أم تلك النبال (١) :

أنعتُ أمثالاً قُذذ نَ قذّاً (٢)
يشحذها الشوطُ البطيءَ شَحْذَا
نوازياً خلف الظّباءِ جَذّاً
كأنّما تجتبذهن جبْذا (٣)
تجذُّ غيطانَ الفلاةِ جذاً (٤)
كالنبل هذّتها القِسِيُّ هذّاً (٥)
لم أدرِ ذا أسرع شدّاً أمْ ذا

وأما الثالثة فهي أرجوزةٌ سينية عدة شطورها تسعة (٦) يقول فيها: قد أغدو إلى الصيد مُغلِّساً قبل أن يغدو القانصون ... ومعي فهد متلاحق الوثبات طويل الأنفاس قوي الجسم مفتولٌ كفتل المرس ، إنه خير رديف تجعله خلفك وأنت على صهوة جوادك :

قد أغتدي قبل غدوٍ بغلَسْ
بلاحقِ الوثبةِ ممتدِّ النفسْ
محملج أمِرَّ إمرارَ المَرَسْ (٧)
نعم الرديفُ راكباً فوق الفرسْ

---

(١) الديوان : ٤/٢٠ والمصايد والمطارد : ١٩٩ ، والبيزرة : ١٣٠
(٢) قذذن : من قذّ السهم إذا ألصق به القذة وهي الريش .
(٣) جبذ : مثل جذب مقلوب منه .
(٤) تجذ : تقطع . (٥) هذتها : دفعتها بسرعة .
(٦) الديوان : ٤/٢٥ وأشعار أولاد الخلفاء : ٢١٥ والمصايد والمطارد : ١٩٩ والبيزرة : ١٣١
(٧) المحملج : المفتول . وأمر إمرار المرس : فُتِلَ فتل المرس .

ثم يتابع وصفه فيقول : إنه فهد مـا يفتأ يجلو القذى عن مقلتيه اللتين ينظر بمؤخرهما كبرياءً وحِدة ، وهو ذو جسم كالسهم المصكوك الأملس الذي تبدو عليه آثار وشم ظاهرة للعيان :

يَنْفِي القَذَى عن مُقْلَةٍ فيها شَوَسْ (١)
كالزُّلَم الأصْفَرِ صُكَّ فانْمَلَسْ (٢)
عليه تلويحـات وَشْمٍ مادَرَسْ (٣)

ثم أنهى الطردية بوصف إطلاقه على القنيص فقال : وما إن خليناه للصيد وأطلقناه من قلادته حتى تدلى نحو الطريدة وانغمس في معمعان المعركة وجعل يخادع الموت ويخاتله فلما أحكم أمره عدا نحو غـايته ، وهو إذا عدا غاب عن البصر فلا يُرَى إلا بعد أن يفترس .

لما خَرَطْناه تَدلَّى وانْغَمَسْ (٤)
وخادعَ الموتَ ابنُ وثاب خُلَسْ (٥)
إذا عدا لم يُرَ حتى يفْتَرِسْ (٦)

وأما الطردية الرابعة فهي قصيدة من المتقارب عدة أبياتهـا أحد عشر بيتاً (٧) ، أنفقها الشاعر في وصف فهدته وصفاً حسياً ومعنوياً ونعت مطاردتها للظباء وفتكها بهن وما ينعم به أصحابُها من ثمرات صيدهـا الوافر ، وأتى خلال ذلك بطائفة من الصور الطريفة النادرة التي وقف النقادُ عند بعضهـا وقفات طويلة .

---

(١) الشوس : بالتحريك النظر بمؤخر العين تكبراً أو تغيظاً. وأي المعنيين أردت صلح.
(٢) الزلم : السهم ، صُكَّ : ضُرب وطرق حتى غدا أملس .
(٣) الوشم : غرز اليد أو غيرها بإبرة وذر النيلج عليها . مادرس : لم يزل .
(٤) خرطناه : بمعنى أطلقناه من قيده . يقال : اخترط سيفه أي سله .
(٥) كنى (بابن وثاب) عن الفهد ، وخلس : كثير المخالسة والختل .
(٦) الشطر كله كناية عن فراهته وسرعة وثبته وقدرته على الصيد .
(٧) الديوان : ١٣/٤ والبيزرة : ١٢٥ والمصايد والمطارد : ١٩٢

وقد افتتح الشاعر طرديته هذه بقوله : ليس لمبتغي الصيد إلا تلك الفهدة الوثابة التي تطير على الأرض بقوائم أربع كخرق الألوية خِفةً وحركةً، وإذا أتيح لك أن تراها حين تُخَلّى من قلائدها ويجدّ بها الجِدُّ في طلب طريدتها ويثور فوقها الغبار من شدة عدوها إذن لرأيت زوبعة ثائرة من بنات الريح ولأبصرت فوق الأرض شيئاً عجباً :

لا صيد إلّا بِوثّـابَـةٍ	تطير على أربـع كالعَذَبْ (١)
فإن أُطلقت من قلاداتها	وطار الغبار وجَدَّ الطلبْ
فزوبعةٌ من بَنات الرياح	تُريك على الأرض شيئاً عجَبْ

ثم يترك ذلك إلى وصف أخذِها لطرائدهـا ومدى جزع هذه الطرائد منهـا فيتحف القارىء بصورتين إحداهما بصرية حسية والأخرى معنوية نفسية ، حيث يقول : إن هذه الفهدة إذا ما ظفرت بالظبي تشبثت به أشد التشبث ، وهو يبذل للخلاص منها أقصى الجهد ، ثم إن الظباء قد بَلَتْ من قسوة شَدّها وسطوة بطشها ما يجعل ضمائرهـا تتناجَى بالعطب حين تشعر بأنها قد نحت نحوها وعَدَتْ إلى خلفها ، فكم من طريدة أخَذَت ، ودم أراقت ، وكم من جائعٍ أشْبَعَتْ :

تضم الطريدَ إلى نَحْرِهـا	كَضَمّ المُحِبَّةِ من لا يُحبّ
إذا ما رأى عَدْوَها خلفه	تناجت ضمائرُه بالعَطَبْ
ألا رُبَّ يومٍ لها لا يُذَمُّ	أراقت دماً وأغاثت سَغِبْ (٢)

ثم يترك ذلك إلى وصفها وقد أردفها الفَهّاد خلفه فبدت في جلستها على ظهر جواده كفتاة تركية سباها العرب فظفروا بحسناء سـال الكحل على خديها من مقلتيها الذهبيتين اللتين طعمتا بخرزتين سوداوين :

---

(١) العذب : خرق الألوية .

(٢) السغِب : الجائع . والسَّغَب : الجوع وكلا اللفظين يستقيم معه المعنى .

لها مجلس في مكان الرديف كتركية قد سباها العرب
ومقلتها سائل كحلها وقد حليت سُبَجاً من ذهب [1]

ثم ينهي الطردية بوصف ثمرات صيدها وما ينعم به أصحابها من لحوم طرائدها ، فهي إذا غدت إلى القنص فازت بما يشبع الجيش العرمرم اللجب ، وأضرم أصحابها النيران وظلوا يومهم يُعمِلون سكاكينهم في لحوم طرائدها المعصفرة التي تُطهَى فوق النيران المتقدة :

غدت وهي واثقة أنها تفوز بزاد الخميس اللجِب [2]
فظلت لحوم ظباء الفلاة على الجمر مُعجَلَةً تُنتَهَبْ
كأن سكاكينهم نشّرتْ مُعَصفَرَةً فوق جزْلِ الحطَبْ [3]

٦ – الخيل

لابن المعتز طرديتان اثنتان سلك فيهما مسلك الصائدين في العصر الجاهلي حيث جعل الجواد أداته للطراد ، والرمح وسيلته للقنص ، وحمار الوحش حيوانه المصيد . وصيدُ حمر الوحش بوساطة الخيل اختفى في العصر العباسي أو كاد لميل الناس إلى اللين وأخذهم بأسباب الترف والراحة وولعهم بالجوارح والضواري التي تصيد لهم من غير عناء يقاسونه أو جهد كبير يبذلونه .

ويغلب على الظن أن ابن المعتز لم يمارس هذا اللون من الصيد وإنما قال هاتين الطرديتين محاكاة للقدماء وتقليداً لهم ، فالشاعر يحذو فيهما حذو امرىء القيس فيتخذ لنفسه جواداً كجواده وصيداً كصيده وخيمةً كخيمته ، حتى ليحس الدارس بأن ابن المعتز وضع أمامه شعر امرىء القيس وحاكاه كما يحاكي الرسام الشخوص ، ثم جاءت الصورة أدنى من الصور .

---

(١) السبج : خرز أسود شبه مقلتها به .
(٢) الخميس : الجيش العظيم المكون من خمس فرق .
(٣) المصفرة : أراد بها اللحوم المصبوغة بالعصفر .

وأولى هاتين الطرديتين صاديّة من الخفيف عدة أبياتها ثمانية عشر جعل أربعة منها لنعت الفرس وثلاثة لوصف الحيوان المصيد ، وثلاثة أخرى للحديث عن الخيمة التي نصبها ليتناول الشواء في ظلالها مع أصحابه ، أما باقي القصيدة وهو ستة أبيات فقد جعله للتأمل في الحياة والاتعاظ والادكار[1] ونحن سنعرض القصيدة فيما يلي :

بدأ الشاعر طرديته بوصف فرسه فقال : كثيراً ما تعدو بي في ظلمات الليل فرس جرداء الجسم قوية البنية عنيفة الشد مكتملة الخلق تملأ يديها بِعَدْوٍ واسع الخُطى يُلحِقها بالقنيص ويُظفِرها به، ولا غرو فقد ضَمّرتها أيدي المتسابقين في ميادين الطراد فغدت كالبناء المرصوص الذي يَشُدُّ بعضُه بعضاً .

وقد زانتها على جبينها غرة بيضاء لاحت فوقه كطلعة نخل بدت من خلال الأوراق الخضر :

ربما استعجلت بسرجي جرداءَ خنوف والليلُ مُلقَى القميصِ[2]
طِرفَةٌ تملأ اليدين بشد واسعِ البسط لاحقٍ بالقَنيصِ[3]
قد طَوَتْها أيدي المضامير حتى غادرتها كالهيكل المرصوص[4]
ولها غُرَّةٌ وناصية تَنْشَقُّ عنها كطلعةٍ من خُوصٍ[5]

ثم ينتقل إلى وصف وحش الفلاة فيقول: وفيما نحن نجوب الفلوات ظهرت

---

(١) الديوان : ٢٨/٤

(٢) الخنوف : الناقة التي تقلب خف يديها الى وحشيه عند السير ، شبه فرسه بها في قوة السير .

(٣) الطرفة : مؤنث طرف وهو الكريم من الخيل ، والبسط : النشر ، والقنيص : ما يقتنص ويصاد .

(٤) المضمار : المكان الذي تضمر فيه الخيل ، والهيكل : البناء العالي .

(٥) الطلع : هو طلع النخل ، والخوص : ورقه .

لعيوننا الباحثة عن الصيد وحوشٌ معتصمات بالقفـــار فيهن الحائل ، وفيهن الحامل التي غيبت في أرحامها أجِنـَّةً صغيرة :

وظهر لنا حمار وحش من أبناء القفار مثل الهراوة صلابة وملاسةً ، شديد الحذر ، مفرط الروع ، كثير النفور من رؤية الأشباح والشخوص :

فَـبَدَتْ لِأَعْيُنِنِ قَـرِمَاتِ آبيـــاتٌ من لاقِحٍ ونحوصِ [1]
مُقْفِلاتٍ على أجنـــة غيب كدعاميص الماء أو كالدروصِ [2]
وابن قفر مثل الهراوة شَحّا ج مَرَوَّعٍ مُنَفَّرٍ بالشُّخُوصِ [3]

ثم انتقل من ذلك إلى وصف كَـرِّه على الحمار الوحشي فقال : لقد دفعنا على هذا العير جواداً كالريح العاصفة يُتيحُ للقانص أن يخضب رمحه بدمـاء أحشائه وأوداجه ، فما زال يقرع الصخور وراءه ويدفع الحجارة خلفه في طريق محفور حتى أدركه .

فَـدَفَـعْنا عليه رِيحاً عَصُوفاً يخضِبُ الرمحَ من حَشىً وَفَـرِيص [4]
لم يزل يقرع الصخور وَيَردي كالروادي في مَنْهَجٍ مَفْحوصِ [5]

ثم يترك ذلك إلى نعت الخيمة التي نصبَها مع صحبه ليفيئوا إليها ويصيبوا في ظلالها ما طاب لهم من لحوم الطرائد ، فقال : لقد رفعنا خباءنا فجعلتْ الريح تخفق فيه وترفع أهدابه وتُـدَاعِبُها ، كما ترفع الأم المفتونة ولدها لترقصه ، وجعلنا نأكل من الشواء الطري الغض ونشرب ماء الغدران الصافي النمير :

---

(١) القَـرَم : الشهوة إلى اللحم ، اللاقح : الحامل ، والنحوص : الحائل .

(٢) الأجنة : جمع جنين ، الدّعاميص جمع دُعموص : دويبة صغيرة تغوص في المـــاء شبه الجنين بها ، والدروص جمع دِرْص : وهو ولد اليربوع أو الهرة وأشباه ذلك .

(٣) الشحاج : حمار الوحش .

(٤) فريص العنق : أوداجها وهو جمع مفرده فريصة .

(٥) يردي : يرجم الأرض ، المنهج المفحوص : الطريق المحفور .

ورفعنا خِبائَنا تضرب الريـ ـحُ حشاه كالجَاذِفِ المَقْصُوصِ [1]
أو كما رَفْعَتْ وليداً بكفيهـ ـا وَلُوعٌ خَرْقَاءُ بالتَّرقيصِ [2]
ونصيب الشِّواءَ غضّاً ونسقى ماءَ غُدْرانِ رَوْضَةٍ كالفُصُوصِ [3]

ثم ينتقل من وصف الصيد إلى لون من التأمل يرى الحياة من خلاله كُلّاً لا يتجزأ ووجوهاً متعددة لشيء واحد وصوراً مختلفة الأوضاع لمصّورواحد، حيث يستوي فيها الجواد المِتلاف والحريص الضنين ، وصاحب الحظ الموفور وذو الإملاق المنقوص ، ويتعانق على صعيدها الخيرُ مع الشر ، والسرور مع التنغيص ، وتضم بين ذراعيها الشبعانَ الذي فاض عليه الغنى ، والجَوعان الذي قُتِر عليه رزُقه ، والغيّ الموغل في الغواية ، والرُّشد المبذول الذي يُعْرِضُ عنه الناس ، والجريء المقدام الذي يخطئه الموت والفَرُوقة الجبان الذي يصيبه الردى ، ذلك بأنهم جميعاً يسلكون طريقهم إلى الله الذي لا مفر من الأوبة إليه ولا محيص عن الصيرورة إلى مشيئته :

يا لقومي لتـــارك وحريص ولحظٍّ وافٍ وَحظٍّ نقيصِ
ولدنيا مَمْذُوقة تخلط الخيـــرَ بشرٍّ والسَّوْغَ بالتَّنغيصِ [4]
ولشبعان لا يُقتَّرُه الرزقُ وغرثانَ لا يُقاتُ خَميصِ [5]
ولِغَيٍّ غاوٍ ورشدٍ رشيدٍ لا تُمَدُّ الأيدي إليه رخيصِ
ولذي جرأة لا يهتدي المـــوت إليه وهالك ذي نكوص
كل نفس لها طريق إلى الله وما إن عنه لهـــا من مَحيصِ

---

(١) الجاذف المقصوص : الطائر الذي قص جناحه .
(٢) الخرقاء : المرأة غيرُ الصناع والتي لا رفق لها .
(٣) الفصوص : فصوص الخواتم يشبه بها الماء في الصفاء .
(٤) ممذوقة : ممزوجة . (٥) الغرثان : الجوعان والخميص : الضامر البطن .

أما الطردية الثانية فهي نونية عدة أبياتها عشرة ومطلعها :

ولقد أغدو بعـــادية تأكل الأرض بفرسان [1]

وهي لا تختلف عن أختها في شيء إذا استثنينا موقف التأمل الذي حلّ محله في هذه الطردية بيت من الفخر ، فقد نعت في مطلعها الفرس وعَدْوَهـا ووصف ناصيتَها الغراء المدبّجة بالألوان ، وتحدث عن الصيد الذي صـاده وخضبه بدمائه ، والخيمة التي نصبها مع أصحـابه وأووا إليها ليأكلوا من لحم الصيد ويشربوا من ماء السماء :

ولقد أغـدو بعـــادية تأكل الأرض بفرسـانِ

فرّجَتْ عنها نواصيَهـا غُرَرٌ حِيطَت بألوان

فتركنا العَيْرَ مختضبـاً بدم من جَوْفِهِ قـاني

وبنينا سمْكَ خـــافقة كرُقوم بين أشْطانِ [2]

فوّعَتْنا غيرَ فاضـلة تَزِنُ الارضَ بميزانِ [3]

وشربنا مـــاء سارية في قرارات وغدران

ثم ينهي المشهد بالحديث عن قيامه هو وصحبه إلى خيولهم التي طـارت بهم كالجِنّة ، مارةً بقطعان بقر الوحش ، ثم يقول : إن ذلك كان شأنه حين كان فتى قبل أن يطمئن شيطانُه ويهدأ ، ويوم كان له من صباه عذر يعتذر به عن غواياته :

---

(١) مختارات البارودي : ١٠٣/٤

(٢) سمك البيت : سقفه ، الرُّقوم : جمع رَقْم : وهو ضرب من البرود ، الأشطان : جمع شَطَن : وهو الحبل الطويل .

(٣) وعتنا : استوعبتنا ، والضمير عائـد على الخيمة في البيت السابق ، غير فاضلة : غير زائدة عنا .

ثم قُمنا نحو مُلتَجِمَةٍ جِنَّةٌ طارت بفتيانِ
فتلاقينا على قَدَمٍ بين آجالٍ وصِيرانِ [1]
ذاك إذْ لي في الصبا عذر قبل أن يُؤمن شيطاني

أما بيت الفخر فجعله في آخر الطردية إذْ يقول :

وسل البيداءَ عن رجل يَخطمُ الريح بِشُعْبَانِ [2]

٧ ـ قوس البندق

لم يَقصِر ابن المعتز طردياته على وصف جوارح الصيد وضواريه وإنما تجاوزها إلى وصف أدوات القنص الأخرى من قوس البندق والشبك وقصب الدِّبْقِ ، ولكنه لم يكثر من ذلك كما أكثر من وصف الجوارح والضواري فليس له في قوس البندق سوى ثلاثة نتف صغيرة وطردية وافية كبيرة ، ولعل السبب في قلة عناية الشاعر بهذه الأدوات هو أن الصيد كان عنده مظهراً من مظاهر الترف والبذخ وميداناً للتفاخر والزهو ، وهذه الأدوات ليست مما يباهَى بها ويفخر . وأولى هذه النتف مقطوعه هائية من المتقارب في ثلاثة أبيات يقول فيها [3] رُبَّ ماء أقامتْ عليه طيور مطوَّقه بأبدع الحلى ، يَمَّمْنا وجوهنا شطرها قبل أن تخلع الشمس على الغدير برود ضيائها فظلت قِسِيُّنا طوال اليوم تقنص الطيور وترميها ببنادقها التي تنطلق من أوتارها :

وماءٌ به الطيرُ مربوطةٌ كأنَّ الحُلِيَّ بأطْواقِها
غدونا عليها وشمس النها ر لم تكسُه ثوبَ إشراقها [4]

---

(١) الآجال : جمع إجل : وهو القطيع من بقر الوحش ، والصيران : جمع صُوار : القطيع من البقر .
(٢) يخطم الريح : يجعل له زماماً فكأنه يمتطيه .
(٣) الديوان : ٣٧/٤
(٤) في الديوان (لم تكسُها) .

فظلْنا وظلّت عيونُ القِسِيّ   ترمي الطيور بأحداقها [1]

وثانية هذه النتف أرجوزة لامية ذات أربعة أشطر يصف فيها رامياً من رماة البندق [2] فيقول : لما انحنى هذا الرامي ليختل الطائر الذي قُضِيَ عليه بالموت ، رماه ببندقة من قوسه فخر يهوي على الأرض كما يهوي رداء غسال انقطع حبله ، ثم يعقب على ذلك بحكمة تُعْلِي من شأن الصيد وتمتدح من يأكل من كسبه فقال : لقد نجح وأفلح من جعل رزقه في قوسه ونبله :

كأنه لما انْحَنَى لِخَتْلِهِ
وَحَكَمَ الله له بِقَتْلِهِ
رداء غَسَّال هوى من حبله
أفلح رامٍ رزقه في نبله

وثالثة هذه النتف مقطوعة همزية من السريع ذات أربعة أشطر يسخر فيها من رامٍ قليل الإصابة [3] فيقول مُتَهَكِّماً : إليك أنت يا من تنصر اليأس على الرجاء والإخفاق على النجح ، لقد رميتَ السماءَ بالأرض بيدَ أنك لم تصب سوى الهواء فحسبُك حسبُك من هذا العناء الذي لا طائل تحته ، وأما أنت يا طيرَ الماء فليهنك هذا الرمي وَلْيَبْقَ لك ذلك الرامي :

يا ناصر اليأس على الرجاءِ
رميتَ بالأرض إلى السماء
ولم تصب شيئاً سوى الهواءِ
هَنَّاك هذا الرمي يابن الماء [4]

---

(1) عيون القِسِيّ : أراد بها الجوزة التي تكون في وسط الوتر ، وهي قطعة دائرة توضع فيها البندقة فاذا شد الوتر قذف بها وأصاب الهدف .

(2) الديوان : ٣٨/٤

(3) الديوان : ٥/٤

(4) هناك : مخففة من هنأك المهموزة .

ثم تأتي بعد هذه النتف الثلاث الصغيرة طرديتـــه الكبيرة وهي أنموذج يُحتَـذَى في صحة بنائها وكمال استيفائها ، فقد تناول فيهـــا بالوصف أداة الصيد التي هي القوس والبندق ، والحيوانَ المصيد الذي هو طير المـــاء ، والإنسان الصائد ، وعملية الصيد ذاتها ، وأثر الفوز في نفس القانص ، وعبرة الانكسار عند الطائر المصيد .

وهي أرجوزة مجزوءة عدة شطورها ستة وثلاثون شطراً [1] ، افتتحهـا بوصف القوس فقال : لا صيد إلا بالوتر الأصفر المجدول الذي إذا مسه الرامي صَوَّتَ بين أنامله من شدة فتله وهو ذو عين تبكي بدموع من البندق :

لا صيدَ إلاّ بِوَتَرْ
أصفرَ مجـدولٍ مُمَرْ [2]
إنْ مَسَّهُ الرامي نَخَـرْ [3]
ذي مقلة تَبْـكي مَدَرْ [4]

ثم انتقل نقلة منطقية إلى وصف البندق الذي يُرمَى به عن هذه القوس فقال : إنه بندق أحكمته يد صانع حاذق دأب على صنعه حتى مهر فيه فجاء كالأُكَرِ متشاكل الصور، متساوي الحجوم ، لا يختلف بعضُه عن بعض في صغر أو كِبر ، إنه على الرغم من اتخاذه من الطين فهو أشبه ما يكون بالحجر صلابة وصلادة ، يُودِعه الرامي في جوزة الوتر التي تشبه السُّرَّة ثم يطلقه فيتطاير كما يتطاير الشرر ويستقر في قلوب الطيور فيرديها :

صَنْعَةَ بارٍ مُقتَدِرْ [5]
دام عليهـــا فَمَهَرْ

---

(١) الديوان : ٤/٢٤

(٢) مُمر : مفتول من أمر الحبل بمعنى فتله .

(٣) نَخر : صوَّت من شدة توتيره .

(٤) المراد بالمقلة جوزة الوتر ، وهي قطعة دائرة تثبت في وسط الوتر وتوضع فيها البندقة فإذا شد الوتر قذف بالبندقة وأصاب الهدف . انظر ص ٢٧ من هذا الكتاب .

(٥) الباري : الصانع .

فجئن أمثالَ الأكرْ
لم يختلِفن في الصُّوَرْ
بصغَرٍ ولا كِبَرْ
أشبه طينٍ بحَجَرْ
يُودَعْنَ أمثالَ السُّرَرْ (١)
ثم يَطِرْنَ كالشَّرَرْ
إلى القلوب والثُّغَر (٢)

ثم يترك ذلك إلى وصف أوقات السحر التي غدا فيها إلى الصيد بهذه القوس، فقال: لقد غدونا إلى الصيد مُغلّسين، والليلُ لايزال مسودّ الجوانب، وأمْعَنّا في البحث عن الطير فكنا ندع أرضاً ونأخذ أخرى، وما زلنا كذلك حتى تنفّس الصبح ولاح ضوؤه، وأشرقت الأرض بنوره :

لما غدونا بسَحَرْ
والليلُ مسودُّ الطُّرَر (٣)
نأخذُ أرضاً ونَذَرْ
ولاحَ صبح واشْتَهَر

ثم انتقل إلى نعت الطيور التي جاءت مع تباشير الصباح جماعات وزمراً فقال : وما إن أضاء الكون بنور ربه حتى أقبلت جماعات الطير البيض تسبح في الفضاء العريض، وهي تبحث عن روض أنف ترتع في خمائله، ونَهْرٍ جارٍ ترتوي من مائه، وكانت شديدة الحذر كثيرة المخاوف فهي لا تفتأ تسأل عيونها عما لديها من الأخبار :

---

(١) يودعن أمثال السرر : الضمير في يودعن يعود عل البندق . والسرر : جمع سرة والمراد بها هنا جوزة الوتر التي أشرنا إليها آنفاً .
(٢) الثُّغر : جمع ثغرة : وهي الفتحة والفوهة .
(٣) الطرر : جمع طرة وهي كفة الثوب أي جانبه الذي لا هدب فيه .

جاءت صفوفـــاً وزُمرْ

سوابحـاً بيضَ الغـُررْ

يطلبْنَ مـا شاء القَدَرْ

روضـــاً جديداً ونَهرْ

وهن يســألنَ النـَّظرْ

مـــا عندَه من الخَبَرْ

ثم انتقل من ذلك إلى وصف الصائد والصيد فقال : عندئذ بادر إليهن القانص ، فحَسَرَ عنه ذراعه ، ووتـّر قوسَه ، وجعل يرميهن وينثر صفوفهن نثراً فيغدون بين هاوٍ منحدرٍ إلى الأرض ، وخائف صائح أشفى على الهلاك ، وكسير حطـّمَ الرمي جناحيه ، فانتشى الرامي لظفره ومسـّهُ جنون البطرِ لفوزه :

فقـــام رام فابتَـــدَرْ

وَتـّرَ قَوْســـاً وَحسَرْ

إذا رَمَى الصفُّ انتَشَرْ

فبـينَ هـــاوٍ مُنْحَدِرْ

وصائِـــحٍ عــلى خَطَرْ

وذي جَنَـــاحٍ مُنْكَسِرْ

فارتـاحَ من حُسْنِ الظـَّفَرْ

ومَسـّه جـِـنُّ الأَشَرْ [1]

فلما حل بالطيور ما حل ، وحقق الواقع مـــا كان يخامرها من حذر ، واشتد عليها الرمي واستمر ، عند ذلك قالت : ما هذا الرمي برمي بشر ، عجباً متى كان يتساقط حصى الأرض كالمطر ؟

---

(١) الأشر : البطر .

وَقُلْنَ إذْ حُقَّ الحَـذَرْ
وَجَـدٌ رَمْيٌ فاسْتَمَرْ
مـا هكذا رَمْيُ البَشَرْ
صار حَصَى الأرضِ مَطَرْ ؟

٨ - الشَّبَكُ وَقَصَبُ الدِّبْق

لابن المعتز طردية واحدة قالهـا في الشبك وقصب الدبق وهي تائية من السريع عدة شطورها عشرون[١] سلك فيها مسلكاً طريفاً جديداً بعيداً عن المألوف فأكسبها طلاوة ورونقاً ، ذلك بأنه لم يعمد إلى وصف هاتين الأداتين وصفاً مباشراً وإنما لجـأ إلى الإلـغـازِ الذي لا يَتَّسِمُ بالغموض ، فيلتبس الأمر على القارىء ، ولا يتصف بالوضوح فيسلبه متعة الكشف وإنما سلَكَ طريقاً قَواماً بين ذلك ، وقد ابتدأ بالشبك فقال : مـا الصائدات اللواتي لا يَبْرَحْنَ أماكنهن والراكبات اللائي لا يسرن، والمرتفعات العاليات من غير تكريم ، والواقفات على المنابر لا يخطبن .

وما الطعام الذي نُثِرَ في الفلاة ليقرِّب الموت إلى ذوات الحياة ، ومـا البيت الكثير الضجيج الصَّخِبُ الأصوات الذي حَوَى من الأسرى جماعات من مختلف الأجناس واللغات، والذي تظل أسراه على الدوام موثقة مكتوفة؟ إنه الشبكة التي تنصب على نَشَزٍ من الأرض حتى لا يغمرها السيل إذا نزل المطر ، وإنه الحَبُّ الذي نُثِرَ بجانبهـا ليجتذب إليهـا الطير ، فيكون كالساعي إلى حتفه بظلفه وإن الأسارى هي هـذه الطيور المختلفة الأصوات والألوان والأجناس :

ما صائِداتٌ لَسْنَ بَارِحَاتِ[٢]
وراكِباتٌ غـيرُ سائِراتِ

(١) الديوان : ١٣/٤ ، وأشعار أولاد الخلفاء : ٢١٠

(٢) انظر الفصل الأول من هذا الكتاب ففيه تعريف بالصيد بالشبكة .

وَقدْ عَلَوْنَ غَيرَ مُكْرَمَاتِ
منَابِراً ولسْن خـاطِبات
وما طعامٌ ظَلَّ بالفـلاةِ
يُقرِّبُ المـوتَ من الحَياةِ
وبيت أَسْرٍ صَخِبِ الأصواتِ
مختلِفِ الأجناسِ واللغـاتِ
تظـل أسراهُ مكتَّفاتِ

ثم ينتقل إلى قصب الدبق فيقول . ما الرماح التي لا تجرح ولا تخوض في الدماء ، ولا تصلح للطراد والغـارات ، وهي إلى ذلك مُخضّبَةٌ بدم لكنه ليس بدم الأبطال ، وإنما هو رِيقُ مَوْتٍ صادق الوعد لا يخلف، مُتَمكّنٍ ينشب في الصدور واللبـات؟ إنها قصب الدبق التي تشبه الرماح في الشكل دون الفعل ، وهي تطلى بالدبق الذي يكمن فيه حتف الطيور التي تقف عليه فلا تستطيع منه إفْلاتاً ولا فَكاكاً :

وما رمـاحٌ غيرُ جارِحاتِ [1]
ولسْنَ في الدمـاء والِغاتِ
ولسْنَ للطّرادِ والغـاراتِ
يُخضَبْنَ لا من عَلَقِ الكُمَاةِ [2]
بِريقِ حَتْفٍ مُنجِزِ العِدَاتِ
مُستَمْكِنٍ ليس بذي إفلاتِ
يَنْشَبُ في الصدور واللّبّاتِ [3]

---

(١) انظر الفصل الأول من هذا الكتاب ففيه تعريف للصيد بالدبق .
(٢) العلق : الدم .
(٣) اللبات: جمع لبة وهي موضع القلادة من العنق .

خصائص شعر الطرد عند ابن المعتز

بعد أن وقفنا على شعر الطرد عند ابن المعتز ذلك الوقوف الشامل غدا في مقدورنا أن نُقَوِّمه تقويماً واعياً وأن نحدد خصائصه، ونبرز مزاياه.

وقبل أن نخوض في بحث خصائص هذا الفن عند الشاعر يحسن بنا أن نقف على الأسس التي بنَى عليها طرداته، وأن ندرك مدى ما حققه من تطوير لهذا البناء وتجديد فيه.

كيف بنى ابن المعتز طردياته:

لقد تأسَّى ابن المعتز خُطَى أبي نواس في مطالع طردياته فافتتح أكثرها بكلمة «قد أغتدي» فقال: قد أغتدي والليل في مآبه، قد أغتدي والصبح كالمشيب، قد أغتدي والليل كالغراب، قد أغتدي في نفس الصباح، قد أغتدي باكراً أو بأسحار، قد أغتدي على الجياد الضُّمَّر، قد أغتدي قبل غُدُوٍّ بغلس، قد أغتدي في صبح ليل فاشي، قد أغتدي والليل قد تقضَّى، قد أغتدي وفي الدجى مبالغ، قد أغتدي في ثوب ليل ضاف [1] غدوت للصيد بفتيان نجب [2]، غدوت للصيد بغضف كالقدد [3] ولقد أغدو بعادية [4].

كما افتتح كثيراً منها بـ (لما) الحينية فقال: لمَّا تفرى الأفق في الضياء، لمَّا حدا الصبح بليل أدعج، لمَّا رآها وعلونا نشزا، لمَّا جلا ضوء الصباح وفتق، لمَّا حدا الإصباح بالإظلام، لمَّا غدونا والظلام قد وهَى [5]، لمَّا

---

(١) انظر على التوالي صفحات: ٦، ٨، ١٠، ١٦، ٢١، ٢٦، ٢٩، ٣١، ٣٢، من ديوان ابن المعتز.

(٢) الديوان: ٧ (٣) الديوان: ١٨

(٤) مختارات البارودي: ١٠٣/٤

(٥) انظر على التوالي الصفحات: ٢، ١٥، ٢٥، ٣٤، ٣٩، ٤٢،

حبا ضوء الصباح ومشى [1] كما أكثر من افتتاحها بكلمة (رب) إمامسبوقة بـ (يا) أو متبوعة بـ (ما) أو يستبدل بها (واوها) فيقول : وكلبةٍ لم تُرَوقتَ شدَّها، يا رب ليلٍ حالك الجلباب، ربما استعجلت بسرجيَ جرداء خَنذُوف والليل ملقى القميص ، يا رب ليل كجناح الناعق ، وأجدل يفهم نطق الناطق ، وماء به الطير مربوطة ، وكلبة غدا بها فتيان ، يا رب جارٍ نَـهَرٍ فضيٍّ [2] وقد يفتتحها بكلمة (أنعت) فيقول : أنعت أمثالاً قذذن قذا . أنعته مزعفر القميص ، أنعتها تفرى الفضاء عدواً [3] . وقد يفتتحها بـ (لا) النافية للجنس ، فيقول : لا صيد إلاّ بوثابة ، لا صيدَ إلا بوتر [4] وقلما افتتح طردية بغير ذلك .

ثم إن ابن المعتز اتخذ الرجز والسريع بحرين لطردياته ، وإن كان قد أكثر من السريع كثرة تلفت النظر فجعل واحدةً وعشرين من طردياته على السريع وعشرين على الرجز ، ووزع الباقيـــات وهي سبع على البحور الصغيرة من أمثال المتقارب والخفيف ، كما إنه اعتمد الروي المزدوج فيما نظمه على كل من الرجز والسريع ، غير أن ابن المعتز حاول أن يُجَدِّد في بناء الطردية العربية فخطا في هذا المضمار خطوات ملحوظة .

ومظاهر التجديد عنده تبدو في عدة أمور : أحدها أنه جعل يبدأ بعض طردياته بوصف الحيوان المصيد ونعت نمط حياته الآمنة المطمئنة تارة ، أو الخائفة الحَذِرَة تارة أخرى ، ثم ينتقل من ذلك إلى وصف مداهمته بالحيوان الصائد من جارح أو ضار ، وذلك كما في طرديته التي قالها في الشاهين وطير الماء [5] حيث افتتحها بوصف الطائر المصيد فقال :

---

(١) انظر المصايد والمطارد : ٦٦

(٢) انظر على التوالي الصفحات : ٩ ، ١١ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤١

(٣) انظر الديوان : ٢٠ ، ٢٩ ، ٤٢

(٤) انظر الديوان : ١٣ ، ٢٥ (٥) الديوان : ٣٨/٤

ويح ابن غدران المسيل والبرك
جاور حيناً ماء بحر ذي حبك

ثم تابع نعت حياته الرافهة التي يأتيه فيها رزقة رغداً من صغار السمك إلى أن دهمه بشاهينه المتعطش إلى الدمـــاء وافترسه به ، وليست هذه هي الطردية الوَحِدَة التي سلك فيها هذا المسلك وإنما لها نظائر رأيناها من قبل.

وهو بذلك يخالف سابقيه الذين دأبوا على تقديم وصف الحيوان الصائد ، وتأخير نعت الحيوان المصيد إذا نعتوه .

وثاني مظاهر هذا التجديد في بناء الطردية هو افتتاح بعض طردياته بوصف الليل الذي سرى فيه إلى الصيد ، ثم الانتقال من ذلك إلى وصف الجارح أو الضاري الذي اصطحبه معه ليقنص به ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى وصف تنفس الصبح من قلب الظلام وإشراقه على الكون ، ثم ينعت الصيد وثمراته وهي خطوات منطقية طبيعية ، بينما كان سابقوه يجمعون صورة الليل والصباح في مشهدٍ واحدٍ ينتقلون منه إلى وصف الحيوان الصائد الذي غَدَوْا به إلى القنص .

وذلك كما في طرديته القافية التي قالها في الصقر [١] فقد افتتحها بوصف الليل الذي سرى فيه مع صحبه النجب إلى الصيد فقال :

يا رب ليل كجناح الناعق
سريته بفتيـة بطـــارق

ثم انتقل إلى وصف الجارح الذي اعتده للصيد فقال :

بأجدل يفهم نطق النـــاطق

فلما أتم نعته انتقل إلى وصف إشراق الصباح فقال :

---

(١) الديوان : ٣٦/٤

حتى بدا ضوء صباح فاتق
تـبَدّي المشيب في المفارق

ثم انتقل بعد ذلك إلى نعت الصيد .

وهذان المظهران من مظاهر التجديد – على ضآلة شأنهما – قد أديا إلى تغيير الصورة التي غدت مملولة ، وقضيا على آفة التقليد التي تتنافى مع طبيعة الآداب والفنون القائمة على التجديد والإبداع .

وثالث مظاهر هذا التجديد هو سلوك سبيل الإلغاز ، كما في طرديته التي قالها في الشبك وقصب الدبق [1] ، وقد رأيناهـــا آنفاً ، وهو أسلوب في الأداء يمتاز بالطرافة والإمتاع ، ويؤدي إلى إشراك القـــارىء مع الشاعر ومتابعته له .

ورابع مظاهر هذا التجديد وأعظمها شأناً هو اكتمال البنـــاء في بعض طردياته على وجه لم يترك فيه زيادة لمستزيد ، فقد وُفّقَ إلى نظم طائفة من الأراجيز ألـمّ فيها بزمان الصيد ، ومكانِه وأداةِ القنص ، والحيوان المصيد، وعملية الصيد ، والإنسان الذي يوجهها ويقودها فأغنى الطردية ، ولوّنـَها ، ورَحّبَ آفاقها وبثّ فيها الحياة .

من هذه الطرديات أرجوزته في قوس البندق [2] فقد افتتحها – كما رأينا– بوصف القوس والبندق فقال :

لا صيدَ إلا بوتر
أصفر مجـــدول ممر

حتى إذا وَفّاهـــا حقها من النعت انتقل إلى الحديث عن زمان الصيد فقال :

---

(1) الديوان : ٤/١٣ (2) الديوان : ٤/٢٥

لما غـدَوْنـا بِـسَحَرْ
والليلُ مسود الطُرَرْ
نـأخذُ أرضاً ونَـذَرْ
ولاحَ صُبحٌ واشْتَهرْ

ثم ترك ذلك إلى وصف الطيور المصيدة والمكان الذي وقع فيه الصيد فقال :

جاءت صفوفاً وزُمَرْ
سوابحاً بيضِ الغُرَرْ
يطلبن ما شاء القَدَرْ
روضاً جديداً ونَهَرْ
وهُنْ يَسألْنَ النظر
ما عندَه من الخبر

ثم انتقل من ذلك إلى نعت عملية الصيد وما أسفرت عنه فقال :

فقـام رامٍ فابتدرْ
وَتّـر قوساً وحَسَرْ

حتى إذا وفّى هذا المشهد حقه من النعت انتقل إلى وصف أثر الفوز في نفس الإنسان الصائد فقال :

وارتاح من حسنِ الظّفَرْ
ومَسّهُ جن الأشَرْ

ثم ترك هذا الجانب إلى الحديث عن أثر النكبة في نفوس الطيور المصيدة فقال :

وقلْنَ إذ حق الحَذَرْ
وجـدٌ رَمْيٌ فاستمر

ما هكذا رمي البَشَرْ
صارَ حَصَى الأرض مطر ؟

إنه نموذج بارع للطردية الكاملة البناء ، وإن شئت فقل هي مسرحية صغيرة يتنقل القارىء بين فصولها القصيرة الرشيقة في خفة وشوق ، وليست هذه هي الطردية الوَحِدَة التي بناها الشاعر هذا البناء المحكم ، وإنما هناك غيرها مما يساويها في الإحكام أو ينزل عنها قليلاً ، ولولا خشية التكرار والإملال لاستعدناها جميعاً .

وخامس مظاهر هذا التجديد عند ابن المعتز في بناء الطردية هو أنه أغناها ببعض المشاهد الإضافية الملائمة التي وقعت منها موقع الإطار الجميل من الصورة البديعة ، فزادها جمالاً على جمال من غير أن يُخِلّ بتناسقها أو يفضيَ بها إلى آفة الاستطراد التي تفسد وحدتها ، من ذلك هذا المشهد البديع الذي رسمه بريشته البارعة الصَّنَاع للأماكن التي يعيش طير الماء إلى جوارها وينعم بمائها العذب البرود ، وثراها النَّدِيّ الوَضِيّ ، وزهرها المتفتح الشذي ، حَسَنَ الحال خالي البال له ما شاء من الشبع والري ، يتحكم في سمكها تحكم المالك في ملكه حتى فاجأه القانص بزُرّقه [1] :

يا رب جارِي نَهَرٍ قَصِيّ
مضطرب على حَصىً نَقِيّ
وتربة ذات ثرىً وَضِيّ
وزهَـر مبتسم رِبْعِيّ
مكتهِل ومُرضَع صبيّ
كأنه فرائد الحُلِيّ
باكَرَ بالغداة والعشيّ
رِيقَ الندى في شَبِمٍ غَذِيّ

---

(١) الديوان : ٤٣/٤

ظل ببالٍ فـــارغ رخيٌّ
وما ادعى من شبع وريٌّ
فعـاذ بالجن من الإنسيٌّ
مُحكّماً في السمك اللُّجّيٌّ
يَلفُظُها بعولٍ مَدْريٌّ
لقط نصال الغرَضِ المرْميٌّ
صَبَّحْتُه بـأجل وَحِيٌّ [1]

وليس هذا هو المشهد الوحيد الذي أغنى به الشاعر طردياته ، وإنما له نظائر كثيرة وقفنا عليها جميعاً من قبل ، وجلها طريف جميل .

غير أن ابن المعتز لم يبن سائر طردياته على الصورة التي أوضحناها آنفاً ، وإنما كانت له طرديات مبتورة اقتصرت على وصف الجارح الصائد وحده [2] وأخرى استطرد فيها استطراداً نسي معه الموضوع الأصلي [3] وثالثة أقحم عليها من الأغراض البعيدة عن جوها ما أفسد وحدتها وجعلها معرضاً لمزيج من الموضوعات [4] .

غير أن ذلك كله لا يسلبه صبغة التجديد ولا يذهب بحسناته في هذا المضمار .

والآن بعد أن وقفنا هذه الوقفة الطويلة عند بنـاء الطردية لدى ابن المعتز ننتقل إلى بيـان خصائص طردياته من النواحي المعنوية والتصويرية واللفظية والموسيقية .

---

(١) الأجل الوحي : الأجل السريع وقد كنى به عن الجارح .

(٢) انظر الديوان : ٧ و ١٤ و ١٦ و ٢٩

(٣) انظر الديوان : ٢١ (٤) انظر الديوان : ٢٧

الخصائص المعنوية لطرديات ابن المعتز :

لعل من أبرز ما يميز طرديات ابن المعتز من الناحية المعنوية تصويرها للبيئة الرافهة الناعمة اللينة التي قيلت فيها ، فشعر الطرد في حقيقته هو شعر القوة، ذلك لأنه يصور الصراع العنيف الصعب بين ضار أو جارح يريد العدوان على الحياة ، وبين وحش أو طائر يناضل في سبيل استبقاء الحياة . ثم مازال هذا الشعر يميل إلى اللين والنعومة كلما أخذت الحياة تنحو نحو الليونة والنعومة والترف ، وقد بلغ ذلك غايته عند ابن المعتز ، ولا غرو فهو الشاعر الهانىء الوادع المنغمس في خفض العيش وبلهنيته حتى الأذقان .

خذ مثلاً صورة هذا الجواد الذي غدا به الشاعر إلى صيد الوحش وتأملها تجد نفسك أمام قينة من قيان العصر العباسي تميس ببردها الملون المضرج، وتزهو بمعصمها العَبْـل المزدان بروائع الحُـلِيّ لا أمام جواد مطهم يروع العين ويملأ القلب [1] :

أشقر مَلزوز القَـرَى والمَنْسِـجِ
قد خاض تَحجيلاً ولم يُلَجْلِجِ
كالخود في جلبابهـا المُضَرَّجِ
رَمَتْ إلى مِعْصَمِهـا بالدُّمْلُجِ [2]
ذي غرة مثل الصبـاح الأبلج

وهذه صورة ثانية من صور هذا اللين والنعومة الناعمة في موطن هو أدنى ما يكون إلى القوة والخشونة [3] :

قد أغتدي على الجيـاد الضمَّرِ
والصبح في طُرَّة ليـل مُسفِرِ
جَلا لَنا وجهَ الثرى عنْ منظرِ
كالعَصْب أو كالوَشْي أو كالجوهرِ

(١) الديوان : ١٥/٤ (٢) الدملج : المعضد من الحلي (٣) الديوان : ٢١

من أبيضٍ وأحمرٍ وأصفَرِ
وطارفٍ أجفانَه لم يَنْظُرِ
تخالُه العينُ فماً لم يفغَرِ
وفاتقٍ كاد ولم ينوّرِ

إلى أن يقول :

مدامة تعقر إن لم تعقر
تديرها كَفُّ غزالٍ أحوَرِ
ذي طرّة عاطِرة كالعَنْبَرِ
ومبسِمٍ يكشفه عن جوهرِ
وكفَلٍ يشغَل فضلَ المِئْزَرِ

إلى أن يقول عن هذا الغلام الصبيح المليح :

ويذعر الصيدَ ببازٍ أقمَرِ
كأنه في جَوْشَنٍ مُزَرَّرِ
ذي مقلة تَسْبَحُ فوق المِحْجَرِ
كأنه رقٌّ خفيُّ الأسْطُرِ

فهل رأيت ميدان الصيد كيف تحول عند الشاعر إلى حلبة رقص وغنج، وهل عرفت صائداً كهذا الغزال الأحور ، ذي الطرة التي تضوع بالعنبر ، والمبسم الذي يكشف عن الجوهر ، والكفل الذي يملأ فضل المئزر ، إنه هو الذي سوف يروع الصيدَ ببازِه الأقمر .

حقاً إنّ طرديات ابن المعتز ليست جميعها على هذه الشاكلة من الليونة ولكنها في جملتها تنحو هذا المنحى إما كثيراً أو قليلاً ، ولا عجب فللعصر والبيئة والشاعر آثارها في أدب الأدباء وشعر الشعراء .

وأمر آخر نلمحه في هذه الطرديات هو أن الشاعر نحا في وصف الجوارح

والضواري منحىً جمالياً خلا من الحقائق الموضوعية التي تصور هذه الحيوانات وتبرز خصائصها ومزاياها .

فنحن لا نزال نذكر طرديات أبي نواس وما حفلت به من معلومات عن الجوارح والضواري وبخاصة الكلاب ، ولا تزال ترن في آذاننا كلمة الجاحظ حين أورد طائفة من طردياته في كتابه الحيوان فقال فيها : « وأنا كتبتُ لك رجزه في هذا الباب (أي باب الطرد) لأنه كان عالماً راوية ، وكان قد لعب بالكلاب زماناً وعرف منها ما لا تعرفه الأعراب وذلك موجود في شعره وصفات الكلاب مستقصاة في أراجيزه »[1] .

فأنتَ حين تقرأ طرديات ابن المعتز لا تستطيع أن تفرق بين جارح وآخر وإنما تجد نفسك في كل مرة أمام طائر بهيّ المنظر رائع المجتلى .

وهو نقص معنويٌّ ملحوظ لا يستطيع المرء تقديرَ أهميته إلا إذا عرف أن علماء البيزرة كثيراً ما اعتمدوا في إبراز بعض خصائص الحيوانات على ما قيل فيها من شعر واكتفوا بذلك ، فكان شعرُ الطرد مصدراً من مصادرهم التي استقوا منها معلوماتهم ، ولم يكن ابن المعتز قليلَ معرفة بالجوارح والضواري ، فهو – كما رأينا من قبل – قد ألف كتاباً في هذا الموضوع هو كتاب « الجوارح والصيد »[2] ، ولإدراك هذه الحقيقة سنعرض صورتين لجارحين مختلفين ، وسنجد كيف أن الصورة لم تختلف على الرغم من اختلاف المصور : وأولَى هاتين الصورتين قوله في الصقر :

وأجدل يلقَن نطق الناطقِ
ململم الهامة فخم العاتقِ
طَبٌّ بخطف السانحات حاذقِ
ذي مخلب أقنَى كنون الماشقِ

---

(١) الحيوان : ٢/٢٧ (٢) نشر هذا الكتاب « جاير » .

وجؤجـؤٍ لابسٍ وشيٍ رائقِ
كأثرِ الأقــلام في المَهـارقِ
أو كبقايا الكحل في الحَمَالِقِ

وثانيتهما قوله في البازي :

فـارسُ كفٍّ ماثلٌ كالأسوارْ
ذو جؤجؤ مثلُ الرخام المَرْمَارْ
أو مُصْحَفٍ منمنم ذي أسْطَارْ
ومقـلةٍ صفراءَ مثلِ الدينـارْ
ومخلب كمثـل عطف المسمارْ

بَيْدَ أن هـذه الطرديات إذا كانت قد شَحَّتْ فيهـا المادة العلمية فقد حفلت بطائفة كبيرة من المعاني الجزئية التي تتسم بالجـدة والطرافة والعمق ، من ذلك قوله في تشبُّثِ الفهدة بطريدتها ومحاولة الطريدة الإفلات منها [١] :

تضم الطريـدَ إلى نحرهـا كضم المحبـة من لا يحب

فهل رأيت صورة أكثر دلالة على هذا المعنى من هذه الصورة ، ذلك لأن ضم المحب لمن يعلم أنه لا يبادله المحبة يكون أقوى وتشبثـه به يكون أشد ، فالفهـد مجتهد في التشبث بالظبي ، والظبي مجتهد في مغالبته ، وكذلك ضم المحب لمن لا يحبه .

ومن هذا القبيل قوله في الكلب وطريدته [٢] :

خِلٌ رفيقٌ واعتنـاقٌ جـافي
ليس له غـير دم مـن شافي

فهذا محب موله لكنه عناقه قاسٍ جافٍ ، وإذا كان المحبون يشفيهم ضم المحبوب واثمه فهذا المحب لا يشفيه إلا شرب دماء محبيه .

ومن هذه المعاني الطريفة قوله في سرعة عَدْوِ الكلاب [٣] :

---

(١) الديوان : ١٣٤ (٢) الديوان : ٣٢/٤ (٣) الديوان : ١٩٤

عواصِفٌ مُنْتَهِيات لـلأَمَدْ
ما يستزدها الشوطُ من عَدْوٍ تَزِدْ
وتَقْتَضِي الأرجلُ والأيدي تَعِدْ

فكم هو طريف ذلك الميثاق المعقود بين يدي هذه الكلبة ورجليها ، فاليدان لا تزالان تعدان والرجلان لا تزالان تقتضيان والجري بين الوعد والاستيفاء يبلغ غايته .

ثم تأمله وهو يُطري ذكاء هذه الكلبة فيقول (١) :

فأخذت عشراً بلا إتعابِ
لم يُدْمِ صيداً فمُها بنـاب
حِفظاً وإبقاءً على الأصحاب

فهل هناك أبلغ في الدلالة على ذكاء هذا الحيوان من محاولته أخذ الطرائد وهي سالمة لم تُصَبْ بِكَلْمٍ حِرْصاً على مصلحة أصحابه واستبقاء لمودتهم ، ثم تأمله وهو يصف الكلاب بشدة الفراهة على الصيد وكثرة الولع به فيقول (٢) :

يصدْنَ للغادي بهن ما اشتهى
وما انتهتْ قطُّ به حتى انتهى
يُشْلَيْنَ بالزَّعْقِ ويُدْعَيْنَ بـ (ها)

فهذه الكلاب لا تكِلُّ من الصيد ولا تَمِلُّ ولا تعيا منه إلا إذا عَيِيَ كلاَّبُها وكفها عنه بالزجر ، وهي حين تطلق إلى القنص لا تحتاج إلّا إلى الإشارة (بها) ، أما إذا أُريد زجرها عنه فلا بد من الصراخ ، وهو معنى طريف لطيف المأخذ .

ثم انظر إليه وهو يصور سرعة طيران البازي فيقول (٣) :

---

(١) الديوان : ١١ (٢) الديوان : ٤٢ (٣) الديوان : ٣٤/٤

يسبق ذُعْرَ الطيرِ من حيثُ امتَرَقْ
حتى يَرَيْنَ الموتَ من قبل الفَرَقْ

فهل هناك أبلغ في التعبير عن سرعة هذا الجارح من سبقه لذعر الطيور ، فهي تلقى مصرعها على يديه قبل أن يدب الخوف في قلوبها أو يَحُوكَ الذعرُ في صدورها .

ثم انظر إلى هذه الفهود التي تَتَحَلّى بالقدرة على طرائدها ولكنها حُرِمَتْ مزية العفو عند الاقتدار ، ذلك لأنها استطابت طعم الدماء (١) :

أنعتُها تفري الفضاءَ عَدْوَا
نوازياً خلفَ الظباء نَزْوَا
لا تحسن القدرةُ منها عَفْوَا
قد وجدتْ طعمَ الدماء حُلوَا

ولو رحنا نستقصي ما في هذه الطرديات من اللفتات الطريفة والمعاني الجميلة لطال بنا القول فهي كثيرة عند ابن المعتز .

غير أن الشاعر شاب مزيته هذه بمآخذ ثلاثة :

أولها : الإغارة على سابقيه والأخذ منهم دون تورع أو تحرج ، من ذلك قوله في الفهدة (٢) :

لها مجلس في مكان الرديف ... كتركية قد سبتها العربْ
ومقلتها سائلٌ كحلُها ... وقد حليت سُبَجاً من ذهبْ

فقد أخذه من قول عبد الصمد بن المعذل :

كأنها والخُزْرُ من حِداقِها ... تركٌ جرى الإثمد من آماقِها

(١) الديوان : ٤٢/٤ (٢) المصايد والمطارد : ١٩٢

وقوله في وصف الغبار الذي تثيره الكلاب عند عدوها [١] :

وطارَ نقعٌ في السماءِ وركدْ
كأنه مِـلاءُ غسّالٍ جُددْ
ينشرهـا السهلُ ويطويها الجَدَدْ

أخذه من قول لبيد في حمارين وحشيين :

يتعاوران من الغبار ملاءة بيضاء محكمة همـا نسجاهـا
تطوَى إذا وردا مكاناً مُحزِناً وإذا السنابك أسهلت نشراها

وقوله في البازي [٢] :

أقمرَ مثلِ الملك المتوّج
ذي مقلة نقيّةِ المُحَجَّجِ
ومِخلبٍ كالحاجب المُزَجَّجِ
أبرشِ بُطنان الجناح الدّيْزَجِ
كطيلسان الملك المُدَبَّجِ
لم يَخْلُ من يومِ سرورٍ مُبهِجِ
وذابحٍ وقادحٍ مؤجَّجِ
ومنضجٍ ومُعجِلٍ مُلهوَجِ

أخذه من قول أبي نواس في البازي [٣] :

من مقلة واسعةِ المُحَجَّجِ
كأنما تطرف من فيروزَجِ
من دَيزَجِ اللون وعزّ الدَّيزَجِ
مُكحَّل الآماق أو مُزَجَّجِ

---

(١) الديوان : ١٩/٤ (٢) الديوان : ١٥/٤ (١) الديوان : ٦٦٤

فظل أصحابي بعيش سَجْسَجِ
تراهم من مُعْجِلٍ ومُنْضِجِ
وقادِحٍ أوْرَى ولم يُؤَجِّجِ

وقوله في صقره والوثوق بظفره إذا أُطْلِق للصيد [1] :

قد وَثِقَ القوم له بما طلبْ فهم إذا جَلا لصيدٍ واضْطَربْ
عَرَّوْا سكاكينَهُمُ من القُرُبْ

أخذه من قول امرىء القيس :

إذا ما ركبنا قال ولدان حيّنا تعالوا إلى أن يَأتِيَ الصيدُ نحطب

وهو كثير في طردياته .

وثانيها : تكرار المعاني في هذه الطرديات مما يورث الملالة ، ويدعو إلى السآمة ، وقد رأينا ذلك واضحاً جلياً عند عرضنا لشعره في هذا الباب .

وثالثها : تلك المبالغات التي يأباها الذوق ولا يسيغها الطبع ، من ذلك قوله في قُوَّةِ صيد الفهدة [2] :

غدت وهْي واثقة أنها تقومُ بزاد الخميس اللّجِبْ

وقوله في الزرق [3] :

وزرّقٍ مُجَرَّبٍ مِقْدامِ
يضمن زادَ الجَحْفَل اللُّهَامِ

غير أن هذه المبالغات – لحسن الحظ – ليست كثيرة في طردياته .

---

(١) المصايد والمطارد : ١٠
(٢) الديوان : ١٣/٤ (٣) الديوان : ٣٩/٤

الخصائص اللفظية لشعر الطرد عند ابن المعتز :

إن الدارسَ الذي يُعَاني شعر الطرد منذ نشأته على يدي أبي النجم ثم ينتهي به المطاف إلى ابن المعتز ويستقر عنده ينسَى تلك الطرق الوعرة التي سلك شعابها والمصاعب الصَّعْبَةَ التي ذللها ، والأيام الطويلة المملة التي قضاها في طردية واحدة ، ذلك لأنه يجد نفسه أمام اللفظة المأنوسة الحلوة ، والنغمة الرشيقة العذبة ، والتعبير المشرق الجميل .

فالمُتَوَقَّع في شعر الطرد كائناً من كان قائله أن يأتيَ غريب الألفاظ بدوي الصور ، ذلك لأنه ضرب من الرجز يقال في حيوان يطرد حيواناً آخر في الفلوات . لكن ابن المعتز يُخلِف هذا الظن ، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى عاملين اثنين هما طبيعة العصر ، وشخصية الشاعر .

أما طبيعة العصر وهي النصف الثاني من القرن الثالث الهجري فقد أخذت بأسباب الحضارة والترف ، ومالت عن خشونة العيش إلى خَفْضِه ولينه ، وجعلت للغناء والقيان في حياتها الجديدة مكاناً مرموقاً .

وبيئة كهذه لا بد من أن تُؤثِر مألوف اللفظ على غريبه ومأنوسه على نافره ، ولا بد من أن يُستَبْعَد من حياتها بدويُّ الألفاظ وصحراوي الصور والمشاهد .

ويزداد ذلك وضوحاً إذا عرفنا أن الطرد وشعره كانا في هذا العصر من خصائص البيئات المترفة الغارقة في اللين والنعومة إلى الأذقان .

أما الشاعر فهو عبدالله بن المعتز ربيب القصور ، وابن الملوك وأحد الموسيقيين المرموقين في عصره ، وذلك كله يَنْأى به عن اللفظ الغريب ويبتعد بشعره عن التعبير الخشن ، ويميل به إلى السهولة والإلف ، وهذا هو الطابع العام لألفاظ طردياته .

لكن ذلك لم يفض بابن المعتز إلى الهلهلة والضعف ولم يسلب طردياته جمال

الجزالة ورصانة التعبير ، وإنما جمع لها رِقّةَ الجديد إلى قوة القديم وإن كان الجديد فيها أظهر وأكثر .

حقّاً إن الشاعر حاول مرة أن يقلد أبا نواس في إحـــدى طردياته التي أغرب فيها وتعاجم وهي الجيمية التي مطلعها [1] :

قد أغتدي قبل الصباح الأبلجِ
وقبل نَقْنَاق الدّجاج الدجَّجِ

فنظم ابن المعتز طردية على وزنها ورويها مطلعها [2] :

لمـــا حدا الصبح بليل أدْعَجِ
مثلِ القَباءِ الأسود المُفَرَّجِ

وحذا حذوها في إغرابها وتعاجمها وفي الكثير من صورها وتعابيرها ، بيد أنه لم يستطع أن يبلغ مبلغ أبي نواس في الإغراب والتعاجم وكانت طردية واحدة لم تتكرر .

ثم إن الفاظ ابن المعتز تمتاز بميزة ثانية واضحة هي ملاءمتهـــا المعاني التي تؤديها ، فإذا رَقّ المعنى بأن كان الموقفُ موقفَ غزل أو خمر أو وصف لروض أنف ، أو أسىً على شباب ذاهب ، عَذُبَتْ ألفاظُ الشاعر ورقت ومَثّلتِ الموضوع الذي تحكيه ، وإذا قوي المعنى واشتد بأن كان الموقفُ موقفَ طراد وعَدْوٍ ونضال مع الأرض القاسية قويت الألفاظ وجَزُلَتْ ولأمت المقام الذي قيلت فيه .

ولبيان ذلك يحسن بنا أن نستعيد طرَفاً من إحدى طردياته التي يأسى فيها على شبابه الذاهب إذ يقول [3] :

---

(١) ديوان أبي نواس : ٦٦٤ (٢) ديوان ابن المعتز : ٤/١٥

(٣) الديوان : ٤/٢٣

لهفي على دهرِ الصِّبا القصيرِ
وغصنِه ذي الوَرَقِ النضيرِ
وسُكْرِه وذنبِه المَغْفُورِ
ومَرَحِ القلوب في الصدورِ

أو قوله في غلامه الذي خرج به إلى الرياض ليسقيه حيناً ويصيد له حيناً آخر (١) :

تديرُها كفُّ غزالٍ أحْوَرِ
ذي طرة قاطِرَة بالعَنْبَرِ
ومَلْثَمٍ يكشفه عن جَوْهَرِ
وكفل يَشْغَلُ فضلَ المِئْزَرِ
تُخْبِرُ عيناه بِفِسقٍ مُضْمَرِ
يُعَلِّمُ الفجورَ من لم يَفْجُرِ
ويَذْعَرُ الصيدَ ببازٍ أقْمَرِ

فالشاعر كسا المعانيَ الرقيقة ألفاظاً رقيقة ، وعبَّر عن المشاهد الناعمة بالديباجة التي تحكي الحرير ، ثم انظر إليه وقد اشتد المعنى ، وتأمله كيف اصطفى له ألفاظاً قوية جزلة تملأ الفم وتقرع السمع ، فها هو ذا يصور مشهداً للطراد في الفلوات فيقول :

لما غدونا وعدَتْ خيلُ الطَّرَدْ
أبرق بالركض الفضاءُ ورَعَدْ
وقام شيطانُ الخَريصِ وقَعَدْ
وطار نَقْعٌ في السماء ورَكَدْ

ثم إن هذه الطرديات تمتاز بكثرة ما فيها من العبارات المحكمة البناء

---

(١) الديوان : ٢١/٤

الموجزة الأداء التي تعطي معانيها من أقرب سبيل وأيسره ، من ذلك قوله في التعبير عن جَوْبِ الفلوات بحثاً عن الطرائد :

* نأخذ أرضاً ونَـذَرْ *

وقوله في كلبة صادت كل ما وقع تحت بصرها وبصر كلابيها من طرائد :

* وأخذتْ ما أخَذَ العيانُ *

وقوله في فراهة البازي على الصيد :

* مبارك إذا رأى فَقَدْ رُزِقْ *

وقوله في مخاليبه المعوجة قليلا :

* مخالباً كنصف أنصافِ الحَلَقْ *

وقوله في تصوير شدة رغبة الكلاب بالصيد فهي عند الدعوة إليه لاتحتاج إلاّ إلى الإشارة وعند الزجر عنه لا بد من أن تُعامَلَ بالشد :

* يُشْلَيْنَ بالزَّعْقِ ويُدْعَيْنَ بـ(ها) *

وأمثال ذلك كثير في طردياته ، ولا غرو فهو الذي عَرَّفَ البلاغة بأنها « البلوغ إلى المعنى ولم يطل سَفَرُ الكلام » .

ثم إنّ هذه الطرديات تمتاز بأنها محذوفة الفضول ، فقارئها قلما يقع فيها على لفظة جاء بها الشاعر ليتكىء عليها في إقامة الوَزْنِ ، أو لِيَعْبر فوقها إلى القافية ، أو ليصحح بها الأعراب ، ونحن نجد مصداق ذلك في أية طردية من طردياته .

الخصائص التصويرية لطرديات ابن المعتز

ما من ريب في أن أعظم ميزة تمتاز بها طرديات ابن المعتز هي تلك الصور البارعة التي ازدان بها كل مشهد من مشاهدها ، فأضفت عليها حُللاً من الجمال

وَغطّتْ كثيراً من عيوبها ، وسترت ما فيها من نقص ، فابن المعتز كان يملك طاقة تصويرية رائعة ويحسن التصرف فيها في كل مجال، وقارىء طردياته لا يزال يتنقل بين صوره ، يأخذ صورةً وَيذرُ أخرى،وهو ضَنينٌ بالمتروك حَفِيٌّ بالجديد ، لا يَنْقَضِي إعجابه بالسابقة حتى تأسره اللاحِقةُ ،وقدأعان الشاعرَ على التصوير ريشةٌ صَنَاع تُحْسِنَ اختيار الألوان والأصباغ ، ولا شعورٌ غني برائع الصور ، وخيالٌ خصب وَلودٌ قادرٌ على ضم الأشباه إلى الأشباه وقرن النظائر المحسوسة بالنظائر المستكنة في الضمير .

وقد اعتمد الشاعر في إبراز صوره على وسيلتي البيان الكبيرتين : التشبيه والاستعارة ، وعضدهما بقدرته الفائقة على التخيل ، فالتشبيه عنده هو الأداة الأولى في إبراز الصور وإيضاحها وإعطائها أشكالها وألوانها .

وقد اكتشف ابن المعتز في نفسه هذه الطاقة وعرف كيف يفيد منها ، فأتى بالعجب العجاب ، أليس هو القائل : « إذا قلت (كأنّ) ولم آت بعدها بالتشبيه فَفَضّ الله فمي » [1] وعرف القدماء هذه القدرة في الشاعر أيضاً ، فنَوّهوا بها وأطنبوا ، فقال الثعالبي : « تشبيهات ابن المعتز يُضرَبُ بها المثل في الحسن والجودة ، ويقال إذا رأيت كاف التشبيه في شعر ابن المعتز فقد جاءك الحسنُ والإحْسَان » [2] .

وأغراض التشبيه عند ابن المعتز هي تجميل المشبه وتزيينه ، أو توضيحه وجلاؤه ، أو نقله من المعقول الغامِض إلى المحسوس المدرك .

وإلى القارىء بعضاً من صوره التي اعتمد على التشبيه في إبرازها وجلائها فكان نعم الأداة .

فها هي ذي طائفة من المشاهد يتلو بعضها بعضاً وقد جُلِيت كلُّها بالتشبيه وصُوّرت بأداته الصناع [3] :

---

(١) معاهد التنصيص : ١٩٤ (٢) ثمار القلوب : ٢٢٧ (٣) الديوان : ٣٤/٤

لما جلا ضوءُ الصَّبَاحِ وَفتَقْ
تَجَلِّيَ الصفوةِ من تحت الرَّنَقْ
وأنجمُ الليل مريضاتُ الحَدَقْ
تَتلو الثُّريا حِزَقاً بعد حِزَقْ
كأنها حين فَرَى الصبحُ وشَقْ
واسطةٌ بينَ لآلٍ تأتلِقْ
كأنما الجوزاءُ في أعلى الأُفُقْ
أغصانُ نَوْرٍ أو وِشَاح من وَرِقْ
والفجر في المَشْرِق كالثغر النَّسَقْ
كأنه ألقَى على الأرض طَبَقْ
غدوتُ في ثوب من الليل خَلَقْ
بطارِح النظرة في كل أُفُقْ
ذي مِنْسَر أقنى إذا شَكَّ خَرَقْ
ومُقلَةٍ تصدُقُه إذا رَمَقْ
كأنها نَرْجِسَةٌ بلا وَرَقْ
يَنْشِبُ في الأثباج حتى تَنْفَتِقْ
مخالباً كنصفِ أنصافِ الحَلَقْ

فأنت ترى كيف حشد في هذه المقطوعة الصغيرة سبعة تشبيهات متتاليات ، بعضها تمثيلي وبعضها الآخر مفرد وقد تعاونت جميعها على إبراز الصورة وجلائها وتزيينها وتجميلها ، فانظر إلى الصبح الذي ينجلي من شوائب الظلام كما تنجلي الصفوة من تحت الرنق وإلى الثريا التي تمشي في موكب من النجوم فتبدو كواسطة عقد تأتلق بين اللآلىء ، وإلى الجوزاء وقد رصَّعت منكب الأفق فلاحت كأغصان من الزهر أو وشاح من الفضة ، وتأمل الفجر

يفتر عنه المشرق كما يفتر الفم الجميل عن الأسنان المنضّدة المنسّقة ، ثم تَمَلَّ من مقلة البـازي الذهبية التي تشاكل نرجسةً من غير ورق ، ثم تأمل أخيراً مخالبه المعقوفـة التي تحكي نصف أنصاف الحَلَق ، تأمل ذلك كله وتذكر قول القائل : « إذا رأيت كاف التشبيه عنـد ابن المعتز فقد جاءك الحسن والإحسان » .

وهنـا مشهد آخر جُلِيَتْ جُلُّ صوره بأداة التشبيه البديعة المبدعة أيضاً [1] :

يا رب ليلٍ كجَنَاحِ النّاعِقِ
سَرَيْتُه بِفِتْيَةٍ بَطَـارِقِ
نَنتَابُ صيداً لم يُرَعْ بِطـارِقِ
بأجْدَلٍ يَلْقَنُ نُطْقَ الناطِقِ
ذي مِخْلَبٍ أقنى كنون الماشِقِ
وجُؤْجُؤٍ لابِسِ وَشْيٍ رائِقِ
كـأثر الأقلام في المَهَـارِقِ
أو كامتداد الكُحلِ في الحَمَالق
وَنجَمَتْ للَحْظِ عينِ الرّامِقِ
عشرٌ من الإوزّ في غَـلافِقِ
فمرّ كالريـح بِعزْمٍ صادِقِ
حتى دنا منهن مثلَ السّارِقِ
يضربُ أحرازَ الحشَا من حَارِقِ
كما رأيتَ رَجّـة الصواعِقِ
حتى بدا ضوءُ صَبَاحٍ فَـاتِـقِ
تَبَدّي المشيبِ في المَفـارِقِ

(١) الديوان : ٤/٣٥

ففي هذه المقطوعة كما في سابقتها سبعة تشبيهات عَمِلَتْ معاً على تصوير المشهد وإيضاح بعض جوانبه تارة وتزيين بعضها الآخر تارة أخرى ، أرأيت إلى الليل الذي يحكي جناح الغراب بسواده وإلى مِخْلَبِ الصقر الذي يشبه نون الكاتب في دقته واعوجـــاجه ، وإلى جؤجئه الذي يماثل في نَمْنَمَتِه آثار الأقلام على الصحف ويحكي في وشيه ولونه امتداد الكحل في العيون ، ثم هل أبصرت هذا الجارح وهو يهب إلى فريسته هبوب الريح حتى يدنو منها دنو السارق ثم ينقضُّ عليها انقضاض الصواعق .

ثم هل نظرت إلى ظلمات الليل عند الفجر وقد شابَتْها أنوارُ الصبــاح فبَدَتْ كالمشيب في المفارق . إن هذه الصور كلها رَسَمَها ابنُ المعتز بريشة التشبيه التي ما دعاها إلاّ لَبَّتْه وما استنجد بها إلا أنجدته .

ثم تأمل هذه المشاهد الصغيرة التي يبلغ فيها التشبيه الغاية في القدرة على التصوير (١) :

لمــا حدا الصبحُ بليلٍ أدْعَجِ
مثلِ القَبــاء الأسودِ المُفَرَّجِ
والنجمُ في غُرّةِ فجرٍ مُسْرَجِ
كالمُصْطَــلي باللّهبِ المُؤَجَّجِ

فالشاعر يشبه الليل وقد أخذت أشعة الصبـــاح تبدو من خلاله بثوب أسود مشقق بَرَزَ النورُ من خلال شقوقه ، ويمثل النجم وقد أطل على الفجر الأحمر واقترب منه بمستدفيء يصطلي باللهب الأحمر المتأجج ، ثم تـأمل هذا الزُّرَّقَ الأبيض المُوَشّى بالسواد كيف يصوره لك بوساطة التشبيه أيضـاً فيقول (٢) :

---

(١) الديوان : ١٥/٤ (٢) الديوان : ٣٩/٤

كأنه فوقَ يدِ الغُلامِ

صُبحٌ له درع من الظَّلامِ

ذو جؤجؤ كَنَمَشِ الرُّخامِ

أو أسطر دقيقة الأقلامِ

ثم إنّ ملكة التشبيه تمتاز عند ابن المعتز بالغنى والغزارة مما جعله يسلك في كثير من الأحيان سبيل التشبيه الذي يدعوه علماء البلاغة بتشبيه (الجمع)، وهو يقوم على إيراد أكثر من مشبه به للمشبه الواحد ، وإذا أردت مصداق ذلك فاستعد معنا تلك الصورة التي أوردناها آنفاً ، فالشاعر لم يكتف بتشبيه نَمْنَمَةِ جؤجؤ الطائر بنمش الرخام وإنما عضده بمشبه به آخر هو الأسطر الدقيقة الأقلام .

ونظائر هذا كثيرة في طردياته من ذلك قوله في وصف جواده [١] :

ذي أذنٍ كَخُوصةِ العَسيبِ

أو آسة أُوفِتَتْ على قَضيبِ

وذنبٍ كالهيدَبِ المَسْكُوبِ

أو ثروة ذات ثَرىً رَطيبِ

وقوله في غُدُوِّه إلى الصيد وقد جلا الصباح عن مفاتن الطبيعة :

قد أغتدي على الجياد الضُّمَّرِ

والصبح في طرة ليل مُسْفِرِ

جلا لنا وجهَ الثرى عن منظرِ

كالعَصْبِ ، أو كالوَشي ، أو كالجوهر

فهذا مشبه واحد هو منظر الروض جلاه الشاعر في ثلاث صور هي العصب

(١) الديوان : ٨/٤

والوشي والجوهر ، وهذه قدرة باللغة امتلكها الشاعر وأفاد منهـا في جلاء صوره وإغنائها .

ولم يكن نصيب الاستعارة في إبراز الصور عند ابن المعتز وإتقانهـا بأقل من نصيب التشبيه ، ولا غرو فليست الاستعارة إلا تشبيهاً ، حُذِفَ أحـد طرفيه لخلابة القارىء والمبالغة في تأكيد العلاقـة بين المشبه والمشبه به إلى حد الزعم بأنه غدا فرداً من أفراده .

فها هوذا يشخّص لك الصبح ويبث فيه الحياة ويجعله سيداً للفلوات يأمر وينهَى ويأذن ويحجب فيقول (١) :

حتى إذا ما عَرَفَ الصيدَ الضارْ
وأذِنَ الصبح لنـا بالإبْصَارْ

فهل هناك أجمل من استعارة الإذن لإمكان الرؤية وهي استعـارة ضربها علماء البلاغـة مثلاً على الاستعارة (الخاصيّة) النادرة التي لا تتفق إلا لمن أوتِيَ حظاً كبيراً من الذوق .

ثم انظر إلى الصقر وهو يطـارد فريسته في الجو فيحز أعناق الرياح التي تعترض سبيله (٢) :

هَزَّ جنـاحيه إليهـا هَزّاً
كما هَزَزْتَ النَّيْزَكَ المُرْتَزّا
يحز أعنـاقَ الرياح حَـزّا

ثم انظر بعد ذلك إلى هذه الطائفة من الاستعارات التي حشدهـا الشاعر ليرسم بها مشهداً من مشاهد الصيد ويصور بوساطتها يوماً من أيامه :

ومن عجب الـلذات يومٌ سرقْتُـه من الدهر لم يعلم به الدهرُ سَالِفُ
غدونا ولمـا يَرْتَقِ الشمسُ أُفقَها تسيل بنا قودُ الجياد الخَوَانِفُ

---

(١) الديوان : ٢١/٤ (٢) الديوان : ٢٥/٤

نشق رياضاً قد تيقّظ نورُها وبلّلها دمعٌ من المُزْنِ ذارِفُ
كأنّ عباب المِسك بين بِقاعِها تُفتّحُها أيدي الرياحِ اللّطائفُ
ونبّه وسنانَ التراب ضُحيّةً إلى العصر شدٌ يأكل الأرضَ عاصِفُ

أرأيت إلى هذا الحشد الكبير من الاستعارات كيف يصطنعه الشاعر ليصور به المشهد ويبثّ فيه الحياة، ويملأه بالحركة، فاليوم عند الشاعر شيء يُسْرَق، والدهر إنسان يُسْرَقُ منه وهو لا يعلم، والخيل تسيل بالركب والزهر الغافي يستيقظ في الرياض، والمزن الهتون تبكي بالدموع الغزار، وأيدي الرياح الناعمة الرخصة تحرك الشّذَى في الكون، والتراب النائم الوسنان ينبّهه العَدْوُ من سباته، والركض السريع العاصف يأكل الأرض.

ثم انظر أخيراً إلى ذلك المشهد الذي استمد خطوطه وألوانه من طائفة من الاستعارات البارعة لترى كيف استطاع الشاعر أن يُسخّر فنون البيان في بناء صوره وأن يستخرج أبدع ما فيها من طاقات [1]:

لهفي على دهر الصّبَا القصيرِ
وغصنِه ذي الوَرَقِ النضيرِ
وطولِ حبْلِ الأمَلِ المجْرورُ
في ظل عيشٍ غافِلٍ غريرِ
فالآن قد صِرْتُ إلى مَصيري
واشتعلَ المَفْرِقُ بالقَتِيرِ
قد أغتدي بين الدُّجَى والنورِ
بِضُمّرٍ لطائفِ الخُصور
كم غادَرَتْ من قسطَلٍ منثورِ
وبلدةٍ صائحةِ الصُّخورِ
ووجهِ أرضٍ خلفَها مجْدورِ

---

(١) الديوان: ٢٣/٤

فكم كان الشاعر بارعاً حين مثل شبابه بشجرة مورقة مونقة ، وآمـــاله الواسعة بحيوان أُرْخِيَ له حبلُه الطويل ، ودهره بإنسان غافل غرير لم يفطن لتنغيصه، ثم أعطى الصورة المقابلة صورة الشيب وقد اشتعل في رأسه، وكم كانت صورته التي رسمهـا لِعَدْوِ جواده موحية معبرة ، فهل هناك أدق تصويراً لسرعة العدو من هذه الصخور التي دبَّتْ فيها الحيـاة فجعلت تصيح وتستجير ما تلقى ، ومن وجه الأرض الذي غدا مجدوراً من فرط ما حفرت سنابك الخيل فيه .

ولو رحنا نستقصي ما في هذه الطرديات من صور رُسِمَت بريشة الاستعارة لطال بنا القول .

على أن الذي أمَدَّ الشاعر بهذه القدرة العجيبة على التصوير ومَكَّنَه من الإفادة من التشبيه والاستعارة في بناء صوره على هذا الوجه ، إنما هو قدرته العظيمة على التخيُّل .

والقارىء يستطيع أن يَستَشِفَّ تلك القدرة من خلال هذه المشـــاهد الطريفة ، فانظر إليه وهو يتخيل الليلَ عند الفجر وقد غدا غلالةً رقيقـة تغطي وجه الكون ، ثم تأمله وهو يتخيل الفجر وقد تحول إلى حريق يَتَّقِدُ ودخانه ظلام الليل [1] :

غدوت للصيد بِغُضْفٍ كالقِدَدْ
والليلُ قد رقَّ على وجه البلدْ
وابتَـــلَّ سِربالُ النسيم وَبَرِدْ
والفجرُ في ليـــلِ الظلام يَتَّقِدْ

وانظر إليه كَرَّةً أخرى وهو يصور انهزام الليل أمام النهار فيتخيل الليل رجلا حبشياً أسودَ ترك أصحابه ولـّى وقف الصبح ينظر إليه شامتاً مُكَشِّراً عن أنيابه ، ضاحكاً من ذهابه [2] :

---

(١) الديوان : ١٩/٤ (٢) الديوان : أشعار أولاد الخلفاء : ٢٠٨

قد أغتدي والليلُ في إهَابِهِ
كالحبشي مال عن أصحابِهِ
والصبحُ قد كَشَّفَ عن أنيابِهِ
كأنه يَضْحَكُ من ذهابِهِ

ثم تأمل هذه الصورة لِلَّيل قبل انبلاج الصبح ، فهي لا تقل عن أختيها روعة في الخيال [١] :

قد أغتدي في ثوبِ ليل ضافِي
والصبح لم يخرج من الأصدافِ
والنجمُ في حَوْض الظَّلام طافِي
بمُخطَفٍ ذي أربع خِفافِ

فكم هو طريف أن يتخيل الصبح وهي لؤلؤة لاتزال مستكنة في أصدافها ، والنجوم وهي تسبح في حوض من الظلام .

ثم إليك أخيراً هذه الصورة للفجر وقد تحول إلى ثور يطارد الليل ويطعنه بقرن الصبح [٢] :

قد أغتدي والفجر مستعجل ليلا بقرن الصبح مطعونها

وقد امتازت صور الشاعر بميزات واضحة أولاها : الدقة في تناول الموصوف ، وقد رأينا مصداق ذلك فيما أوردناه من نعوته ، وثانيتها : انه لم يقصر وصفه على الأشياء المادية الحسية وإنما صور المعنويات أيضاً ، من ذلك قوله في تصوير حذر الطيور وخوفها من الرُّماة [٣] :

جاءت صفوفاً وزُمَرْ
سوانِحاً بيضَ الغُرَرْ

---

(١) الديوان : ٣٢/٤ (٢) الديوان : ٤٠/٤ (١) الديوان : ٢٥/٤

يطلبن مـا شاءَ القدَرْ

وهُنّ يسألنَ النظــرْ

مـــا عنـدَه من الخبرْ

وقوله في الظبية وقد شعرت بالفهدة تعدو خلفها [1] :

إذا ما رأت عَدْوَها خلفها تناجت ضمائرها بالعَطَبْ

وقوله في تصوير نفسية الغراب وفرط حذره [2] :

أقبـــل يَفْرِي ويَدَعْ

ممتـــلىء اللحظِ جزَعْ

مستروعـــاً ولم يُرَعْ

وثالثة هـذه الميزات ظهور آثار بيئة الشاعر في موصوفاتـه ، فابن المعتز عاش في القصور الغنية المترفة ، وتقلب على نفيس الأثاث وثمين الرياش وارتدى الحرير والديباج وتملّى من روائع العقيان واللؤلؤ ، واستعمل آنية الذهب والفضة والبلّور ، وما إلى ذلك مما حفلت به حياة أبنـاء الملوك في العصر العباسي فبدا كل هذا في أخيلته ولاح في صوره ، وقد فطن القدماء إلى ذلك فقالوا : ولما كان غذيّ النعمة وربيب الخلافـة تهيأ له من حسن التشبيه مـا لـمْ يتهيأ لغيره ممن لم يروا ما رآه ولم يستحدثوا مـــا استحدثه من نفائس الأشياء وطرائف الآلات [3] .

وقد ظهر ذلك في طردياته جلياً واضحـاً فانظر إليه وهو ينعت البازي نعتاً مستوحىً من بيئته وحياته فيقول [4] :

ذو مقلة تهتك أستار الحُجُبْ

كأنهـا في الرأس مسمار ذَهَبْ

---

(١) الديوان : ١٣/٤

(٢) الديوان : ٣١/٤

(٣) ثمار القلوب : ٢٢٧

(٤) الديوان : ٧/٤

يعلو الشمالَ كالأميرِ المُنْتَصِبْ
أمكَنَهُ الجودُ فأعطى ووَهَبْ

فالمسمار المصنوع من الذهب والأمير الذي يحبو الناس بجزيل عطاياه صورتان منتزعتان من بيئة الشاعر وحياته الخاصة .

ثم انظر إلى هذا الزرّق أيضاً فهو قريب في صورته من ذلك البازي[1] :

ذي جؤجؤ مُحَبَّرٍ مَوْشِيّ
ومقلة تلحق بالقَصِيّ
كأنها دينارُ صيرفيّ
واتصلت بِرانِه القُوهِيّ
ساقٌ كغُصْنِ الذهب الجَلُوّ

فالأثواب القوهية الثمينة قليلة نادرة إلا في بيئة مترفة كبيئته ، وأما غصن الذهب المجلو فذلك مما استأثر الشاعر وأبناء أبيه بعلمه .

وبعد فهذه أبرز خصائص طرديات ابن المعتز من الناحية التصويرية ، وهي خصائص أغنت شعر الطرد عنده وزانته وسدت ما فيه من ثُغَرٌ .

الخصائص الموسيقية لطرديات ابن المعتز :

من يقرأ طرديات ابن المعتز تبرز له موسيقاها التي هي أقرب إلى العذوبة واللين منها إلى القوة والشدة والأسر .

وتصدر هذه الموسيقى عن ينابيع ثلاثة : أحدها الوزن ، فقد استعمل الشاعر في إحدى وأربعين من طردياته بحري الرجز والسريع ، وهما بحران

(١) الديوان : ٤٢/٤

خفيفان على اللسان ، عذبان على الآذان ، زاخران بالحركة والاهتزازات التي تصدر عن تفعيلاتها المتتابعة المتماثلة ، واستعمل في ستٍ من طردياته بحوراً لا تقل عن تلك رشاقة وخفة كالمتقارب والخفيف .

وثانيها ذلك الرويُّ المزدوج الذي يتيح لِمُنْشد هذه الطرديات وقفات متقاربة على حروف متماثلة يقطع عندها الصوتَ في كل مرة ليستأنفه من جديد .

والشاعر يزيد هذه الوقفات وضوحاً في الجَرْسِ وجمالاً في الوقع ، إذ يكثر من الروي الساكن الذي يُقْطَعُ عنده الصوت قطعاً أشدّ وأبلغ ، وذلك كما في طردياته التي مطالعها :

* غدوت للصيد بفتيانٍ نُجُبْ	وسبب للرزق من خير سبَبْ *
* غدوت للصيد بفضف كالقددْ	والليل قد رَقَّ على وجه البلدْ *
* أقبل يفري ويدَع	ممتلىء اللحظ جزعْ *
* لا صيد إلا بوترْ	أصفر بجدولٍ مُمَرّ *
* لما جلا ضوء الصباح وفتَقْ	تجلّيَ الصفوة من تحت الرَّنَقْ *
* قد أغتدي قبل غدوٍ بغلَسْ	وللرياض في دَجَى الليل نفَسْ *

وثالثها إفادته أحياناً من ذلك الجناس المدعو بجناس الاشتقاق ، وهو ضرب من الصنعة اللفظية التي تقوم على إيراد لفظين أو أكثر ينتميان إلى مصدر واحد ، فيشتركان عند ذلك في الحروف الأصلية وينجم عن تكرار هذه الألفاظ ذات الحروف المشتركة جرس موسيقي مثير يدعم موسيقى الوزن والقافية ويظاهرهما ويكون بمثابة الموسيقى الداخلية التي تُضاف إلى الموسيقى الخارجية .[1]

---

(١) انظر الديوان : ٤/٧ ، ١٩ و٢٥ و٣٤ و٣٧

من ذلك قوله في الفهود [1] :

أنعت أمثالا قُذِذن قَذّا
يشحذُها الشوطُ البطيء شَحْذا
تجذُّ غيطانَ الفلاةِ جَذّا
كالنبل هَذّتْها القسِيُّ هَذّا

وقوله ايضاً [2] :

أنعتها تفري الفضاء عَدْوا
نوازياً خلف الظباء نَزْوا
لا تحسن القدرةُ منها عفوا

وبعد، فإن ابن المعتز علم من أعلام الطرد في الشعر العربي هَذّبَ ألفاظه، ورقق حواشيَه وأغنى صوره ، وأكمل بناءه وصور به عصره ، على قلة في الموضوعية وشُحّ في الحقائق العلمية ، وقد يكون له في ذلك عذره ، فالشعر للشعور ، وأما العلم فللعقل ، وللعلم دفاتره وكتبه ، وهي لا تعز على من يرومها .

---

(١) المصايد والمطارد : ١٩٩ (٢) الديوان : ٤/٤٢

الفصل السابع

الخصائص العامة لشعر الطرد

١ - الخصائص المعنوية :

لعل أبرز الخصائص المعنوية لشعر الطرد هو ما حفل به من مادة علمية تتعلق بالجوارح والضواري ، وطرق الصيد وأدواته ، فنحن إذا أخذنا طرديات أبي النجم وأبي نواس وابن أبي كريمة والناشىء ، ثم نثرناها وشرحنا معانيَها لاجتمع لدينا كتاب في البيزرة لا يقل عن أي كتاب أُلِّفَ في هذا الباب ، بل إن الكتب التي عُنِيَت بالحيوان أو تخصصت به استَقَتْ مادتها الغزيرة الثَّرَّة من هذا الشعر واعتمدت عليه أعظم الاعتماد فيما أوردته من معلومات فهذا ابن قتيبة يعقد في كتابه المعاني الكبير أبواباً للخيل والقطا والنعام وغيرها فيقول مثلاً : « باب في جَرْيِ الخيل ومَشْيِها » ثم يورد تحت هذا العنوان طائفةً من شعر أبي النجم العجلي وغيرِه ويشرحه ثم ينتقل إلى الباب التالي وهكذا [1] .

---

(١) المعاني الكبير : ٦ ، ١٠ ، ١٣ ، ٢٠ ، ٣٠ ، ٤٨ ، ٥٨ ، ٦٣ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٩١ الخ الخ ..

وهذا الجاحظ يسوق الحديث عن الكلاب فلا يجد وسيلة لوصفها خيراً مما قاله أبو نواس فيها فيورد طائفةً كبيرة من طردياته ، وذلك بعد أن يقدم بين يديها كلمةً تُعرّف القارىء بأهميتها وَتلفِتُه إلى ما زخرت به من مادة علمية فيقول « وأنا كتبت لكَ رجزه في هذا الباب (أي باب الكلاب) لأنه كان عالماً راوية ، وكان قد لعب بالكلاب زماناً ، وعرف منها ما لا تعرفه الأعراب ، وذلك موجودٌ في شعره ، وصفاتُ الكلاب مستقصاةٌ في أراجيزه »[1] .

وهذا كشاجم يفعل قريباً من فعل الجاحظ فيقول عند باب الكلاب : « ومن اختياري من طرد أبي نواس في صفَةِ الكلب وهي جامِعَةٌ لصفات خَلْقِه وسُرْعَتِه »[2] .

وكشاجم أيضاً كثيراً ما يخصّصُ بحثاً للحديث عن جارح من الجوارح فلا يقول فيه شيئاً أبداً ، وإنما يورد تحت العنوان ما قاله أحدُ شعراء الطرد في هذا الجارح وذلك كما في حديثه (اليؤيؤ) حيث أورد اسمه ثم عَرّفه بإيراد أربع طرديات قيلت فيه ، ثلاثٌ منها للناشىء وواحدة لأبي نواس[3].

وهذه الخاصة يكاد ينفرد بها شعر الطرد ، فما عَهِدْنا في الشعر العربي الأصيل غرضاً من الأغراض حفل بالحقائق العلمية القيمة وعُدَّ مَصْدراً معتمداً للحصول على المعارف غير باب الطرد .

ثم إن لهذا الشعر خاصة معنوية أخرى ذات صلة بالخاصة السابقة هي أن الطرد وشعره وولع الخلفاء بهما قد تضافرت جميعها على ايجاد حركة علمية نَشِطةٍ تتعلق بالبيزرة والحيوان أسفرت عن تأليف طائفة من الكتب الثمينة في هذا الباب ، فما كتاب الطيور الذي أمر المهدي بتأليفه ، وكتاب المصايد

---

(١) الحيوان : ٢/٢٧ (٢) المصايد والمطارد : ١٥٦

(٣) المصايد والمطارد : ٩٣ ، ٩٤

والمطارد لكشاجم ، وكتاب الجمهرة في علوم البيزرة للأسدي، وكتاب البيزرة المنسوب إلى بازيار العزيز بالله الفاطمي إلا ثمرة من ثمرات التفاعل الذي تمّ بين شعر الطرد ، وهذه الكتب ، فهو قد أعطاها وأخذ منها واعتمد مؤلفوها على ما جاء في هذا الشعر من حقائق حتى إن القارىء ليَحار في تصنيف هذه الكتب ووضعِها في موضعها الصحيح لأنها كتبُ حيوان ودواوين شعر في وقت واحد .

ثم إن هناك خاصة معنوية ثالثة لشعر الطرد ذلك أنه وَقَفَنا على جانب من جوانب التطور الحضاري للأمة العربية منذ أوائل زمن بني أمية إلى نهاية القرن الثالث الهجري ، فالعَيْرُ والثور والظليم هي الحيوانات المصيدة عند أبي النجم وأبي نخيلة ، والطراد الصعب هي وسيلة الصيد ، والرمح والقوس والسهم هي أدواته ، والصحراء اللاهبة هي مكانه، وامرأة الصياد المَسْوَدّة الذراعين من إيقاد النيران هي بعض مشاهده .

فلما صِرنا إلى العصر العباسي وجدنا أن هذه الصور قد تغيرت تغيراً كلياً فقد أصبحت المصيدات في الغالب طيوراً :

تخـــال في أحداقِها عقيقـــا
ولابسات وُشُحـــاً طَروقــا [1]
مُدَبَّجَــات نُطِّقَتْ تَنْطيقــا
مذهبــةً ترى لهـــا بريقــا
قَضَى لها الصانِعُ أن تَشُوقــا
كأنمــا زوّقهـــا تَزْويقــا [2]

---

(١) الوشح بضمتين جمع وشاح .
(٢) المصايد والمطارد : ٨٦

وأدوات الصيد إما بازيٌّ :

أقمرُ مـن ضرب بُزاةٍ قُمْرِ
كأنه مُكْتَحِـلٌ بِتِـبْرِ

أو صقرٌ :

يَجْتابُ بُرْداً فاخِراً مَطْرورا
مُسَيَّـرا بكتفه تَسْيِـيرا
وقـد تَقَبَّى تحْتَه حريـرا [1]

أو كلبٌ :

تراه في تسريحـه وربقِـه
كعاشق أضناه طـولُ عشقه
أصفر يُلْهِـي العينَ حسنُ خَلْقِه
كذهب أبرزتـه مـن حِقّـه [2]

أو عَنَاق أرض : [3]

حلو الشمائل في أجفانـه وَطَفٌ صافي الأديم هضيمُ الكَشْحِ مَمْسُودُ

وأما مكان الصيد فهو ثرىً رطيبٌ مزهر [4] :

كالعَصْب أو كالوشي أو كالجوهر
من أبيضٍ وأحمـرٍ وأصفـر

وأما المعين على الصيد فهو غلام :

ذو طُرَّةٍ عـاطِرَةٍ كالعَنْبَرِ
ومَبْسَم يكشفه عـن جَوْهَرِ

---

(١) المصايد والمطارد : ٨٥
(٢) المصايد والمطارد : ١٥٥
(٣) المصايد والمطارد : ٢٥٦
(٤) الديوان : ٢٢/٤

وشتان ما بين هذه الصور وتلك . فالأولى تمثّل أمّة متبديَة موغلة في البداوة والثانية تصور أمة متحضرة غارِقة في الترف والزينة والزخرف إلى الأذقان .

ثم إن هذه الطرديات أبرزت مبلغ عناية الناس في العصر العباسي بالكتابة ومدَىْ تذوقهم للخط الجميل ، فما من شاعر من شعراء الطرد في هذا العصر من أبي نواس إلى ابن المعتز إلاّ شبّه وشي ريش جوارحه بِنَمْنَمَة خطوط الكاتبين ، وقد أكثروا من ذلك وأفرطوا فيه :

فأبو نواس يقول [١] :

كأنّ وشْيَ ريشه المُدَرَّج مِن قائم منه ومِن مُعَرَّج
باقي حروف السَّطْرِ المُخَرْفج

وابن أبي كريمة يقول في فهوده [٢] :

مُوَلَّعة فُطْسُ الأنوف ، عوابس تخالُ على أشداقها خطّ كاتب

والناشىء يقول في صقره [٣] :

يضاعِفُ الوَشْيُ به التَّنْميرا مُعَرَّجـاً فيه ومُستَدِيرا
كما يَضُمُّ الكاتبُ السطورا

وابن المعتز يقول في زُرّقه [٤] :

ذي جؤجؤ كنَمَشِ الرُّخامِ أوْ أسْطُرٍ دقيقةِ الأقلامِ
خفيّة الأحرف والإعْجام

---

(١) الديوان : ٦٦٤ وانظر : ٦٣٦ ، ٦٥١

(٢) الحيوان : ٣١٧ ، ٦/٤٧٥

(٣) المصايد والمطارد : ٨٥ وانظر المصايد والمطارد : ٨٠

(٤) الديوان : ٤/٤٩ وانظر ٤/٢١ ، ٤/٣٦

ثم إن هذه الطرديات ألمعت إلى أثر العنصر الفارسي في المجتمع العباسي وَنمَّتْ في بعض الأحيان على النزعة الشعوبية ، فأكثرَ شعراءُ الطرد من استعمال الألفاظ الفارسية في طردياتهم، وتأنقوا في استخدام الصور الكِسْرَويّة عند وصف جوارحهم، فمما استُعْمِلتْ فيه الألفاظ الفارسية قول أبي نواس[1]:

قد أغتدي بِزُرَّقٍ جُرَازِ مَحْضٍ رقيقِ الزِّفِّ والطِّرازِ
دُبَّقَ من نعمان شهردلز تصيدنا رِزْقا وَدَسْتَخَازِ
زين يد الحامل والقفّاز

وقوله[2] :

قد أغتدي قبل الصباحِ الأبْلَجِ بِسَهْرداز اللون أو إسْبَهْرَجِ
أبرش أوتار الجناح الأخرَجِ بين حوافيه إلى الدُّهْبَرَّجِ

وقول الناشىء في وصف طير الماء[3] :

تَخْتَال في أجنحةٍ خوافِق كأنما تختال في قَراطِقِ
يَرْفُلْنَ في قمص وفي يَلامِقِ كأنهن زَهَرُ الحدائقِ

فإن كُلا من الدستخاز بمعنى (الذي يثب عن اليد لدى رؤية الصيد) والسَّهرداز ، والإسبهرج (وهما لونان) والدُّهْبَرَّج (بمعنى ذي الريشات العشر) والقراطق المعربة عن (كرته) واليلامق المعربة عن (يلمه) تُشير إلى ما لاحظناه ونؤيده .

أضف إلى ذلك هذه الصور الفارسية التي وردت في نعت الناشىء للشاهين[4] :

---

(١) الديوان : ٦٤٨ (٢) الديوان : ٦٦٤
(٣) المصايد والمطارد : ٢٥٢ (٤) المصايد والمطارد : ٨٠

في قُرْطُقٍ من خَزِّهِ الثمين مُفَوَّفٍ في نعمةٍ ولين
يُشْبِهُ في طرازه المَصُونِ بُرْدَ أنو شِرْوانَ أو شِيرينِ
وشِكَّةٍ كَزَرَدٍ مَوْضُونِ مُضَاعَفٍ بالنسج ذي غُضُونِ
كدرع يَزْدَجُرْدَ أو شِرْوِينِ

ثم هذه النزعة الشعوبية التي بدت عند أبي نواس في وصفه للديك الهندي [1] :

أنعت ديكاً من ديوك الهند كريمَ عَمٍّ وكريمَ جَدٍّ
لنسبة ليستْ إلى مَعَدٍّ ولا قُضاعِيٍّ ولا في الأَزْدِ

وهناك أمر آخر يميز هذه الطرديات من الناحية المعنوية وهو ما اتسمت به من وحدة الموضوع، فقد كان للطرد وشعرائه فضلٌ كبير في استخلاص فقرة من فقرات القصيدة الجاهلية وتمحيضها لغرض واحد والتعبير بها عن تجربة محددة المعالم متكاملة الأجزاء لا يشوبها الاضطراب ولا ينال التشتت من متعة قارئها ووحدة تفكيره .

ثم إن هذه الطرديات صورت مدى تهالك بعض الناس في العصر العباسي على المتع وابتذال أنفسهم في سبيلها ، فهذا واحدٌ من هواة الضواري يقف من كلبه موقفَ العبد من سيده ، فهو ما زال يَرُوضُ نفسَه حتى جَعَل هواه على غِرار هوى كلبه وأخلاقَه على وَفْقِ أخلاقه :

يا رُبَّ كلبٍ رَبُّه في رِزقِه يَرى حقوقَ النفس دونَ حقِّه
مُتَّبِعاً لخُلْقِه في خُلقِهِ كأنما يَملِك عَقْدَ رِقِّه [2]

وهذا هاوٍ آخرُ يتعهد فرخ الصقر بالتربية كما يتعهد الأب الشفيق وحيده، فيرفق به أشد الرفق ويحنو عليه أعظم الحنو وينذر لحِفْظِه وبقائه النذورَ [3] :

---

(١) الديوان : ٦٤٥ (٢) المصايد والمطارد : ١٥٥ (٣) المصايد والمطارد : ٨٦

سباهُ من شـاهِقَةٍ صغيراً   قد طـارَ أو ناهزَ أنْ يَطيرا
من كانَ بالرِّفْقِ به جديرا   يَنْذُرُ في بَقـائِه النُّذُورا

وهذا هاوٍ ثالث يحدب على جراء كلبه حدب الشيخ على أولاده فَيُكِنُّها في غِطائه، ويوسعها ضماً إلى أحشائه، ويُجلِّلُها إذا بَرَزتْ بردائه:

ترى لمولاه على جرائـه   تَحَدُّبَ الشيخ على أبنائِهِ
يُكِنُّـه بالليل في غطـائِه   يُوسِعُه ضمّاً إلى أحشائِه
وإن عَرَى جلّل في ردائه   من خَشْيةِ الطّلِ ومِنْ أندائِه

وهذا هاوٍ رابع بلغ ولعه بجارحه حداً جعله يفكر في أن يقوته من لحمه [1]:

وقانص أحفَى له من أمه   لو يستطيع قاتَه بلَحمِهِ
يقيه من بردِ النّدَى بكمه   توقِيَةَ الأم ابنها في ضمِّهِ

وأمثال هذه الصور كثيرة في الطرديات.

غير أن المعاني في هذه الطرديات ينقُصُها صدق التجربة، فالصيد مطلب من مطالب الحياة، يعروه الإخفاق والنُّجْح ويعرض له الفَوْتُ والدَّرَكُ، غير أن شعراء الطرد أغمضوا أعينهم عن حالات الإخفاق والفوت، ولم ينظروا إلا إلى حـالات النجح والدَّرَك، فجـاءت طردياتهم مَشُوبَةً بشائبة نقص التجربة إن لم نقل بكذبها، والطردية الوَحِيدَةُ في هـذه الطرديات الكثيرة التي شَذَّت عن ذلك هي تلك التي قالهـا أبو نواس في الفخ [2]، فكم كان رائعاً حين جعل العصفور يُحَوِّمُ فوق الفخ، وهو يشتهي أن يلتقط الحَبْ الذي انتثر عليه، ويخشى مَغَبَّةَ ذلك، فتَحْتَرِبُ في نفسه (لا) و (نعم)

---

(١) ديوان أبي نواس: ٦٦٩   (٢) الديوان: ٦٦١

ثم ينجلي الموقف عن انتصار جند (لا) واندحار جيش (نعم) وينجو الطائر الصغير بروحه ويبوء القانص بالحسرة .

إنّها تجربة رائعة مؤثرة ينفعل بها القارىء ويحياها مع الشاعر وحبّذا لو كانت رائدة فحذا الشعراء حذوها :

حتى إذا أشرَفَها مُوفِيا	وعايَنَ الحَبُّ له مُظْهَرا
خاطَبَه من نفسِهِ زاجِرٌ	قد كنتُ لا أرْهَبُ أن يَزْجُرا
فاحتربت (لا) و (نعم) ساعةً	ثم انجلّى جندُ (نعم) مُدْبِرا
فضَمَّ كَشْحَيْهِ إلى جؤجؤ	كان إذا استَنْجَدَه شمَّرا
فلم يَرُعْني غيرُ تَدْويمِهِ	آمِنَ ما كنتُ لَهُ مُضْمِرا

ويغلب على الظن أن السبب في نقص هذه التجارب أو كذبها يعود إلى أن الطرديات كانت تُقال أكثر ما تقال في وصف جوارح الملوك والأمراء وذوي السلطان ، وليس من المنطق في شيء أن يُصَوِّرَ الشاعر جوارح هؤلاء في حال إخفاقها ما دام يسعى إلى مرضاتهم ويرجو نوالهم ، والعمل الفني متى شابَتْهُ شائِبَةٌ خارجةٌ عن طبيعته آل إلى النقص وأفضَى إلى الفساد .

وقد يكون هناك سبب آخر لنقص التجربة عند شعراء الطرد هو أنهم قالوا بعض طردياتهم في معرِض الفخر بجوارحهم والزهو بضواريهم ، وهو مقام يُحتِّم عليهم أن يصفوها في حالاتِ النُّجْح دون الإخفاق .

وأمر أخير نلحظه على معاني الطرديات ، هو كثرة أخذ اللاحقين عن السابقين . وأخذ الخلف عن السلف أمرٌ لا بد منه ولا ضيرَ فيه ما دام اللاحق يكسو معنى السابق بألفاظه ويبرزه بأسلوبه ، لكن الضيرَ في أن يسرق اللاحق معنى السابق بألفاظه كلّها أو جلّها ، والجاحظ يقول في ذلك « ولا

يُعلَمُ في الأرض شاعر تقدم في تشبيه مُصيبٍ تامٍّ أو في معنى غريب عجيب ... أو في بديع مخترَع إلا" وكل من جاء من الشعراء من بعده أو معه إن هو لم يَعْدُ على لفظه فيسرق بعضه أو يدعيه بأسره فإنه لا يدع أن يستعين بالمعنى ويجعل نفسه شريكاً فيه كالمعنى الذي تتنازع فيه الشعراء فتختلف ألفاظهم وأعاريض أشعارهم ولا يكون أحدهم أحق بهذا المعنى من صاحبه » [1] .

وقد وُجِد في الطرديات كثير من الحالات التي تقع في إطار السرقة أو تقترب منه ، من ذلك قول ابن المعذل في الفهود [2] :

* نُمرُ بناتِ القَفْرِ من أرْزَاقِها *

أخذه من قول أبي النجم في زَوْجَةِ الصائد : [3]

* تَعُدُّ عاناتِ اللّوَى من مالِها *

وقوله في انقضاض الفهد على طرائده : [4]

أما رأيت الريحَ في انْخِرَاقِها ولَمْعَةَ البارقِ في ائْتِلاقِها
تهوي هويَّ الدّلو في ارْتِشَاقِها

أخذه من قول أبي نواس : [5]

ما البرق في ذي عارض لَمّاح ولا انقِضَاض الكوكب المُنْصَاحِ
ولا انبتاتُ الجَوْأبِ المُنْداحِ حين دَنَا من راحَةِ المَتّاحِ [6]
أجَدُّ في السرعة من « سِرْيَاحِ » [7]

وقول الناشيء في عيني اليؤيو : [8]

---

(١) الحيوان : ٣/٣١١
(٢) المصايد والمطارد : ١٩١
(٣) انظر ص (٨٩) من هذا الكتاب
(٤) المصادر والمطارد : ١٩٢
(٥) ديوان أبي نواس : ٦٣٧
(٦) الجوأب : الدلو .
(٧) سرياح : اسم كلب .
(٨) المصايد والمطارد : ٩٢

ويؤيؤ مُهَـذّبٍ رشيـقِ كأنّ عينيه لدَى التّحقيقِ
فصّان مخرُوطانِ من عقيقِ

أخذه من قول أبي نواس : [١]

كأن عينيه إذا ما أثأرا فصّان قضّا من عقيقٍ أحمرا

ومن ذلك ايضاً قول ابن المعتز في الفَهْدة : [٢]

لها مَجلِسٌ في مكان الرديف كتركية قد سبَتْها العَرَبْ
ومُقلَتُها سائِلٌ كُحلُها وقد حُلِّيَتْ سُبَحاً من ذهَبْ

أخذه من قول عبد الصمد بن المعذل في الفهدة ايضاً :

كأنها والخُزُرُ من حِداقِها تركٌ جرى الإثمِدُ من مآقِها

وقوله في البازي : [٣]

أقمر مثل ملك مُتَوّجِ ذي مُقلةٍ نقيّة المُحَجّجِ
ومخلب كالحاجب المُزَجّجِ أبرش بطنان الجَناحِ الدّيْزَجِ
كطيلسان الملك المُدَبّجِ لم يَخلُ من يومِ سرورٍ مُبهِجِ
وذابِحٍ وقادِحٍ مُؤَجّجِ ومُنضِجٍ ومُعجِلٍ مُلَهْوَجِ

أخذه من قول أبي نواس في البازي ايضاً : [٤]

من مُقلةٍ واسعةِ المُحَجّجِ كأنما تَطْرِفُ عن فيروزج
من دَيْزَجِ اللون وعِزّ الدَيْزَجِ مُكَحّلِ الآماق أو مُزَجّجِ
فظل أصحابي بعيش سَجْسَجِ تراهم من مُعجِلٍ ومُنضِجِ
وقادِحٍ أورَى ولم يُؤَجّجِ

---

(١) الديوان : ٦٥١
(٢) المصايد والمطارد : ١٩٢
(٣) الديوان : ٤/١٥
(٤) الديوان : ٦٦٤

ولو رحنا نتتبع أخذ السابقين عن اللاحقين في الطرديات لطال المقـــال وضاق المقام .

وأخيراً فإن المعاني في هذه الطرديات قد شيبت بالتكرار الذي يدعو إلى الملالة أحياناً ، فالمرء لا يكاد يقرأ طائفة منهـا حتى يجد نفسه وقد عَزَفَتْ عن قراءة باقيها ؛ لما فيها تكرار بَعَثَ عليه ضيق الموضوع وكثرة مـا قيل فيه ، وشواهد ذلك كثيرة بارزة للعيان .

الخصائص اللفظية :

لو نظرنا إلى ألفاظ الطرديات من حيثُ الغرابةُ والإلف لوجدناهـا مرت بمراحل ثلاث ، فقد كانت في العصر الأموي مَسْرَحاً لغريب الألفاظ وبدوي العبارات ، تُؤْثِرُ ما بَعُدَ وتجنح إلى ما خَشُنَ ، ولا غرو فشعراء الطرد في عصر بني أميـة كانوا من الرجـــاز ، والرجز ارتبط بالغريب وحفل به لأسباب رأيناها من قبل .

ثُمَّ إنَّ موضوعـــات شعر الطرد في زمن بني أمية ظلت بـدوية خالصة فالحيوان المطرود بقي على ما كان عليه في العصر الجاهلي ، فهو لا يكاد يعدو العَيْرَ وأتُنَه ، والثَّورَ الوحشيَّ ومهاتَه ، والنَّعَامَـــةَ والظليم ، وأداة الصيد ما زالت الجواد والرمح ، ومسرح الصيد هو المفـاوز والقفار التي تحيا فيها هذه الوحوش ، وذلك كله يدعو إلى استعمال الغريب ويقود إليه ، ويبدو هذا الإغراب أشدَّ مـــا يبدو عند أبي النجم العجلي وأبي نُخَيلة السعدي ، فانظر إلى هذه الطائفة الكبيرة من الألفاظ الغريبة التي حشدها أبو النجم في إحدى طردياته إذ يقول في وصف عَدْو الظليم : [1]

---

(١) انظر ص (٧٧ وما بعدها) من هذا الكتاب لمعرفة مصدر الأبيات والوقوف على شرح ألفاظها ومعانيها .

يُزَعْزِعُ الجُؤجؤ من أنْقائِه
يحفر بالمَنْسِمِ عن فَرْقَائِه
عن يابس الترب وعن ثَرْيَائِه
ومَرّةً بالحَدّ مِنْ مِجْذَائِه
عن ذُبَحِ التَّلْع وعُنْصُلائِه

أما المرحلة الثانية التي مرت بها ألفاظ الطرديات فقد بدت في القرن الثاني الهجري .

فما إن أطل العصر العباسي الأول حتى وجدنا ألفاظ الطرديات تخضع لطائفة من المؤثرات : أولها ذوق العصر الذي بدأ ينفر من وحشيّ اللفظ ويرتاح إلى مأنوسه ، وأخَذَ يؤثر حَضَرِيّ التعبير على بَدَوِيّه ، وثانيها طبيعةُ الرجز التي كانت تقوم على الغريب ، والطريادت جلها أراجيز . وثالثها نظرة النقاد المتعصبين للقديم من أمثال ابن الأعرابي إلى الشعراء المولدين نظرةً تقوم على استِلانَةِ شعرهم وَوَصْفِهِ بالضَّعْف .

وقد تأثرت ألفاظُ شعر الطرد في هذا العصر بتلك العوامل كلها واستجابت إلى نداءاتها المختلفة ، وبَدَا ذلك واضِحاً جَلِيّاً في طرديات أبي نواس حامل لواء شعر الطرد في هذا العصر .

فالمرء يقرأ طائفةً من طردياته فيجد نفسَه أمام شعر مألوف اللفظ مأنوس العبارة ، ليس فيه من الغريب إلا ما تقتضيه طبيعة الموضوع .

ثم يقرأ طائفة أخرى فيكاد يُنكِر ما يسمع لكثرة ما يعترضه من الغريب الذي يُحوِجه إلى التنقيب في المعجمات والبحث عن معاني الكلمات، ولا غرو فالضربُ الأول قاله الشاعر مُتأثراً فيه بذوق عصره مراعِياً قُرّاء شعره ، من ذلك قوله (١) :

---

(١) الديوان : ٦٣٨

لما تجلّى الليلُ وابيضّ الأفُقْ
وانجابَ سِتْرُ الليلِ عن وَجْهِ الطُرُقْ
باكرني سَهْلُ المُحَيّا والخُلُقْ
نَدْبٌ إذا استَنْدَبْتَه شَهْمٌ لَبِقْ
يدعو إلى الصيد الا قلت انطَلِقْ
بأكْلُبٍ غُضْفٍ صحيحات الحَدَقْ
من أصفر اللون ومُبْيَضٍّ يَقَقْ
كأنما أدْناه من بعض المِزَقْ
لو يَلْصَقُ الخَدّ بأذْنٍ لالْتَصَقْ

أما الضرب الثاني فقد قاله استجابة لطبيعة الرجز ، ودفاعاً عن النفس وتحدّياً للنقاد الذين ضعّفوه واستلانوا شعره ، فكأنّه كان يريد أن يكاثِرَهم في غريبهم وأن يتعالم عليهم فيما يظنون أنه يجهله وأن يقول لهم : إنه ليسَ أقلّ معرفة بغريب كلام العرب من الشعراء السابقين ، ومن ذلك قوله في وصف الصقر : (1)

أحَصّ أطراف القُدامى وَحْوَحِ
أبرش ما بين القَرا والمَذْبَحِ
يلوى بخُزّانِ الصحارى الجُمَّحِ
يُنحِي لها بعد الطِّماح الأطْمَحِ
يسلكها بِنَيْزَكٍ مُذَرَّحِ
ومِنْسَرٍ أقنى كأنف المِجْدَحِ

أما المرحلة الثالثة فتتمثل في القرن الثالث الهجري حيث اختفى الغريب

(1) الديوان : ٦٤٩ وص (١٥٩) من هذا الكتاب ففيه شرح لألفاظ الأرجوزة .

أو كاد من الطرديات، وأصبح قارئهـا لا يقع إلا على اللفظة المـأنوسة الحلوة والتعبير الأنيق المشرق ، ولعل السبب في ذلك هو أن الناس في هذا العصر قـد أوغلوا في الحضارة والترف وانغمسوا في خفض العيش ولينه ، وجعلوا للغناء والقيان في حياتهم الجديدة مكاناً مرموقاً .

وبيئة كهذه لا بُدّ من أن تستبعد من حياتها بَدوِيّ الألفاظ والتعابير . وقد يكون لطبائع الشعراء الذين نهضوا بشعر الطرد في هذه المرحـلة أثرٌ في ذلك ايضاً .

فالشاعران اللذان أكثرا من القول في الطرد خلال هذه المرحلة هما الناشىء وابن المعتز ، ولأولهما رأي في الشعر يقول فيه « الشعر مـا كان سهلَ المطالع فَصْلَ المقاطع ... قد هُريقَ منه ماءُ الفَصـاحة وأضاء له نورُ الزُّجـاجَة فانْهَـلّ في صادِي الفَهْمِ وأضـاءَ في بهيمِ الرأي وحَـكَى الوشْيَ في اتفاق رقومه واتّساقِ رُسومهِ » [1]

وأما ثانيهما فقد قال عنه صاحب الأغاني « إنه ظهرت في شعره رِقّةُ المُلوكيّة » وإن من كان على شاكلته ليس له أن يعدل عن «الكلام السَّبْطِ الرقيق الذي يفهمه كل من حَضَرَ إلى جَعْدِ الكلام ووحشيّه وإلى وصف البيد والمهامه والظبي والظليم والناقة ... والقفار » [2] .

وفي استطاعة المتتبع لشعر الطرد أن يجد مصداق ما قلناه في أية طردية قيلت في القرن الثالث ، وقد أوردنا الكثير منها فيما سلف .

غير أن ميل شعر الطرد في هذا القرن عن الغريب وأخذه بمـا سهل من الألفاظ لم يؤثر في جزالته ولم يفقد رصانته ولم يُفْضِ به إلى الهلهلة ، وفي

---

(١) انظر زهر الآداب : ٢/٦٣٢ (٢) انظر الأغاني : ١٠/٢٧٤

المقطوعتين التاليتين صورة لهذه الجزالة والرصانة في غير إغراب ولا توحش وأولاهما للناشىء في وصف ترويض الفهد وصيده [1] :

أجدتُ له التقويم حتى كففته ... عن الشِّيَمِ اللاتي أبتْ أن تُقَوَّما

فجاء على ما شئتُه ووجدتُه ... مُحِلاً لما قد كان من قبلُ حَرَّما

إذا ما غدونا نبتغي الصيد أسمحتْ ... لنا نفسه ألَّا نُريقَ له دَما

والثانية لابن المعتز في كلبة [2] :

لما بدا الصبح من الحجاب

كما بدا المُنْصَلُ من قِراب

غدوت للصيد مع الأتْرابِ

بكلبةٍ تاهتْ على الكِلابِ

تفوتُ سبقاً لحظةَ المُرْتابِ

تنسابُ مثلَ الأرقم المُنْسابِ

فالقارىء لا يجد في القطعتين السابقتين على جزالتهما أيّةَ لفظة تدعوه إلى الاستنجاد بالمعجمات للتنقيب عن معاني الكلمات .

ثم إن المتأمل لألفاظ شعر الطرد في العصر العباسي يلاحظ أمراً أشرنا إليه في غير هذا المقام ، ألا وهو كثرة استعماله للألفاظ الفارسية ، ولعلَّ السبب في ذلك يرجع إلى المكانة المرموقة التي بلغها العنصر الفارسي في هذا العصر ، وإلى أن الفرس كانوا ذوي أقدام راسخة في الصيد وطرقه ، وسَبقٍ في سياسةِ جوارحِه وضواريه ، وأوّليّةٍ في ابتكار الكثير من أساليبه وأدواته .

ثم إلى رغبة الشعراء في التأنقِ باستعمال هذه الألفاظ وتحليةِ شعرهم

(١) المصايد والمطارد : ١٩٣ (٢) الديوان : ٤/١٠

بهـــا ، فقد كثر استعمال كلمات الشَّهْرَداز ، والإسْبَهْرَج ، والفَيْروزَج والدَّهْنَبَرَّج ، والدَّيْزَج ، والقَراطِق واليَلامِق والدَّسْتُبانِ لدى شعراء الطرد في هذا العصر وبخاصة عند أبي نواس والناشىء كما رأينا من قبل .

ثم إن الناظر في ألفاظ شعر الطرد في العصر العباسي يلمح وفرة مـا ورد فيها من الألفاظ الحضارية التي تمثل ترف العصر ولينَه وما حفل به من زخرف وذلك من أمثال : الوَشْيِ والتفْويفِ ، والخَزّ والديباج والحرير والوِشاح والطَّيلَسان والطِّراز والعَنْبَر والعقيق والتِّبْر وما إلى ذلك .

وأخيراً فإن شعر الطرد يُعَدُّ مُعْجَماً غنياً بالألفاظ العلمية التي تتعلق بالحيوان وصفاته وأعضـائه وشِياته وألوانه وكل ما يتصل به ، وهي ثروة ثمينة يعرف قيمتها الأطباء البيطريون والبشريون الذين يُؤلِّفون في الطب أو يترجمون كتبَه إلى العربية .

الخصائص التصويرية :

الطرديات فن من القول يقوم على الوصف ، فهو في جملته وتفصيله نعت للحيوان الصائد المصيد ، وما يدور بينهما من مطاردة ، وما يتصل بذلك .

والشاعر الذي لا يملك القدرة البارِعـة على التصوير لا ينحو نحوَ هـــذا الفن ولا يستكثر منه لأنَّه فنُّ النعت والصورة .

ومن هنا حفلت الطرديات بقدر من الصور لا يجده القارىء في أيّ غرض من أغراض الشعر الأخرى ، ومن هنا ايضاً كان التصوير هو الميدان الذي تبارَى فيه شعراء الطرد والمجال الذي كَشَفَ عن تفوق بعضهم على بعض.

وموضوعـات الوصف في الطرديات هي أدوات الصيد الحية من الجوارح والضواري ، وغير الحية من القِسِيّ والسِّهام والرمـاح والشباك والأفخاخ ، والمصيداتُ من الوحش والطير ، والطِّراد الذي يدور بين الصائد والمصيد ،

والإنسان الذي يشرف على الصيد ويقوده ، وثمرات الصيد وجناه ، ثم بعض المشاهد المُكَمِّلَة التي هي بمثابة الإطار للصورة من نحو وصف الغُدُوِّ إلى الصيد حين يتنفس الصبح وينسلخ النهار من الليل ووصفِ بعض مجالي الطبيعة وما إلى ذلك .

لكن شعراء الصيد والطرد لم يولوا هذه الموضوعات قدرا متساويا من عنايتهم بالتصوير والنعت ، وإنما اختلف اهتمامهم بها باختلاف الغرض من جهة ، وباختلاف شخصياتهم وميولهم الذاتية من جهة أخرى ، ففقرة الصيد في القصيدة الجاهلية كانت تولي جُلّ اهتمامها لتصوير الحيوان المصيد من عَيْر ، أو ثور ، أو ظليم ، ولا تَلْتَفِت إلى الحيوان الصائد إلاّ التفاتة سريعة وذلك لأن الغرض من إيراد مشهد الصيد هو الإشادة بالراحلة ، أو التأسي عند النازلة ، ولا يتحقق هذان الغرضان إلا بوصف الحيوان الذي شَبّه الشاعر ناقته به أو طرَدَه بجواده أو أتى به ليتعزى بمصرعه .

أما الطردية فقد أوْلَتْ جل اهتمامها لنعت الحيوان الصائد من جارح أو ضار ولم تلتفت إلى المصيدات من الوحش والطير إلا التفاتا خفيفا ، وذلك لأن الباعث على قول الطرديات في الغالب هو نعت جوارح الخلفاء والأمراء وذوي الثراء ، وذلك يوجب على الشاعر أن يستفرغ جهده كُلّه في تصويرها وعدم التعرض إلى ما عداها إلاّ بالمقدار الذي يحقق غرضه .

ثم إن العناية بتصوير المشاهد المُكَمِّلة أو ما دعوناه بإطار الصورة اختلفت من شاعر إلى آخر ومن عصر إلى عصر ، فأبو النجم عُنِيَ بالمشاهد المكملة عناية بالغة ، حتى كاد الإطار يَطْغَى عنده على الصورة لكنها كانت مشاهد صحراوية بدوية خشنة فيها رهبة وقسوة ، وذلك كما في تصويره للجَوّ القاسي الذي مارس فيه الصائد صيدَه :

حتى إذا ما طارَ من خَبِيرِها عن جُدَدٍ صفر وعن غرورها

وأتَتِ النملُ القُرَى بعيرِها مِنْ حسَكِ التَّلْعِ ومن خافُورِها
إذْ رازتِ الكُنُسُ إلى قمورها واتَّقَتِ اللافح من هجيرها

إلى أن يقول :

والأسْدُ قد تسمعُ من زئيرها وباتَتِ الأفعى على محفُورِها
تأسيرها يحتَنِكُ في تأسيرها مَرَّ الرَّحى تجري على شعيرها
تضرَّمَ القصباءِ في تَنُّورها كرعدةِ الجِراءِ أو هديرِها[1]

وأبو نواس لم يلتفت إلى الطبيعة التي كان يمارس فيها الصيد حتى لكأن الجوارح والضواريَ قد ملكت عليه قلبه ولُبَّه وصرفَتْهُ عمّا عداها ، والناشىء لا يهتم بوصف أوقات الغَلَسِ التي أولاها شعراءُ الطرد من عِنايَتِهِم الشيء الكثير ، وابن المعتز مغرم بوصف لحظات البكور مفتون بوصف الطبيعة ، ولكنها طبيعةٌ تختلف اختلافاً كبيراً عما رأيناه عند أبي النجم ، إنها روضٌ أنف جادَتْهُ السماءُ بِغَيْثِها فاهتَزَّ وربَا وأنبَتَ من من كُلِّ زوجٍ بهيجٍ :

والروضُ مغسولٌ بليلٍ مُمْطِرِ جَلا لنا وجه الثرى عن منظر
كالعَصْبِ أو كالوشي أو كالجوهر من أبيض وأحمر وأصفر
وطارفٍ أجفَانه لم يَنْظُرِ تخَالُه العينُ فماً لم يفغَر
وفاتق كادَ ولم يُنَوِّرِ[2]

وقد استعان شعراء الطرد على إبداع صورهم بأدوات البيان الثلاث التي هي التشبيه ، والاستعارة ، والكناية ، يظاهرها جميعاً خيالٌ خصب قادرٌ على جمع الأشتات مع الأشتات واستكمال الواقع بالمتَخَيَّلات ، غيرَ أن

---

(١) انظر ص (٨٣ وما بعدها) من هذا الكتاب الوقوف على مصدر الأبيات وشرح ألفاظها ومعانيها .

(٢) أشعار أولاد الخلفاء ٢١٢

اعتمادهم على الأداة الأولى كان أكبر وأعظم ، فهم قد استخرجوا جميع ما في التشبيه من طاقات وأفادوا منها فائدة جُلّى في إيضاح صورهم تارة ونقلها من المعقول إلى المحسوس تارةً أخرى وتزيينها وتجميلها تارة ثالثة .

ومن يقرأ كتاب التشبيهات لابن أبي عون وديوانَ المعاني لأبي هلال العسكري والمعاني الكبير لابن قتيبة يقفْ على قيمة التشبيه وأثره في إبداع الصور التي حفلت بها الطرديات من ذلك قول الشمردل اليربوعي في عيني الصقر :

كأن عينيه إذا جلاهما   ياقوتتان رابحٌ مَراهُمَا [1]

فتشبيه عيني الصقر الحمراوين بياقوتتين ثمينتين قُصِد منه إيضاح المشبه وتزيينه .

وقول عبد الصمد بن المعذل في الفهدة :

كأنها والخُزْرُ من حِداقها   والخُطَطُ السودعلىأشداقها [2]

تُرْكٌ جرى الإثمِدُ من آماقها

وهو تشبيه جلا المشبه عن طريق قرن الصورة البعيدة بالصورة القريبة فاتضحت الأولى بالثانية .

وقول ابن أبي كريمة في سرعة الكلاب وطول أعناقها [3] :

تخال سِياطا في صَلاها مَنُوطةً   طوال الهوادي كالقِداح الشّوازِبِ

يفوت خطاها الطرفَ سبقاً كأنها   سِهامُ مغَالٍ أو رجوم الكواكب

وهو تشبيه جميل ظاهَرَه خيالٌ بديعٌ جعل الشاعر يتصور أن سياطاً

---

(١) التشبيهات : ٤٨   (٢) التشبيهات : ٥٠   (٣) الحيوان : ٣٨٦/٢

نيطت في أعجاز هذه الكلاب ، فإذا عدَت لسعتها وإذا لسعتها جَدَّت في العدو ، وهكذا دواليك .

وقول أبي نواس في حِدّة أسنان الكلب وتضرُّم عيونه وسرعة عَدْوِه [1] :

كأنَّ لحييه لدى افترارِه شكُّ مساميرٍ على طوارِه
كأنّ خلفَ مُلتقى أشفاره جمرُ غضى يدمِنُ في استعارِه
فانصاع كالكوكب في انحداره لفتَ المُشير موهناً بنارِه

وقول ابن المعتز في صفة عين الكلب الذهبية الصفراء [2] :

غدوت في ثوب من الليل خَلَقْ بطامحِ النظرةَ في كل أفقْ
ومقلة تصدُقه إذا رمَقْ كأنها نرجسةٌ بلا ورَقْ

وهو تشبيه طريف استمد جماله من حسن تخيل النرجسة وقد عُرِّيَت من أوراقها .

أما أثر الاستعارة في إبداع الصور عند شعراء الطرد فهو لا يقل كثيراً عن أثر التشبيه ، ولا غروَ فما الاستعارة إلا تشبيهٌ حذف أحد طرفيه للمبالغة في تأكيد العلاقة بين المشبه والمشبه به وخلابة القارىء والسامع .

ومن بديع الصور التي رُسِمت بريشة الاستعارة قول أبي نواس في سرعة عدو الكلب وظفرِه بالظباء [3] :

تلقى الظباء عنتاً من طردِه يشرَبُ كأسَ شدّها بشدّه

فهو قد استعار الشرب لإذهاب القدرة ، وصوّر بطريق الاستعارة فقدان الظباء لقدرتها بسبب قدرة الكلب .

---

(١) التشبيهات : ٤٠ (٢) التشبيهات : ٤٦ (٣) الديوان : ٦٢٤

وقول عبد الصمد بن المعذل في إشراق الشمس حيث شخّص السَّدْفة، وجعل لها الوصاية على الشمس فهي تأذن لها بالشروق متى شاءت وتحجبها متى أرادت [1] :

قد أغتدي والشمس في أرْواقِها لم تأذن السَّدْفةُ في إشراقِها

وقول ابن أبي كريمة وقد شخّص كُلًّا من الصباح والليل فجعل الأول ناعِياً والثاني مَنعِيّاً [2] :

وقد لاح ناعي الليل حتى كأنه لساري الدُّجى في الفجرِ قنديلُ راهِبِ

وقول الناشىء في صفة أثواب القانص البالية [3] :

ذا عليهُ طِمْرُ ذي شَعَثٍ مَلّتِ الأيامُ مِنْ قِدَمِهْ

فهل هنالك تصوير للبلى والقِدَم أروع من هذا التصوير الذي يُشخّص الأيام ويجعلها على طولها تَمَلُّ من قدم هذا الثوب .

وقول ابن المعتز في غرة الكلب [4] :

وَضَحِكَتْ غُرّتُه في مَوْضِعِ التقْطيبِ

حيث استعار الضحك والتقطيب للبياض والسواد .

أما أثر الكناية في جلاء الصور فهو لا يقل كثيراً عن أثر الاستعارة ، وفي الكناية ضرب من التصوير البارع ولون من الرمز الذكيّ يتطلب من القارىء أن يتجاوز معنى اللفظ إلى لازِمِ معناه ، وفي هذه النقلة من الملزوم إلى اللازم عمل عقلي لطيف يشارك فيه الخيال مشاركةً تُمتِعُ الفكر وتُشبعُ ملكة التخيل عند السامع ، ومن هذه الكنايات الطريفة التي حفلت بها الطرديات

---

(1) المصايد والمطارد : ١٩٠
(2) الحيوان : ٢/٣٦٨
(3) البيزرة : ١٧١
(4) التشبيهات : ٣٦٨

قول أبي النجم في تصوير مبلغ ثقة زوجة الصائد بقدرة زوجها على الظفر بالطرائد [1] :

* تَعُدُّ عانات اللوى من مالها *

فأخذ أبو نواس منه هذه الكناية وقال في تصوير ظفر الكلاب بالصيد[2] :

* تَعُدُّ عينَ الوحش من أقواتها *

ثم أخذها منها ابن المعذل فقال عن الفهود [3] :

* نُمْرُ بَنَاتِ القَفْرِ من أرزاقها *

ومن الكنايات اللطيفة التي استُعِينَ بها على التصوير قولُ الناشىء مُكَنّياً عن صلابة رأس الفهد وتوقد عينيه [4] :

له هامةٌ لو أنّ كفّاً رهيشةً دحتْها على صُمّ الصفا لتهدّما
وعينان لو تُدْنِي إلى قَبَسَيْهما ذُبالاً تذكّى منهما وتضرّما

وقول ابن المعتز في ظفر الكلب الدائم بطرائده [5] :

مباركٌ إذا رأى فقد رُزِقْ

والصور في الطرديات عامة تمتاز بالاستيفاء ، والتلوين ، والحركة ، وهي ميزات تبرز المنعوت بوضوح وتبُثُّ فيه الحياة وتجعل القارىء وكأنه يراه بعينيه ويمسه بيديه ويتتبع حركاته بخياله ، فانظر إلى هذه الصورة التي رسمها أبو النجم لازدراد الظليم للحجارة وحركتها وهي تأخذ سبيلها إلى جوفه [6] :

---

(١) انظر ص (٨٩) من هذا الكتاب (٢) الديوان : ٦٢٨

(٣) المصايد والمطارد : ١٩٠ (٤) المصايد والمطارد : ١٩٧ (٥) التشبيهات : ٤٦

(٦) انظر ص (٧٧ وما بعدها) من هذا الكتاب ففيها شرح الأبيات وذكر لمصدرها.

والمَرْوُ يَلقيه إلى أمْعَائِـــه   في سَرْطَـمٍ هادٍ على الـتِّوائِهِ
يَمُور في الحلـق على عِلـْبَائِه   تَمَعُّج الحَـيَّـــةِ في غِشَائِـه

ثم تأمل هذه الصورة المستوفاة الملونة التي رسمها النـــاشيء لعيني بازِيّه وجناحيه وريش جسده [1] :

مكان سواد العين منه عقيقة   وتبرٌ على خطّ السوادِ يَدُورُ
تمور إذا ما رَنـَّقَت في مآقها   كما مار من ماءِ الزُّجاجَةِ نورُ
له قُرْطـُقٌ ضافي البَنَائِق أنـْمَرٌ   مُفوَّفُ ضاحي الشقـَّتين طَرِيرُ
ومن تحتـه درع كأن رُقومَه   تعاريجُ وَشْيٍ أرْضُهُنَّ حَرِيرُ

وأخيراً فـإن الطرديات أغنت باب الوصف في الشعر العربي ورَحَّبَتْهُ وخلعت عليه بَهِيّ الصور واستخرجت من فنون البيـــان الثلاثة ، وبخاصة التشبيه أعظمَ ما فيها من طاقات وأفـادت منها في نعت الحيوان ، واتحفت القارىء العربي بعشرات الصور البديعة الرائعـــة لِتَنَفُّسِ الصبح وانسلاخِ النهار من الليل ، لكِنـَّها شِيبَتْ بالتكرار والإعادة اللذين يبعثان على الملل وأهملت – أو كادت – وصفَ الحالاتِ النفسية للصائدين والمشاعِرِ الداخلية للحيوانات المصيدة والصائدة عند الطـّراد ، ولو أنهـا فعلت لبلغت الكمال .

الخصائص الموسيقية :

من أبرز الخصائص التي امتاز بهـا شعر الطرد عن أغراض الشعر العربي الأخرى عذوبة جَرْسهِ وحلاوة نغمته ، فمنشد هذا الشعر لا يزال يُتْحِفُ أذنيه بتلك الموسيقى التي تهزج من خلال سطوره هَزَجاً يُمتِـعُ النفسَ ويريحُ الحِسّ ويستحث القارىء على إطلاق صوته بالإنشاد والاستِزادَة منه .

---

(١) المصايد والمطارد : ٦٨

وتنبعث هذه الموسيقى عن طائفة من المصادر أولها بحر الرجز الذي اتخذه شعراء الطرد وزناً لطردياتهم ولم يعدلوا عنه إلّا نادراً ، وكانوا إذا تركوه استبدلوا به في الكثير الغالب البحر السريع الذي يقاربه في نبراته ويشاكله في نغمه .

والرجز أخَفُّ بحور الشعر حركة وأكثرها توثباً وأحفلها بالحيوية .

والخليل لم يَدْعُه باسم الرجز إلاّ لما وجد من الشبه بين اضطرابه واضطراب قوائم الناقة عند القيام [1] ، فهو ذو تفعيلات ثلاث متماثلات متتابعات تحمل إلى أذن القارىء نَغَماً موسيقياً مُتَنَاسقاً يهز النفس هزاً مثيراً ويحركها حركة نشطة ويوحي بالطراد إيحاءً صادقاً .

وثانيها ذلك الروي المزدوج الذي لم يعدل عنه شعراء الطرد في كل ما نظموه على الرجز والسريع .

وازدواجُ الروي أمَدَّ الطرديات بطاقة صوتية أضيفت إلى طاقة البحر وتآزرت معها في تكوين موسيقى هذا الشعر وجعلها زاخرة بالحركة والحياة .

فالذي ينشد هذه الأراجيز ذات الروي المزدوج لا يكاد يقطع الصوت عند حرف الروي في آخر الشطر حتى يُفضِيَ في آخر الشطر التالي إلى روي مماثل ، مما يتيح له وقفات متقاربة على حروف متشاكلة يقطع عندها الصوت في كل مرة ليستأنفه من جديد ، وبين القطع والاستئناف تحدث تلك الاهتزازات الموسيقيه المؤثرة المثيرة .

لكن بعض شعراء الطرد في القرن الثالث أخذوا يضيقون ذَرْعاً بالرجز وَرَويّه المزدوِج وشرعوا ينحون بالطردية نحوَ القصيد وذلك كما فعل ابن أبي كريمة والناشىء فقد نظم الأول طرديته على الطويل ونظم الثاني نصف طردياته على الطويل والبسيط والمتقارب .

---

(١) انظر العمدة : ٨٩/١

ولعل السبب في ذلك هو أنها اتجها إلى قصر الطردية على نعت الجوارح والضواري وتجريدها من الطرد والصيد كما لاحظنا من قبل ، والنعت الهادىء القائم على التأمل لا يتلائم مع الرجز ولا يحتاج إلى الروي المزدوج .

وبعد فهذه هي قصة الطردية العربية منذ نشأتها إلى نهاية القرن الثالث الهجري ، رويت من سيرتها ما استطعتُ روايتَه ، وقدمتُ للقـــارىء من خلالها ثلاثين ومائة طردية مُوَثَّقَةَ المصادر مضبوطةَ النُّصوصِ مشروحةَ الألفاظ ، ثم قَوَّمْتُها وأبرزت أهمَّ خصائصها ومزاياها .

وإني لأرجو أن يكون في هذا العمل المتواضع خدمةٌ للغة القرآن وإسهام في إحياء أدب العرب .

والله من وراء القصد فهو الذي يُسَدِّدُ الخُطَى ويَهْدِي السبيل .

ثبت المراجع

اسم الكتاب	المؤلف	
أحكام القرآن	الجصاص	دار الخلافة العلية سنة ١٣٢٥
أساس البلاغة	الزمخشري	دار الكتب بمصر
الأشباه والنظائر	الخالديان	لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر سنة ١٩٥٨ م
الاشتقاق	ابن دريد	المكتب التجاري ببيروت والمثنى ببغداد سنة ١٣٧٨
أشعار أولاد الخلفاء	الصولي	مطبعة الصاوي بمصر ١٣٥٥
الاعتبار	أسامة بن منقذ	مطبعة جامعة بريستون بالولايات المتحدة ١٩٣٠
الأعلام	الزركلي	
الأغاني	الأصفهاني	دار الكتب بمصر
الاقتضاب	البطليوسي	
أمالي المرتضى	الشريف المرتضى	دار إحياء الكتب العربية بمصر ١٣٧٣
الأمالي	اليزيدي	حيدر آباد الدكن ١٣٦٧
أنس الملا	المنكلي	باريس ١٨٨٠

اسم الكتاب	المؤلف	
البيان والتبيين	الجاحظ	
البـــيزرة	أبو عبد الله الحسن ابن الحسين	المجمـــع العلمي العربي بدمشق ١٣٧٢
تاج العروس	الزبيدي	
تاريخ الأدب العربي	بروكلمان	دار المعارف بمصر ١٩٥٩ م
تاريخ الأدب العربي	شوقي ضيف	دار المعارف بمصر ١٩٦٣ م
تاريخ الأمم والملوك	الطبري	المكتبة التجارية بمصر ١٩٣٩ م
تاريخ إيران	سربرسي سايكس	طهران ١٩٤٤
تاريخ بغداد	الخطيب البغدادي	مكتبة الخانجي بمصر ١٣٤٩
تاريخ التمدن الاسلامي	جرجي زيدان	دار الهلال بمصر
تاريخ الحكماء	القفطي	
التشبيهات	ابن أبي عون	مطبعة كمبردج بانكلترا ١٣٦٩
التشبيهات	ابن أبي عون	مخطوطـة في دار الكتب بمصر
ثمار القلوب	الثعالبي	دار نهضة مصر ١٣٨٤
جامع الأصول	الجزري	مطبعة السنة المحمدية بمصر ١٩٥١
الجمهرة في علوم البيزرة	الأسدي	مخطوطـة في مكتبة أياصوفيا
جمهرة اللغة	ابن دريد	حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٤٥
الحماسة	ابن الشجري	
الحماسة	البحتري	المكتبة التجارية بمصر ١٩٢٩ م
حياة الحيوان الكبرى	الدميري	مطبعة الاستقامـة بمصر ١٣٧٢
الحيوان	الجاحظ	البابي الحلبي بمصر ١٩٣٨ م
خزانة الأدب	البغدادي	دار الكاتب العربي بمصر ١٣٨٧
دائرة المعارف	البستاني	
ديوان ابن المعتز	صنعة الصولي	مطبعة المعارف باستانبول ١٩٤٥م

اسم الكتاب	المؤلف	
ديوان ابن المعتز	أخرجه محيي الدين الخياط	مطبعة الإقبال ببيروت ١٣٣٢
ديوان ابي نواس	تحقيق الغزالي	مطبعة مصر بالقاهرة
ديوان امرىء القيس	تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم	دار المعارف بمصر ١٩٦٤ م
ديوان المعاني	العسكري	مكتبة القدس بمصر ١٣٥٤
رغبة الآمل في شرح الكامل	المرصفي	
زهر الآداب	الحصري	دار احيـــاء الكتب العربية بمصر ١٢٧٢
سمط اللآلىء	البكري	لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر ١٣٥٤
سيرة النبي	ابن هشام	المكتبة التجارية بمصر ١٣٥٦
شذرات الذهب	العماد الأصفهاني	مكتبة القدسي بمصر ١٣٥٠
شرح أشعار الهذليين	السكري	مكتبة دار العروبة بمصر
شرح حماسة أبي تمام	التبريزي	المكتبة التجارية بمصر
شرح حماسة أبي تمام	المرزوقي	لجنة للتأليف والترجمة والنشر بمصر ١٣٧١
شرح ديوان زهير	ثعلب	دار الكتب بمصر ١٣٦٢
شرح ديوان كعب	السكري	دار الكتب بمصر ١٣٦٩
الشعراء والشعراء	ابن قتيبة	دار إحيـــاء الكتب العربية بمصر ١٣٦٦
صبح الأعشى	القلقشندي	دار الكتب بمصر ١٩٢٢ م
الصحاح	الجوهري	دار الكتاب العربي بمصر ١٣٧٧

اسم الكتاب	المؤلف	
صلة تاريخ الطبري	القرطبي	المكتبة التجارية بمصر ١٩٣٩
الصيد والطرد عند العرب	تحقيق الدكتور ممدوح حقي	دار اليقظة بدمشق
طبقات الشعراء	ابن المعتز	دار المعارف بمصر ١٣٧٥
طبقات فحول الشعراء	ابن سلام	دار المعارف بمصر
الطرائف الأدبية	عبد العزيز الميمني	لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر
الطيور		مخطوطة بدار الكتب المصرية
عجائب المخلوقات	القزويني	نشره محمود توفيق بمصر
عقد الجمان		مخطوطة بدار الكتب برقم ١٥٨٤ تاريخ
عيون الأخبار	ابن قتيبة	دار الكتب بمصر
عيون التواريخ	ابن شاكر الكتبي	مخطوطة بدار الكتب برقم ١٤٩٧ تاريخ
فضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب	المرزبان	مطبعة محمد توفيق بمصر ١٣٤١
الفن الحربي في صدر الاسلام	عبد الرؤوف عون	دار المعارف بمصر ١٩٦١
فوات الوفيات	ابن شاكر الكتبي	النهضة المصرية بالقاهرة ١٩٥١
القانون في علم البيزرة		مخطوطة في دار الكتب برقم ١ فروسية تيمور
قصة الحضارة		
الكامل في التاريخ	ابن الأثير	
الكامل في اللغة والأدب	المبرد	البابي الحلبي بمصر ١٣٥٦
لسان العرب	ابن منظور	للمطبعة الأميرية ببولاق ١٣٠٠

اسم الكتاب	المؤلف	
المؤتلف والمختلف	الآمدي	دار إحياء الكتب العربية بمصر سنة ١٣٨١
مختار الأغاني	ابن منظور	الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٣٨٥
مختارات البارودي	محمود سامي البارودي	مطبعة الجريدة بمصر ١٣٢٩
المخصص	ابن سيده	المطبعة الأميرية ببولاق ١٣١٨
مروج الذهب	المسعودي	دار الرجاء ببغداد ١٩٣٨ م
المصايد والمطارد	كشاجم	دار اليقظة ببغداد ١٩٥٤ م
المعاني الكبير	ابن قتيبة	حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٦٨
معاهد التنصيص	العباسي	المكتبة التجارية بمصر
معجم البلدان	ياقوت الحموي	
معجم الحيوان	معلوف	
معجم الشعراء	المرزباني	دار إحياء الكتب العربية ١٣٧٩
معجم القبائل العربية	رضا كحالة	
معجم ما استعجم	البكري	لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر ١٩٤٥
معجم مقاييس اللغة	ابن فارس	١٣٦٦
منتهى الطلب	ابن ميمون	ز ١٢٦٣١
الموشح	المرزباني	دار نهضة مصر ١٩٦٥ م
نزهة الألباء في طبقات الأدباء	الأنباري	الكاثوليكية في بيروت ١٩٦٣
نزهة الجليس	الحسيني	
نهاية الأرب	النويري	دار الكتب بمصر ١٣٥١
النوادر	أبو زيد	
نيل المرام	صديق حسن	مطبعة المدني بمصر ١٩٦٢ م
الهفوات النادرة	الصابي	المجمع العلمي العربي بدمشق ١٣٨٧

ثبت موضوعات الكتاب

صفحة